

892.709
T137uA

اسعد طلس
دكتور بالآداب من جامعة بوردو
استاذ العربية في تجهيز دمشق

ابراهيم اليكالي
ليسانسيه بالآداب من جامعة باريز
استاذ العربية في المدرسة العلمانية بدمشق

M.TARAZI HI

الأدباء العشرة

زهير بن ابي سلمى - علي بن ابي طالب - حسان بن ثابت
الاخطل - ابن المقفع - الشريف الرضي - البحتري
ابو فراس - ابن الرومي - شوقي

68780

حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين

منشورات المكتبة العمومية بدمشق
مطبعة الثبات بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله وشكراً وبعد : فهذه البحاث ادبية عن عشرة من اعلام ادبنا العربي في مختلف عصوره ، نقدمها لتكون مرجعاً للمتأدبين وعوناً لطلاب البكالوريا في دراستهم . ولسنا ندّعي اننا جئنا بشيء جديد في هذه الدراسات وانما هي دروس ومحاضرات كنا اعددناها لطلابنا واعتزمنا نشرها خدمة للأدب وطلابه .

والله سبحانه المسؤول ان يسدّد خطانا لرفعة ادبنا ولغتنا .

دمشق في ٢٤ — ١١ — ٤٠

المؤلفان

التوطئة

الشعر في العصر الجاهلي :

الصحراء هي كل شيء في حيـاة البدوي ؛ فنظام معيشته ، وطرق تفكيره ، وانواع شعوره ، وما اعتاده من كريم الخصال وذميم العادات ، وما اوجـده من نظم في الحيـاة ومثل في الاخلاق مبعثه الصحراء . فهي التي جعلت العربي شجاعاً متفانياً في شجاعته ، فخوراً الى ابعد غايات الفخر ، معجباً بعصبيته وقومه كل الاعجاب حتى خص نفسه بمزايا عالية ليست - كما يعتقد - موجودة في غيره من الأمم . والصحراء منبع لكثير من الفضائل التي يعتز بهـا العربي ويفاخر بها في كل مكان وزمان ، كما انهـا مصدر وحيه الشعري والهامه .

هذه الحياة الفطرية بما فيها من بساطة وسذاجة ، وبعد عن التكلف والتعقيد ، انما نجد صورتها في الشعر الجاهلي ، فقد اودع الشاعر الجاهلي في شعره كل ما كان يجيش في صدره من آمال وعواطف وما كان يقع في حسه من مظاهر المحيط ، وما اوحته اليه تجاربه ومشاهداته في حياته . وقديماً قالوا « الشعر ديوان العرب »

قد يعجب القارئ لكثرة ماروي عن العرب من الشعر كأن الشعر طبيعة من طبائعهم وسجية من سجاياهم فقد عم جميع الطبقات ، فقاله منهم الرجال والنساء والصبيان والاشراف والصعاليك وقطاع الطرق وكان غرضهم فيه التعبير عما يجول بالخواطر وما تفيض به الصدور من مختلف الأحاسيس والعواطف . ويحق لنا التساؤل عن مبعث هذه الموهبة الفنية عند العرب التي جعلتهم اغنى الامم بالشعر وانا نجد الى جانب الحس المرهف والقريحة الصافية اللذين طبعت عليهما النفسية العربية ، اثر الصحراء التي تجعل الطبائع الانسانية تحس بوجودها في هذا

الفضاء الواسع ذي الاشكال المتشابهة فتجعلها اشد التهاباً واكثر تأثراً مما يجعل النفوس صافية كصفاء الجو فيها وهي التي تخلق الفكر الساذج كسذاجة العيش فيها وهي التي تفرض البساطة في التعبير عند العربي كبساطة الاوضاع فيها .

أما اللغة العربية - التي هي اداة التعبير عند الشاعر الجاهلي والتي تتمتع بمزايا ليست عند مثيلاتها من اللغات السامية - فقد كان لها اثر في اعانة الشاعر الجاهلي على الاتيان بهذا الكلام البليغ الرائع. وهي التي - بما حوته من دقة التعبير واساليب الكنايات وكثرة الترادف - سهلت امام الشاعر الجاهلي طرق النظم والتصرف بافانين القول .

الى جانب هذه المزايا التي ذكرنا يعيب النقاد والمؤرخون المحدثون من العرب والفرنجة على الشعر الجاهلي امرين :

(اولهما) فقدان الوحدة الادبية بين اجزاء القصيدة و (ثانيهما) قلة التنوع في المعاني الشعرية.

اما فقدان الوحدة الادبية فانه بالرغم من وحدة الاسلوب والتعبير نجد الافكار عند الشاعر الجاهلي ليست مرتبطة ارتباطاً منطقياً بحيث اننا اذا عمدنا الى احدى المعلقات او غيرها من عيون الشعر الجاهلي واعملنا فيها التقديم والتأخير ما شعر القارئ بشيء من ذلك. واذا حاولنا ان نفسر هذه الظاهرة لم نر لها من تعليل سوى امرين: (الاول) ان العربي ميال بطبعه الى الايجاز ما استطاع الى ذلك سبيلا، وقد بلغ من شدة حبه للايجاز أن ضمن الجملة القصيرة ضروباً من الحكمة وساق المعاني العقلية الكثيرة في الالفاظ اليسيرة حتى جعل البيت الواحد قائماً بنفسه (الثاني) ان العقلية العربية فطرت على النظر الى الاشياء نظرة جزئية محدودة لا كلية شاملة .

. اما قلة التنوع في الشعر الجاهلي فهي نتيجة طبيعية لحياة العرب في البادية وهي التي جعلت الشاعر العربي قليل الميل الى التحول، شديد الاعجاب بالنفس، غير مستقر الفكر،

قليل التعمق فيما يريد بحثه او مناقشته الا اننا لانجد عنده تلك الجرأة الفكرية التي تدعو صاحبها الى التعمق في ضمائر الاشياء والسعي لجلاء اسرار الكون والبحث في امور لاتقع تحت حسه او تجربته . وهذا ماجعل الخيال العربي ضعيفاً لايرى الاشياء الا عن طريق الفطرة البعيدة عن الاستقصاء والبحث .

ومهما يكن من شيء فانه لايحق لنا اطلاق هذا الحكم على كافة شعراء الجاهلية لاننا نجد بين الشعراء الجاهليين جماعة كانت تعمل ما استطاعت على توحيد اجزاء القصيدة وتسلسل الافكار فيها كما كانت تتعمق في البحث والسعي لجلاء اسرار الكون ما اتاحت لها بيئتها الى ذلك سبيلاً ، نعني باولئك النفر أوس بن حجر ومدرسته وعلى رأسها تلميذه زهير فاننا نرى أنه اكثر شعراء الجاهلية تنسيقاً لافكاره وترتيباً لصوره وقديماً قالوا انه كان يصنع شعره صنعاً وانه كان يمكث في القصيدة حولاً كاملاً وكذلك كان ابنه كعب وراويته الحطيئة .

زهير بن ابي سلمى

٦٠٩

[المتوفي سنة ٦٠٩ م]

نسبه — نشأته — اخلاقه من شعره — وفاته — شعره — الفن في شعره — اغراضه الشعرية — نسبه — مديحه — حكمه هجاؤه — تحذيره — ملاحظات عامة — المعلقة — مختارات من شعره

نسبه :

هو زهير بن أبي سُلمى (١) ربيعة بن رياح ، ويكاد الرواة يجمعون على أنه مزني ولكنه سكن في غطفان طويلاً ، اما ابن قتيبة فيقول : « والناس ينسبونه الى مُزينة وانما نسبه في غطفان (٢) » ويقول الدكتور طه حسين : « ولعلنا نلم بخلاصة ما يقول الرواة عن زهير حين نقول إنه كان يقيم في غطفان وينسبه بعضهم الى مُزينة ويأبى المحققون الاّ ان يكون غطفانياً قيسياً (٣) » فالاستاذ اذن غير مطمئن الى نسبته ، شاك في اقوال الرواة ، يلمّح الى ان هناك اضطراباً في نسب الشاعر . والحق — فيما نرى — ان احداً من الرواة لم يشك في ان زهيراً مزني اقام في غطفان الاّ ابن قتيبة الذي يتراجع عن شكه فيقول : « وليس لهم (اى لآل زهير) بيت شعر ينتمون فيه الى مُزينة الا بيت كعب بن زهير وهو قوله :

هُمُ الأصلُ مني حَيثُ كُنتُ وإنَّني ... مِنَ المزَنِيين المُصطفين بالكرمْ (٤)

نشأته :

يقول بعض الرواة (٥) ان زهيراً مات قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بسنة ومعلوم ان البعثة كانت سنة ٦١٠ م (٦) ويقولون انه قد عمر طويلاً وهو نفسه يقول في معلقته :

---

(١) ليس في العرب سُلْمى بضم السين الا هذا . (٢) الشعر والشعراء : صفحة ٢٣
(٣) في الادب الجاهلي : ص : ٢٩٩ (٤) الشعر والشعراء : ص : ٢٣ (٥) خزانة الأدب : ج ١ ص : ٣٧٧ (٦) حياة محمد لهيكل ص : ٩٥ (٧) رسالة الغفران : ج ١ ص ٣١

سَئِمتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمانينَ حَوْلاً - لا أبالَكَ - يَسأَمِ

ويذكر له المعري في رسالة الغفران هذا البيت :

أَلَمْ تَرَنِي عُمِّرْتُ تِسعينَ حِجَّةً وَعشراً تِباعاً عِشتُها وَثَمانِيا

فعلى هذا يمكننا ان نقول انه ولد في اوائل القرن السادس الميلادي .

اما سيرة الرجل فما نقل الرواة لنا عنه الاّ القليل ولكننا نستطيع ان نستخلص من ديوانه شيئاً عن حياته فنقول : عاش زهير في اخواله الغطفانيين وكان يتكسب بشعره فمدح سنان ابن ابي حارثة المرّي بقصيدته التي مطلعها :

أَمِن آلِ لَيلى عَرَّفَتِ الطلولاَ بذي حُرُضٍ ماثِلاتٍ مُثولا (١)

ومدح ابنه هرماً وانقطع اليه لما كان من امره في تحمل الديات يوم حرب داحس والغبراء(٢) وقد اخلص زهير في حبه لهرم لما رآه منه من كرم نفس وطيب خلق فأخذ يقول فيه القصائد الغرّ وقد وصلنا من قصائده نحو من ستة عشر قصيدة فيها نحو خمسمائة بيت ، ثمانية من هذه القصائد في هرم وآله ولا نكاد نجد في مدائحه قصيدة في غيرهم الاّ القصيدة التي اولها :

---

(١) شرح ديوان زهير للشنتمري ص ٩٦ . ذو حرض : كمنق موضع او وادٍ عند النقرة وموضع عند احد .

(٢) قال ابو عبيدة : حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ولدي بغيض بن ريث بن غطفان وكان السبب في هذه الحرب ان قيس بن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس (فرس قيس) والغبراء (فرس حمل) وتواضعا الرهان على مائة بعير وجعلا المسافة مائة غلوة (وهي رمية سهم) ثم قادا الفرسين الى رأس الحلبة بعد ان اضمروهما اربعين ليلة وكان في منتهى الهدف شعاب كثيرة فأكمن حمل بن بدر في تلك الشعاب اناساً امرهم إن رأوا داحساً السابق ان يردّوه عن الهدف فكان ما امرهم ونشبت الحرب بين عبس وذبيان لأجل ذلك وتطاحنا حتى كادا ان يتفانيا الى ان تم الصلح على يدي سنان ابن هرم والحارث بن عوف

صحا القلبُ عنْ سلمى وأقصرَ باطلهْ وعُرّيَ أفراسُ الصبا ورواحلهْ (١)

فانه قالها في مدح الأمير حصن بن حذيفة بن بدر الذبياني .

وسهل علينا تعليل هذا الانقطاع فقد كان زهير عربياً كريماً ، عاقلاً اضطرته الحاجة الى التكسب بشعره فقصره على هرم حتى حلف لايمدحه زهير الاّ اعطاه ولايسأله الاّ اعطاه ولايسلم عليه الاّ اعطاه عبداً او وليدة اوفرساً فصار زهير يستحي منه فكان اذا رآه في ملأ قال : انعموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت .

***

وفاته :

توفي زهير في آخر سنيّ الجاهلية فقد روى صاحب الأغاني وصاحب خزانة الأدب ان زهيراً كان نظاراً منوقياً وانه رأى في منامه آتياً اتاه فحمله الى السماء حتى كاد يمسها بيده ثم تركه فهوى الى الارض فلما احتضر قص رؤياه على ولده وقال : اني لاشك انه كائن من خبر السماء بعدي ، فان كان فتمسكوا به وسارعوا اليه (٢) ويذكر ابو العلاء المعري هذه القصة فيقول على لسان زهير « كانت نفسي من الباطل نفوراً ، فصادت ملكاً غفوراً ، وكنت مؤمناً بالله العظيم ، ورأيت فيما يرى النائم حبلا نزل من السماء فمن تعلقّ به من سكان الأرض سلم ، فعلمت أنه امر من الله فأوصيت بنيّ وقلت لهم عند الموت : إن قام قائم يدعوكم الى عبادة الله فأطيعوه »(٣)

---

(١) اقصر : كفّ الباطل : اللهو . عري افراس الصبا : كناية عن ترك اللهو والصبوة . (شرح ديوان زهير . ص : ٢٤

(٢) الاغاني : ج ١٥ ص : ١٤٩ - ١٥٠ ، خزانة الادب ج ١ ص ٣٧٧

(٣) رسالة الغفران : ج ١ ص ٣١

وقد كذب الدكتور طه حسين هذه القصة فقال : « والرواة يتحدثون عن زهير بعد هذا بطائفة من الأحاديث لا شك في انها منتحلة متكلفة فهم يزعمون انه تنبأ بظهور الاسلام قبل بعثة النبي واوصى ابنيه كعباً وبُجيراً ان يُسلما (١) » فانت ترى ان صاحب الأدب الجاهلي ينكر هذه القصة وامثالها ويعلل رواية ابي العلاء اياها بانه اراد من ذلك ان يسخر من علماء عصره كابن القارح وغيره ويهزأ بهم لاعتقادهم مثل هذه الاقاصيص وليس في عبارة ابي العلاء ما يشعر بشيء من هذا كما ترى.

ثم ان هذه القصة تكذب ما يروى من ان النبي (صلى الله عليه وسلم) نظر الى زهير وله مائة سنة فقال : اللهم اعذني من شيطانه ! فما لاك بيتاً حتى مات (٢)

اخلاقه من شعره :

كان زهير شهما ، كريماً ، لا يمدح احداً الا بما فيه ولا يقول الا ما يعرفه عنه كما شهد بذلك عمر (رضه) فقال: « كان لا يعاظل (٣) بين القول ولا يتتبع حوشي الكلام ولا يمدح الرجل الا بما فيه . (٤) » وكان مخلصاً وفياً فقد اخلص لهرم وآله كما قلنا ، فكان ينافح عنهم ويهجو من يمسهم بسوء وهمزيته التي اولها (٥) :

عَفا مِنْ آلِ فاطِمة الجواءُ فَيمنٌ فالقوادِمُ فالحساءُ (٦)

---

(١) في الأدب الجاهلي : ص : ٢٩٩

(٢) الاغاني ج ٩ : ص : ١٤٨

(٣) يقول الزمخشري في الاساس : كان زهير لا يعاظل بين القول اي لا يكرره . وفلان يعاظل في الكلام اذا اتى بالرجيع من القول وقيل هو التعقيد والتعويص

(٤) الشعر والشعراء : ص ٢٣

(٥) الديوان ص : ٦٤

(٦) الجواء واليمن والقوادم والحساء : مواضع في بلاد غطفان

قالها في هجاء آل حصن لأنهم اساؤوا الى رجل من آل هرم. وكان زهير رزيناً هادئاً يجنح للسلم ويكره الدماء كما يدل على ذلك ما يعثر عليه قارئ معلقته من دعوة جريئة للسلام ونصح بسلوك سبيل الخير والحكمة والحق. وكان وراء هذا مترويا في قول الشعر يقول القصيدة فلا يظهرها الا بعد حول ليعيد النظر فيها ولئلا يظهر للناس ما قد يؤخذ عليه. قال الجاحظ: «ومن شعراء العرب من يدع القصيدة تمكث عنده حولاً كريتاً (كاملاً) وزمناً طويلاً، يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله زماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره إشفاقاً على ادبه، واحرازاً لما خوله الله من نعمته، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات . . . وكان زهير بن ابي سُلمى يسمي كبار قصائده الحوليات . . . وكان الأصمعي يقول: زهير بن ابي سُلمى والحطيئة واشباههما عبيد الشعر (١)، وكان زهير معجباً بشاعريته، مؤمناً بقوة لسانه يحذّر الناس ان يقول فيهم قولة تتناقلها العرب ابد الآباد:

أوْلى لَهم ثمّ أولى ان تصيبهمُ ... مني بَوَاقِرُ لا تُبقى ولا تَذَرُ

وأن يُعالَ رُكبانُ المطيّ بهم ... بكلّ قافِيةٍ شَنعاءَ تَشتهرُ (٢)

وقال ايضاً: لَيأتِينكَ مني مَنطقٌ قَذِعٌ ... باقٍ كما دنسَ القبطيةَ الوَدَكُ (٣)

ومن اخلاقه التي نلمحها في شعره ان هذا الرجل الحكيم الرزين، الكاره للشر.

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٢١ - ٢٥

(٢) الديوان: ص: ٥٠. اولى لهم: كلمة تهديد معناه وليهم الشر. البواقر: جمع باقرة الداهية لا تبقى ولا تذر من اعراضهم بقية. وان يعال . . . اي ان تحدى المطى بقصائد الهجو فيهم.

(٣) قذع: القذع اقبح الشتم والهجاء. باق: لا يفنى. القبطية (بضم القاف): ثياب من كتان ابيض تعمل في مصر وهي منسوبة الى القبط (بكسر القاف) على غير قياس وربما قيل قبطية (بالكسر)

ربما ثارت حفيظته فيقذف بالقول اللاذع الفاحش . من ذلك قوله في هجاء قوم غضبوه عبداً له اسمه يسار :

تعلّم أن شرّ الناسِ حيٌّ يُنادَى في شِعارهمُ يَسارُ (١)

* * *

ومما يلاحظ في شعره من اخلاقه أنه لم يقل في قصيدة اكثر من بيتين او ثلاثة في الغزل ، وربما قال القصيدة الطويلة لا ذكر فيها للمرأة ابداً كما أنه ما وصف الخمر الاّ في بيتين اثنين :

وَقَدْ أَغدو عَلَى ثُبةٍ كِرَامٍ نَشاوَى واجدينَ لِما نَشاءُ
يَجرّونَ البرودَ وَقَد تَمشّت حُمَيّا الكأسِ فيهم والغناءُ

شعره :

تغلب على شعر زهير نزعة حكمية تتجلى في قصائده وبخاصة في معلقته فمن اين جاءته هذه النزعة وما هي العوامل التي اثرّت فيه ؟

قبل ان نقرّر شيئاً يحسن بنا أن نقول : إن النفوس معادن ، منها الذهب الابريز ومنها الحديد ومنها الصُفر ومنها خبث الحديد وشتّان ما بين الابريز والخبث ، وزهير كان صافي النفس تخرج على يدي أوس بن حَجَر شاعر مضر وكان أوس مشهوراً بالحضّ على المكارم والدعوة الى محاسن الاخلاق وهو القائل :

---

(١) الديوان : ص : ٤٨

(٢) رسالة الغفران : ج ١ ص ٣٢ . والديوان يروي البيت الثاني هكذا :

لَهمْ راحٌ وراووقٌ وَمِسكٌ تُعلُّ بِهِ جلودُهم وماءُ

الثبة : الجماعة . نشاوى : سُكارى . الحميّا : سَورة الكأس وشدتها . الراووق : مصفاة الخمر . تعلّ به الجلود : تطيّب مرة بعد مرة .

تَرَكْتُ الخبيثَ لَمْ أشارِكْ ولَمْ أَدُقْ ... ولكنْ أَعفُّ اللهُ مالي ومَطعمي
فقومي وأعدائي يظنونَ أنني ... متى يحدثوا امثالَها أتكلمِ (١)

وقال ايضاً :

ورِثْنا المجدَ عن آباءِ صدْقٍ ... أَساأنا في ديارِهمَ الصنيعا
اذا الحسبُ الرفيعُ تَوارَثَتهُ ... بُناةُ السوءِ اوْشكَ أن يَضيعا

وله القصيدة الرائعة المملوءة بالحكم والتي أولها :

أَيتُها النفسُ أَجملي جزَعا ... إنَّ الذي تَكرَهينَ قَدْ وقعا

ومن غرر قصائد أوس قصيدته اللاميّة المشهورة التي يقول فيها :

ولاَ أَعتبُ ابْنَ العمِ إنْ كانَ ظالماً ... وأَغفرُ منهُ الجهلَ إنْ كانَ أجهلاَ
وإنْ قالَ لي ماذا تَرَى يستشيرُني ... يَجدْني إبنُ عمي مخلطَ الامرِ مزيلا
أقيمُ بدارِ الحزْمِ مادامَ حزْمُها ... وأجرَى اذا حالَتْ بأن تتحوَّلا
وأستبدلُ الأمرَ القوى بغيرِهِ ... اذا عقدُ مأفونِ الرِّجالِ تحللاَ (٢)

وقال ابو ذؤيب : «كان أوس عاقلاً في شعره ، كثير الوصف لمكارم الاخلاق ... وسبق الى دقيق المعاني والى امثال كثيرة .» (٣)

وبعد فلا شك في أن زهيراً قد تأثر باستاذه لافي طريقته الشعرية فحسب كما يقول الاستاذ طه حسين بل في اخلاقه وفي حكمه(٤) . هذا الى الحادث العظيم الذي وقع امام عينيه . الحادث الذي أشاب الصغير وأفنى الكبير وهو حرب داحس والغبراء التي

---

(١) لم أدُق : لم أدنُ . يظنّون : يوقنون وليس من ظن الشك . قال الله تعالى : « وظنّوا أنْ لا ملجأ من الله الا إليه » أي ايقنوا .

(٢) شعراء النصرانية ج ١ ص ٤٩٢-٤٩٥ المخلط : كمنبر من يخالط الاءمور ويجربها . المزيل : كمنبر الرجل الكيّس اللطيف (٣) الشعر والشعراء ص: ٢٥ (٤) الادب الجاهلي ص : ٢٨٦

اهرقت فيها الدماء وهتكت الاعراض ، يطعن ابن العم ابن عمه بيده وقلبه يقطر أسي وحزناً... كل هذا مجتمعاً او متفرقاً يكفي لتعليل مانجده في شعر زهير من كرهه للشر واصحابه وميله الى الحكمة وقولها . وهنا وقفة صغيرة نريد ان نستطرد منها - في كثير من التروي - الى خبر قصة الحلم الذي رأى فيه زهير أن حادثاً من السماء سيكون وأن حبلاً تدلى منها فمن تمسك به نجا ومن ضل عنه هوى فنحن نرى - بعد ان عرفنا من نفسية زهير ماعرفناه - أنه كان كثير التأمل في حالة قومه وما هم عليه من حطة في الاخلاق واضطراب في حياتهم الاجتماعية، هذا الى ما كانت عليه البيئة العربية في اواخر العصر الجاهلي من اضطراب فكري يدفعها الى انتظار حدث عظيم ينشلها مما هي فيه من ضلالات وانحلال... كل هذا يجعلنا ننظر بشيء من الاعتبار الى القصص والاخبار التي رويت عن اوس بن حجر ومريده زهير وغيرهما من عقلاء الجاهلية .

الفهم في شعره :

يلاحظ المطالع لشعر زهير ظاهرة فنية واضحة هي اكثاره من التشبيه الحسي واعتماده على المادة في صوره الفنية ما أمكنه ذلك ويقول الدكتور طه حسين في أوس استاذ زهير : « إن اوساً شاعر حسي مادي - ان صح هذا التعبير - كأنه يشعر بحسه، كأنه يشعر بعينيه وأذنيه ويديه او قل كأن ملكة الخيال لم تودع منه حيث اودعت من الآخرين من وراء الحس وانما اودعت الحواس نفسها او قل - إن لم يكن بد من التدقيق العلمي - ان ملكة الخيال عند أوس كانت شديدة الاتصال بحسه المادي ، قليلة الاستقلال عن هذا الحس كأنها لم تكن تعمل شيئاً وحدها . لم تكن تخضع الصور التي ينقلها الحس اليها الى شيء من التجويد والتصفية والتنقيح ثم التأليف ، انما كانت تتخذ الحواس نفسها وسيلة

الى هذا التأليف...ولا ينبغي ان يخدعك هذا كله فتظن ان حواس صاحبنا كانت ادوات حاكية تحس الطبيعة فتنقلها وتصورها كما هوشأن ادوات التصوير او شأن (الفونوغراف) وانما كان أوس قوي الحس، شديد اتصال الخيال بالحواس، شديد الاعتماد على حواسه فيما يؤلف من الصور الشعرية ولكنه، وهنا ميزة اخرى له ولتلاميذه، كان يؤلف هذه الصور تأليفاً ويعمل في هذا التأليف ويجد فيه مشقةً وعناءً[1] ..... وانت حين تقرأ شعر زهير مضطر الى ان تلاحظ انه كاستاذه شديد اتصال الخيال بالحس، شديد الاعتماد على الحواس في اخراج صوره الشعرية، وهو احرص من استاذه على هذا لأنه يتخذ هذا الاسلوب الشعري طريقاً الى وصف المعاني وعرضها عليك، وهو كاستاذه متأن حريص على الأناة، يتخذ الشعر فناً وصناعةً ولا يندفع فيه مع سجيته واثر زهير في هذه النحو اظهر من اثر اوس لأن لغته أيسر من لغة أوس.. ومن هنا كثر الاستشهاد بشعر زهير في البيان فاستشهدوا بقوله:

صَحا القلبُ عن سلمى وأقصرَ باطله ... وعُرِّيَ افراسُ الصبا ورواحله[2]

والحق ان مايقوله الاستاذ صحيح فان زهيراً ومدرسته التي يتزعمها أوس والتي تخرج منها كعب بن زهير والحطيئة وجميل وكثيرٌ، ان هذه المدرسة تعتمد على الحس في صورها الفنية اعتماداً لانجده عند غيرها من الشعراء، واليك امثلة من شعر زهير:

وَدارَ لها بالرَّقمتين كأنها ... مَراجِعُ وَشمٍ في نواشرِ معصم

بها العينُ والآرامُ يمشين خلفةً ... وأطلاؤها ينهضن من كلِّ مجثم

أثافيَ سُفعاً في مُعرَّسِ مِرجَلٍ ... ونؤياً كجذم الحوضِ لم يتثلم

الادب الجاهلي ص ٢٨٦ - ٢٨٧

(٢) الادب الجاهلي ص: ٣٠٠ - ٣٠١

تبصرْ خليلي ترى هل من ظعائنٍ تحملنَ بالعلياءِ من فوقِ جرثمِ
علونَ بأنماطٍ عتاقٍ وكلةٍ ورادٍ حواشيها مشاكهةُ الدمِ
وفيهنَّ ملهى للطيفِ ومنظرٌ أنيقٌ لعينِ الناظرِ المتوسمِ
كأنَّ فتاتَ العهنِ في كلِّ منزلٍ نزلنَ به ، حبُّ الفنا لم يحطمِ

فهذه كلها صور حسيّة تمر امام القاريء فتملأ نفسه وعينه ، وتصوّر له ما اراد الشاعر اجمل تصوير . وقال ايضاً وهو من التصوير الرائع الجميل :

تنازعها المها شبهاً وَدُرْ م النُّحورِ وشاكهتْ فيها الظباءُ
فأماً ما فوقَ العقدِ منها فمنْ أدماءَ مرتعها الخلاءُ
وأماً المقلتانِ فمنْ مهاةٍ وللدُّرِ الملاحةُ والصفاءُ (١)

فقد شبهها بثلاث تشبيهات بديعة في بيت واحد كلها حسٌ ومادة . ثم فصل في البيتين التاليين .

ومن قوله الخلاّب الرائع الذي يكاد المرء يراه ويحسه يصف القطاة المطاردة :

كأنَّها منْ قطا الأجبابِ حلأها وردٌ وأفردَ عنها أختها الشركُ (٢)

---

(١) الديوان: ص٦٦ المها: البقر الوحشي . شاكهت: شابهت . الادماء: الظبية البيضاء . الخلاء: الموضع الخالي . المقلتان: العينان، فقد شبه المرأة بالبقرة الوحشية والظبية: اي ان فيها من المها شبهاً وهو حسن العينين وفيها من الدر شبه ، وهو صفاؤه وملاحته . وفيها من الظبية شبه، وهو طول العنق .

(٢) القطا: جمع قطاة . الاجباب: جمع جب وهو كل بئر لم تطو « اي لم تُبْنَ » حلأها: طردها عن الماء . الورد: القوم يردون الماء . والمعنى ان القطاة نظرت الى القوم يردون الماء فامتنعت ورجعت مسرعةً واخذت اختها بالشرك ففزعت لذلك فكان اسرع لها .

جونيةٌ كحصاةِ القسمِ مرتعُها ... بالسيِّ ما تُنبتُ القفعاءُ والحسكُ (١)

أهوى لها أسفعُ الخدّين مطرّقٌ ... ريشِ القوادمِ لم يُنصبْ لهُ الشبكُ (٢)

لا شيءَ أسرعُ منها وهي طيبةٌ ... نفساً بما سوفَ يُنجيها وتُتركُ (٣)

دونَ السماءِ وفوقَ الأرضِ قدرُهما ... عندَ الذُّنابى فلا فوتٌ ولا دركُ (٤)

عندَ الذُّنابى لها صوتٌ وأزملةٌ ... يكادُ يخطفها طوراً وتهتلكُ (٥)

حتى إذا ما هوت كفُّ الوليدِ لها ... طارت وفي كفهِ من ريشها بتكُ (٦)

---

(١) جونية : في لونها سواد والقطا الجوني اشد القطا طيراناً . حصاة القسم : حصاة اذا قلّ الماء عند المسافرين وضعوها في القدح وصبّوا عليها الماء حتى يغمرها ليقسم بينهم بالسوية ولا يتغابنوا ولا تكون تلك الحصاة الا ملساء مجتمعة. شبّه بها القطاة لا كتنازها وشدتها . السيّ : اسم مكان . القفعاء : اقلة من خير البقول . الحسك : ثمر النفل « والنفل : نبت من احرار البقول زهره اصفر ، طيب الرائحة تسمن عليه الحيوانات »

(٢) الاسفع : الباز الاسود يضرب لونه الى الحمرة . مطرّق: اي ريشه بعضه على بعض . القوادم: ريش مقدم الجناح « والمعنى » انقضّ على هذه القطاة باز اسفع الخدين ليس بمنتشر الريش وحشي لم يصطد ولم يذلل .

(٣) والمعنى : لايكون شيء اسرع من هذه القطاة وهي طيبة النفس واثقة بما عندها من شدة الطيران الذي ينجيها من الصقر وهي تترك في طيرانها ، اي لا تُخرج اقصاه لثقتها بنفسها في ان الصقر لا يدركها .

(٤) الذنابي : الذنب . «والمعنى» : لم يخلقا في السماء فيغيبا عن العين ولم يصيرا على الارض فهما بين هذين . قوله فلا فوت ولا درك : يريد به انها لم تفته فوتاً بعيداً ولم يدركها فيصطادها فهي بين الفوت والدرك .

(٥) الازملة : اختلاط الصوت . تهتلك : تجتهد في الطيران وتستخرج اقصاه . « و معنى »: يقول دنا الصقر منها حتى كاد ان يأخذها فهي تجتهد في طيرانها .

(٦) البتك : القطع . « والمعنى» : وقعت هذه القطاة بموضع لمّا اخطأها الصقر فهوت كف غلام ليأخذها فأفلتته وفي كفه قطع من ريشها فجدت في الطير .

ثُمَّ استمرَّت إلى الوادي فألجأها ... منه وقد طمعَ الأظفارُ والحنكُ (١)

حتى أستغاثت بماءٍ لا رشاءَ لهُ ... من الأباطح في حافاته البركُ (٢)

مُكللٌ بأصولِ النبتِ تنسجهُ ... ريحٌ خريقٌ لضاحي مائهِ حُبُكُ (٣)

كما استغاثَ بسيءٍ فزٌّ غيطلةٍ ... خافَ العيونَ فلم يُنظر بهِ الحشكُ (٤)

فزَلَّ عنها ووافى رأسَ مرقبةٍ ... كمنصبِ العترِ دمّى رأسَهُ النسكُ (٥)

ومما تراه في شعره حسن تصويره الاشياء وهذا قريب الاتصال بما سبق فزهير يجيد التصوير في مختصر من القول العذب · انظر اليه يصور الشقاق بين عبسٍ وذبيان فيقول :

تداركتما عبساً وذبيانَ بعدَ ما ... تفانوا ودقّوا بينهم عطرَ منشمِ

---

(١) الاظفار : مخالب الصقر ، والحنك : المنقار . « والمعنى » عاودها الصقر فنهضت الى الوادي فانجاها من الصقر لان فيه شجراً فلجأت اليه واعتصمت به وقد كان الصقر طمع في صيدها .

(٢) الرشاء : حبل الدلو . الاباطح : مفردها ابطح : وهو المنبطح من الارض . البرك : جمع بركة « بضم الباء» طائر مائي ابيض او الضفدعة . « والمعنى » : لم تزل القطاة كما وصف حتى اتت ماء بأبطح ظاهر على وجه الارض قد انتشرت في حافاته الضفادع .

(٣) تنسجه : تمر عليه . الخريق : الشديدة . الضاحي : ما برز للشمس . الحبك : طرائق الماء واحدها حبيك . « والمعنى » : هذا الماء دائم لاينقطع قد كلله النبت واذا مرت عليه الرياح علته طرائق لكثرته وانه لا يقيه من الريح شيء .

(٤) السيء : ما يكون في الضرع من اللبن قبل نزول الدرّة . الفز : ولد البقرة وهي الغيطلة . الحشك : دفع الدرة وحفلها . « والمعنى » استغاثت القطاة بهذا الماء كما استغاث ابن البقرة الذي خاف ان تراه العيون فتعجل ما في الضرع من السيء ولم ينتظر اجتماع الدّرة .

(٥) زلّ عنها : اخطأها . اوفى : اشرف . المرقبة : المكان المرتفع . المنصب : الحجر الذي يعتر عليه اي يذبح . والعتر : القربان المذبوح في رجب . النسك : جمع نسيكة : وهو ما ذبح تعبداً ونسكا . « والمعنى » : زلّ الصقر عن القطاة وأشرف على رأس مكان مرتفع وهو كحجر العتر المدمّى ، اشارة الى كثرة ما يصيد فهو مخضوب بدماء الصيد .

فقد أتى في نصف بيت بجماع مايقال في موطن كهذا . ومثله قوله :

سَعى سَاعِيا غَيظِ بنِ مُرَّةَ بَعدَ مَا تَبزَّلَ مَا بَينَ العشيرَةِ بالدَّمِ

وهو اول من صور الشجاع البطل احسن تصوير بقوله :

لَدى أَسدٍ شَاكِي السلاحِ مُقذَّفٍ لَهُ لِبدٌ أَظفارُهُ لَمْ تُقلَّمِ

وقد اخذ الكناية بالاظفار عن السلاح من استاذه أوس حيث يقول :

لَعمرُكَ إنا والأَحاليفَ هؤُلا لفي حِقبةٍ أَظفارُ هَا لم تُقلَّمِ

وانظر إليه يصور الحرب اذ يقول :

إِذا لَقحتْ حَرْبٌ عَوانٌ مُضرَّةٌ ضَروسٌ تهرُّ الناسَ أَنْيابُها عُصلُ

فقد شبه الحرب بالبغلة الشموس حملت ولقحت وكنى باللقاح عن استعارها وشدتها ثم وصفها بأنها مضرة ضروس وهي البغلة العضوض السيئة الخلق ثم استمر في صورته فقال تهرّ الناس اي تصيرّهم يهرونها اي يكرهونها ثم وصف انياب البغلة بأنها عُصل اي قوية شديدة معوّجة كل هذا في بيت واحد لا تتجاوز مفرداته العشر .

وانظر الى زهير يجمع لك شروط الحرب واركانها بقول ساذج بسيط مانخال أن احداً ينكره عليه وهو قوله :

مَتى يَشتجِرِ قَومٌ تَقل سَرَواتُهم هُمُ بَيننا ، فَهُمْ رِضى وَهُم عَدلُ

هُمُ جَرّدوا أَحكامَ كلّ مُضلةٍ من العقمِ لا يُلفى لأَمثالِها فَصلُ

بِعزْمةِ مأمورٍ مُطيعٍ وآمرٍ مَطاعٍ فلا يُلفى لحزمِهمُ مِثلُ

يقول : اذا حدث مامن شأنه ايقاد نار الحرب فاننا لانثيرها ساعتئذٍ ولكنا نلجأ الى سراة القوم فلعلنا نصل الى ما نروم بالحديث معهم دون إراقة الدماء ، وقد كرر هذا المعنى غير مرة في قصائده . ثم يقول : فان كانت الحرب لجأنا الى من خبر الحرب خبر

اختبار يعني انها ليست في القوة والعدد فقط وانما هي خبرة وخديعة فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بحكمتها وحنكتها. ثم يقول: اذا ما اشار علينا هذا الخبير برأي نفذناه فالرئيس منا مطاع فيما يأمر به والمأمور مطيع طاعة عمياء فهذه الابيات فيما نرى جماع للحروب وقوانينها. واستمع اليه يصور المثل الاعلى في الحياة البدوية الجاهلية خير تصوير فيقول:

إذا فزِعوا طاروا إلى مُستغيثهمْ ... طوالَ الرماحِ لا ضعافٌ ولا عُزلُ
بخيلٍ عليها جنّةٌ عبقريةٌ ... جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا
وإن يُقتلوا فيُشتفى بدمائهمْ ... وكانوا قديماً من مَناياهم القتلُ
على مُكثريهم رِزقُ من يعتريهمُ ... وعند المقلين السماحة والبذْلُ
وإن جئتهم ألفيتَ حولَ بيوتهمْ ... مجالسَ قد يُشفى بأحلامها الجهلُ (١)

اغراض الشعرية «النسيب»:

لاحظنا فيما سبق ان زهيراً لم يكن مسرفاً في قول النسيب والغزل ولعل السبب ما رأيت من روحه الحكيمة الزاهدة الهادئة، ففي كثير من قصائده لاتجد ذكر المرأة اصلاً كقصيدته الدالية التي اولها:

غَشيتُ دِياراً بالبقيعِ فثَهمدِ ... دوارسَ قد أقوَين من أمِ مَعبدِ (٢)

---

(١) «المعنى»: اذا اغاثوا مستصرخاً اسرعوا اليه لينصروه؛ وهم قوم يسرعون الى نصرة المظلوم بخيل عليها رجال مثل الجن في الدهاء والقوة وهم خليقون ان ينالوا ماطلبوا ويعلوا على العدو، فاذا قُتلوا رضي القاتل بهم وشفى نفسه بدمائهم لانهم اشراف لايموتون على فراشهم بل يقتلون؛ وهم اجواد يوجبون على مياسيرهم ومقليهم القيام بمن قصدهم؛ وهم اهل عقول واراء سديدة فمن حضر مجالسهم تحلم وشفي من الجهل.

(٢) الديوان: ص ٩٠.

وهي من قصائده الغر تبلغ الخمسين بيتاً . وكذلك قصيدته اليائية التي اولها :

أَلاَ لَيت شِعرِي هَلْ يَرَى الناسُ مَاأَرَى مِنَ الأَمرِ أَوْ يبدُو لَهم مَابدا لِيا(١)

وقد ينصرف في كثير من قصائده عن ذكر المرأة نفسها الى وصف راحلتها ومواطن ركوبها وسيرها وما الى ذلك من تصوير المبارك والمراعي وهذا ما نجده في معلقته فقد قال بيتين في النسيب ثم طفر الى وصف المراعي والناقة كما سترى . وكان اذا ما اضطر الى وصف المرأة مجاراة للعادة قال في ذلك البيت او البيتين كما في قصيدته التي اولها :

صَحا القلبُ عن سَلمى وأَقصرَ باطِلُهْ وعُرِّيَ أَفراسُ الصِبا ورواحِلُه(٢)

وقصيدته الثانية التي اولها :

صَحا القلبُ عن سلمى وقد كادلا يَسلو وأَقفرَ من سلمى التَّعانيق والثقلُ(٣)

ولم يكتف زهير بهذا فقد كاد ان يصرح ببغضه لطريقة النسيب المتبعة وذلك ما يشير اليه تلميحاً في قصيدته التي قال فيها :

دَعْ ذا وعُدّ القول في هَرِمٍ خيرِ البُداةِ وسيّدِ الحَضْرِ(٤)

المديح :

روى ابن سلاّم وابن قتيبة وابو الفرج الاصفهاني عن ابن عباس (رضه) قال : خرجت مع عمر في اول غزاة غزاها فقال لي ليلة : يا بن اعباس أنشدني لشاعر الشعراء

---

(١) الديوان ص : ٨٧
(٢) الديوان ص : ٢٤
(٣) لديوان ص : ١٥
(٤) الذيوان ص : ٦٠

قلت ومن هو يا امير المؤمنين ؟ قال : ابن ابي سُلمى. قلت : وبم صار ذلك ؟ قال: لأنه . . . لا يقول الا ما يعرف ولا يمتدح الرجل الا بما فيه أليس الذي يقول :

إذا إبتدرَتْ قيسُ بنُ عيلانَ غايةً ... من المجدِ ، مَنْ يسبقْ إليها يُسوَّدِ
سَبقتَ اليها كلَّ طلقٍ مُبرِّزٍ ... سبوقٍ الى الغاياتِ غيرِ مُجالِّدِ

انشدني له فانشدته حتى برق الفجر فقال : حسبك الآن ! اقرإ القرآن (١) وكان عمر (رضه) معجباً بمدائح زهير ، وفي كتب الادب كثير من الاخبار التي تقص لنا اعجاب عمر بشعره . ولم يكن عمر وحده معجباً بمديح زهير فهذا الاحنف بن قيس يجيب معاوية حين سأله عن اشعر الشعراء فيقول : زهير . قال معاوية : وكيف ؟ قال : الفي عن المادحين فضول الكلام . قال : مثل ماذا ؟ قال مثل قوله :

فما يكُ من خيرٍ أتَوْهُ فانما ... توارَثَهُ آباءُ آبائهمْ قبلُ (٢)

وقال ابن سلاّم : (ان من قدم زهيراً احتج بانه احسنهم شعراً واجمعهم لكثير من المعاني في قليل من الالفاظ واشدهم مبالغة في المدح واكثرهم امثالاً في شعره) (٣)

والاقدمون من النقاد يكادون يجمعون على ان المديح لزهير وحده وقد اطنب قدامه بن جعفر في كتابه (نقد الشعر) في مديح بيتي زهير :

أخي ثِقةٍ لا يُتلفُ الخمرُ مالَه ... ولكنهُ قد يُهلكُ المالَ نائلُهُ
تَراهُ إذا ما جِئتَهُ مُتهلِّلاً ... كأنكَ تُعطيهِ الذي أنتَ سائلُهُ

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٣ . الاغاني ج ٩ ص ١٤٧ .
(٢) الاغاني : ج ٩ ص ١٤٧
(٣) طبقات الشعراء : ص ١٧

وقد قال « ان هذا ملاك المديح » ومافي وسع احد ان يبذّ هذا القول. وقوله :

لو كان يقعدُ فوق النّجم من كرم ... قومٌ بأولهم أو مجدهم قعدوا
قومٌ سنانٌ ابوهم حين تنسبهم ... طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا
إنسٌ اذا أُمنوا جنّ إذا فزعوا ... مُرزَأون بهاليلٌ إذا جهدوا
محسّدون على ما كان من نعمٍ ... لا ينزع الله عنهم ما له حسدوا(١)

ومهما يكن من شيء فلا بد ان نلاحظ امراً رأيناه اثناء قراءتنا مدائح زهير وهو انه كانت لديه معانٍ محدودة في المديح يسبغها على ممدوحه وهي انه يبدأ بوصفه بالشرف ثم يثني بالكرم ثم يثلث بالعقل والحكمة ثم يأتي بالشجاعة رابعة والبراهين على هذا جد كثيرة واليك بعضها :

قال يمدح حذيفة بن حصن الفزاري :

وأبيضَ فيّاضٍ يداه غمامةٌ ... على معتفيه ما تغبّ فواضلُه
أخي ثقةٍ لا يتلفُ الخمرُ ماله ... ولكنه قد يُهلكُ المالَ نائلُه
دفعتَ بمعروفٍ من القول صائبٍ ... إذا ما أضلّ الناطقين مفاصلُه
عزيزٌ إذا حلّ الحليفان حوله ... بذي لَجَبٍ لجّاتُه وصواهلُه(٢)

---

(١) العمدة ج ١ ص ١٠٥ اولهم : ماضيهم المجيد. فزعوا : اغاثوا. مزرأون : مصابون باموالهم لجودهم. بهاليل : جمع بهلول وهو السيد العظيم.

(٢) الديوان ص : ٣٠. ابيض : رجل نقي من العيوب . وابيض فيّاض كثير العطاء . المعتفون : الطالبون ماعنده . ماتغب: لاتنقطع. فواضله : عطاياه. النائل العطاء :دفعت بمعروف.. الخ . يريد وربّ خصم دفعته بقول معروف في حين ان احداً لم يصب مفصل هذا القول بل اصبته انت بحكمتك فقد اهتديت لما لم يهتد اليه الناطقون بمفاصل الكلام. ذو اللجب : الجيش. اللجّات اختلاط اصوات الناس الصواهل : الخيل. «والمعنى» : انه عزيز في قومه اذا حلّوا حوله نصروه بجيش قوي لجب كان هو على رأسه.

وقوله يمدح هرماً :

أغرُّ أبيضُ فياضٌ يُفكُّ عن ... أيدي العُفاة ومن اعناقها الرِّبقا

وذاك أحزمُهم رأياً إذا نَبَا ... من الحوادثِ غادى الناسَ أو طَرَقا

لَيْثٌ بعثَّرَ يصطادُ الرجالَ إذا ... ما كذَّبَ الليثُ عن أقرانه صَدَقا

لو نالَ حيٌّ من الدنيا بمنزلة ... وسطَ السماء لنالت كفُّهُ الأُفقا (١)

هذان المثالان يؤيدان ما قلنا . وفي الديوان امثلة كثيرة فماذا نعلل هذه الظاهرة ؟ لانستطيع ان نقول ان زهيراً قد قصر مديحه على رجل واحد يرى فيه هذه الصفات فهو يعيد فيها ويكرر فقد رأيت ان القطعة الاولى من قصيدته في الفزاري والثانية من قصيدته في هرم والذي نراه في هذا ما يذكره ابن رشيق في باب المديح من العمدة فقد قال نقلا عن قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر : «لما كانت مزية الناس من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوانات على ما عليه اهل الألباب من الاتفاق في ذلك انما هي : العقل والعفة والعدل والشجاعة ، كان القاصد للمدح بهذه الاربعة مصيباً وبما سواها مخطئاً .(٢)»

ويحسن بنا ونحن في معرض الكلام على مديح زهير ان نقول: إنه ما كان يسبغ المدائح قضايا بلا برهان فيكيل الصفات جُزافاً ولكنه كان يكثر من البراهين على مدّعاه ولسنا نطيل في ذلك فارجع الى معلقته ولاميته المرفوعة وقافيته تر الشواهد.

---

(١) الديوان ص : ٣٩ . العفاة : الاسرى . الربقة : حبل طويل فيه حلق تجعل فيه رؤوس البهم لئلا ترتضع امهاتها فاستعاره للأسرى. غادي : الناس جاءهم وقت الغدوة . الطروق : المجيء بالليل عثّر : اسم موضع . القرن : المبارز في القتال : ان اي الممدوح فى الجرأة والاقدام على الاقران كالليث وإن لم يصدق الليث الحملة فان هذا الممدوح يصدقها .

(٢) العمدة . ج ٢ ص : ١٠٥

حكمه :

كان شعر زهير في سن الشباب كشعر الجاهليين: غزو وقتال ووصف لما يجري فيهما لا يشوب ذلك حكمة ولا مثل ولا عظة، ولكن شعره بعد ان شاب كله حكمة. وخوف ولا غرابة فمن يعش ويرَ ما رآه زهير يرَ عجباً.

من قصائد زهير في شبابه قصيدته اللامية التي يمدح بها سناناً ابا هرم وكان هرم فيما نظن اذ ذاك طفلاً لأنه لم يرد له ذكر في القصيدة ففيها نجد زهيراً يقول وروح الشباب القوية العنيفة بادية في قوله :

اليكَ سِنانُ الغَداةَ الرحيلا ... أَعصى النّهاةَ وأمضي الفُؤولا

فلا تأمني غَزوَ أَفراسه ... بَني وائلٍ وارهبيه جَديلا

وكيف اتقاء امرئٍ لا يؤو ... بُ بالقومِ في الغزو حتى يُطيلا

بِشُعثٍ مُعَطلةٍ كالقِسيّ ... غَزَوْنَ مَخاضاً وأُدْنَ حُوْلا

وفيها يقول :

فلمّا تَبَلجَ ما فوقهُ ... أَناخَ فشنَّ عليه الشَّليلا

وَضاعَفَ مِن فوقها نَثرَةً ... تَرُدّ القَواضبَ عنها فُلولا(١)

---

(١) الديوان ص : ٩٦ . أعصي النهاة .. الخ أعصي من نهاني عن الرحيل وأمضي الفأل ولا اتطير . بنو وائل وجديلة : قبيلتان يحذرها زهير من غزو افراس الممدوح وهو سنان. وكيف اتقاء .. الخ : اي هو مطيل للغزو لأنه يتتبع أقصى اعدائه فلا يؤوب بالقوم من غزوه الا بعد مدة طويلة . بخيل شعث، مغبرة معطلة لا ارسان لها من تعبها تشبه القسي في ضمورها. المخاض: الحوامل . أدين : رددن الى اهلهن . الحول جمع حائل وهو التي لم تحمل. يريد انها القت ما في بطونها من التعب بعد ان غزت وهي حوامل فكانها لا لقائها اولادها لم تحمل . تبلج : اضاء الصبح . الشليل : الدرع. يقول : لما اضاء الصبح اناخ الابل وتأهب للغارة في الصباح فشنّ عليه درعه أي لبسها . النثرة : الدرع السابغة . « والمعنى » ان هذه الدرع مضاعفة ، قوية ترد السيوف مثلمة.

والقصيدة كلها من هذا الشعر الثقيل المتين الجاف الذي يصور روح الفتك في الشباب واذا قارنا بين هذه القصيدة وبين اي قصيدة اخرى قالها في سن الشيخوخة «ولتكن المعلقة» وجدنا فرقاً عظيما بين روح القصيدتين.

والاقدمون الذين قدموا زهيراً في المديح قدموه ايضاً في الحكم، فقد قال ابن سلاّم وابن قتيبة: انه كان اكثرهم حكمة وامثالاً في شعره. وقد يكون هذا صحيحاً لأنه كان يحب ان يستخلص من كل ما يرى او يسمع حكمة او مثلا وكانًا به وقد جاوز الثمانين فابيض شعره واحدودب ظهره وانقلته السنون ورأى شرور الحرب فنادى بالحكمة واكثر من الامثال والعظات في قصائده.

هجاؤه

كان زهير يهدد الذين يسيئون اليه بأن يقول فيهم قولة تجعلهم على ألسنة العرب ابد الدهر «وان يُعللَ ركبان المطي بهم بكل قافية شنعاء تشتهر».

قال ابو عمرو بن العلاء: «خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها». وقال صاحب الوساطة: «فأما الهجو فابلغه ما خرج مخرج التهذر والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض وما قربت معانيه وسهل حفظه واسرع عُلوقه بالقلب ولصوقه بالنفس فأما القذف والافحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن». وقد نقل هذا الكلام ابن رشيق فعقب عليه بقوله: «ومما يدل على صحة ما قاله صاحب الوساطة وحسن ما ذهب اليه اعجاب الحذّاق من العلماء وفرسان الكلام بقول زهير في تشككه وتهذله وتجاهله فيما يعلم:

وما أدْري وسَوْفَ إخالُ أدْري أقومٌ آلُ حِصنٍ أم نساءُ

فان تكنِ النساءُ مُخبآتٍ فَحُقَّ لكلِّ مُحصنةٍ هِداءُ(١)

والحق ان شعر زهير في الهجاء من خير الهجاء واعفه الا ما نجده له في المقطوعة الرائية التي يهجو فيها قوماً اغاروا على غلامه يسار فسلبوه اياه ، فانه قد افحش فيها وجاء بما يحمر له وجه العذراء.

تحذيره :

نعني بهذا العنوان ما قاله زهير يخاطب قوماً بلغه انهم يتحفزون لغزو قومه ولا ندري الاسم الفني الاصطلاحي الذي وضعه القدماء لهذا النوع من الشعر ، فليس هو هجاء محض ولا هو توعد محض وانما هو مزاج بينهما ولم يذكر ابن رشيق في العمدة فيما ذكر من صنوف الشعر شيئاً عن هذا اللهم الا انه ذكر باباً سماه «باب الوعيد والانذار» ولكنه لا يوافق تماماً ما نريد وضعه لهذا الصنف من شعر زهير لأن ابن رشيق يذكر في هذا الباب ان بعض عقلاء الشعراء كانوا يتوعدون بالهجاء ويحذرون من سوء الاحدوثة ولا يمضون القول الا لضرورة لايحسن السكوت معها(٢) وليس هذا ما نجده عند زهير في (تحذيره) الذي نجد فيه هجاءً لطيفاً مشوباً بتوعد ، ممزوجاً ببيان مالقومه من قوة وعدد لا قبل لمن يريد الاغارة على قبيلته بهما. ولزهير في هذا المعنى قصيدتان « احداهما » قالها يحذّر بني تميم ، قد بلغه انهم يريدون غزوَ غطفان واولها :

ألاَ أبلغْ لَديكَ بَني تَميمٍ وقَدْ يَأتِيكَ بالخبرِ الظُنُونُ (٣)

---

(١) الديوان . ص : ٧٢ القوم الرجال دون النساء . الهداء : زفاف العروس الى زوجها. المحصنة ذات الزوج ويريد انهم ان كانوا رجالاً فسيوفون بعهدهم ويبقون على اعراضهم وإن كانوا نساءً فمن شأن النساء الغدر وقلة الوفاء وانما يصلحن للتخبئة وما اليها .

(٢) العمدة : ج ٢ ص : ١٣٦ (٣) الديوان ص : ٨٠

الثانية قالها في بني سُلَيم لما ارادوا غزو قومه ايضاً :

رَأَيتُ بَني آلِ امرِيءِ القيسِ أَصفقُوا عَلينا وَقالوُا إِنَّنا نحنُ أَكثرُ (١)

ملاحظات عامة على شعره :

١ ــ مطالع قصائده : كلنا يؤمن بأن للمطالع اكبر الأثر في السامع فقد قال ابن رشيق في العمدة : « ان حسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح (٢) » فينبغي على الشاعر ان يجوّد مطالع شعره لأنها اول مايقرع السمع وبها يُستدل على ماعنده لأول وهلة واذا كان امر المطلع كما عرفت فصحيح قولهم : ينبغي ان يقدم الشاعر مطلعاً يلائم غرضه في قصيدته والا فقد فاتته فرصة كبيرة كان يستطيع ان يستهوي بها سامعيه نحو غرضه والشعر الجاهلي مع الأسف ــ اكثره يفقد هذه المزية فقصيدة المديح تبدأ بالاطلال وقصيدة الهجاء تبدأ بها وكذلك قصيدة الاعتذار وهكذا دواليك ــ ولسنا نريد ان نبرهن على هذا فدواوين الشعر الجاهلي بل والاسلامي بين يدينا شاهدة على ذلك ولقد حاولنا ان نتفهم سرّ هذا فلم نجد للمتقدمين والمتأخرين من النقاد مايشفي الغلة الا كلمة لابن رشيق يقول فيها : « ومقاصد الناس ــ اي في المطالع ــ تختلف فطريق اهل البادية ذكر الرحيل والانتقال وتوقع البين والاشفاق وصفة الاطلال (٣) ولكنه كما ترى قول غير شاف فقد ذكر المسبب واهمل السبب ونحن نزعم ان السبب هو ان الشعراء قد قلدوا امرأ القيس في مطلعه الذي يلائم قصيدته لتقدمه عليه في الزمن وسبقه اياهم فى ميادين القول.

اما مطالع زهير فهي كغيره من الشعراء الجاهلية تبدأ بالأطلال سواء أكانت

---

(١) الديوان ص : ٨٤

(٢) العمدة ج ١ ص : ١٤٥

(٣) العمدة ج ١ ص : ١٤٥

القصيدة مديحاً ام هجاء ام حكمة . وربما بدأ قصيدتين بمطلع واحد (١)

٢ ــ مداخله : المدخل ان ينتقل الشاعر من النسيب الى الغرض الذي من اجله نظم القصيدة ومداخل زهير كمداخل غيره من شعراء الجاهلية ليست كمداخل شعراء العصر العباسي الذين كانوا يدخلون الى اغراضهم بلطف وتحيل جميل (٢) فربما انتقل من النسيب الى غرضه في القصيدة بالاضراب بـ« لا » او « لكن » او « دع ذا » ونجد في شعر زهير قصيدة لا مدخل فيها البتة وانما هو يطفر طفراً دون ما تخلص كما في قوله :

فاستبدلتْ بعدَنا داراً يَمانيةً ترعى الخريفَ فأدنى دارَها ظَلِمُ
إنّ البخيلَ ملومٌ حيث كان ولكنْ م الجوادَ على عِلاّتِه هَرِمُ

ومثل هذا كثير في شعره ، واجمل مدخل له وهو من اروع ما قاله الجاهليون والمحدثون قوله :

كخنساءَ سَفعاءِ الملاطِم حُرّةً مُسافِرةٍ مَزؤودةٍ أمّ فَرقَدِ . . .

الى ان يقول :

مُلتئماتٍ كالخَذاريفِ قوبلتْ الى جَوشَنٍ خاظِي الطُّريقةِ مُسنَدِ
إلى هَرِمٍ سارت ثلاثاً من اللوى فنعمَ مُثيرُ الواثِقِ المتعمِّدِ (٣)

---

(١) راجع ص : ٢٢

(٢) كقول البحتري : سقيت رباكِ بكل نوءٍ عاجلٍ من وبله حقاً له معلوما
ولو انني اعطيت فيهن المنى لسقيتهن بكف ابراهيما

(٣) انظر بقية المقطوعة في الديوان ص : ٩٠ وما بعدها . الخنساء : البقرة القصيرة الانف . سفعاء : سوداء في حمرة . الملاطم : الخدان . الحرة « القوية الفتية . مسافرة : خارجة من ارض الى ارض . المزؤورة : المذعورة . الفرقد : ولد البقرة . الملتئمات : القوائم يشبه بعضها بعضاً . الخذروف : لعبة للصبيان شبه بها القوائم في خفتها وسرعتها . الجوشن : الصدر . الخاظي : الكثير اللحم . الطريقة : لحمة على اعلى الصدر . المسند : الذي في مقدمته ارتفاع . اللوى : منقطع الرمل ، وهو هنا اسم موضع الواثق : الذي يثق بمسيره . المتعمد : القاصد .

يقول ما معناه : ان السريعة شبيهة بالبقرة الوحشية كانت مطمئنة الى ابنها فاذا به يصاد وقد كادت هي ان تقع في الفخ ايضاً فطارت ركضاً والخوف مالك عليها كل سبيل افقدها ابنها وخوفها من الصيادين وراءها فظلت تسير حتى حلّت حرم هرم فأمنت واطمأنت.

٣ ــ عدم التناسق في بعض قصائده : زعم قوم من النقاد المعاصرين ان الشعر الجاهلي قائم على وحدة البيت ويقصدون بهذا انه لا صلة قوية بين ابيات القصيدة سابقها ولاحقها وهو قول مبالغ فيه فأكثر الشعر الجاهلي مرتبطة اجزاء قصائده بعضها ببعض وان تراءى غير ذلك لمن لم يتعمقوا في دراسة شعر هذا العصر. وشعر زهير مثال صالح على تناسق اجزاء القصيدة اللهم الا بعض ابيات منثورة في الديوان. فمن هذا ما نجده في بيتيه الآتيين. ففي البيت الاول نجده مشوقاً هائماً يريد ان يطير الى احبابه وفي البيت الثاني وصف للناقه واجزائها :

هل تُبلغنّي أدنى دارِهِمْ قُلُصٌ يُزجي أوائلَها التبغيل والرَتَكُ
مُقوَرَّةٌ تتبارى لا شَوارَ لها إلا القُطوعُ على الأنساعِ والوُرُكُ (١)

٤ ــ ومما يلاحظ في شعره ايضاً انه كان جد مغرم بالاكثار من ذكر الأمكنة حتى انه ربما نظم الابيات وليس فيها الا ذكر الامكنة كما في قوله :

---

(١) القلص : جمع قلوص وهي الفتية من الابل . الازجاء : السوق الرفيق . التبغيل : ضرب من السير . الرتك : مقاربة الخطو في السير . مقورة : ضامرة البطن . تتباري : يعارض بعضها بعضاً في السير . الشوار : المتاع . القطوع : الطنافس التي يوطأ بها الرحل الانساع : جمع نسع : وهو سير او حبل عريض تشدّ به الرحال . الورك : جمع وراك وهو قماش يسدّ على مورك الرحل ثم يثنى تحت الرحل ليستريح بذلك الراكب.

لِمَنْ طَلَلٌ كالوَحْيِ عافٍ مَنازِلُهْ عَفا الرَّسُ منه فالرسيسُ فعاقلهْ

فَرَقَدُ فَصاراتٌ فَأَكنافُ مَنعِجٍ فَشرقيّ سامى حَوضُهُ فأجاوِلُه

فَوادي البَدّي فالطَوِيّ فَثارِقٍ فوادي القِنان جَزعُهُ فأفاكِلُه (١)

المعلقة

معلقة (زهير) اشهر شعره وقد جمعت ما اشبه كلام عظماء والمصلحين ففيها الحكمة البالغة والموعظه الحسنة والاخلاق الفاضلة والمعاني السامية والاغراض النبيلة. وقد أنشأها زهير ليمدح بها هرم بن سنان والحارث بن عوف لسعيهما بالصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء وتحملهما ديات القتلى من مالهما. وقد بدأها زهير بالغزل بام أَوفى ووصف الاطلال جرياً على اساليب الشعراء الجاهليين التقليدية.

أَمِنْ أُمِّ أَوفى دِمنةٌ لَمْ تَكلَّمِ بحَوْمانةِ الدَّرّاجِ فالمتثلمِ (٢)

ودارٌ لها بالرقمتينِ كأنها مراجيعُ وَشمٍ في نواشرِ معصمِ (٣)

---

(١) الديوان ص : ٢٥

(٢) ام اوفى : كنية عشيقه الشاعر . الدمنة : ما اسودّ من اثار الدار بالرماد والبعر وغيرهما. الحومانة : الارض الغليظة . الدراج والمتثلم : موضعان . وقوله « امن ام اوفى » يريد امن منازل ام اوفى حذف المضاف . « والمعنى » امن دمن ام اوفى دمنة لم تتكلم عند وقوفنا عليها وسوآلنا لها : اين اصحابك ؟ او قولنا لها : ما كان اطيب ايامنا فيك .

(٣) الرقمتان : قريتان احداهما قريبة من البصرة والاخرى قريبة من المدينة . المراجيع : جمع مرجوع واراد بها ما كرر وجدد من الوشم . النواشر : عروق باطن الذراع واحدتها ناشرة . المعصم : موضع السوار من اليد . « وقوله دار » عطف على دار دمنة ، واراد بقوله (كأنها) كأن رسومها فحذف المضاف . « والمعنى » امن منازلها دار بالرقمتين كأنّ رسوم تلك الدار وشم مجدد في نواشر المعصم. شبه رسوم الدار عند تجديد السيول اياها بكشف التراب عنها بالوشم المجدد في المعصم .

بها العينُ والآرامُ يمشينَ خلفةً وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم (١)

وقفتُ بها من بعد عشرين حجةً فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توهم (٢)

أثافيَّ سُفعاً في مُعرَّسِ مِرجلٍ ونؤياً كجذمِ الحوضِ لم يتثلم (٣)

فلما عرفتُ الدارَ قلتُ لربعها ألا انعمْ صباحاً أيها الربعُ واسلم (٤)

ثم انتقل الى وصف الظعائن وهن النساء في الهوادج ، وذكر انهن في امن ونعمة وعليهن اثر طيب العيش والنعيم :

---

(١) العين : بقر الوحش مفردها أعيَن. وسميت بذلك لسعة عينيها . يمشين خلفة : يخلف بعضها بعضاً اذا مضى قطيع منها جاء قطيع آخر . ومنه قوله تعالى « وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة » الاطلاء جمع طلا : وهو ولد الظبية والبقرة الوحشية ويستعار لولد الانسان ويكون هذا الاسم للولد من حين يولد الى شهر او اكثر منه. المجثم المرْبِض «والمعنى» : بهذه الدار بقر وحش واسعات العيون وظباء بيض يمشين بها خالفات بعضها بعضاً واولادها ينهضن من مرابضها لترضعها امهاتها . يريد ان الدار خلت من اهلها وصارت مواضع الوحش.

(٢) الحجة : السنة . اللأى : الابطاء والجهد «والمعنى» وقفت بدار ام اوفى بعد مضي عشرين سنة فعرفتها بعد التوهم بمقاساة جهد ومعاناة مشقة، يريد انه لم يعرفها الا بعد جهد ومشقة لبعد العهد بها ودروس اعلامها .

(٣) أثافي جمع أثفية وهي حجر يوضع عليها القدر . السفع : جمع الاسفع وهو الاسود . المعرس : اصله من التعريس وهو النزول في وقت السحر ثم استعير للمكان الذي تنصب فيه القدر . المرجل : القدر . النؤي : نهير يحفر حول البيت ليجري فيه الماء الذي ينصب من البيت عند المطر ولا يدخل البيت . الجذم : الاصل . متثلم : متهدم . « والمعنى » عرفت حجارة سوداء تُنصب عليها القدر في موضع القدر ، وعرفت نهيراً كان حول بيت ام اوفى بقي غير متثلم كأنه اصل حوض ، يريد ان هذه الاشياء دلته على انها دار ام اوفى .

(٤) الربع : الدار . انعم صباحاً : كانت العرب تقول في تحيتها : انعم صباحاً اي نعمت صباحاً اي طاب عيشك في صباحك من النعمة وهي طيب العيش وخص الصباح بهذا الدعاء ، لان الغارات والكرائه تقع صباحا . «والمعنى» وقفت بدار ام اوفى فقلت لدارها محيياً اياها وداعيا لها : طاب عيشك في صباحك وسلمت.

تبصَّرْ خليلي هل ترى من ظعائنٍ تحملنَ بالعلياء من فوق جُرثُمِ (١)
عَلونَ بأنماط عتاقٍ وكِلة ورادٍ حواشيها مُشاكهة الدم (٢)
ووَرَّكن في السوبانِ يعلونَ متنه عليهنَّ دَلُّ الناعم المتنعم (٣)
بكرنَ بُكوراً واستحرْنَ بسحرة فهنَّ لوادي الرسِّ كاليد للفمِ (٤)
وفيهنَّ مَلهى للطيفِ ومَنظرٌ أنيقٌ لعين الناظر المتوسم (٥)

ثم انتقل الى مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف لسعيهما الى الصلح وتحملهما

---

(١) الظعائن : جمع ظعينة ، لانها تظعن مع زوجها . بالعلياء : اي بالارض العلياء اي المرتفعة. جرثم : ماء لبني اسد . « والمعنى » فقلت لخليلي : انظر ياخليلي هل ترى بالارض العالية من فوق هذا الماء نساء في هوادج على ابل . يريد ان الوجد برح به والصبابة ألحت عليه حتى ظن المحال لفرط ولهه . والتبصر : النظر والتحمل الترحل .

(٢) الانماط : جمع نمط وهو ضرب من الثياب يُبسط . العتاق : الكرام الواحد عتيق . الكلة : الستر الرقيق والجمع كلل . وراد : جمع وَرْد وهو الاحمر والذي يضرب لونه الى السمر . المشاكهة : المشابهة . « والمعنى » هؤلاء النسوان طرحن على الهوادج انماطا كراما وستراً رقيقا ثم وصف تلك الانماط بانها حمر الحواشي تشبه الوانها لون الدم في شدة الحمرة .

(٣) وركن : وركك على الدابة اذا ثنى رجله ووضع احدى وركيه اي فخذيه في السرج . السُّوبان : اسم واد . الدَّل : الغُنج . المتنعّم : التكلف في النعمة ، والنعمة : طيب العيش . «المعنى» : ركبت هذه النسوة اوراك ركابهن في حال علوهن متن السُّوبان وعليهن دلال الانسان الطيب العيش الذي يتكلف ذلك .

(٤) بكرن : بكر في الحاجة اذا خرج بكرة . استحر : سار سحراً . الرس : اسم واد . «والمعنى» خرجنَ بكرة وخرجن بسحرة وهنَّ قاصدات لوادي الرس كاليد القاصدة للفم يريد انهن لايخطئنَ الرس كاليد لاتخطئ الفم .

(٥) الملهى : اللهو وموضعه . اللطيف : المتأنق الحسن المنظر . الأنيق : المعجب . التوسم : تتبع محاسن الشيء . والمعنى : وفي هذه النسوان لهو او موضع لهو للطيف ومنظر معجب لعين الناظر الذي يتتبع محاسنهنَّ ويتخيَّل سماتِ جمالهنَّ .

الديات وهو في مدحه هادىء مطمئن كما كان في وصفه للديار والنساء وهو يؤثر القصص في المدح كما آثره في الوصف فيذكر سعي السيدين الى الاصلاح بين العشائر المتحاربة بعد ان افسدت الدماء ما بينها من ود وصفاء ، ويتخذ هذا الاصلاح سبيلا الى الحث على ايثار السلم في صراحة وصفاء واخلاص . ثم يشتد ويحتد ، فينكر الحرب وآلامها وما تجر على الناس من شر ووبال :

فأقسمتُ بالبيتِ الذي طافَ حولهُ ... رِجالٌ بَنوه من قريشٍ وجُرهمِ (١)

يَميناً لنعمَ السيدانِ وجدتما ... على كلِّ حالٍ من سحيلٍ ومُبرمِ (٢)

تَدارَكتما عبساً وذُبيانَ بعدما ... تَفانوا ودقوا بينهم عِطرَ منشمِ (٣)

وقد قلتما إن ندركِ السلمَ واسعاً ... بمالٍ ومعروفٍ من القول نسلمِ (٤)

---

(١) جرهم : حي من اليمن . البيت : الكعبة . » والمعنى « اقسمت بالكعبة التي طاف حولها الذين بنوها من القبيلتين قريش وجرهم .

(٢) السحيل : من الحبل الذي يفتل فتلا واحداً . المبرم : من الحبل الذي جمع بين مفتولين ففتلا فتلا واحداً ثم يستعار السحيل للضعيف والمبرم للقوي . « والمعنى » : حلفت يميناً لنعم السيدان وجدتما في كل حال يعني وجدتما مستوفيين للشرف في الرخاء والشدة واراد بالسيدين الحارث بن عوف وهرم بن سنان .

(٣) التدارك : التلافي ، اي تدارككتما امر القبيلتين عبس وذبيان . منشم : قيل فيه : انه اسم امرأة عطارة اشترى قوم منها شيئا من العطر وتحالفوا وجعلوا آية الحلف غمسهم الايدي في ذلك العطر فقاتلوا العدو الذي تحالفوا على قتاله ، فقتلوا عن آخرهم ، فتطير العرب بعطر منشم وسير المثل به . وقيل: بل كان عطاراً يشترى منه ما يحنط به الموتى فسار المثل بعطره . « والمعنى » : تلافيتما امر هاتين القبيلتين بعد ما افنى القتال رجالهما وبعد دقهم عطر هذه المرأة اي بعد اتيان القتال على آخرهم كما اتى على آخر المتعطرين بعطر منشم .

(٤) السلم : الصلح يذكر ويؤنث . « والمعنى » : وقد قلتم : ان ادركنا الصلح واسعاً ، اي ان اتفق لنا اتمام الصلح بين القبيلتين ببذل المال واسداء معروف من الخير سلمنا من تفاني العشائر .

فأصبحتما منها على خيرِ موطنٍ بعيدينِ فيها من عُقوق ومَأثم (١)
عظيمينِ في عليا مَعدّ هُديتما ومَن يستبح كنزاً من المجد يَعظمِ (٢)
تُعفى الكلومُ بالمئينَ فأصبحتْ يُنجمها من ليس فيها بمجرمِ (٣)
يُنجمها قومٌ لِقومٍ غرامةً ولم يُهريقوا بينهم ملءَ محجمِ (٤)
فأصبحَ يجري فيهم من تِلادِكمْ مَغانمُ شتى من إفالٍ مُزنمِ (٥)

---

(١) العقوق : العصيان ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : « لايدخل الجنة عاق لأبويه » . المأثم : الاثم . « والمعنى » فاصبحتما على خير موطن من الصلح بعيدين في اتمامه من عقوق الاقارب والاثم بقطيعة الرحم .

(٢) معد : بن عدنان ابو العرب . عليا معد : كبراؤهم ورؤساؤهم . الاستباحة : وجود الشيء مباحاً . « والمعنى » : ظفرتما بالصلح في حال عظمتكما في الرتبة العليا من شرف معد وحسبها ، ثم دعا لهما فقال : هديتما الى طريق الصلاح والنجاح والفلاح ، ثم قال : ومن وجد كنزاً من المجد مباحاً واستأصله عظم امره بين الكرام .

(٣) التعفية : التمحية من قولهم عفا الشيء يعفو اذا انمحى ودرس الكلوم : جمع كلم وهو الجرح . التنجيم : الاعطاء . واراد بالمئين المئين من الابل وضمير اصبحت وكذلك الهاء في ينجمها يعود الى الابل ، وهاء « فيها » راجعة الى الحرب او الى الكلوم . « والمعنى » تمحى الجروح وتزال بالمئات من الابل فاصبحت الابل يعطيها من لم يذنب ذنباً في الحرب وما جنى جناية فيها .

(٤) الغرامة : ما يلزم أداؤه من الدية وغيرها . الملء : اسم ما يأخذه الاناء اذا امتلأ . المحجم : آلة الحجّام وهو ما يمص به الدم ، و « الهاء » في ينجمها للابل . « والمعنى » يُعطي الابل قوم لاجل غرامة قوم ، وهؤلاء الذين يعطون الديات لم يهرقوا في تلك الحرب دماً مقدار ما يملأ المحجم ، يعني أن هذين السيدين قد اعطيا الديات ولم يكن لهما ذنب .

(٥) التلاد والتليد : المال القديم الموروث . المغانم : جمع مغنم وهو الغنيمة . شتى : متفرقة . الافال : جمع افيل وهو الصغير السن من الابل . المزنّم من الزَنَمَة : شيء يقطع من اذن البعير فيترك معلقاً ، يفعل ذلك بالكرام من الابل يقال بعير مزنم وزنم . « والمعنى » فاصبح يجري في اولياء المقتولين مغانم شتى من نفائس اموالكم القديمة الموروثة وخصّ الصغار من الابل لأن الديات تعطى منها .

ألا أبلغِ الأحلافَ عني رسالةً وذُبيان هل أقسمتم كلَّ مُقسمِ (١)

فلا تكتمنَّ اللهَ ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم اللهُ يعلمِ (٢)

يؤخرْ فيوضع في كتابٍ فيدَّخرْ ليوم حسابٍ أو يُعجل فينقمِ (٣)

وما الحربُ إلاَّ ما علمتمْ وذُقتمُ وما هوَ عنها بالحديثِ المُرجّمِ (٤)

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً وتضرَ اذا ضرَّيتموها فتضرَمِ (٥)

---

(١) « الاحلاف » : جمع حليف وهو المتعاقد « أقسم » : اي احلف وتقاسم القوم اي تحالفوا « هل اقسمتم » : قد اقسمتم ومنه قوله تعالى : « هل اتى على الانسان حين من الدهر » اي قد أتى . « والمعنى » ابلغ ذبيان وحلفاءها وقل لهم قد حلفتم على ابرام حبلي الصلح فاحترزوا من الحنث وتجنبوه .

(٢) « اللام » : لام كي ومهما شرط ويعلم جوابه . « المعنى » : لاتخفوا من الله ما تضمرون من الغدر ونقض العهد ليخفي على الله . ومهما يكتم من الله شيءٌ يعلمه الله يريد ان الله عليم بالسرائر ولا يخفى عليه شيء من الضمائر فلا تضمروا شيئاً من الغدر ونقض العهد .

(٣) يؤخر : مجزوم على البدل من قوله يعلم . « والمعنى » : ان العبد اذا عمل سوءاً علم الله به فيوجب وقوع العقوبة مؤخرة او معجلة ؛ يؤخر عقابه فيكتب في كتابه فيدخر ليوم القيامة فيحاسب به او يعجل العقاب في الدنيا فينتقم قبل المصير الى الآخرة اي انه لامناص من عقاب الذنب آجلاً او عاجلاً .

(٤) الذوق : التجربة . الحديث المرجّم : الذي يرجم فيه بالظنون اي لا يوقف على حقيقته . وقوله « ما » في ما علمتم بمعنى الذي والعائد محذوف تقديره ماعلمتموه « المعنى » : ليست الحرب الا ما علمتموه وجرّبتموه وما الخبر الذي اقوله عن الحرب بحديث مرجم بل هو ماشاهدتموه وجربتموه فاياكم والعود فيها .

(٥) الضرى والضراوة : شدة الحرص واستعار ناره والتضرية الحمل على الضراوة . ضرمت النار : تضرّم اي التهبت . ذميمةً : منصوبة على الحال . « المعنى » : يحثُّ زهير المتحاربين على التمسك بالصلح ويحذرهم سوء عاقبة الحرب . يقول متى هيّجتم الحرب هيّجتموها مذمومة ويشتد حرصها اذا حملتموها على شدة الحرص فتلتهب نيرانها يريد ان اولها حقير مذموم ثم تعظم وتشتد فتشتعل .

فتعرككم عرك الرحى بثفالها

وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم (١)

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم (٢)

فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم (٣)

ثم يذهب الى ماشتهر به من ضرب الامثال ، وارسال الحكم الانسانية الشاملة والتعريف بشيء من احوال الاجتماع وآثار الاخلاق في الحياة :

---

(١) العرك : الدلك . الثفال : جلد يوضع تحت الرحى يسقط عليه الدقيق . « الباء » في ثفالها بمعنى « مع » . لقحت الناقة : اذا قبلت ماء الفحل . الكشاف : ان تلقح الناقة سنتين متواليتين ويقال نتجت الناقة مجهولا اذا نتجت . الاتآم : ان تلد الانثى توأمين وامرأة متآم : اذا كان ذلك دأبها والتوأم يجمع على التؤآم . « والمعنى » : وتعرككم الحرب عرك الرحى الحبّ مع ثفاله ، وخص تلك الحال لانه لا يبسط الا عند الطحن ، ثم قال : وتلقح الحرب في السنة مرتين وتلد توأمين جعل افناء الحرب اياهم بمنزلة طحن الرحي الحب ، وجعل صنوف الشر تتولد من تلك الحروب بمنزلة الاولاد الناشئة من الامهات ، وبالغ في وصفها باستتباع الشر شيئين : احدهما جعله اياها لاقحة كشافاً والآخر اتآمها .

(٢) أشأم : افعل من الشؤم وهو ضد اليمن بني للمبالغة ورجل مشئوم ورجال مشائيم كما يقال رجل ميمون ورجال ميامين . كاحمر عاد : اراد كاحمر ثمود وهو لقب لعاقر ناقة صالح عليه السلام اسمه قدار بن سالف . « والمعنى » : تلد الحرب لكم غلمان شؤم كل واحد منهم يماثل في الشؤم قدار عاقر الناقة ثم ترضع الحرب هؤلاء الغلمان وتفطمهم اي تكون ولادتهم ونشؤهم في الحروب فيصبحون مسائيم على اباءهم .

(٣) اغلت الارض : تغل اذا اعطت الغلّة ، اظهر تضعيف تغل لانه مجزوم بالعطف على جواب الشرط ولغة الحجاز اظهار تضعيف المضاعف في محل الجزم والبناء على الوقف . القرى : جمع قرية . القفيز : مكيال ثمانية مكاكيك . « والمعنى » فتعطي لكم تلك الحرب حينئذ ضروباً من الغلات لا تعطيها قرى بالعراق لاهلها من مكيال ودرهم ، يريد ان المضار المتولدة من هذه الحرب تزيد على المنافع المتولدة من هذه القرى .

سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومَن يعشْ ثمانينَ حولاً ، لا أبالكَ ، يسأمِ (١)

وأعلمُ مافي اليومِ والأمسِ قبلهُ ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عَمِ (٢)

رأيتُ المنايا خبطَ عشواءَ مَن تُصب تمتهُ ومَن تُخطئ يُعمَّرْ فيهرَمِ (٣)

ومَن لم يُصانع في امورٍ كثيرةٍ يضرَّسْ بأنيابٍ ويُوطأْ بمنسمِ (٤)

ومن يجعلِ المعروفَ من دونِ عرضهِ يَفرْهُ ومَن لا يتَّقِ الشتمَ يُشتمِ (٥)

ومنْ يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلهِ على قومِهِ يُستغنَ عنه ويُذمَمِ (٦)

---

(١) سئمت الشيء أسأمه ملالته التكاليف : المشاق والشدائد . لا أبالك : دعاء ، وفي الصحاح: وهو مدح يعني انك شجاع ماجد مستغن عن الاب ، ويراد بها هنا التنبيه والاعلام « والمعنى » مللت مشاق الحياة وشدائدها ومن عاش ثمانين سنة مل تكاليف الكبر لا محالة .

(٢) « المعنى » ولقد يحيط علمي بما حضر وبما مضى وغبر ولكنني عن علم ما هو آت في غد جاهل .

(٣) الخبط : الضرب باليد ومنه خبط عشواء وهي الناقة التي لا تبصر ليلا . « المعنى » رأيت المنايا تخبط خبط عشواء ، يعني انها تصيب الناس على غير نسق كما ان هذه الناقة تطأ الاشياء على غير بصيرة . ثم قال : من اصابته المنايا اهلكته ومن اخطأته يطول عمره فيبلغ الهرم .

(٤) المصانعة : الترفق والمداراة . الضرس : العض بالاضراس وهي الاسنان . المنسم : خف البعير . « المعنى » : من لايترفق بالناس ولم يدارهم في كثير من الامور يعض بأضراس ويوطأ بمنسم يريد انهم قهروه وربما قتلوه .

(٥) وفرت الشيء آفره وفراً اى كثرته . والهاء : في يفره للمعروف او للغرض . « المعنى » ومن يجعل احسانه حافظاً لعرضه عن ذم الرجال يكثر احسانه او يكثر عرضه . ومن لايحذر عن شتم الناس اياه شُتم . يعني من بذل معروفه صان عرضه ومن بخل بمعروفه عرَّض عرضه للذم والشتم .

(٦) « المعنى » : من كان ذا فضل ومال فيبخل به ستُغني عنه وذُمَّ .

ومن يوفِ لا يُذمَمَ ومن يُهدَ قلبهُ إلى مُطمئنّ البرّ لا يتجمجم(١)

ومن هابَ أسبابَ المنايا ينلنهُ وإنْ يرقَ أسباب السماءِ بسُلّم(٢)

ومنْ يجعل المعروفَ في غير أهله يكُنْ حمدُهُ ذماً عليه ويندَم(٣)

ومن يعصِ أطرافَ الزجاج فإنه يُطيعُ العوالي رُكبتْ كلّ لهذَم(٤)

ومن لم يَذُدْ عن حوْضه بسلاحه يُهدَّمْ ومن لا يَظلم الناسَ يُظلم(٥)

ومن يَغترِبْ يَحسب عدُوّاً صديقه ومن لا يكرم نفسه لم يُكرَّم(٦)

---

(١) وفيت بالعهد واوفيت به لغتان والثانية اجودها لانها لغة القرآن . قال تعالى : « وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم » ويقال : هديته الطريق وهديته الى الطريق وهديته للطريق . مطمئن البر : خالصة . التجمجم : التردد . «المعنى» من اوفى بعهده لم يلحقه ذمّ ومن هدي قلبه الى بر خالص يطمئن القلب الى حسنه ويسكن الى وقوعه موقعه لا يتردد في اسدائه .

(٢) السبب : ما يتوسل به الى غيره . اسباب السماء : نواحيها . « والمعنى » من خاف اسباب المنية نالته لا محالة كما نالته اذا لم يخفها .

(٣) « المعنى » : من وضع ايادیه في غير من استحقها ، يعني من احسن الى من لم يكن اهلا للاحسان بل بالزم وحينئذ يندم المحسن ولا ينفعه الندم .

(٤) الزجاج : جمع زجّ وهي الحديدة التي في اسفل الرمح . العوالي : باسكان الياء للضرورة وان كان حقه ان يقول العوالي بالنصب لانه مفعول يطيع . «المعنى» من لم يطع اطراف الزجاج اطاع عوالي الرماح التي ركّبت فيهن الاسنة الطوال ، يعني من ابى الصلح ذلّلته الحرب . قيل كانت العرب اذا التقت منها الفئتان سدّدت كل واحدة منهما زجاج الرمح نحو صاحبتها وسعى الساعون فى الصلح فان ابتا الا القتال قلب كل منهما الرماح وافتتلتا بالاسنة .

(٥) الذود : المنع ، واراد بالحوض الحرم . « والمعنى » من لم يمنع اعدائه عن حوضه بسلاحه انهدم حوضه ، ومن كف نفسه عن ظلم الناس ظلمه الناس . يعني من لم يحم حريمه استبيح .

(٦) « المعنى » : من سافر واغترب حسب الاعداء اصدقاءه لانه لم يجربهم فتوقفه التجارب على ضمائر صدورهم ، ومن لا يكرم نفسه بتجنب الدنايا لم يكرمه الناس .

ومهما تكنْ عند امرئٍ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناسِ تُعلمِ (١)

وكائنْ ترى من صامتٍ لك مُعجبٍ زيادتُه أو نقصه في التكلّم (٢)

لسانُ الفتى نصفٌ ونصف فؤادُه فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والدّم (٣)

وإنّ سفاهَ الشيخ لا حلمَ بعدَه وإنّ الفتى بعدَ السفاهةِ يحلُم (٤)

سألنا فأعطيتُم وعُدْنا وعدتمُ ومَن أكثر التسآلَ يوماً سيُحرَم (٥)

---

(١) «المعنى» ومهما كان للانسان من خلق وظن انه يخفى على الناس عُلمَ ولم يخف، والخلق والخليقة واحد والجمع الاخلاق والخلائق. وقال ابو زيد الطائي: انشد عثمان بن عفان رضي الله عنه قول زهير ومهما تكن ... الخ، فقال: احسن زهير وصدق، فلو ان الرجل دخل بيتا في جوف بيت لتحدّث به الناس.

(٢) كائن معناها كم في الخبر والاستفهام وفيها لغتان اخريان كأين مثال كعين وكئن مثال كعن. الصمت: السكوت. يقول: وكم صامت يعجبك صموته ولا تظهر زيادته على غيره ونقصانه عن غيره الا عند تكلمه.

(٣) هذا اشارة الى قولهم إنما المرء بأصغريه اللسان والجنان.

(٤) «المعنى» لا حلم بعد سفاهة الشيخ يعني اذا كان الشيخ سفيها لا يرتجى حلمه لانه لا حال بعد الشيب الا الموت. والفتى وان كان سفيها يكسبه شيبه حلما ووقاراً. وفي هذا المعنى قول صالح بن عبد القدوس:

والشيخ لا يترك اخلاقه حتى يوارى في ثرى رمسه

(٥) التسآل: السوآل وتفعال من ابنية المصادر. «المعنى» سألنا كم معروفكم فجدتم به ثم عدنا الى السؤال وعدتم الى النوال ومن اكثر السؤال يمنع يوما عن النوال لا محالة.

مختارات من شعر زهير

من مدائح زهير في « هرم بن سنان » قوله :

قِفْ بالدِّيارِ التي لم يَعفُها القِدَمُ ... بَلى ، وغيَّرها الأرواحُ والدِّيَمُ (١)

لاالدارُ غيَّرها بَعدي الانيسُ ولا ... بالدَّارِ لو كلَّمتْ ذا حاجةٍ صَمَمُ (٢)

ومنها :

إنَّ البخيلَ مَلومٌ حيث كان ولكنَّ ... الجوادَ على عِلاَّتِهِ هَرِمُ (٣)

هو الجوادُ الذي يُعطيك نائِلَهُ ... عَفواً ويُظلِمُ أحياناً فيُظَّلَمُ (٤)

وإن أتاه خليلٌ يومَ مسألةٍ ... يقولُ لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ (٥)

---

(١) لم يعفها القدم : لم يدرسها ويمح اثرها تقادم عهدها ، ثم قال : بلى وغيَّرها الارواح «والمعنى» ان بعضها عفا وبعضها لم يعف رسمها فلذلك استدرك ببلى . وقال ابو عبيدة : أكذب نفسه ، قال : لم يعفها ثم رجع فقال بلى . الارواح : جمع ريح . الديم : الامطار الدائمة مع سكون الريح .

(٢) لا الدار غيَّرها بعدي الانيس : اي لم ينزلها بعدي انيس ، فغيَّروا ما يعرف منها ، ولا بها صمم عن تحيتي لاني قد تكلمت بقدر ما تسمع ولكنها لم تكلمني ولا ردَّت جوابي .

(٣) ولكن الجواد على علاَّته : اي على ما ينوبه من قلة ذات يد وعَوَز .

(٤) عفواً : اي يعطيك ما سالته سهلا بلا مطل ولا تعب . يظلم احيانا : اي يطلب منه في غير موضع الطلب وفي غير وقته فيحتمل ذلك لكرمه وجوده ، واصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه . فيُظَّلَم : يحتمل الظلم .

(٥) وإن اتاه خليل : الخليل الفقير ذو الخلَّة ، يقال : اختلَّ الرجل اذا افتقر واحتاج . لا غائب مالي ولا حرم : اي لا يعتذر بغيبة المال ولا يحرم سائله . الحرِم والحرَم : الممنوع ، وقيل هو الحرام اي ليس بحرام ان يعطي منه .

ومن محاسن شعره الذي يجمع بين الحكمة العالية والموعظة والرونق قوله :

أَلاَ لَيتَ شِعري ، هل يَرى الناسُ ما أرى
من الأمرِ ؟ او يبدوا لهم ما بَدا لِيا ؟

بدا لِيَ انَّ الناسَ تفنى نفوسُهم ... واموالُهم ، ولا ارى الدهرَ فانيا (١)
وأني مَتي أَهبطْ من الارض تَلْعَةً ... أَجِدْ أَثَراً قَبلي جديداً وَعافِيا (٢)
أَراني اذا أَمسيتُ أَمسيتُ ذا هوىً ... فَثُمَّ إذا اصبحتُ أصبحتُ غادِيا (٣)
إلى حُفرةٍ أَهوي إليها مُصمَّةٍ ... يَحثُّ إليها سائقٌ مِن وَرائيا (٤)
بدا لِيَ أَن الله حقٌ ، فَزادني ... إلى الحقِ تقوى اللهِ ما كان باديا (٥)
بد لِيَ أَني لستُ مدركَ ما مَضى ... ولا سابقٌ شيئاً إذا كان جائيا (٦)
أَراني اذا ما شئتُ لاقيتُ آيةً ... تُذكرُني بعضَ الذي كنتُ ناسيا (٧)

---

(١) قوله في هذا البيت ينافي ماعرف عن زهير من ايمانه بالحساب والبعث .

(٢) التلعة : مجرى الماء الى الروضة وتكون فيما علا من السيل وفيما سفل عنه ودون التلعة الشعبة فان اتسعت التلعة واخذت تلقي الوادي فهي مَيْثاء . العافي الدارس ؛ « المعنى » حيثما سار الانسان من الارض فلا يخلو من ان يجد فيه اثراً قبل اثره قديماً وحديثاً .

(٣) امسيت على هوى : اي لي حاجة لاتنقضي ابداً لان الانسان مادام حياً فلا بدّ ان يهوى شيئاً ويحتاج اليه .

(٤) الى حفرة : الجار والمجرور متعلقان بقوله « غاديا » . مصمّة : مسدودة بما يوضع فوقها من الحجارة والتراب . يقال : اصمّ القارورة اذا جعل لها صماماً اي سِداداً وجمع الصمام الصِمَمَة . يحث : اي يحثني ويسوقني .

(٥) تقوى الله : بدل من الحق . باديا : ظاهراً .

(٦) اذا ماشئت لاقيت آية : اي اذا غفلت عن حوادث الزمان من موت وغيره ونسيتها رأيت آية مما ينوب غيري فذكرتني ما كنت نسيت بعد . الآية : العلامة وجمعها آيٌ وايات .

وما إن أرى نفسي تقيها كريهتي وما إن تَقي نَفسي كرائمُ ماليا (١)
ألا لا أرى على الحوادثِ باقياً ولا خالداً إلاّ الجبال الرواسيا (٢)

ومن جيد شعره قوله :

وإنك إن أعطيتني ثمنَ الغنى حَمِدتَ الذي أُعطيكَ من ثمن الشكرِ
وان يغنَ ما تُعطيه في اليوم او غدٍ فان الذي أُعطيك يبقى على الدهر

وقوله :

أرانا مُوضعينَ لأمرِ غيبٍ ونُسحَرُ بالطعام وبالشرابِ
كما سُحرَت به إرَمٌ وعادٌ فأضحوا مِثلَ أحلامِ النيامِ (٣)

وقوله :

الودّ لا يَخفى وإن أخفيتَهُ والبغضُ تُبديهِ لك العينانِ

وقوله :

ثلاثٌ يَعَزّ الصَبْرُ عند حلولها ويَذهلُ عنها عقلُ كل لبيبِ
خُروجُ اضطرارٍ من بلادٍ تُحبُّها وفِرقَةُ إخوانٍ، وفَقدُ حبيبِ (٤)

<>

---

(١) «المعنى» لا تقي نفسي من الموت كريهتي اي شدتي وجراءتي ولا تقيها كرائم مالي .

(٢) الخالد : الباقي الدائم . الرواسي : الثابتة .

(٣) موضعين : مسرعين . والايضاع السير السريع السهل .

(٤) عزّ الامر : يَعزّ من باب علم : اشتد .

مصادر البحث

الجاحظ	البيان والتبيين	مصر	١٩٢٧
ابن قتيبة	الشعر والشعراء	مصر	١٣٣٢
عبد القادر البغدادي	خزانة الادب	مصر	١٣٥٢
ابو العلاء المعري	رسالة الغفران	مصر	؟
الاعلم الشنتمري	شرح ديوان زهير	مصر	١٣٢٣
ابو الفرج الاصفهاني	كتاب الاغاني	بولاق	١٨٦٨
ابو زيد القرشي	جمهرة اشعار العرب	مصر	١٣٣٠
الزوزني	المعلقات السبع	مصر	؟
ابن رشيق	العمدة	مصر	١٩٠٧
مصطفى الغلاييني	رجال المعلقات العشر	بيروت	١٣٣١
محمد حسين هيكل	حياة محمد	مصر	١٣٥٤
طه حسين	في الادب الجاهلي	مصر	١٩٣٣

دائرة المعارف الاسلامية مادة (غطفان) و (زهير) و (كعب بن ابي سلمى)

AUSSIN DE PERCEVAL: Essai sur l'Histoire des Arabes, s 1847 t. II.

علی بن ابی طالبؑ

التوطئة

عصر البلاغة النبوية :

من بين افصح قبائل العرب سطعت شمس البلاغة النبوية وتفجرت ينابيع البيان المحمدي فأثرت فيمن اصاخوا اليها وكيف لا وقد ولد الرسول الكريم في قريش - اقوم اهل المدر لساناً - واسترضع في بني سعد بن بكر - افصح اهل الوبر بياناً - فكان لكلامه روعة وجلال يغمران بفيضهما النفوس. وانك لن تجد له شبيهاً في فصاحته وبيانه فقد كان يوجز ليعقل عنه ولان الايجاز سر من اسرار العربية لا يؤتاه الا الموهوبون وقد كان ينهي عن الثرثرة والتفيهق والاطالة في غير طائل ولذلك جاء ما صح من احاديثه حكماً جامعة وكلمات بليغة. ولم يكن ذلك يمنعه من الاطالة حيث الاطالة محمودة فقد روى ابو سعيد الخدري ان الرسول خطب بعد صلاة العصر فقال : ألا ان الدنيا خضرة حلوة ألا وان الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ... قال ابو سعيد: ومازال يخطب حتى لم يبق من الشمس الا حمرة على اطراف السعف.

ومما يلاحظ ان اصحابه قد دهشوا ببلاغته التي امتلكت عليهم قلوبهم ولذلك لم يتركوا كلمة له او حكمة صدرت عنه الا وحفظوها واننا لانعرف في تواريخ الامم رجلا عُني اصحابه بحفظ كلماته مثل ما عُني الصحابة بحفظ كلمات الرسول الكريم .

لم تكن البلاغة مقصورة على احاديث الرسول بل تعدتها الى خطبه وتشريعه . اما خطبه فقد بلغ بها الذروة العليا بما افاض عليها من سحر بيانه وجلال نفسه وروعة منطقه وانك لترى في ما سنسرده عليك من حديث ابي سعيد الخدري براعة اسلوبه الخطابي

وقوة تأثيره في نفوس اهل عصره . روى ابو سعيد انه لما اعطى رسول الله ما اعطى من مغانم حُنَين في قريش وقبائل العرب ولم يكن في الانصار منها شيء وَجد هذا الحي من الانصار في انفسهم حتى كثرت منهم القالة وحتى قال سعد زعيم الانصار للرسول : ان هذا الحيَّ من الانصار قد وجدوا عليك في انفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي اصبت : قسمت في قومك واعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحيّ من الانصار شيء . قال : فأين انت من ذلك ياسعد ؟ قال : يارسول الله ما انا الاّ من قومي قال : فاجمع لي قومك في الحظيرة . . . . فأتاهم رسول الله فحمد الله واثنى عليه بالذي هو اهله . ثم قال : يا معشر الانصار ما قالة قد بلغتني عنكم وموجدة قد وجدتموها في انفسكم ؟ . ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالةً فأغناكم الله ، واعداء فألف بين قلوبكم ؟ قالوا بلى لله ولرسوله الفضل . قال الا تجيبوني يامعشر الانصار ؟ قالوا : وبماذا نجيبك يارسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل . قال : والله لو شئتم لقلتم فصدقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ومخذولاً فنصرناك وطريداً فآويناك وعائلاً فآسيناك . وجدتم في نفوسكم يا معشر الانصار في لُعاعَة من الدنيا فألّفتُ بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ! افلا ترضون يا معشر الانصار ان يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءاً من الانصار ، ولو سلك الناس شعباً وسلك الانصار شعبا لسلكت شعب الانصار ، اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار وابناء ابناء الانصار . قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله . (١)

---

(١) كانت هذه الحادثة في غزوة حُنين يوم احاط المسلمون بجماعة هوازن والفافها واخذوا مالهم وانعامهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرّقه في سادات قريش وقبائل العرب ، فأعطى ابا سفيان وابنه معاوية وغيرهما مائة ناقة لكل واحد ، ولم يعط الانصار منها شيئا ، فكان منهم ما رأيت .

وجد : حزن . الحظيرة : ارض مسيَّجة . القالة : حديث السوء وضدها القول . اللغاغة : البقية اليسيرة .

بمثل هذا البيان المعجز ملك الرسول اقئدة الانصار .

وكانت الفاظه عليه السلام سهلة وتراكيبه منسجمة ، يتجنب سجع الكهّان ويعيب عليهم ذلك ويقول : اياكم وسجع الكهان .

واما تشريع الرسول فكان ايضاً آية في البلاغة لاشتمال جمله الموجزة على كثير من الاحكام الشرعية سواء أكانت عبادات ام معاملات وليس من شك في أن لأسلوب القرآن التشريعي تأثيراً كبيراً في ما كان يصدر عن الرسول من أحكام تشريعية . وبعد فاذا كان الرسول هو المعلم الاول في هذا العصر كان من الطبيعي ان يؤثر في رجال عصره فيتأسوا به وبأحاديثه وخطبه وتشريعه . وكان من ذلك ان نبغ في هذا العصر عدة من فحول البيان سواء أكان في الشعر ام في النثر وكلهم يغترف من بحر البلاغة النبوية .

النثر في هذا العصر :

ليس من شك في ان القرآن الكريم كان له اثره العظيم في انشاء النثر العربي انشاء جديداً لما تضمنه من الآيات المبينة باسلوب متين فيه روعة وقوة وجلال وليس فيه شيء من اسلوب الكهان واصحاب الاسجاع في الجاهلية . اضف الى ذلك حديث الرسول الذي كان كالسيل المنهمر في وفرته وانطلاقة .

ومن الطبيعي الا يكون للجاهليين نثر فني يعتمد على قواعد البيان لأن هذا النثر لا ينشأ الا في «وقت الاضطراب السياسي الذي تتغيّر فيه نظم الحكم والحياة الاجتماعية(١) . » وهذا ما حدث عند اليونان ثم عند الرومان وكذلك عند العرب « فاما جاء الاسلام تغيرت الحياة العربية تغيراً تاما وتقوض النظام السياسي وحل محل النظام

---

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص : ٢٨

القديم نظام جديد يعتمد على وحدة الامة العربية واخضاع الامم الاجنبية وادماجها في الاسلام. ونشأت عن هذه الحياة نظم للحكم لم تكن معروفة من قبل: وجدت الخلافة وتغيرت نظم الحياة الاجتماعية، وتغيّر نظام الزواج والطلاق وعلاقات الجماعات. ثم كانت الفتوح واتصل العرب بالامم الاخرى فأخذ يشتد ويقوى حتى اصبح اختلاطاً ثم امتزاجاً ونشأ عنه ان اطلّع العرب على ما كان لهذه الامم من آراء وافكار. . . . فنشأ عن هذا ان تغيرت الحياة وتغيرت موضوعات التفكير واستلزم ذلك ان تتغير العبارة التي يعبرون عما في انفسهم ونشأ لهم لسان جديد لم يكن لهم من قبل . . وهو النثر(١)». هذا رأي صاحب حديث الشعر والنثر وينبغي ان نضيف عليه ما كان للقرآن من أثر في نشوء النثر الفني عند العرب الذين اخذوا يقتبسون اسلوبه او يستشهدون به في خطبهم وكتبهم وهذا ما نجده جلياً في خطب الخلفاء الراشدين الاربعة ورسائلهم وبخاصة في خطب علي كما سترى.

الخطابة في هذا العصر:

تنشأ الخطابة عند الامم في ادوار الانقلابات الاجتماعية والدينية والسياسية وليس من شك في ان حدوث الاسلام وسرعة انتشاره العجيبة لهو من الاحداث الهامة التي تقتضي ارتقاء فن الخطابة.

اما الدواعي التي جعلت للخطابة منزلة هامة في هذا العصر فهي ظهور الاسلام بين ظهراني امة تعتد بالبلاغة وتتباهى بالفصاحة والارتجال وتعتمد كل الاعتماد على القول لانها امية وليس لها من وسيلة للتعبير عما في نفوسها الاّ بالخطابة.

---

(١) من حديث الشعر والنثر لطه حسين ص: ٣٠

ويمتاز اسلوب الخطابة في هذا العصر بسهولة الفاظه وقلة سجعه وكثرة استشهاده بالقرآن وابتدائه بالحمدلة والثناء على الله .

اما موضوعات الخطابة في هذا العصر فهي تنحصر في الدعوة الى الاسلام وتوحيد الله ونبذ الشرك والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والترغيب في الثواب وحل المشكلات السياسية او الحزبية وتشييع الجيوش وما الى ذلك مما اقتضته الحالة اذ ذاك.

علي بن ابي طالب

[٢١ ق. هـ — ٤٠ هـ]

حياته — صفاته — ادبه وبلاغته — قدرته على الخطابة والبيان — كتابته — حكمه في خطبه وكتاباته — آراؤه — رأيه في الخالق — رأيه في المؤمن — ارشاداته ونصائحه — رأيه في السياسة والحكومة والقضاء — رأيه في المرأة اثر الامام في الادب العربي — آثاره الشعرية والنثرية — خطب منتخبة .

حياته :

هو علي بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي. وأمه فاطمة بنت اسد ابن هاشم . ولد في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد الرسول امي سنة احدى وعشرين قبل الهجرة. ولما بعث الرسول (ص) بالنبوة كان علي دون البلوغ وكان يساكنه في منزله لأن اباه ابا طالب كان معسراً فكفله رسول الله وعُني بامره . وهكذا نشأ علي في بيت الرسول نشأة اسلامية فلم يتدنس بأدناس الجاهلية وتهذب بآداب الرسول وكان ذا نفس كريمة ، شجاعاً لا تلين قناته ولما هاجر الرسول من مكة الى المدينة فداه علي بنفسه ونام على فراشه ليوهم ان الرسول لم يزل نائماً فلا يتبعونه ويفسدون عليه هجرته ثم لحقه بعد قليل وشهد معه كل غزواته الا غزوة تبوك فانه (ص) استخلفه فيها على اهل بيته ولما رأى في وجه علي كرهاً ان يظل مع النساء قال له يطيب نفسه : اما ترضى ان تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ انه لا نبوّة بعدي.

وزوجه الرسول ابنته فاطمة في السنة الثانية من الهجرة فولد له منها الحسن والحسين

وزينب الكبرى وام كلثوم وله من الاولاد من غيرها محمد بن الحنفيَّة. وناب عن رسول الله (ص) في قراءة اوائل سورة التوبة في موسم الحج إيذاناً ببراءة الله ورسوله من المشركين. ولما توفي رسول الله وبويع ابو بكر [رضه] بايعه علي مع انه كان يرى لنفسه حق الخلافة لشدة قرابته من الرسول ولكنه كره انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم وقد نسب اليه بعض غلاة الرواة اقوالاً يطعن فيها الخليفتين الراشدين ابا بكر وعمر، ولكن الثقاة من المؤرخين كمحمد بن سيرين التابعي الجليل كانوا يكذبونها كما روى ذلك الامام البخاري في صحيحه. ولما ولي عمر [رضه] بايعه كذلك وزوَّجه ابنته، وكان عمر كثيراً ما يخلفه على المدينة اذا ما غاب عنها. ولما احسَّ عمر بدنو اجله كان في استطاعته ان يخلف علياً غير انه لم يرد ان يفرض على المسلمين رأيه وانما ترك ذلك اليهم انفسهم يختارون من يشاؤون ووكل امر هذا الاختيار الى جماعة من اشراف المسلمين وبعد اجتماع هؤلاء الاشراف قرَّ رأيهم على انتخاب عثمان بن عفَّان فبايعه علي حتى آخر خلافته وفي ايام عثمان [رضه] ظهرت الاضطرابات وقام الثوار على عثمان لأنه عزل معظم العمال الذين ولاَّهم عمر واستعاض عنهم بعمال من عشيرته واهل بيته وكان علي كثيراً ما يشير على عثمان ويرشده ما استطاع الى ذلك سبيلاً. وكان علي الى جانب هذا يعمل على تثقيف المسلمين هو وابن عمه عبد الله بن عباس اللذين كانا يقومان بوعظ الناس وتعليمهم دينهم وهكذا ولدت نواة الحركة العلمية في الاسلام.

ولما حمَّ القضاء وقتل عثمان شهيداً دعا المسلمون علياً الى ان يلي الخلافة فكره ذلك اول الأمر لما من اضطراب الامة وانتشار روح الفوضى والفتنة بين صفوفها ولكنه عاد فرضي ذلك في اليوم الثالث عشر من ذي الحجة سنة ٣٥ هجرية وقد نقل سيد امير علي عن المؤرخ الفرنسي سديلو: «انه يخيل للمرء حينما بويع علي بن ابي طالب ان الكل

سيطأطيء هامته امام هذه العظمة المتلألئة النقية غير انه قدّر غير ذلك (١) . » وعلق سيد امير علي على ذلك بقوله : « فلقد احاط به في بادىء الأمر عداء بني امية ولكنه لم يحتط للدسائس وابى ان يقر عمال عثمان مدفوعاً بشرف الغاية التي كانت من ابرز مميزاته وبرغم النصائح التي اسديت اليه لمسايرة الظروف فقد انتزع الاملاك التي اقطعها عثمان لاتباعه من بيت المال وقسم الخراج طبقاً للقواعد التي سنها عمر فجلبت عليه هذه الاجراءات الحازمة سخط من اثروا في العهد السابق . وقد تنازل بعض العمال عن مناصبهم دون مقاومة بينما رفض البعض الآخر النزول على امر الخليفة الجديد ومن بينهم معاوية (٢) . »

قام علي بأعباء الخلافه خمس سنوات ولكن الاضطرابات لم تجمله يستريح يوماً واحداً منها ، فقد انقسم الناس في بيعته فقبل بعض المسلمين بها وتردد بعض كسعد بن ابي وقّاص وعبد الله بن عمر وتخلّف عنها آخرون كحسّان بن ثابت وابي سعيد الخدري وهرب بعض الى الشام كالمغيرة بن شعبه ، ولكن البيعة تمت بالاغلبية . واول من بايعه طلحة والزبير ثم المهاجرون والانصار ثم بقية الناس (٣) واول ما لقي الخليفة الجديد من العقبات خروج عائشة زوج الرسول (ص) عليه للمطالبة بدم عثمان . وقد انضم اليها نفر من الصحابة على رأسهم طلحة والزبير فخرجت بجمع الى البصرة تستنجد بأهلها فالتحق بها علي والتقى الجيشان في موضع يقال له « الخُرَيبَة (٤) » في منتصف جمادي الآخر سنة ٣٦ هـ

---

(١) سيدامير علي ص : ٤٤

(٢) سيدامير علي ص : ٤٤

(٣) الطبري ج : ٥ ص ١٥٢ — ١٥٣ . المسعودي ج : ٢ ص : ٢ . الدينوري ص : ١٤٢

(٤) سميت بذلك لان المزربان كان قد ابتنى فيها قصراً وخرب بعده ، فلما نزل المسلمون في البصرة ابتنوا عنده وسموه الخريبة . انظر معجم البلدان لياقوت .

ودعا علي الزبير الى الاجتماع به فأخذ يذكره ويقول له : أتذكر يوم مررت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني غنم فنظر اليّ فضحكتَ وضحك فقلت : لا يدع ابن ابي طالب زهوه ! فقال لك رسول الله : ولتقاتلنّه وانت ظالم له . فقال الزبير : اللهم نعم ، ولو ذكرته ما سرت مسيري هذا . فيقال انه اعتزل القتال ، ولكن ولده عبد الله عيّره فعزم على القتال ، ونشب الحرب وعائشة راكبة في هودجها على جمل ، واقتتل الناس سبعة ايام ثم هزم اصحاب عائشة وقتل طلحة وفر الزبير الى المدينة ، ثم أن علياً سأل عائشة : أترتحلين الى المدينة ؟ وجهزها بما تحتاج اليه وسير معها اولاده مسيرة يوم (١)

ثم ارسل علي الى معاوية يطلب اليه الاّ يشقّ عصا الطاعة ، فلما لم يُصغ لقول علي سار ابن ابي طالب من الكوفة الى صفّين في تسعين الفاً لخمس بقين من شوال سنة ٣٥ هـ وسار معاوية في خمسة وثمانين الفاً (٢) والتقى الجيشان بصفين وكادت الدائرة تدور على اهل الشام وكاد معاوية ان يفر لولا انه (فيما يروى عنه) تذكر ابيات ابن الاطنابة :

أبت لي عفتي وابى بلائي ... وإقدامي على البطل المشيح
واعطائي على المكروه مالي ... واخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولي كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدي او تستريحي

وادرك عمرو بن العاص خطورة الموقف فأشار على معاوية برفع المصاحف ونادى : هذا كتاب الله عزّ وجل بيننا وبينكم . فاغتر اهل العراق بذلك ، وكان امر التحكيم ، فاختار اهل الشام عمرو بن العاص واهل العراق ابا موسى الاشعري واجتمعا في دومة

---

(١) العقد الفريد : ج ٣ ص ١٠٣ ــ ١٠٤

(٢) مروج الذهب : ج ٢ ص ١٧

الجندل (١) في صفر سنة ٣٧ هـ واتفقا على خلع كل من علي ومعاوية . ولما اجتمع الناس نهض ابو موسى وخطب قائلاً : انهما اتفقا على خلع الاثنين معاً . ورد الامر الى المسلمين يختارون من يريدون ، ثم نهض عمرو فقال : انه يُقرّ ابا موسى على ما قال من جهة صاحبه ، اما من جهته هو فلا يخلع صاحبه بل يُثبّتُه . ثم انصرف اهل الشام الى معاوية وسلموا عليه بالخلافة (٢) . اما جند علي فاضطربوا عليه وخرجت منهم طائفة تحاربه .

وشتان ما بين انصار علي وانصار معاوية ، فقد ذهب هؤلاء اليه متفقي الكلمة متحدي الرأي ، وذهب انصار علي اليه مختلفة أراؤهم . وقد أراد علي ان يعود لمحاربة معاوية ثانياً ولكن الخوارج افسدوا عليه امره لانهم ساروا نحو المدائن يفسدون الحرث والنسل ويحملون على علي ، فذهب لمحاربتهم فقتل منهم خلقاً كثيراً بالنهروان وكانت حوادث النهروان السبب في مقتل علي فقد قتله الخارجي ابن ملجم في ١٧ رمضان سنة ٤٠ هجرية (٣) .

صفاته :

كان علي آدم شديد الادمه . عظيم البطن واسع العينين ، اصلع ، افطس الانف دقيق الذراعين ، الى القصر اقرب منه الى الطول ، لم يصارع احداً إلا صرعه (٤) . اما شجاعته فكانت مضرب الامثال وليس ادل على ذلك من مخاطرته بنفسه ليلة هجرة

---

(١) دومة الجندل : بضم الدال وفتحها ، تبعد عن دمشق بسبعة مراحل وتقع على طريق المدينة . « انظر معجم البلدان » .

(٢) الطبري : ج ٦ ص ٣٩ — ٤٠

(٣) انظر تفصيل ذلك في الطبري ج ٦ ص ٩٠

(٤) ابن قتيبة : المعارف .

الرسول الى المدينة كما رأيت مع معرفته بأن قريشاً تريد قتل النبي . وكان من اشد الناس وطأة على المشركين في الغزوات التي لم يتخلف إلا عن واحدة منها ، وعلى يديه فُتحت خيبر رغم شدة تحصنها . وكان زاهداً عفيفاً ، حريصاً على ألاّ يضيّع أموال المسلمين ، ومن اقواله في ذلك : تزوجت بفاطمة ومالي فراش الا جلد كبش ننام عليه ... وروى هرون بن عنزة عن ابيه قال : دخلت على علي بالخورنق والفصل شتاء وعليه خَلَق قطيفة وهو يرعد منه ، فقلت يا امير المؤمنين : ان الله جعل لك ولأهلك في هذا المال نصيباً وانت تفعل هكذا بنفسك ، فقال : والله ما ارزأكم شيئاً وما هي الا قطيفتي التي اخرجتها من المدينة (١) . واما علمه فقد كان على جانب عظيم من الثقافة العربية الشائعة في ذلك الحين . وكان من اعلم الصحابة ان لم يكن اعلمهم بالقرآن والسنة واحكام الدين. وقد روي عن النبي (ص) قوله : « انا مدينة العلم وعلي بابها » وكان ابن مسعود يقول : « افرض اهل المدينة واقضاها علي (٢) » وكان يرجع اليه ابوبكر وعمر وعثمان في كثير من احكام الدين . وكان عبد الله بن عمر يقول : « اعوذ من معضلة ليس لها ابو حسن (٣) » اما فصاحته فكانت مضرب الامثال يلقي القول فيأخذ بمجامع القلوب ، ويخطب الخطبة فيثير النفوس ، كما كان اشعر الخلفاء الراشدين . روى السيوطي : ان ابا بكر كان يقول الشعر ، وأن عمر كان يقول الشعر ، وأن عثمان كان يقول الشعر ، وكان علي اشعر الثلاثة (٤) وسترى الكلام فيما صح عنه من الشعر .

---

(١) ابن الاثير : ج ٣ ص ١٥٩ . القطيفة : دثار مخمّل . رزأ : رزأه ماله : اصاب منه شيئاً .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص : ١١٥ . أفرض : اعلمهم بعلم الفرائض وهو علم تقسيم الارث .

(٣) الفخري في الآداب السلطانية ص : ٨١

(٤) السيوطي ص : ١٢٢

ادبه وبلاغته:

كان علي [رضه] من افصح العرب لأنه تربى في حجر الرسول (ص) وتأثر به وبالقرآن كل التأثر، زد على ذلك تلك الهبة الآلهية التي يصطفي الله بها من يشاء من خلقه فتتفجر بذلك منهم ينابيع البلاغة. كل هذه الاسباب وكذلك الاحوال السياسية التي رأيتها في ترجمته، جعلت من الامام خطيباً فصيحاً، وإماماً من أئمة البيان، وهو كما قال الشريف الرضي: «مشرع الفصاحة ومواردها، ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها، وعنه اخذت قوانينها، وعلى امثلته حذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وتقدم وتأخروا، ولأن كلامه عليه السلام الكلام الذي عليه مسحة من العلم الالهي، وفيه عبقة من الكلام النبوي (١)» وقد كان للفتنة التي وقعت بين علي ومعاوية أثرها القوي في انتاج علي وشيعته انتاجاً ادبياً عجيباً، كما كان لها الاثر العظيم في انتاج الامويين واشياعهم وان شقي بها المسلمون دهراً طويلاً، وانك لترى مصداق قولنا اذا ما قرأت في نهج البلاغه قوله في بني امية. «ألا ان اخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني امية، فأنها فتنة عمياء مظلمة عمت خطتها وخصت بليتها، واصاب البلاء من ابصر فيها، وأخطأ البلاء من عمي عنها، وايم الله لتجدن بني امية بكم ارباب سوء بعدي كالناب الضروس تعذم بفيها وتخبط بيدها وتزبن برجلها وتمنع درها، لا يزالون بكم حتى لا يتركوا منكم إلا نافعاً لهم او غير ضائر بهم، ولا يزال بلاؤهم حتى لا يكون انتصار احد منكم الا كانتصار العبد من ربه والصاحب من مستصحبه، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشية وقطعاً جاهلية ليس فيها منار هدى ولا علم يرى، نحن

---

(١) نهج البلاغة «م» ص: ٢ — ٣

اهلَ البيت منها بمنجاة ، ولسنا فيها بدعاة ، ثم يُفرّجها الله عنكم كتفريج الأديم بمن يسومهم خسفاً ، ويسوقهم عنفاً ، ويسقيهم بكأس مُصبَّرة لا يعطيهم الا السيف ولا يجلسهم الا الخوف (١) » .

ومن ذلك قوله في عمرو بن العاص : عجباً لابن النابغة يزعم لاهل الشام انّ فيّ دُعابة ، واني امرؤ تلعابة ، أعافس وأمارس ، لقد قال بطلاً ونطق إثماً ، أما « وشر القول الكذب » إنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ، ويسأل فيُلحف ، ويُسأل فيبخل ، ويخون العهد ويقطع الالّ ، فاذا كان عند الحرب فأيّ زاجرٍ وآمرٍ هو !! ما لم تأخذ السيوف مأخذها ، فاذا كان ذلك كان اكبر مكيدته ان يمنح القرم سُبَّته . اما والله اني ليمنعني من اللعب ذكر الموت ، وانه ليمنعه من قول الحق نسيانُه الآخرة ، وأنه لم يبايع معاوية حتى شرطه ان يؤتيه أتيّةً ويرضخ له على ترك الدين رضيخة (٢) » .

قدرته على الخطابة والبيان .

رأينا في الفقرات الموجزة التي اوردناها من كلام الامام قدرة عجيبة في البيان والخطابة وانتقاء الالفاظ ووضعها في موضعها وليس من شك في ان لصفاء ذهنه وسموه عقله وتربيته الادبية الراقية اثراً كبيراً في ذلك . وليس ادلّ على صفاء ذهنه وسمو عقله مما يُروى عنه انه كان يصف الناس وحالاتهم النفسية ويقرأ ما تكنه صدورهم ويدرك ما

---

(١) النهج « م » ص : ١٩٣ . الناب : الناقة المسنة . الضروس السيئة الخلق . تعذم : تعض . تزين : تضرب . الأديم : جلد الشاة . مصبرة : مملوءة الى اصبارها اي اطرافها .

(٢) نهج البلاغة « م » ١٥٢ ـ ١٥٣ . النابغة : المرأة المشهورة بما لا يليق بالنساء . أعافس : اعالج الناس وأضاربهم مزاحاً او اغازل النساء ومثلها امارس . الال : القرابة . السبّة : الاست . القرم : القِرن في الحرب . الأتية : العطية ومثلها الرضيخة . ويشير الى ولاية مصر .

تخفيه نفوسهم ، ولعلّ كثرة مرافقته للرسول وتأدبه بأدبه واقتباسه من نوره قد أثر فيه هذا التأثير الطيب ، فأنت ترى في خطبه ومناقشاته ووعظه ورسائله روحاً جديدة كل الجدة عما كنت تراه في النفوس العربية من قبل ، وهو وراء هذا كله قد ضرب بسهم وافر في كل شأن من شؤون الحياة الاجتماعية إذ ذاك ، فاذا تكلم عن الزهد كان اخبر المتكلمين فيه ، واذا قال في الدنيا وذم اهلها جاءك بالقول الفصل ، واذا حرّض على القتال ومحو الفتنة كان سيد القائلين ، واذا اوصى او حذّر كان خير المتحدثين . كل هذا قد جاءه من حسن خبرته بالحياة ومن نفسه الصافية . إستمع اليه يعظ الناس فيقول : ليتأسّ صغيركم بكبيركم ، وليرأف كبيركم بصغيركم ، ولا تكونوا كجُفاة الجاهليه : لا في الدين يتفقهون ، ولا عن الله يعقلون ؛ كقيضِ بيضٍ في أداحٍ يكون كسرها وزراً ويخرج حضانُها شراً .

ايها : الناس لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق ، ولم تهنوا عن توهين الباطل ، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ولم يقوَ من قوي عليكم ، لكنكم تهتم متاه بني اسرائيل ولعمري ليُضعفنّ لكم التيهُ من بعدي أضعافاً بما خلّفتم الحق وراء ظهوركم وقطعتم الادنى ووصلتم الابعد . واعلموا انكم إن اتبعتم الداعي لكم سلك بكم منهاج الرسول و كفيتم مؤونة الاعتساف ونبذتم الثقّل الفادح عن الاعناق (١) » فانت ترى في هذين المقطعين فصاحة وبياناً صادرين عن قلب عارف وعقلية صافية وثقافة عربية واسلامية واسعة ، فبينا

---

(١) النهج «م» ج ٢ ص : ٩٥ ــ ٩٦ . ليتأس : ليقتد . القيض : القشرة العليا اليابسة على البيضة . الاداحي : جمع ادحى : مبيض النعام في الرمل ، يريد انه اذا مرّ مار بالاداحي رأى فيها بيضاً ظن انه بيض القطا فلا يسوغ للمار ان يكسر البيض ولربما كان في الحقيقة بيض ثعبان فينتج شراً وكذلك الانسان الجافي الجاهل صورته الانسانية تمنع من اتلافه ولا ينتج الابقاء عليه الا شراً .

هو يحدثك بأسلوب عليه مسحة القرآن وبلاغته اذا هو ينتقل بك طفرة الى اسلوب فيه قوة الجاهلية وجزالتها وتشبيهاتها وصورها ، وهذه قدرة على البيان والخطابة لا نعرفها في احد من العرب الا في الرسول صلى الله عليه وسلم .

كتابته :

لم يمتز الامام بالخطابة فحسب ولكنه امتاز ايضاً بالكتابة ، فهو اذا كتب سلك فيها مسلكاً فنياً ، يطيل حين يكتب ما تنبغي الاطالة فيه من عهد او تولية يذكر فيهما باسهاب ما ينبغي ان يكون عليه العامل والوالي من حسن السياسة وإدارة البلاد ، ويوجز حين يرى الايجاز ابلغ وانه لا فائدة من الاطالة . ودليلنا على ذلك انك اذا قرأت له عهده الذي كتبه للاشتر النخعي لما ولاّه على مصر واعمالها حين اضطرب امر محمد بن ابي بكر فيها (١) او كتابه الى عامله على البصرة عثمان بن حُنيف الأنصاري (٢) اذا قرأتهما وجدت فيهما على طولهما طريقة فنية عجيبة في الكتابة ، فانك ترى فيها اثراً واضحاً للتفكير الصائب والخيال الرائع والسجع الجميل وتضمين ذلك شعراً وامثالاً . فعليّ في رأينا - اذن - اول كاتب فني ظهر في الاسلام ومنه استقى عبد الحميد ، وعلى غراره طبع ابن المقفّع قوله ، وعنه اخذا اسلوبهما وكلامه وطريقته تأثرا وسترى ، تفصيل ذلك فيما بعد .

حكمته في خطبه وكتاباته :

يذهب بعض المحدثين من الادباء الى ان علياً اول مفكر عربي تبصّر بالحياة وقال

---

(١) نهج « م » ج ٣ ص : ٩٢

(٢) نهج « م » ج ٣ ص : ٧٨

فيها اقوالاً تدل على عقل حكيم وفكرٍ صائب(١) .والحق ان حكمة الامام تتجلى واضحة فيما أثر عنه من الحكم ونحن اذا رحنا نستقصي ماصحّ من آثاره نرى ان حكمته تنحصر في دراسة النقاط الآتية :

١ً ــ رأيه في الخالق سبحانه وتعالى وتقديسه وتنزيهه وتحليل صفاته .

٢ً ــ رأيه في المؤمن وما يجب ان يكون عليه من صفات ومزايا تقرّبه من الخالق.

٣ً ــ ارشاداته للانسان فيما ينبغي له حتى يعيش بين اخوانه عيشة سعيدة كلها إخاء ومحبة للناس .

٤ً ــ نصائحه للانسان في تحديد واجباته نحو نفسه .

٥ً ــ رأيه في السياسة والحكومة والقضاء .

٦ً ــ رأيه في المرأة .

رأيه في الخالق :

اما رأيه في الخالق فيتجلى في كثيرٍ من خطبه فمن ذلك قوله : « الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصي نعماءه العادّون ، ولا يؤدّي حقه المجتهدون ، الذي لا يدركه بُعدُ الهمم ، ولا يناله غوصُ الفطن ،الذي ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا اجل ممدود ، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان ارضه ، اول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به،وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له . وكمال الاخلاص له نفي الصفات عنه ... كائن

---

(١) ولقد احسنت الحكومة اللبنانية بوضعه في عداد فلاسفة الاسلام الذين تجب دراستهم في صفوف الفلسفة .

لاعن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزايلة (١)،

وقال من خطبة اخرى : «الحمد لله الذي لم يسبق له حالٌ حالاً ، فيكون اولاً قبل ان يكون اخراً ، ويكون ظاهراً قبل ان يكون باطناً ، كل عزيزٍ غيرهُ ذليل ، وكل قوي غيرُه ضعيف ، وكل مالك غيرُه مملوك وكل عالمٍ غيرُه متعلم ، وكلّ قادر غيرهُ يَقدِرُ ويعجز ، وكل سميع غيرُه يَصم عن لطيف الاصوات ويُصمهُ كبيرُها ويذهب عنه ما بَعدَ منها ، وكل بصير غيرُه يَعمى عن خفيّ الألوان ولطيف الاجسام ، وكل ظاهرٍ غيرُه باطن ، وكل باطن غيرهُ ظاهر ، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوفٍ من عواقب الزمان ، ولا استعانةٍ على نِدٍّ مثاور ولا شريك مكابر ولا ضدّ منافر ؛ ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون ، لم يحلل في الاشياء فيقال هو فيها كائن ، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ما ذرأ ، ولا وقف به عجزٌ عما خلق — ولا ولَجت عليه شُبهة فيما قضى وقدّر ، بل قضاءٌ متقن وعلم مُحكمٌ وامر مبرمٌ ، المأمول مع النقم والمرجوّ مع النعم (٢)».

هذا طرف من عقيدة الامام في الباريء سبحانه وتنزيهه ، وهي العقيدة التي جاء بها الاسلام ، ولكن الامام ارسل عليها قَبَساً من بلاغته . وكان رضي الله عنه يكره البحث في حقيقة الالٰه والقضاء والقدر وغيرها من الامور الغيبية ، فقد سأله مرة احد الناس ان يصف له الله تعالى فوبّخه ونهاه عن البحث في هذه الامور وقال فيما قال له : «واعلم ان الراسخين في العلم هم الذين اغناهم — عن اقتحام السدود المضروبة دون

---

(١) النهج «م» ج ١ ص ٧ — ٩ . الفطن : جمع فطنة وهي الذكاء . الحدث : الابداء ، اي هو موجود لا عن ابداء وايجاد موجد . المزايلة : المفارقة والمباينة .

(٢) «م» ج ١ ص : ١٠٧ = ١١٠

الغيوب ـ الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيرَه من الغيب المحجوب .» والحق ان رأي الامام في هذه القضية لايتجاوز عقيدة الاسلام وتعاليمه . وآراؤه في هذا الصدد منثورة في ثنايا كتاب «نهج البلاغة» وما حمل على علي في هذا الموضوع من قول الشريف وغيره فانه مطبوع بهذا الطابع لا يتجاوز المعاني والافكار التي ذكرنا .

رأيه في المؤمن :

واما رأية في المؤمن وما يجب ان يتصف به ليتقرب من الله فيمكن تلخيصه فيما يأتي : البعد عن الهوى ومطاوعة الشيطان وطول الامل ، وفي الزهد في الدنيا والقيام بواجبات الله. يؤيد ذلك قوله في وصف قوم خرجوا على الحدود الدينية : «اتخذوا الشيطان لأمرهم ملاكا واتخذهم له اشراكاً ، فباض فيهم وفرّخ في صدورهم ، ودبَّ ودرج في حجورهم ، فنظر بأعينهم ونطق بألسنتهم ، فركب بهم الزلل ، وزيّن لهم الخطل ، فعلَ من قد شرّكه الشيطان في سلطانه ، ونطق بالباطل على لسانه (١)»

وقال في موضع آخر : «ايها الناس إن أخوفَ ما اخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الامل ؛ فاما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق ، واما طول الامل فينسي الآخرة ؛ ألا وإن الدنيا قد ولّت حذّاء فلم يبق منها الا صُبابة كصُبابة الاناء اصطبّها صابُّها ، ألا وإن الآخرة قد اقبلت ، ولكل منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا

---

(١) نهج «م» ج ١ ص : ٣٧ . الملاك : بالفتح والكسر : قوام الشيء . الاشراك : جمع شريك او شرك . باض وفرّخ : كناية عن توطنه صدورهم . دبّ ودرج : كناية عن تربّية في حجورهم . الخطلَ : اقبح الخطأ ومثله الزلل .

من ابناء الدنيا، فان كل ولدٍ سيُلْحق بأمه يوم القيامة؛ وإن اليوم عملٌ وغداً حسابٌ ولا عمل (١).»

وقوله من خطبة اخرى: «ألا وإن الدنيا قد تصرّمت وآذنت بوداعٍ، وتنكّر معروفها وأدبرت حذّاء، فهي تحفزُ بالفناء سكانَها، وتحدو بالموت جيرانَها، وقد أمرّ منها ما كان حلواً، وكدر منها ما كان صفواً؛ فلم يبق منها إلا سَمَلَةٌ كسملة الإداوة، او جرعة كجرعة المقلة، لو تمززها الصديان لم ينقع؛ فأزمعوا عباد الله الرحيل عن هذه الدار المقدور على اهلها الزوال، ولا يغلبنّكم فيها الامل، ولا يطولنّ عليكم الامد؛ فوالله لو حننتم حنين الوُلّه العِجال، ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جُؤار متبتّل الرهبان، وخرجتم الى الله من الاموال والاولاد التماسَ القربة اليه في ارتفاع درجةٍ عنده، اوغفران سيئة احصتها كتبه وحفظها رسله، لكان قليلاً فيما ارجو لكم من ثوابه، واخاف عليكم من عقابه. والله لو إنماثت قلوبكم إنمياثاً، وسالت عيونكم من رغبةٍ اليه او رهبةٍ منه دماً، ثم عُمّرتم في الدنيا ما الدنيا باقية، ما جزت اعمالكم، ولو لم تبقوا شيئاً من جهدكم. أنعمه عليكم العظامَ وهُداه إياكم للايمان (٢).»

---

(١) نهج «م» ج ١ ص: ٨٨ — ٨٩. طول الامل: استفساح الاجل والتسويف بالعمل. حذّاء: سريعة. الصُبابة: بالضم البقية من الماء واللبن في الاناء.

(٢) نهج «م» ج ١ ص: ٩٦. تحفز: تسوق. أمرّ الشيءُ: صار مراً. كدِرَ: تعكّر وتغيّر لونه. السملة: بالفتح: بقية الماء في الحوض. الاداوة: الاناء الذي يتطهر به. المقلة: بفتح الميم: حصاة يضعها المسافرون في اناءٍ ثم يصبون الماء فيه ليغمرها فيتناول كل منهم مقدار ماغمرها. لايزيد احدهم عن الآخر في نصيبه. التمزز: الامتصاص قليلا قليلاً. لم ينقع: لم يُرْوَ. الوَلَّه: جمع واله ووالهة كل انثى فقدت ولدها. العجال: الناقة فقدت ولدها. الهديل: صوت الحمام في بكائه. الجؤار: الصوت المرتفع. إنماث: ذاب.

هذا نمط مما يوجب على المؤمن ان يتصف به ليتقرب من الله وظاهر فيه حرص علي ان يبتعد بالانسان عن كل ما يقصيه عن الله والعالم الباقي ويوصيه ان ينظر الى الدنيا نظرة حذر واحتقار والاً يطول امله فينسى آخرته وألاً يبيت إلا وهو مطمئن النفس الى ما وعده الله به من حسن الثواب في العالم الثاني.

ارشاداته ونصائحه :

اما نصائحه للناس وارشاده اياهم الى ما يجب ان يتصفوا به ليعيشوا سعداء متآخين آمنين فتجلىً في دعوته الى فاضل الاخلاق وكريمها كقوله : «واحذر كل عمل يعمل به في السر ويستحى منه في العلانية.» وقوله : « ان ابغض الخلائق الى الله جل جلاله رجلان : رجلٌ وكلَه الله الى نفسه فهو جائرٌ عن قصد السبيل، ورجل قمش جهلاً، مُوضِعٌ في جهّال الامة، عادٍ في اغباش الفتنة، عمٍ بما في عقد الهدنة، قد سمّاه اشباه الناس عالماً وليس به، بكّرَ فاستكثر من جمعِ ما قلّ منه خيرٌ مما كثر (١).»

وقوله : « أفيضوا في ذكر الله فانه احسن الذِكر، وارغبوا فيما وعد المتقين فانه اصدقُ الوعد، واقتدوا بهدْي نبيكم فانه افضل الهدْي، واستنّوا بسنته فانها اهدى السنن، وتعلموا القرآن فانه احسن الحديث، وتفقهوا فيه فانه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فانه شفاء الصدور، واحسنوا تلاوته، فانه انفع القصص، فان العالم العامل بغير

---

(١) نهج «م» ج ١ ص : ٤٧ ــ ٤٨ رجل وكله الله... الخ : اي تركه ونفسه وهو كناية عن ذهابه خلف هواه فيما يعتقد لا يرجع الى حقيقة من الدين. قمش جهلا : اي جمعه. موضع في جهال الامة : مسرع فيهم في الغش والتغرير. عاد في اغباش الفتنة : مسرع في ظلمات الفتنة. عم بما في عقد الهدنة: جاهل بما اودعه الله في السكون والاطمئنان من المصالح. بكر فاستكثر: بادر الى الجمع مبكراً فاحتاز كثيراً والقلة خير من كثرته.

عامه، كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله ؛ بل الحجة عليه اعظم ، والحسرة له الزم، وهو عند الله ألوَم (١). »

وقال في حثّ اصحابه على القتال : « فقدموا الدارع ، وأخروا الحاسر . وعضوا على الاضراس فانه أنبا للسيوف عن الهام ، والتووا في اطراف الرماح فانه أمْوَرُ للأسنة . وغضوا الابصار فانه اربطُ للجأش ، وأسكنُ للقلوب ؛ وأميتوا الاصوات فانه اطردُ للفشل . ورايتَكم فلا تُميلوها ، ولا تُخلوها ، ولا تجعلوها إلا بايدي شجعانكم ، والمانعين للذمّار منكم ، فان الصابرين على نزول الحقائق هم الذين يحفّون برياتهم ويكتنفونها ... أجزأ امرؤ قرنه ، وآسى اخاه بنفسه ، ولم يَكِل قِرنه الى اخيه فيجتمع عليه قِرنُه وقِرنُ اخيه ... إن في الفرار موجدةَ الله والذلَّ اللازم والعار الباقي ... الجنة تحت اطراف العوالي ، اليوم تُبلى الأخيار والله لأنا اشوق الى لقائهم منهم الى ديارهم (٢) ».

فأنت ترى في هذه النصائح والحكم نفساً عرفت حقائق هذه الحياة وخبرتها ، ففاض بها لسان علي ببيان ساحر ونظم عجيب ، ولو رحت تستقصي ما قاله في هذا الباب لرأيت أن النظريات الاخلاقية ، والمواعظ الاجتماعية ، والخطط الحربية التي اوردها في خطبه ملاك الحياة ، تضم نظاماً اجتماعياً قويماً نافعاً للناس في حالتي السلم والحرب .

---

(١) نهج « م » ج ١ ص : ٢١٥ . ألوم : اشد لوماً لنفسه بين يدي الله لأنه لا يجد منها عذراً يُقبل او يُرد .

(٢) نهج « م » ج ٢ ص : ٤ - ٦ . الدارع : لابس الدرع . الحاسر : من لا درع له ولا مغفر . أَنبا : من نبا السيف اذا لم يقطع . التووا في اطراف الرماح : اذا وصلت اليكم اطراف الرماح فانعطفوا وميلوا فتزلق . أَمْوَر : اكثر اضطراباً واتزلاقاً . الذمار : مايلزم الرجل حمايته . اجزأ : ومابعده من « الافعال » افعال ماضية معناها الأمر : اي فليكف كل منكم قرنه فيقتله وليواسِ اخاه أي يقويه .

نصائحه للمرء في تحرير واجباته نحو نفسه :

اما نصائحه للمرء فيما ينبغي عليه ليعيش سعيداً مع نفسه ، فهي كنصائحه اليه ليعيش مع الناس ، وإن من اوجب ما حضّ الانسان عليه في هذا الموقف ان يخالف هواه ليعيش سعيداً ، فان النفس امارة بالسوء ، قائدة الى الشر . قال : « من لم يُعَنْ على نفسه حتى يكون له منها واعظٌ وزاجر ، لم يكن له من غيرها زاجر ولا واعظ » . ومما حضّ عليه في هذا الصدد أيضاً ألاّ « يُعجب الانسان بنفسه ولا يغترّ بشبابه وماله ، فان هذا كله عرضٌ فان » وقال : « وإياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها ، وحب الاطراء ؛ فان ذلك من اوثق فرص الشيطان في نفسه ليمحقَ ما يكون من احسان المحسنين . » ومما حضّ عليه ، لزوم الحاله الوسطى والابتعاد عن حب التناهي ومعرفة الانسان نفسه . قال في بعض خطبه : « والطريق الوسطى هي الجادة ، عليها باقي الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منفذ السُنّة ، وإليها مصير العاقبة ؛ هلك من ادعى ، وخاب من افترى — من ابدى صفحته للحق هلك . وكفى المرء جهلاً ان لا يعرف قدره » .

هذا نمط من نصائح عليّ كرم الله وجهه للانسان فيما ينبغي ان يتحلى به ليعيش سعيداً مع هادئاً مطمئناً في هذه الحياة الدنيا .

رأيه في السياسة والحكومة والقضاء :

أما رأيه في السياسة والحكومة والقضاء فقد اكثر من الكلام فيه ، واليك خلاصة موجزة منتقاة من خطبه ورسائله .

كان الامام يرى ان المسلمين لابدّ لهم من امير ينصب نفسه لاقامة الحدود وسياسة الدولة يؤيد ذلك قوله « لابدّ للناس من أمير بر او فاجر يعمل في إمرته المؤمن

ويستمتع فيها الكافر . . . ويقاتل به العدو ، وتأمن به السبُل ، ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بَرٌّ ويستراح من فاجر (١) . » اما صفات هذا الامام عنده فتتجلى في قوله : « من نصب نفسه للناس إماماً فليبدأ بتعليم غيره وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه . » وأن يقنع بالعيش الخشن . « أقنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين ولا اشاركهم في مكاره الدهر او اكون أسوة لهم في خشونة العيش . » وأن يُحسن اليهم ولا يطيل حجابه عنهم .

وكان يرى ان لابدّ من اطاعة الناس لامامهم ، وانهم ان تفرقوا في ذلك شيعاً واحزاباً ضلّ سعيهم ، وقد اكثر الامام من بيان ضرر الخروج على جماعة المسلمين وعدم إطاعة الامير ، لانه رضي الله عنه لاقى آثاره السيئة في خروج الناس عليه ، وعدم إطاعتهم اياه في كثير من المواطن ، فمن ذلك قوله : « مُنيتُ بمن لا يطيع اذا أمرت ولا يجيب اذا دعوت ، لا أبالكم ما تنتظرون بنصركم ربَّكم ؟ أما دين يجمعكم ، ولا حمية تحمشكم ؛ اقوم فيكم مستصرخاً ، وانا ديكم متغوثاً ، فلا تسمعون لي قولاً ، ولا تطيعون لي امراً ، حتى تكشّف الامور عن عواقب المساءة . فما يُدرك بكم ثأر ، ولا يبلغ بكم مرام ، دعوتكم الى نصرة اخوانكم فجرجرتم جَرْجَرَةَ الجمل الأسرّ ، وتثاقلتم تثاقل النّضْوِ الأدبر ، ثم خرج اليّ منكم جُنَيْدٌ متدائب ضعيف كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون (٢) . » وقال مرة بعد أن جمع الناس وحضهم على الجهاد فسكتوا

---

(١) نهج « م » ج ١ ص : ٨٧ .

(٢) نهج « م » ج ١ ص : ٨٦ . منيت : بليت . حمشه : نصره . المتغوث : القائل واغوثاه . الجرجرة : صوت يردده البعير في حنجرته النضو الأدبر : الهزيل المدبور « المجروح بالدّبر وهو العقر من القتب وغيره » .

ملياً ، ثم قال بعضهم : لا نذهب حتى تذهب . « ما بالكم لا سُدِّدْتم لرشد ، ولا هُديتم لقصد ، أفي مثل هذا ينبغي ان اخرج ؟ ! انما يخرج في مثل هذا رجل ممن ارضاه من شجعانكم وذوي بأسكم ، ولا ينبغي ان أدع المصر والجند وبيت المال وجبايه الارض والقضاء بين المسلمين والنظر في حقوق المطالبين ، ثم اخرج في كتيبة أتبعُ اخرى ، أتقلقلُ تقلقلَ القدحِ في الجفير الفارغ . انما انا قطب الرحى تدور عليَّ وانا بمكاني (١) . »

وكان الامام يرى ان خير السياسة ، سياسة الشورى والمداولة مع اولي الحل والعقد من عقلاء الامة . قال : « من استبدَّ برأيه هلك ، ومن شاور الرجال شاركها في عقولها . » وله في هذا المعنى اقوال عديدة منثورة في النهج .

اما آراؤه في العمال والقضاة فيمكن تلخيصها فيما يأتي : كان يحب في عماله الديموقراطية والمساواة بين الناس ، وإن آثرهم عنده افضلهم واقولهم بالحق وابعدهم عن الاشرار . قال يوصي الاشتر النخعي لما ولاه على مصر : « إن أشرَّ وزرائك من كان للاشرار وزيرا ، ومن شركهم في الآثام ، فلا يكوننَّ لك بطانة ، فانهم أعوان الأثمة واخوان الظلمة ، وانت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالماً على ظلمه ولا آثماً على إثمه . . . فاتخذ اولئك خاصةً لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكن آثرهم عندك اقولهم بمرِّ الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لاوليائه . . . ثم رُضْهم على ألا يطروك ولا يُبجحوك بباطل

---

(١) نهج « م » ج ١ ص : ٢٣١ أتقلقل : اضطرب . القدح : السهم قبل ان يراش الجفير : بيت السهام وانما خص القدح لأنه يكون اشد قلقلة من السهم المراش لأن حد الريش قد يمنعه من القلقلة او يخففها . قطب الرحى : عماد الدولة .

لم تفعلْه ، فان كثرة الاطراء تُحدث الزهو (١) . »

وأما القضاة فكان له معهم شأن عظيم ، ومن اجمع وصاياه إليهم قوله في كتاب الاشتر النخعي : « ثم اختَرْ للحُكم بين الناس أفضلَ رعيتك في نفسك ، ممن لا تضيق به امور ، ولا تُمحكُهُ الخصوم ، ولا يتمادى في الزلّة ، ولا يَحصَرُ من الفيء الى الحق اذا عرفه ، ولا تُشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهمٍ دون اقصاه ، وأوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، واقلهم تبرماً بمراجعة الخصم ، واصبرهم على تكشُّف الامور ، واحزمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء — واولئك قليل — . ثم اكثر تعاهد قضائه ، وافسح له في البَّذل ما يزيل علته ، وتقلّ معه حاجته الى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ، ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، فانظر في ذلك نظراً بليغاً (٢) . »

فانت ترى في هذه المقطوعة دستوراً من دساتير القضاء الصالحة لا يقل كمالاً عن احدث ما وصلت اليه ارقى الامم المتمدنة في عصرنا هذا . ونحن اذا رحنا نستقصي ما في هذا الكتاب وغيره من كتب علي في القضاء جئنا بشيء كثير .

---

(١) نهج « م » ج ٣ ص : ٩٧ — ٩٨ . بطانة الرجل « بالكسر » : خاصته . الاثمة : جمع آثم منهم : هذا الجار والمجرور متعلق « بالخلف » او « بواجد » و « من » بمعنى بدل . الآصار : جمع إصر : الذنب . رضهم : عوّدهم . الاطراء : المديح . التبجيح : التفريح بنسبة عمل لم يعمله الانسان . الزهو : العُجب . العزّة : الكبر .

(٢) نهج « م » ج ٣ ص : ١٠٤ - ١٠٥ . أمحكه : جعله محكان اي عسر الخُلق او بمعنى اغضبه . يَحصر : يضيق صدره من الرجوع الى الحق . اشرف على الشيء : اطلّع عليه من فوق . الشبهات : ما لا يصح الحكم فيه . التبرم : الضجر . الازدهاء : ان يستخف المرء عند الثناء عليه . تعاهد : تتبع . الاغتيال : الطعن والغيبة .

رأيه في المرأة :

اما رأي الامام في المرأة فهو قاسٍ شديد القسوة عليها ، وهو الذي قال : «المرأة شر كلها ، وشر ما فيها انه لا بدّ منها .» وقال : «خيار خصال النساء ، شرار خصال الرجال .» وقال : « معاشر الناس ان النساء نواقص الايمان ، نواقص الحظوظ ، نواقص العقول : فاما نقصان إيمانهن ، فقعودهن عن الصلاة والصيام في ايام حيضهن ؛ واما نقصان عقولهن ، فشهادة امرأتين كشهادة رجل واحد ؛ واما نقصان حظوظهن ، فمواريثهن على الأنصاف من مواريث الرجال ؛ فاتقوا شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر ! ولا تطيعوهن في المعروف حتى لا يطمعن في المنكر (١) »

ولكنه مع هذا كان رحيماً بها ، مشفقاً عليها ، راحماً ضعفها . فقد قال من خطبة لجنده وهم بصفين «لا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن اعراضكم وسببن امراءكم ، فانهن ضعيفات القوى والانفس والعقول ، ان كنّا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات ، وان كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالفهر او الهراوة فيُعير بها وعقِبَهُ من بعده (٢) .»

فأنت ترى ان رأيه قاسٍ شديدُ القسوة ، واما حججه التي اوردها في تعليل ماذهب إليه فليست تقوم دليلاً على ما اراد . ونظرة واحدة الى تلك الحجج تكفيك للايمان بما قلنا.

اثر الامام في الأدب العربي :

للامام عليّ أثر في الادب العربي ، فان لكلامه شرفاً وتأثيراً في النفس ، ما نجده لكلام في الادب العربي . حاشا القرآن الكريم والحديث النبوي ؛ لأنه كلام افصح الناس بعد الرسول الكريم ، واشدهم قوةً على التعبير الفصيح ، وابرعهم حُجةً في الخطابة ،

---

(١) نهج «م» ج ١ ص : ١٢٥ — ١٢٦

(٢) نهج «م» ج ٣ ص ١٦

واملكهم لعنان اللغة ومفرداتها يتصرف فيها كما يريد . وهو الذي تربى في حجر النبي (ص) فأفاد من البلاغة النبوية والحكمة الالهية ، ووعى ما لم يَعِه غيره من كلام الرسول وحالاته وحركاته في خطبه ومجالسه وأماليه . فلا غرو ان يصبح كعبةً يحجُ اليها طلاب البيان الرفيع ، والفصاحة العالية ؛ وهكذا قد كان ، فقد تأثر الناس به في عصره ، وفي العصر التي جاءت من بعده ؛ فما من خطيبٍ ، وما من كاتبٍ ، إلا ونهل من معينه ، وطبع على غراره ؛ وهذا عبد الحميد إمام الكتاب يجيب من سأله عن سر قدرته على الكتابة بقوله : (حفظ كلام الأصلع) . وهذا ابن المقفع يقول : (شربت الخطب اي خطب الامام ، ريّاً ، ولم اضبط لها روياً ، فقاضت ثم غاضت ، فلا هي كلاماً ، وليس غيرها نظاماً .) والحق أنّا اذا فحصنا ما صحت نسبته الى عليّ مما نجده في المصادر الموثوق بصحتها ككتب الطبري والمسعودي والجاحظ وابن قتيبة . وجدنا لعلي أثراً بارزاً في الادب العربي . اما نهج البلاغة وتأثيره فنترك الكلام فيه الآن الى حينه .

آثاره :

شخصيةُ الامام عليّ شخصيةٌ عظيمةٌ ، افرط بعض الناس في حبها ورفعوها مكانة عالية ، فنسبوا اليها كثيراً مما ظنوا ان فيه رفعاً لقدرها ، وهم في ذلك جدّ مخطئين . فان مكانة علي لا تزداد سموّاً بأن ينسب اليها الاباطيل ، وما لا يمكن صدوره عن شخصية مثل شخصية علي . فقد نسبوا اليه نحواً من ستمائة وستة وثمانين حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يصح منها الا نحو الخمسين (١) . ونسبوا الى علي كثيراً من الآثار من شعرية ونثرية .

---

(١) الشهرستاني : الفصل في الملل والنحل ج ٤ ص ١٣٧ .

آثاره الشعرية :

من آثاره الشعرية ديوان شعر في نحو من الفي بيت كله في الزهد والنصائح والحكم والتضرع الى الله ، وهو ضعيف الاسلوب عليه مسحة الصوفية المتأخرة ، ويزعم بعض الناس (١) انه من صنع الشريف الرضى ، والحق انه يستبعد جداً ان يكون الرضي صاحب تلك التراكيب الضعيفة ، وإن نظرة واحدة على هذا الديوان وديوان الشريف ، تكفي للحكم ببطلان هذا الزعم ، لان شعر الشريف متين ، جزل كثير الاغراب ، فيه قوة وإبداع . أما شعر ديوان علي ، فمهلهل الالفاظ ، ضعيف التراكيب ، ليس فيه شيء من قوة علي وادبه. ثم إن عليا ما عرف بكثرة قوله الشعر وما صح عنه الا بيتان ، كما ذكر ذلك ياقوت في معجم الادباء (٢) .

وقد طبع هذا الديوان عدة مرات وترجم الى التركية والفارسية كما ترجمه الى اللاتينية المستشرق كيبرس : « Kuypers ».

ومما نسب اليه ايضاً القصيدة الزينبية ، ونشرها وشرحها الشيخ عبد المعطي السملاوي وترجمت الى التركية .

آثاره النثرية :

١ ـ نهج البلاغة : وقد افردنا للكلام عنه فصلاً خاصاً .

٢ ـ غرر الحكم ودرر الكلم : وهي مجموعة في الامثال والحكم جمعها ورتبها على حروف الهجاء الشيخ عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد وقد نشرها المستشرق « كيبرس »

---

(١) انظر : Clément Huart : Littérature Arabe p. 252

(٢) ياقوت : معجم الادباء ج ٥ ص ٢٦٣

٣ً ـ الف كلمة : ذكرها ابن ابي الحديد ، في آخر شرحه على نهج البلاغة .

٤ً ـ نثر اللآلي : وهي مجموعة حكم وامثال عددها ٢٧٨ .

٥ً ـ بعض الامثال : مما جمعه ابو الفضل الميداني صاحب مجمع الامثال عددها ٤٨ .

٦ً ـ طفافة بعض الامثال : وهي مما جمعه الميداني ايضاً . وهذه المجموعة والكتابان السابقان نشرهما المستشرق « كرنيليوس وان فينين » مع كتاب غرر الحكم في مجلد واحد بعنوان « حكم الامام علي بن ابي طالب » وطبعها في اوكسفورد سنة ١٨٠٦ .

٧ً ـ مطلوب كل طالب من كلام علي بن ابي طالب : وقد ذكره سركيس في معجم المطبوعات .

٨ً ـ دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم : وهو كتاب خطب ومواعظ جمعه القاضي ابو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي وقد طبع عدة مرات .

٩ً ـ كتاب الجفر والجامعة : وهما كتابان يذكر الشيعة ان فيهما ذكراً للحوادث التي تحدث في الكون الى انقراض العالم على طريقة الحروف وانه لا يعرفها الا الائمة العلويون .

نهج البلاغة

التعريف بالنهج — نسبته — اراء القدماء — اراء المحدثين — رأي المؤلفين

التعريف به :

كتاب في نحو ٦٥٠ صفحة جمع فيه ابو الحسن محمد بن ابي احمد الحسين الملقب بالشريف الرَضي الموسوي العلوي [٣٥٩ ــ ٤٠٦] خطب الامام علي ورسائله وكلمه ومواعظه . وقد انتهى من تأليفه في رجب سنة ٤٠٠ بعد ان ترك اوراقا بيضاء في آخر كل باب رجاء ان يقف على شيء بعد الجمع فيدرجه في المحل الذي يناسبه (١) .

ويمكن تقسيم هذا الكتاب اجمالا بحسب مواضيعه الى ثلاثة اجزاء « الاول » في الخطب و « الثاني » في المواعظ و « الثالث » الرسائل والحكم والوصايا .

وقد عنى الادباء بالنهج قديماً وحديثاً فشرحوه وعلقوا عليه ، ومن افضل هذه الشروح شرح الامام اللغوي عبد الحميد عز الدين ابى حامد بن هبة الله بن محمد بن ابي الحديد [٥٨٦ ــ ٦٥٥] وهو من كبار مفكري المعتزلة والشيعة الامامية ، وكان حاد الذكاء واسع الثقافة تشهد بذلك آراؤه الكثيرة التي نقف عليها في شرحه للنهج الذي يعد في الحقيقة دائرة معارف كبرى حوت جميع المعارف والعلوم التي عرفت في عصره . وشرح عز الدين هذا في عشرين جزءاً جمعت في اربع مجلدات . طبعت مرات عديدة في مصر وايران .

وممن شرح النهج من القدماء أيضاً العلامة كمال الدين ميثم بن علي النجراني ، وقد

---

(١) الروائع ج ١ ص : ق .

طبع بفارس سنة ١٢٧٤ (١). ومن المحدثين الامام الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٩٠٥ (٢) وقد طبع لاول مرة في جزئين ببيروت سنة ١٨٨٥، ثم طبع ثانية فيها سنة ١٣٢٩، ثم طبع ثالثه في مصر في ثلاثة اجزاء في مطبعة الاستقامة بعناية الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد المدرس بالجامع الازهر. ومن الشراح المحدثين الشيخ محمد حسن نائل المرصفي، وقد نشر في مطبعة دار الكتب العربية بمصر سنة ١٣٢٨.

وقد طبع النهج غير هذه الطبعات في بومباي [الهند] سنة ١٣٠٤، وطهران [العجم] سنة ١٢٧١. وفي تبريز سنة ١٢٤٧، كما طبع في دمشق ومصر. وأول طبعة طبعت في مصر هي طبعة حجرية مجهول تاريخها. اما ما اعتمدنا عليه في بحثنا عن علي فهو ما تم طبعه في بيروت سنة ١٣٢٩ وطبعه في مطبعة الاستقامة، وقد رمزنا اليه بحرف «م».

اما عناية الكتّاب والادباء بالنهج فكبيرة جداً لما للامام من مكانة في نظر السنة والشيعة. وممن بحث في النهج العالم الشيعي العراقي هبة الله الشهرستاني في رسالته المعنونة بـ [ما هو نهج البلاغة] وقد طبعت في صيدا سنة ١٣٥٢ في مطبعة العرفان، وممن تكلموا عن النهج الامام ابن تيمية في كتابه [منهاج السنة]. ومنهم الاديب العربي المعاصر الاستاذ اسعاف النشاشيبي في كتابيه [كلمة في اللغه العربية] و [الاسلام الصحيح].

---

(١) فهرس دار الكتب المصرية.

(٢) وشرح الامام محمد عبده ليس له كبير قيمة بالنسبة الى شرح ابن ابي الحديد، فهو لا يحتوي على ملاحظات ولا آراء شخصية كالذى تجده في شرح ابن ابى الحديد؛ وانما هو معجم لغوي يفسر فيه الكلمات الغامضة، مع ان الامام من كبار أئمة الاسلام الذين كان يكون لرأيهم اهمية كبرى في عالمي الادب والدين. وعلى الرغم من ان النهج محتوٍ على آراء تناقض آراء الامام محمد عبده السنية، فانه اكتفى بشرح المفردات دون اي تعليق؛ بخلاف ابن ابي الحديد الذي تبدو نزعته الشيعية في شرحه.

نسبته :

كتاب النهج من المؤلفات التي حامت حولها الشكوك ، فزعم قوم انه من وضع الشريف الرضي ، وزعم آخرون انه من وضع اخيه الشريف المرتضى ، وقال ناس ان كل ما جاء في النهج هو من كلام الامام علي ، وادعى آخرون ان في الكتاب كثيراً من الكلام المدسوس على الامام . وقبل ان نناقش هذه القضية نورد عليك آراء النقاد في ذلك من قدماء ومحدثين ، ثم نعقب على ذلك بما تراه الحق .

اراء القدماء

رأى ابن خلكان : [٦٠٨ ــ ٦٨١] يرى ابن خلكان ان في نسبة هذا الكتاب الى الشريف الرضي اضطراباً ، واليك نص كلامه : « قد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه أهو جمعه أم جمع اخيه الرضي ؟ وقد قيل انه ليس من كلام علي ، وانما الذي جمعه ونسبه اليه هو الذي وضعه ، والله اعلم (١) ».

رأى الحافظ الذهبي : [٦٧٣ ــ ٧٤٨] ويرى الحافظ ابو عبد الله الذهبي في ميزان الاعتدال « ان الكتاب مكذوب عليه جزماً (٢) .

---

(١) وفيات الاعيان : في ترجمة الشريف المرتضى

(٢) تاريخ الادب العربي لمحمود مصطفى ج ١ ص : ٦٥

رأى المؤرخ الصفدي : ويرى المؤرخ الصفدي ان هذا الكتاب من وضع الشريف الرضي وانه نحله الامام علياً (١).

رأى ابن ابي الحديد : المتوفى سنه ٦٥٥ ويرى ابن ابي الحديد ان النهج من كلام الامام علي ويردّ المنكرين بقوله : « ان كثيراً من ارباب الهوى يقولون : ان كثيراً من نهج البلاغة كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة ، وربما عزوا بعضه الى الشريف الرضي وغيره ، وهؤلاء قوم قد اعمت العصبية اعينهم فضلوا عن النهج (٢) » .

آراء المحدثين

رأى الامام محمد عبده : لم يصرح الامام محمد عبده في مقدمته على شرح النهج بشيء يدل على الشك في نسبة النهج الى الامام علي ، بل كل ما جاء فيه يدلنا على انه مقتنع تماماً بان النهج من كلام الامام واخبار الشريف الرضي . ويقول الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد : أوعسيت ان تسأل عن رأي الامام الشيخ محمد عبده في ذلك ، وهو الذي بعث الكتاب من مرقده ، ولم يكن احد اوسع منه اطلاعاً ، ولا ادق تفكيراً ؛ والجواب على هذا التساؤل : انا نعتقد انه رحمه الله كان مقتنعاً بان الكتاب كله للامام علي رحمه الله ، وان لم يصرح بذلك ، والدليل على هذه العقيدة انه يقول في مقدمته يصف الكتاب : « وان مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة ؛ هو حامل لوائها الغالب ، امير المؤمنين علي بن ابي طالب ،

---

(١) انظر فجر الاسلام ص ١٧٨ والروائع ج ١ ص : ر.

(٢) النهج « م » ج ١ ص : و

بل يتجاوز هذا المقدار الى الاعتراف بأن جميع الالفاظ صادرة عن الامام علي ، حتى انه ليجعل ما في الكتاب حجة على معاجم اللغة ، اسمع اليه وهو يقول : ج ٢ ص ١٩٧ من هذه المطبوعة «المواساة بالشيء : الاشتراك فيه ... قالوا : والفصيح في الفعل آسيته ، ولكن نطق الامام حجة » انتهى . واعاد هذه الكلمة بنفسها في ج ٣ ص ٧٢ الحاشيه ٤ من هذه المطبوعة ، وهو يذهب فيما ظنه ادباؤنا من علم الغيب الى نحو ما قررناه من انه تفرّس واستنتاج ؛ انظر اليه وهو يقول ج ٣ ص ١٣ من هذه المطبوعة « تفرّس فيما سيكون من معاوية وجنده ، وكان الامر كما تفرس (١) »] .

رأى المستشرق كليمان هوار Clément Huart : اما المؤرخ الفرنسي هوار فانه يشك في نسبة هذا الكتاب الى الرضي فيقول : « والشريف المرتضى — اذا لم يكن اخوه الرضي — هو مؤلف نهج البلاغة الذي هو عبارة عن مجموعة من الخطب نسبها المرتضى الى علي (٢) » .

رأى الاستاذ احمد امين : يشك الاستاذ احمد امين في نسبة هذا الكتاب الى الامام واليك نص كلامه : [ونسبوا اليه ما في نهج البلاغة ، وهو يشتمل على كثير من الخطب والادعية والكتب والمواعظ والحكم ، وقد شك في مجموعها النقاد قديماً وحديثاً كالصفدي وهوار ، واستوجب هذا الشك امور ؛ ما في بعضه من سجع منمق ، وصناعة لفظية لا تعرف بذلك العصر كقوله : « اكرم عشيرتك فانهم جناحك الذي به تطير ، واصلك الذي اليه تصير » وما فيه من تعبيرات انما حدثت بعد ان نقلت الفلسفة اليونانية الى العربية ، وبعد ان

---

(١) النهج « م » ج ١ ص : و

(٢) تاريخ الادب العربي ص ٢٥٢

دونت العلوم كقوله : « والاستغفار على ستة معانٍ ... والايمان على اربع دعائم ... » وكالذي فيه من وصف الدار وتحديدها ... هذا الى ما فيه من معانٍ دقيقة منمقة تدل على اسلوب لم يعرف الا في العصر العباسي كما ترى في وصف الطاووس (١)] .

رأي الاستاذ عبد الحميد : ويرى الاستاذ محمد محي الدين عبد الحميد المدرس في الازهر الشريف ، ان الكتاب من كلام الامام فيقول : [ليس من شك عند احد من ادباء هذا العصر ، ولا عند احد ممن تقدمهم ، في ان اكثر ما تضمنه « نهج البلاغة » من كلام امير المؤمنين عليه السلام .. ولكن بعض المعروفين من ادباء عصرنا يميلون الى ان بعض ما في الكتاب من خطب ورسائل لم يصدر عن غير الشريف الرضي جامع الكتاب ... واهم ما يجده باحثو الآداب العربية في هذا العصر من اسباب يدعمون بها القول بان الكتاب من صنع جامعه وتأليفه ذلك الذي نوجزه لك في الاسباب الاربعة الآتية :

١) : ان في الكتاب من التعريض بصحابة رسول الله (ص) مالا يصح ان يسلَّم صدوره عن بمثل الامام علي ...

٢) : إن فيه من السجع والتنميق اللفظي ، واثار الصنعة ، ما لا يعهده عصر علي ولا عرفه وانما ذلك شيء طرأ على العربية بعد العصر الجاهلي وصدر الاسلام ، وافتتن به ادباء العصر العباسي ...

٣) : ان فيه من دقة الوصف ، واستفراغ صفات الموصوف ، وإحكام الفكرة ، وبلوغ النهاية في التدقيق . . . وكل ذلك لم يلتفت اليه علماء الصدر الاول ولا ادباؤه وشعراؤه وانما عرفه العرب بعد تعريب كتب اليونان والفرس الادبية ...

---

(١) فجر الاسلام ص ١٧٨

٤ ـ ان في عبارات الكتاب ما يشتم منه ريح ادعاء صاحبه علم الغيب وهذا امر يجل عن مثله مقام علي... (١)].

رأى الاستاذ محمود مصطفى : يرى الاستاذ مصطفى ان اسباب الشعر في نسبة هذا الكتاب الى الامام تنحصر في النقاط الآتية :

١) : خلو الكتب الادبية والتاريخية التي ظهرت قبل الشريف الرضي من كثير مما في نهج البلاغة.

٢) : ما ورد فيه من فكرة عويصة ونظرة دقيقة ما لا يصح نسبته الى عصر علي.

٣) : اطالة الكلام الى الحد الذي لم يؤلف اذ ذاك كما في عهد الاشتر النخعي

٤) : ما في النهج من قول جارح وشتم صريح للصحابة ...

٥) : الاسلوب الصوفي والعبارات التي لم تعهد الا في ازمان متأخرة عن زمن الامام جرت على ألسنة المتكلمين.

٦) : الخطأ اللغوي الذي لا يصح نسبته الى عصر الامام (٢)

راى الاستاذ جميل سلطان : يختم الاستاذ سلطان رسالته عن نهج البلاغة بالنتيجة الآتية :

[ان الشك الذي خامرنا في صحة نسبة النهج قد تأكد في نهاية بحثنا هذا. ويستدل من التدقيق في نصوص نهج البلاغة انها لم تجمع قبل نهاية سنة ١٢٠ للهجرة. زد على ذلك أن النصوص المنسوبة الى علي والتي تناقلتها الرواة والقصاصون الوضاعون تظهر

---

(١) النهج «م» ج ١ ص : ج ، د ، ه.

(٢) الادب العربي ج ١ ص ٦٦

عليها مسحة الافكار الفلسفية والعلمية التي لم تعرف الا في عصور جاءت بعد علي ، ويدل اسلوبها على انها كتبت في العصر العباسي ، وهناك ايضاً عناصر من النقد تؤيد الاسباب المذكورة آنفاً كوجود بعض خطب لا يمكن ان تصدر عن علي ، ووجود قطع من آثار لادباء معروفين وجدوا بعد زمن الامام ... والخلاصة ان النهج هو مجموعة وضعها الشريف الرضي حفيد الامام ونسبها اليه ، وهذا لا يحط من قيمة النهج الادبية الذي يعتبر من الآثار الخالدة في الادب العربي . هذا رأينا نبديه بدون تحفظ(١).]

رأي المؤلفين : يقول الجاحظ [٢٥٥هجرية] في البيان والتبيين ما يأتي : [وهذه خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مدونة محفوظة ومخلدة مشهورة ، وهذه خطب ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم (٢) .

ويقول المسعودي [٣٤٦هجرية] في المروج عن خطب علي انها [في سائر مقاماته اربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة ، يوردها على البديهة ، تداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً (٣)] .

فكلمة الجاحظ تدلنا انه كان في القرن الثالث خطب معروفة للامام علي ، وكلام المسعودي صريح في عدد خطب الامام وانها كانت متداولة في اوائل القرن الرابع بين الناس .

ولما ان اراد الشريف الرضي في اواخر القرن الرابع جمع اشتات خطب الامام لم يكن في ذلك مخترعاً وانما كانت نواة هذه الخطب موجودة من قبله وبهذا يبطل قول من قال بانه هو الذي اخترع كل ما في النهج . ولكن ليس من شك في ان كثيراً مما في النهج منحول

---

(١) J. Sultan. Etude sur Nahg-al-Balagha p. 133 - 34

(٢) لبيان والتبيين ج ١ ص ١٧٤

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٦

ومنسوب الى الامام روي للشريف فنقله وجمعه في كتابه ، ويجب الا ننسى ان مافي النهج مما لا يليق صدوره عن الامام قد يكون من زيادات النساخ المتأخرين عن الشريف، لان الشريف المعروف بنبل نفسه ورفعة قدره ، ومكانته العلمية الرفيعة لا يقدم على دس مثل تلك الاقوال ونسبها الى جده الكريم .

ونحن اذا رحنا نلخص الشبه التي اوردها الشاكون في نسبة اكثرية النهج الى الامام نجدها تدور حول النقاط الآتية :

١) ان في الكتاب تعريضاً بالصحابة . والجواب على هذه النقطة : ان ما ورد من شتم انما انحصر في عمر وعثمان وبعض الصحابة الآخرين كما ورد في الخطبة الشقشقية ، وورد شتمه لمعاوية وعمرو بن العاص في كتب ارسل بها اليهما او خطب خطبها . اما الخطبة الشقشقية فمع ان ابن ابي الحديد قد صحح نسبتها الى الامام في كلام طويل ، واثبت انها مروية في كتب اخرى قبل الشريف الرضي . ولا يشك النقاد في انها مدسوسة على الامام قبل الشريف لان ما فيها من قول لا يصدر عن مثل الامام الذي احب عمر الذي زوجه ابنته وعرف قدره في الدفاع عن الاسلام وكذلك الامر في عثمان ، واما ما قيل في عمرو ومعاوية فان الامر لم يتعد الخلاف السياسي .

٢) ان في النهج فكراً عويصة ونظرات دقيقة ، لا يصح ان تنسب الى عصر الامام ، والجواب عن هذه النقطة ان علياً لا يمكن قط ان يستبعد عنه مثل هذه الفكر والنظرات ، لانه استفاد من الرسول الكريم حصافة الرأي ، وفصاحة اللسان ، وروائع الحكمة ؛ اضف ذلك الى كثرة انتقاله في المملكة الاسلامية الواسعة ، وهذا مما يوسع الفكر وينمي قوة النظر .

٣ً) اطالة الكلام اطالة لم تعهد في العصر الاسلامي . والجواب عن هـذه الشبهة مردود بالقرآن فان فيه اطالة للكلام في كثير من الامور التي كان يعالجها .

٤ً) ان فيه من السجع والتنميق اللفظي ما لا يعهد في العصر الاسلامي . والجواب انه ليس في نسبة الكلام المسجوع الى الامام ما يطعن في صحته فقد الف العرب السجع في جاهليتهم كما الفوه في بعض فواصل القرآن الكريم وفي الاحاديث النبوية وخطب ابي بكر وعمر وعثمان في الاسلام .

٥ً) ان فيه من الاسلوب الصوفي والعبارات التي لم تعهد الا في ازمان متأخرة وهذه من اقوى الشبه التي لا يمكن دفعها .

المختار من خطب الامام

الدعوة الى الجهاد : *

بلغ عليّ بن ابي طالب ان خيلاً لمعاوية وردت الانبار فقتلوا عاملاً له يقال له حسّان بن حسان البكري فخطب الناس :

اما بعد، فان الجهاد باب من ابواب الجنة ، فتحه الله لخاصة اوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودِرع الله الحصينة وجنته (١) الوثيقة ، فمن تركه رغبةً عنه البسه الله ثوب الذُّل، وشمله البلاء ، ودُيّث (٢) بالصّغار والقماءة (٣)، وضُرب على قلبه بالأسداد ، وأديل الحق منه بتضييع الجهاد وسِيم الخَسْف ومُنع النّصَف ، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم : أغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ما غُزِيَ قومٌ في عُقر دارهم إلاّ ذَلّوا فتواكلتم ، وتخاذلتم حتى شُنّت الغارات عليكم، وملكت عليكم الاوطان وهذا اخو غامد (٤) وقد وردت خيله الانبار وقد قتل حسّان بن حسّان البكري وازال خيلكم عن مسالحها (٥) ولقد بلغني أنّ الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والاخرى المعاهدة (٦) ، فينتزع حِجْلها وقُلْبها وقلائدها ورعاثها (٧) ما تمنعُ منه

---

* : النهج «م» ج ١ ص ٦٣

(١) جنته : وقايته . (٢) ديث : ذلل. (٣) القماءة : الذل . (٤) أخو غامد : يريد به سفيان بن عوف (٥) المسالح : ج مسلحة وهي الثغر . (٦) المعاهدة : الذمية . (٧) حجلها : خلخالها ، والقلب ، السوار . والرعاث : جمع رعثة وهي القرط .

الاّ بالاسترجاع والاسترحام ثم انصرفوا وافرين ما نال رجلاً منهم كَلْمٌ (١) ، ولا أريق لهم دمٌ ؛ فلو أنّ مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان به ملوماً ، بل كان به عندي جديراً ؛ فيا عجباً — والله — يُميت القلب ويجلب الهمّ اجتماعُ هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرّقكم عن حقكم ، فقبحاً لكم وترحاً (٢) حين صرتم غرضاً يُرمى : يُغارُ عليكم ولا تُغيرون ، وتُغزَوْنَ ولا تَغزون ، ويُعصى الله وترضَوْنَ ، فاذا امرتُكم بالسير اليهم في ايام الصيف قلتُم هذه حمارّة القيظ امهلنا يُسبخ (٣) عنا الحر ، واذا امرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم : هذه صبارّة القُرّ (٤) امهلنا ينسلخ عنا البرد ، كل هذا فراراً من الحرّ والقُرّ . فانتم والله من السيف أفرّ ، يا اشباهَ الرجال ولا رجالَ! حلومُ الاطفال وعقولُ ربّات الحجال ، لَوَدِدْتُ أني لم أركم ، ولم أعرِفكم ! معرفةٌ والله جرّت ندَماً ، وأعقبت سَدَماً ،(٥) قاتلكم الله ! ! لقد ملأتم قلبي قيحاً ، وشحنتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني نُغَبَ التّهامِ (٦) أنفاساً ، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريشٌ : إن ابن ابي طالبٍ رجلٌ شجاعٌ ولكن لا علمَ له بالحرب ! لله ابوهم!! وهل أحدٌ منهم اشدُّ لها مراساً (٧) ، وأقدمُ فيها مَقاماً مني؟! لقد نهضتُ فيها وما بلغتُ العشرين ، وها أنا ذا قد ذرّفتُ (٨) على الستين ، ولكنْ لا رأيَ لمن لا يُطاع !!

ومن قوله في الزهد * :

«عباد الله ، إن من أحب عباد الله اليه عبداً ، أعانه الله على نفسه ، فاستشعر الحزنَ ،

---

(١) كلم : جرح . (٢) ترحاً : حزناً وهماً او فقراً . (٣) التسبيخ : التخفيف والتسكين .
(٤) القر : البرد . (٥) سَدَماً : أسفاً وغيظاً . (٦) النغب : جمع نغبة وهي الجرعة . والتهمام : الهم .
(٧) مراساً : معالجة ومزاولة . (٨) ذرفت : زدت .

* النهج «م» ج ١ ص ١٤٩ وما بعدها .

وتجلببَ الخوفَ ، فزهرَ مصباحُ الهدى في قلبه ، وأعدَّ القِرى (١) ليومه النازل به ، فقرَّب على نفسه البعيد ، وهوَّن الشديد ؛ نظر فأبصر ، وذكر فاستكثر ، وارتوى من فُراتٍ سَهُلتْ له موارِدُه ، فشرب نَهَلاً (٢) ، وسلك سبيلاً جَدَداً (٣) . قد خلع سرابيل الشهوات ، وتخلَّى من الهموم إلا همّاً واحداً انفرد به ، فخرج من صفة العَمى ، ومشاركة أهل الهوى ، وصار من مفاتيح أبواب الهُدى ، ومغاليق ابواب الردى ؛ قد أبصرَ طريقَه ، وسلك سبيلَه ، وعَرَفَ منارَه ، وقطع غِمارَه (٤) ؛ استمسك من العُرى بأوثقها ، ومن الحبال بأمتنها ، فهو من اليقين على مِثل ضوءِ الشمس . قد نَصب نفسه لله سبحانه فى ارفع الامور من إصدار كل وارد عليه ، وتصييرِ كلِّ فرعٍ الى اصله . مصباحُ ظُلُماتٍ ، كشّافُ عَشاواتٍ (٥) ، مفتاح مُبهَماتٍ ، دفّاعُ مُعضِلاتٍ ، دليلُ فَلَواتٍ ؛ يقول فيُفْهِم ، ويسكت فيَسلَم ؛ قد أخلص لله فاستخلصَه ، فهو من معادِن دينه ، وأوتاد أرضه ، قد ألزم نفسَه العدلَ . فكان أولُ عدله ، نَفيَ الهوى عن نفسه ، يصفُ الحقَّ ويعمَلُ به ، لا يدعُ للخير غايةً إلا أمَّها (٦) ، ولا مَظنَّةً إلا قصدها ، قد أمكن الكتابَ من زِمامِه ، فهو قائدُهُ وإمامُه ، يَحُلُّ حيث حلَّ ثَقَلُه (٧) ، وينزلُ حيث كان منزلُه .

---

(١) القرى ما يهيأ للضيف ، وهو هنا العمل الصالح يهيئه للقاء الموت وحلول الاجل . (٢) النهل : اول الشرب والمراد أخذ حظاً لا يحتاج معه الى العمل ، وفُسر ايضاً أنه شرب حتى روى . (٣) الجدد : الارض الصلبة المستوية . (٤) الغمار : معظم البحر ويريد انه عبر المهالك الى سواحل النجاة . (٥) العشاوات جمع عشاوة وهي سوء البصر او العمي . (٦) أمّها : قصدها . (٧) الثّقل : ما يحمله المسافر من متاع .

ومن خطبة قوله * :

« رحم الله عبداً سمع حُكماً فوعى ، ودُعي إلى رشادٍ فدنا ، وأخذ بحُجزةِ (١) هادٍ فنجا ، راقب ربَّه وخاف ذنبه . قدَّم خالصاً وعمل صالحاً ، اكتسب مذخوراً (٢) واجتنب محذوراً . رمى غرضاً ، واحرز عِوَضاً ؛ كابر هواه ، وكذب مناه ، جعل الصبر مطية نجاته ، والتقوى عُدَّةَ وفاته ، ركب الطريقة الغرّاء ، ولزم المحجةَ (٣) البيضاء . اغتنم المَهَلَ (٤) ، وبادر الاجلَ ، وتزوَّد من العمل »

ومن خطبة له في وصف الدنيا قوله * :

« ألا وإن الدنيا قد تصرَّمتْ ، وآذنت بوداع ، وتنكر معروفُها ، وأدبرتْ حذّاء (٥) ، وهي تحفز (٦) بالفناء سكانَها ، وتحدو بالموت جيرانها ، وقد أمرَّ منها ما كان حُلواً ، وكدر منها ما كان صفواً ، فلم يبقَ منها الا سَمَلَةٌ كسملة الاداوة (٧) ، او جرعة كجرعة المَقلَة (٨) لو تمزَّزها الصَّديانُ لم ينقعْ ، (٩) فأزمعوا ، (١٠) عبادَ الله ، الرحيلَ عن هذه الدار المقدورِ على أهلها الزَّوالُ ، ولا يغلبنكم فيها الأمل ، ولا يطولَنَّ

---

* النهج «م» ج ١ ص : ١٢٢

(١) الحجزة : معقد الازار . (٢) المذخور : المخبأ لوقت الحاجة . (٣) المحجة : جادة الطريق ومعظمه . (٤) المهل : مدة الحياة مع العافية .

* النهج ج ١ ص : ٩٦ .

(٥) حذاء : مسرعة . (٦) تحفز : تدفع . (٧) السملة : بقية الماء في الحوض والاداوة اناء الماء الذي يتطهر به . (٨) المقلة : حصاة يضعها المسافرون في اناء ثم يصبون الماء فيه ليغمرها فيتناول كل منهم مقدار ما غمره ، لا يزيد احدهم على الآخر في نصيبه . يفعلون ذلك اذا قل الماء وارادوا قسمته بالسوية . (٩) أي لو امتصها العطشان قليلاً قليلاً لم يروَ . (١٠) أزمعوا اعزموا .

عليكم الأمد، فو الله لو حنتم حنينَ الوُلّهِ العجال (١) ودعوتم بهديل الحمام، وجأرتم جُؤارَ مُتبتل (٢) الرهبان. وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد، التماس القُرْبة إليه في ارتفاع درجة عندَهُ، او غفرانِ سيئةٍ أحصتها كتبُه، وحفظها رُسله، لكان قليلاً فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه.

عهد الاشتر النخعي :

ومن كتبه عهده للأشتر النخعي، لما ولاّه على مصرَ وأعمالها، حين اضطرب أمر محمد بن أبي بكر، وهو اطول عهد، وأجمع كتبه للمحاسن (٣)

هذا ما أمرَ به عبدُ الله عليٌ مالكَ بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاّه مصر : جبايةَ خراجها، وجهادَ عدوّها، واستصلاحَ أهلها، وعمارة بلادها.

أمرَهُ بتقوى الله، وإيثارِ طاعته، واتباعِ ماأمر به في كتابه : من فرائضه وسننه، التي لا يسعَدُ أحدٌ إلا باتباعها، ولا يَشقى إلا مع جحودها وإضاعتها، وأن ينصرَ الله سبحانه بقلبهِ ويده ولسانهِ فانه جلّ اسمه قدتكفل بنصرِ من نَصرَهُ وإعزازِ من أعزّه.

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويَزَعها (٤) عند الجمحات، فان النفس أمارة بالسوء إلا ما رحمَ الله.

ثم اعلم ! يامالكُ أني قد وجهتك الى بلاد قد جرَتْ عليها دولٌ، قبلكَ من عدل وجوْرٍ، وأن الناس ينظرون من أمورِكَ في مثل ما كنت تَنظرُ فيه من أمورِ الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كُنتَ تقول فيهم، وانما يُستدلُّ على الصالحين بما يجري اللهُ لهم على ألسن عبادِه، فليكن أحبّ الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك

---

(١) العجال: الابل التي فقدت ولدها. (٢) متبتل : منقطع الى العبادة. (٣) النهج «م» ج ٣ ص ٩٢ فما بعدها. (٤) يزعها : يكفها عن مطامعها.

وشُحَّ بنفسك عما لا يحلُّ لك ، فان الشحَّ بالنفس الانصافُ منها فيما أحبت او كرهت، وأشعر قلبك الرحمةَ للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم . . . (١)

---

(١) ثم يسترسل في ما يجب أن يعامل الرعية به من عفو وصفح ، ولين ورحمة . وينهاه « عن مساماة الله في عظمته والتشبه في جبروته » خيفة ان يذل ويهان ، ويأمره بالعدل وعدم التعرض لسخط العامة في سبيل ارضاء الخاصة لأن « عماد الدين وجماع المسلمين والعُدّة للاعداء ، العامةُ من الامة ، فليكن صفوك لهم وميلك معهم » . ويدعوه الى البعد عمن يتعرض لمعائب الناس وعن البخيل ، والجبان ، والحريص ، لان « البخل والجبن والحرص ، غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله » . ثم يأمره ان تكون بطانته الاخيار من الناس واهل الورع والصدق . ويقول : « ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء ، فان في ذلك تزهيداً لاهل الاحسان في الاحسان ، وتدريباً لاهل الاساءة على الاساءة ، وألزم كلاً منهم ما الزم نفسه . »

ثم يقسم الرعية الى طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ، وهم: الجنود والكتاب وقضاة العدل ، واهل الجزية والخراج والتجار ، واهل الصناعات والطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة . ويأخذ بوصف كل طبقة وصفاً رائعاً ، فيبين وظائفهم وواجباتهم وحقوقهم ، والصلة بين كل طبقة واخرى ، وما يجب ان يسلكه في اختيار رؤوس الجند والحكام ورجال الخراج ، وتنظيمه امورهم والسهر على حال كتّابه ومعاملة رجال الطبقة السفلى ، وبطانته الخاصة حتى يقول : « ولا تدفعنَّ صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى ، فان في الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك . . . »

ثم ينهاه عن سفك الدماء بغير حق ، وان ابتلى بخطأ او افرط عليه سوطه او سيفه فليؤد الى أولياء المقتول حقهم .

ثم ينهاه عن الاعجاب بالنفس وحب الاطراء ، والمن على الرعية والعجلة بالامور ، والاثرة ، لان ذلك خروج عن خطة الحكومة العادلة والسنة الفاضلة .

وأخيراً يدعو له بالتوفيق ، مع حسن الثناء في العباد ، وجميل الاثر في البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة .

مصادر البحث

بالعربية

ابن جرير الطبري :	تاريخ الامم والملوك	الطبعة الاولى :	مصر
اليعقوبي :	تاريخ اليعقوبي	طبعة هوتسما :	ليدن
المسعودي :	مروج الذهب	طبعة دار الرجاء :	مصر
ابوحنيفة الدينوري:	الاخبار الطوال	الطبعة الاولى :	مصر
ابن قتيبة :	المعارف	الطبعة الثانية :	مصر
الشريف الرضي :	نهج البلاغة	مطبعة الاستقامة :	مصر
″ :	″	المطبعة الاهلية :	بيروت
ياقوت الحموي :	معجم البلدان	طبعة الخانجي :	مصر
″ :	معجم الادباء	مطبعة هندية :	مصر
ابن الطقطقى :	الفخري	الطبعة الاولى :	مصر
ابن عبد ربه :	العقد الفريد	الطبعة الاولى :	مصر
الشهرستاني :	الفصل في الملل والنحل	مطبعة السعادة :	مصر
ابن العبري :	مختصر تاريخ الدول	المطبعة اليسوعية:	بيروت
ابن الاثير :	التاريخ الكامل	طبعة بولاق :	مصر
ابو الفداء :	المختصر في تاريخ البشر	الطبعة الاولى :	مصر
سيد أمير علي :	مختصر تاريخ العرب	طبع لجنة التأليف والنشر:	مصر
طه حسين :	من حديث الشعر والنثر	مطبعة الصاوي :	مصر
فؤاد افرام البستاني :	الروائع ج ١	المطبعة اليسوعية :	بيروت
محمود مصطفى :	الادب العربي وتاريخه	طبعة البابي الحلبي :	مصر
سركيس :	معجم المطبوعات العربية	مطبعة سركيس:	مصر

بالفرنسية

J. Sultan : Etude sur Nahj Al-Balagha. Paris 1940

P. H. Lammens : 'A propos de Ali Ibn Abi Taleb (M. F. O. VII)

Buhl : Siffin (dans l'encyclopédie de l'Islam .)

Huart : 'Ali Ibn Abi Taleb (dans l'Encyclopédie de l'Islam.)

حسان بن ثابتؓ

التوطئة

الشعر في عصر النبوة :

مهدنا في بحثنا عن زهير بن ابي سلمى ، بكلمة موجزة عن منزلة الشعر في العصر الجاهلي ، وأثره في حياة العرب الاجتماعية والفكرية . وقلنا إن العرب كانت اكثر الامم القديمة عناية بالشعر واشتغالاً به ، لما أثر عنهم من شعر كثير ، حتى خيل للباحثين أن الشعر سجية من سجاياهم ، وطبيعة من طبائعهم . والحق أن القدماء انفسهم لم يشتطوا حين قالوا : إن الشعر ديوان العرب ، اي انه سجلٌ لفضائلهم واعمالهم ، وما يتصفون به من رفيع الصفات وذميمها .

لم يكن للجاهلية مُثُلٌ اخلاقية عالية . فقد كان الناس ، وفي مقدمتهم الشعراء ، يعيشون في جو منطلق من قيود دين من الاديان ، او شريعة من الشرائع ، فهم يعيشون حياة تتلائم وعباداتهم الوثنية التي لا تجعل للتعاليم الاخلاقية عظيم قيمة ولا كبير خطر ، ولهذا كانت الروابط الاجتماعية بين الافراد ، قائمة على عادات وتقاليد انكر الاسلام الكثير منها . . .

ومن أبرز تلك العادات ، العصبية القَبَلية التي كانت تشعل نيران الحرب والمباهاة والعنجهية بينهم ، و كانت تعمل دوماً في إثارة الضغائن والاحقاد الدفينة في القلوب ، ومن هنا ندرك خطورة المكانة التي كان يتمتع بها الشاعر في الجاهلية ، فهو الذي ينافح عن

قبيلته ، ويدافع عن سمعتها ، حتى ليثير في كثير من الاحيان الفتنة بين القبائل ببيت واحد من الشعر . وكان لكل قبيلة شاعر فحل ينطق بلسانها ، ويعبر عن امانيها ورغائبها ، حتى اصبح نبوغ شاعر من الشعراء في احدى القبائل ، مدعاة للتهاني والتباشر والافراح .

جاء الاسلام حاملاً الى العالم تعاليم العدل والمساواة والحرية ، فكان حرياً ان يحارب تلك العصبية التي كانت تبدد شمل العرب ، وتفرق كلمتهم ، وتضعف قوتهم . كما حارب تلك النعرة الجاهلية التي كانت تقوم دعائمها على الفخر الكاذب ، وقذف المحصنات ونهش الاعراض . ونشر التعاليم الدينية السمحاء التي ساوت بين الناس على مختلف اجناسهم وعروقهم . . وقد أثر هذا في شعراء صدر الاسلام ، فحفظوا ألسنتهم ، والتزموا حدود الاخلاق والفضيلة .

وقد كان لبلاغة القرآن العظيم أثرها في إضعاف بلاغة الشعر الجاهلي والتعفية على روعته حتى انقطع جل الشعراء عن قول الشعر ، إما تديناً وورعاً ، واما انبهاراً من بلاغة القرآن التي يتضاءل امامها كل قول بليغ . وتبوخ كل فصاحة ؛ كلبيد بن ربيعة اذ قيل إنه لم يرو عنه شعر بعد اسلامه الا بيت واحد وهو :

الحمد لله اذ لم يأتني اجلي حتى لبستُ من الاسلام سربالا

وكان لبيد يقول : «قد أبدلني الله بالشعر سورتي البقرة وآل عمران» . واما بقية الشعراء الذين لم ينقطعوا عن نظم الشعر بعد الاسلام كحسان بن ثابت الانصاري ، وكعب بن زهير ، وعبد الله بن رواحة وغيرهم ، فقد تأثروا بتعاليم الدين الجديد فهذبوا شعرهم ، وسخروه للدفاع عن الدين والنبي الكريم ، والزراية بالمشركين والمنافقين .

على ان هناك بعض شعراء لم يتمكن الاسلام من قلوبهم ، كالحطيئة ، فانه ظل محافظاً

على عاداته الجاهلية ، وحياته المجونية ، واخلاقه المنحلة . ولكنه مع ذلك قد تأثر بالقرآن في اسلوبه والفاظه .

ولا بد لنا من بيان رأي الرسول الكريم في الشعر واصحابه ، فقد كان يعطف على بعض الشعراء ويشجعهم ويناصرهم ويدعو لهم ، ولم ينل اولئك النفر هذه المنزلة عند النبي العظيم ، الا لتخلقهم باخلاق الاسلام ، والتطوع للدفاع عن مبادئه القويمة السامية ، وكان شاعرنا حسان بن ثابت أحد الذين نالوا هذه الحظوة ، فعاش في كنف الرسول الكريم ، ونال منه اكراماً كثيراً . وكان ينصب له منبراً في المسجد ، ويسمع هجاءه لاعدائه .

روي ان النبي عليه الصلاة والسلام قال لحسان بن ثابت : « شنّ الغارة على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام ».

أثر الاسلام في الشعر فزاد في بعض أغراضه ، وأنقص من بعضها ؛ فاما الذي زاده فهو الاكثار من الحكمة وضرب الامثال ، لكثرة ما ورد منهما في القرآن ، ولنضج العقل العربي المتأثر بالدين الاسلامي ، ولما اكتسب من التجارب العملية في الحياة . وقد طبع الشعر بالمسحة الدينية ، وكثر الكلام في الورع والتقوى والزهد ، وذكر البعث والجنة والنار والقضاء والقدر . وأما الذي ابطله الاسلام . فهو وصف الخمر لأنه حرم شربها ، وكذلك الغزل الفاحش الذي يتنافى مع الاداب الاسلامية ؛ وسنرى ان حسان عالج الغزل في كثير من قصائده التي قالها في الاسلام ولكنه غزل عفيف ليس فيه ما ينكره الدين .

حسان بن ثابت رضي الله عنه

[٥٦٢ م — ٥٤ هـ]

حياته — اخلاقه — شعره — اغراضه الشعرية — الخمر — الوصف — الفخر — المديح — الهجاء — الرثاء
شعره بعد الاسلام — هجاؤه — فخره — رثاؤه — مكانة حسان في الادب العربي
ديوانه — المختار من شعره — مصادر البحث

حياته:

هو حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجي من بني النجّار، وينتهي نسبه الى الأزد. فهو يمني المحتد، حجازي المولد. وامه الفُريعة بنت خالد الخزرجية، ويكنى ابا عبد الرحمن وابا الوليد، وابا الحسام، ويلقب بشاعر رسول الله (١)

ولد حسان في الجاهلية، وقد اختلف الناس في مولده، فبعضهم يروي عنه انه قال: اني لغلام يفعة ابن سبع سنين او ثمان، اذا يهودي بيثرب يصرخ ذات غداة: «يا معشر يهود! فلما اجتمعوا اليه قالوا: «ويلك مالك؟ قال: طلع نجم احمد الذي يولد به في هذه الليلة. ثم ادركه اليهودي ولم يؤمن به (٢).» هذا ما يرويه ابو الفرج، ثم يعقب عليه بقوله: «وهذا يدل على مدة عمره في الجاهلية، لأنه ذكر انه ادرك ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم، وله يومئذ ثمان سنين، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث وله اربعون

---

(١) الاستيعاب: لابن عبد البرّ ج ٢ ص: ١٢٥

(٢) الاغاني ج ٤ ص: ٢

سنة ، واقام بمكة ثلاثة عشر سنة ، فقدم المدينة ولحسان يومئذ على ما ذكر ستون سنة ، او احدى وستون سنة (١)

هذا ما رواه ابو الفرج وما استنتجه ، وقد تضافرت اقوال الرواة : على ان حساناً ابن ثابت عاش في الجاهلية ستين عاماً ، ثم ان القصة التي رويت عن اليهودي (٢) سواءً أكانت صحيحة ام غير صحيحة تدل على ان حساناً ادرك مولد الرسول وله نحو من سبع سنين ؛ فعلى هذا يكون مولده حوالي سنه [٥٦٢ او ٥٦٣ م (٣)]

نشأ حسان بيثرب وهي يومئذٍ مدينة كبيرة كثيرة الخصب والتجارة ، يسكنها الاوس والخزرج واليهود ، وكانت كثيرة الاضطرابات والفتن ، لأن اليهود كانوا يوقعون بين الاوس والخزرج ليصفو لهم الجو ، فكانوا تارة ينضمون الى هؤلاء ، واخرى الى اولئك ، وقد وقعت وقائع كبيرة بين الأوس والخزرج ، وآخرها وقعة بُعاث ، وكانت قبل الهجرة بخمس سنوات (٤) ، وظل القوم في فتنة حتى هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم اليهم واسلموا ، فألف بينهم وقضى على دسائس اليهود .

---

(١) الاغاني ج ٤ ص : ٢

(٢) الاستيعاب ج ١ ص ١٢٨ . ابن عساكر ج ٤ ص : ١٢٥ . ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص : ٦١ . الاصابة لابن حجر : ج ٢ ص : ٨

(٣) ويرى دي پرسفال ان مولد حسان سنة ٥٦٣ م (انظر :
Essai sur l'histoire de Arabes Tome II p. 669
ويشايعه في ذلك (T. H. Weir) في المقالة التي كتبها عن حسان في دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ٣٠٦)

(٤) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب ص : ٥٠ — ٧٠

في هذه البيئة المضطربة ولد حسان في بيت شرف ونبل. كان ابوه ثابت من سادات قومه وكان جده المنذر الحكمَ بين الأوس والخزرج في يوم سُمَيحةَ «وهو يوم من اشهر ايام قبيلتي الأوس والخزرج في الجاهلية» وقد احتمل فيه ديات الأوس، والى هذا يشير حسان في قصيدته التي قال فيها:

مَنَعَ النومَ بالعِشاء الهمومُ وخيالٌ اذا تغورُ النُّجومُ (١)

وكان حسان يقول لشعر في ما كان يقوله شبان الجاهلية وانك اذا قرأت شعره الذي قاله في شبابه: احسست بروح جاهلية ونزعة عصبية، وسترى تفصيل هذا في كلامنا على شعره الجاهلي. لم يكتف حسان في الجاهلية بأن يقول شعره في ما كان يكون بين الأوس والخزرج واليهود، وفي ما تقضيه حياة الشباب في الجاهلية؛ وانما كان يقصد الشام ويتصل بملوكها من بني غسان: يمدحهم ويرثيهم، وقد اصاب من ذلك اموالاً كثيرة (٢)

* * *

ولما ظهر الاسلام، وهاجر الرسول الى المدينة، واسلمت الاوس والخزرج، دخل حسان في دين الله، وكان شعراء قريش يحملون على الرسول وصحابته، وكان من اشدهم هجاءً عبد الله بن الزِّبَعْرى (٣)، وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، وضرار بن الخطاب (٤).

يذكر الرواة ان بعض الصحابة كان طلب الى علي بن ابي طالب ان يهجو قريشاً

---

(١) الشعر والشعراء: لابن سلاّم ص: ٨٤. والديوان «ب» ص: ٣٧٦. تغور: تغيب.

(٢) ابن عساكر: ج ٤ ص: ١٣٥

(٣) من شعراء قريش المعدودين وتجد اخباره في الاغاني ج ١١ ص: ١٤

(٤) الاستيعاب ج ١ ص: ١٢٦

فقال له : إن أذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلت ، فاستأذنوه فقال : إن علياً ليس عنده ما يراد في ذلك ، ثم قال : ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسّان : انا لها يا رسول الله ؛ واخذ بطرف لسانه وقال : والله ما يسرُّني مقول بين بصرى وصنعاء . فقال رسول الله : وكيف تهجوهم وانا منهم ؟ وكيف تهجو ابا سيفان وهو ابن عمي ؟ فقال له : والله لأسلنّك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين . فقال له : إئت ابا بكر فانه اعلم بانساب القوم منك ، فكان يمضي الى ابي بكر ليقفه على انسابهم ، فكان يقول له : كف عن فلان وفلان ، واذكر فلاناً وفلاناً . فجعل حسان يهجوهم . فلما سمعت قريش شعر حسان قالوا : ان هذا الشعر ما غاب عنه ابن ابي قحافة » (١)

وكان يهجو المشركين غيرَ حسان ، كعبُ بن مالك وعبدُ الله بن رواحة . وكان كعب وحسان يعارضانهم بمثل قولهم في الوقائع والأيام والمآثر ، ويذكران مثالبهم ، وكان ابن رواحة يعيرهم بالكفر والفسوق وعبادة ما لا يسمع وما لا ينفع . فكان قوله يومئذٍ اهون عليهم . وكان قول حسان وكعب اشدَّ عليهم ، فلما اسلموا وفقُهوا كان اشدَّ القول عليهم قول ابن رواحة (٢)

ظلَّ حسان يقول الشعر ايام الرسول في هجاء المشركين ، ومدح الرسول ، ورثاء صحابته ، وذكر الغزوات النبوية بالتمجيد والتفخيم . وشعره الذي قاله في الاسلام ، ديوان للتاريخ السياسي في عصر النبوة ، وسترى تفصيل هذا فيما بعد .

---

(١) الاستيعاب : ج ١ ص : ١٢٦ . ابن عساكر : ج ٤ ص ١٢٧ . الاغاني ج ٤ ص ٤

(٢) الاستيعاب : ج ١ ص ١٢٧

وقد حدث لحسان ايام الرسول حادثة كان لها أثر في حياته ، وهي حادثة الافك ؛ فانه كان احد الثلاثة الذين أتهموا السيدة عائشة بصفوان بن المُعطّل السُلَمي ، لما كان المسلمون راجعين من غزوة بني المصطلق ، في السنة الخامسة للهجرة ، فلما برّأ الله السيدة عائشة ، ونزلت آية « إن الذينَ جاؤوا بالإفك عُصبةٌ منكم لاتحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم لكلّ امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولّى كبره منهم له عذابٌ عظيمٌ » ، ضُرب حسان حدّ القذف ثمانين جلدة ، ثم ان صفوان بن المعطل اعترضه حين بلغه انه قال شعراً يعرض فيه بابن المعطّل وبمن اسلم من العرب من مضر وهو قوله :

أمسى الجلابيبُ قد عزّوا وقد كثُروا ... وابن الفُرَيْعَةِ أمسى بيضةَ البلدِ
قد ثكلَتْ أمه مَن كنتُ صاحبَهُ ... او كان مُنتَشباً في بُرثُنِ الأسدِ
ما للقتيلِ الذي أسمو فآخُذُهُ ... من دِيَّةٍ فيه يُعطاها ولا قَوَدِ (١)

فاعترضه صفوان بن المعطّل فضربه ، فلما ضرب حسان ذهب قَيْس بن الشماس الخزرجي ، فوثب على صفوان وأوثقه وذهب به الى دار بني الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال له : ما هذا ؟ قال : ضرب حسانَ بالسيف ، والله ما أراه إلا قد قتله . فقال ابن رواحة : هل علمَ رسول الله بشيء مما صنعت ؟ قال لا . قال قد اجترأت !! أطلق الرجلَ ، فأطلقه . ثم أتوا رسولَ الله فذكروا له ذلك ، فدعا حسان

---

(١) الديوان ص : ٩٤ . الديوان « ب » ١٠٤ . الجلابيب : سفلة الناس وفي رواية الاغاني الخلابيس وهم الذين ليسوا على استقامة . بيضة البلد : يريد حسان انه بعد ان كان ذا ثروة وشرف امسى كبيضة النعام متروكة في الفلاة . قد ثكلت الخ . . . : يريد انه شجاع وان كل من يلقاه تفقده امه .

وصفوان . فقال صفوان : هجاني فاحتملني الغضب فضربته . فقال الرسول لحسان : أحسنْ ياحسان في الذي قد اصابك . فقال حسان : هي لكَ يارسول الله . ثم ان الرسول اعطاه أَمةً قبطية اسمها سيرين ، وهي التي ولدت عبد الرحمن (١) .

هذا ما جرَّ على حسان مشايعته القائلين بالافك ، غير انه قد تبرأ منه واعتذر الى السيدة عائشة . فمن ذلك قوله في قصيدة ، :

حَصانٌ رَزانٌ ما تُزَنُّ بريبةٍ ... وتُصبحُ غَرْثى من لحومِ الغوافلِ
حَليلةُ خيرِ الناسِ ديناً ومَنصباً ... نبيِّ الهدى والمكرُماتِ الفواضلِ
عقيلةُ حيٍّ من لؤي بن غالبٍ ... كرامِ المساعي مَجدُهم غيرُ زائلِ
مُهذبةٌ قد طيَّبَ اللهُ خِيمَها ... وطهَّرها من كل سوءٍ وباطلِ
فان كنتُ قد قلتُ الذي قد زعمتُم ... فلا رَفعتْ سَوطي اليَّ انامِلي (٢)

***

ظلَّ حسان طول حياة الرسول منافحاً عنه ، مادحاً اياه ، الى ان لبى نداء ربه ؛ فكان خلفاؤه ابو بكر وعمر وعثمان يكرمونه . ولما وقعت الفتنة وقتل عُثمان اكثر من رثائه وحمل على قاتليه ، وانضم الى الامويين ، وقد اكثر من ذلك في شعره ؛ كقوله وهو من اروع ما قال حسان لانه كان محباً لعثمان مخلصاً اليه :

---

(١) الطبري ج٣ ص ٧١ . ابن هشام ج ٣ ص : ١٤٩ . ابن عساكر : ٤ ص ١٢٧ . الاغاني : ج ٤ ص ١٢-١٣

(٢) الديوان ص: ٢٥٨ - الديوان «ب» ٣٢٤ الحَصَان : المرأة المحصنة العفيفة الرزان : المرأة ذات الثبات والوقار والعفاف. تُزن : تتهم بريبة . غرثى جائعة. الخيم «بالكسر»: العنصر والمحتد . الغوافل : جمع غافلة «والمعنى» انها لا ترتع في اعراض الناس .

إن تمس دارُ ابنِ أروى منهُ خالية ... بابٌ صريعٌ وبابٌ محرقٌ خربُ
فقد يُصادفُ باغي الخيرِ حاجتهُ ... فيها ويأوي إليها الذكرُ والحسبُ
يا أيها الناسُ أبدوا ذاتَ أنفسكمْ ... لايستوي الصدقُ عندَ اللهِ والكذبُ (١)

وقال ايضاً مشيراً الى مقتل عثمان من قصيدةٍ :

أتركتمُ غزوَ الدروبَ وجئتمُ ... لقتالِ قومٍ عند قبرِ محمدِ
فلبئس هدى الصالحين هديتمُ ... ولبئس فعل الجاهل المتعمد
إن تقبلوا نجعل قِرى سرواتكم ... حولَ المدينةِ كلُّ لدنٍ مِذودَ
وكأنَّ اصحاب النبي عشيةً ... بُدنٌ تنحرُ عند باب المسجد (٢)

وقال من ابيات يعرض فيها بعلي ويميله الى معاوية :

بل ليت شعري وليت الطير تخبرني ... ما كان شأنُ عليٍ وابن عفانا
ضحوا بأشمطَ عنوان السجودِ به ... يُقطّع الليلَ تسبيحاً وقرآنا
لتسمعنَّ وشيكاً في ديارهمُ ... اللهُ اكبر يا ثاراتِ عثمانا
وقد رضيت بأهل الشام زافرةً ... وبالامير وبالاخوانِ إخوانا
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا ... حتى المماتِ وما سُمّيتُ حسانا (٣)

---

(١) الديوان ص : ٢٨ والديوان « ب » ص : ٢٢ . اروى : ام عثمان . فيها . . . الضمير للدار . ابدوا . . اظهروا قوتكم وبسالتكم . في هذا البيت يدعو حسان الناس الى الاخذ بثأر عثمان .

(٢) الديوان ص : ٩١ . قرى سرواتكم : ضيافة اشرافكم . المذود : الرمح . اللدن : الطري البدن : جمع بدنة وهي الناقة او البقرة تنحر بمكة سميت بذلك لانهم يسمنون بدنها .

(٣) الديوان ص : ٣٣٨ ــ ٣٩ . الاشمط : الذي خالط سواد شعره بياض ويعني به عثمان . وشيكا : سريعاً . زافرة انصاراً . بالامير : يريد به معاوية .

وله اشعار كثيرة اخرى في مرثية عثمان وذم الخارجين عليه ، وطبيعي جداً ان يكون حسان فيمن تخلفوا عن بيعة علي كما تخلّف كثير من عشيرته الانصار امثال كعب بن مالك وابي سعيد الخُدري والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت (١).

ولما استقر الامر لمعاوية في دمشق قدم عليه فاكرمه ونعمّه وحسن مقامه عنده (٢) وهكذا ظل حسان الى ان اصيب ببصره فانزوى في بيته الى ان مات في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ على الاصح وقيل انه مات في خلافة علي سنة ٤٠ هـ .

اخلاقه :

اسلم حسان وآمن بالرسول ودافع عنه ونافح عن الدعوة الاسلامية بقوة ، ولكنّ شيئاً من الجاهلية ما زال فيه وهو « عصبيته لقبيلته » فقد تجلت هذه العصبية في حوادث عديدة حفظها التاريخ منها :

١) هجاؤه المهاجرين جميعاً حين اخذ الناس في المدينة يتكلمون في حادثة الافك فاتخذ حسان اسم صفوان بن المعطّل المهاجري ذريعةً لهجاءِ المهاجرين وهجاء قريش كلها هجاءً عانبه الرسول عليه وقد مرّ بيان ذلك .

٢) ما نجده عنده من روح جاهلية في الفتنة بين علي ومعاوية ، فقد كان شديد العصبية على عليّ ، شديد الحب لعثمان وللامويين كما رأيت قبل .

٣) ما يحدثنا به المؤرخون من ان حسان كان محافظاً على بعض العادات الجاهلية من

---

(١) الطبري : ج ٥ ص ١٥٣

(٢) ابن عساكر : ج ٤ ص : ١٢٥ .

(٣) الاستيعاب : ج ١ ص : ١٢٩ . ابن عساكر ج ١ ص : ١٢٦

حب للترف وللحياة المرحة ، فقد روي عن ابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم خرج مرة ، وقدرش حسان أطعمه ، والصحابة سماطين ، وبينهم سيرين جارية حسان ومعها مزهر لها وهي تغنيهم وتقول :

هل عليَّ ويحكمُ ان لهوتُ من حرج

فتبسم رسول الله وقال لا حرجَ (١)

وروي عن عبد الرحمن بن ابي الزناد قصة طويلة فيها ان حسان حضر وليمة فغنّت قينتان بشعره :

أنْظُر نهاراً بباب جلّقَ هل تؤنس دون البَلقاء من احدِ

فجعل حسان يبكي ويقول : لقد رأيتني هناك سميعاً بصيراً . فلما سكتتا همد عنه البكاء ، فاشار اليهما ابنه عبد الرحمن ان غنّيا (٢).

٤) ما ستراه في شعره من هجاء تغلب عليه المسحة الجاهلية .

٥) حبه تكرار شعره الذي قاله في ذمّ قريش وهي مشركة وانشاده اياه في المسجد . وقد كان عمر يكره ذلك منه ، لأن فيه بعثاً للاحقاد والاضغان القديمة . وقد نهاه عن ذلك مرات ، فقد روى ابن عبد البر أن عمر مرّ بحسان مرة وهو ينشد في مسجد الرسول فقال : أتنشد مثل هذا الشعر في المسجد ؟ فقال له حسان : قد كنت انشده وفيه من هو خير منك ، فسكت عمر . وروي عن عمر انه نهى ان ينشد الناس شيئاً من مناقضة الانصار ومشركي قريش ، وقال : « في ذلك شتم الحي والميت ، وتجديد

---

(١) ابن عساكر ج ٤ ص : ١٣٣

(٢) ابن عساكر ج ٤ ص : ١٣٣

الضغائن ، وقد هدم الله امر الجاهلية بما جاء من الاسلام (١)»...

وبعد فان حسان وان بقي فيه مسحة من الجاهلية ، فان الاسلام قد صبغه بصبغة جديدة طريفة ظهر أثرها في شعره كما سترى .

ومما كان يوصف به ، الجبن ، فقد رووا انه كان جد جبان ، وانه ما شهد غزوة مع الرسول ولا زحفاً ، وانه كان يقيم مع الاطفال والشيوخ والنساء اذا ما ذهب المسلمون للغزو . حدّث عبد الله بن الزبير ، عن صفية بنت عبد المطلب : انها كانت يوم الخندق في حصن حسان مع عدد من الاطفال والنساء ؛ فمر يهودي فجعل يطوف بالحصن ، فخشيت صفية ان يعرف اليهودي موضعهم فيدل عليهم اليهود ، فقالت لحسان انزل فاقتل هذا اليهودي ، فقال لها : يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب ! ما انا بصاحب هذا ، فنزلت هي فقتلته ورجعت الى الحصن ؛ ثم قالت : انزل فاسلبه ، فانه لم يمنعني من سلبه إلا انه رجل ، فقال ما لي الى سلبه حاجة .

فانت ترى من هذه القصة شدة جبنه ، ولكنه على الرغم من هذا كان يدعي الشجاعة ، وانه فعل كذا وكذا ... وقد روي انه لما انشد الرسول :

لقد غدوتُ أمام القوم منتطقاً ... بصارمٍ مثلِ لونِ الملحِ قطّاعِ

تحفزُ عني نجادَ السيفِ سابقةٌ ... فضفاضةٌ مثلُ لونِ النهى بالقاعِ

في فتيةٍ كسيوفِ الهندِ اوجُهُهم ... نحو الصريخ اذا ما ثوّب الداعي (٢)

---

(١) الاستيعاب ج ١ ص : ١٢٧

(٢) انظر الديوان ص : ٢١٠ . منتطقاً بصارم : حاملاً للسيف معلقاً في منطقتي . تحفز : تدفع . النهى «بكسر النون» الغدير . السابغة : الدرع . الصريخ : المستغيث . ثوب الداعي : لوح بثوبه ليرى

تبسم الرسول الكريم ، فانكسر حسان لظنه ان تبسم الرسول لوصفه نفسه بالشجاعة مع جبنه .

هذا و كتب الادب مملوءة باخبار جبن حسان ، ولعلّ السبب في ذلك يرجع الى نشأته بالمدن ، واشتغاله باللهو والاستمتاع بزيارة الملوك ، وغير ذلك مما هو الى الدعة ولين العيش اقرب من حياة الخشونة والغارات .

شعره :

حسان شاعر فحل من الشعراء المُخَضْرَمين وهو اشعر اهل المدن واشعر اهل اليمن (١) . وشعره في الجاهلية ذو اسر وروعة ، واما شعره في الاسلام فتغلب عليه الليونة . حدث الاصمعي فقال : «طريق الشعر اذا ادخلته في باب الخير لان ، الا ترى ان حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لان شعره ، وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرى القيس ، وزهير ، والنابغة ، من صفات الديار والاصل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فاذا ادخلته في باب الخير لان (٢)» . قلنا وهذا حق فقد كان حسان في الاسلام اذا تكلم في المواضيع الاسلامية وجرى فيها على طريقة الاسلاميين ، رأيت في شعره ليونة ، واذا تكلم على طريقة الجاهليين ابدع

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ص : ٨٤

(٢) الموشح للمرزباني ص : ٦٢ . طبقات الشعراء لابن قتيبة ص : ٦١ . الاستيعاب ج ١ ص : ١٢٧

وجاء بالمطرب الحسن (١) وإنك لترى هذا في هجائه ومديحه اللذين قالهما في الاسلام ؛ وكان رسول الله اذا سمع هجاءه في مشركي قريش دعاله بتأييد روح الله وقال : لهذا اشد عليهم من وقع النبل.

وكان حسان ممتازاً بالارتجال الموفق ، وفي قصة وفد تميم على الرسول دليل على ذلك ؛ وخلاصة هذه القصة : أن تميماً وفدت على الرسول بعد فتح مكة ، وكان معها شاعرها وخطيبها ، فتنادوا على باب المسجد يا محمد اخرج الينا ، فان مدحنا زين ، وان شتمنا شين ، فسمعهم رسول الله فخرج اليهم ، فقالوا : نحن ناس من بني تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا لنشاعرك ونفاخرك ، فقال: «ما بشعر بُعثت ، ولا بفخار أُمرت ، ولكن هاتوا» فقال الزبرقان بن بدر التميمي لشاب ـ هو عطارد بن حاجب ـ : اذكر فضلك وفضل ومك، فقام وخطب واجاد ، فقال رسول الله : لثابت بن قيس بن شماس الخزرجي : قم فاجبه ، فقام واجاد ، ثم دعاهم الى الايمان . ثم قال الزبرقان لشاعر منهم : قم فانشد شعرك ، فقام فأنشد فلما أتم ، قال رسول الله : علىّ بحسان ، فجاؤوا به فقال له الرسول : قل ياحسان ، فقال : ليعد عليّ ما قال يارسول الله ، فأعاده . فقال حسان القصيدة التي منها :

ألسنا نخوضُ الخوضَ في حومةِ الوغى ... اذا طابَ وردُ الموتِ بين العساكرِ

ونضربُ هامَ الدارعينَ وننتمي ... إلى حسبٍ من حزم غسانَ قاهرِ

فلما أتمها قام الاقرع بن حابس التميمي فقال :

---

(١) ويمكن تعليل هذا بما يروى عن حسان نفسه حين قيل له : لان شعرك في الاسلام يا ابا الحسام فقال : ان الاسلام يحجزُ عن الكذب والشعر يزينه الكذب . ولا ينبغي ان يغيب عنك ان اكثر شعره الاسلامي قاله وهو عجوز قد نيف على الستين والشعر يهرم كما يهرم صاحبه .

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا إذا اختلفوا عند ادّكار المكارم

وأنّا رؤوس الناس في كل معشر وأن ليس في ارض الحجاز كدارم

فقال رسول الله : قم يا حسان فأجبه ، فقال قصيدته التي منها :

بني دارم لا تفخروا إن فخركم يعود وبالاً عند ذكر المكارم

فلا تجعلوا لله نِدّاً وأسلموا ولا تفخروا عند النبي بدارم

ثم اسلمت تميم في قصة طويلة (١) .

فانت ترى في هذه القصة أي براعة لحسان في ارتجال هذا الشعر الجميل ، و كيف لا يكون كذلك وقد توارث الشعر كابراً عن كابر ، فقد كان سليل بيت من اعرق بيوت العرب في الشعر ؛ والرواة يقولون : إن جده واباه كانا شاعرين ، وان ابنه وابنته كانا شاعرين ايضاً ، و كذلك كان حفيده سعيد بن عبد الرحمن شاعراً .

اغراضه الشعرية :

يجدر بنا ونحن نريد الكلام في اغراض حسان الشعرية ، ان نقسم شعره الى قسمين : شعر جاهلي ، وشعر اسلامي . فاما اغراض الشعر الجاهلي فهي : الغزل ، والخمر ، والوصف ، والفخر ، والمديح ، والهجاء ، والرثاء .

الغزل :

فاما الغزل فقد سلك فيه طريق الجاهليين من وصف المرأة ودلالها وتيهها ، وانه

---

(١) ابن هشام : ج ٣ ص ٢٧٤ فما بعدها . الاستيعاب : ج ١ ص : ١٢٨ . ابن عساكر : ج ٤ ص : ١٢٩ .

حافظٌ للود وإن هي هجرت او صرمت ، وربما ذكر في قصص جميل بعض ايامه الحلوة مع صويحباته ، فسلك في ذلك مسلك امريء القيس :

رُبَّ لهوٍ شهدتُه أمَّ عمروٍ ... بين بيضٍ نواعمٍ في الرياطِ
مع ندامى بيضِ الوجوه كرام ... نُبهوا بعد خفقةِ الاشراط
لَكُميتٌ كانها دمُ جوفٍ ... عُتقتْ من سلافةِ الأنباط
فاحتواها فتىً يهينُ لها المال ... ونادمتُ صالحَ بن علاط
ظلَّ حولي قيانُه عازفاتٍ ... مثل أُدمٍ كوانسٍ وعواط
طُفن بالكأسِ بين شربٍ كرامٍ ... مَهدوا حُرَّ صالح الانماط
ساعةً ثم قالَ هنَّ بدادٍ ... بينكم غير سُمعة الاختلاط (١)

وحسان في غزله كما ترى رقيق حلو اللفظ وقد اجاد وصف الريق واللمس فقال :

... كأنَّ فأها قهوةٌ مزةٌ ... حديثةُ العهدِ بفضِ الختامْ
شُجتْ بصهباء لها سَورةٌ ... من (بيتِ رأسٍ) عُتقت في الخيام (٢)

وهو اذا تغزل لم ينس الخمر وندمانه ، وسترى بعد ما قاله من جيد الشعر في الخمر ،

---

(١) الديوان ص : ١٩٤ . الرياط : جمع ريطة وهي الملاءة . الاشراط : ارادا الشرطين وهما نجمان في قرن الحمل وخفقتهما : سقوطهما . الكميت : الخمر فيها حمرة وسواد . صالح بن علاط : احد بني بهر ابن سليم وهو عم نصر بن حجاج الذي نفاه عمر من المدينة لجماله . الكوانس : الظباء في بيوتها . العواطى : الظباء التي تتناول الاغصان بظلفها . بداد : مفرقات ، يريد انه اعطاهم قيانه . سمعة الاختلاط : اي اعطاهم من غير ان يختلط عقله سكراً ، السمعة : الشهرة .

(٢) الديوان ص : ٣١١ . القهوة : الخمر . مزة : فيها مزازة ، وهو طعم بين الحموضة والحلاوة . شجت : مزجت . بيت رأس : قرية مشهورة بصنع الخمر .

وكذلك لم يكن ينسى وصف ناقته وراحلته وما يقاسي في سفره الى حبيبته ومن ذلك قوله في القصيدة السابقة :

دعْ ذكرَها وانمِ إلى جَسرةٍ جَلذية ذاتِ مراحٍ عَقام
دِفقّةُ المشيةِ زيافةٌ تهوي خُنوفاً في فضول الزمام
تحسبها مجنونةً تغتلي إذ لفّعَ الآلُ رؤوسَ الاكام (١)

وكان حسان اذا رأى من محبوبته جفاء وهجراً افتخر عليها وعدد لها من نسبه ما يغريها به ومن ذلك قوله :

... فوددتُ أنك لو تخبرُنا من والداك ومَنصبُ الشعبِ
فضحكتُ ثم رفعتُ متصلاً صوتي أوانَ المنطق الشغبِ
جدّي ابو ليلى ووالدُه عَمرو واخوالي بنو كعبِ (٢)

الخمر :

اما خمرياته فهي ، وإن لم تكن في جودتها واستقصاء معانيها كالذي نجده عند صديقه الأعشى ، فانها جميلة حلوة . استمع اليه يقول :

كأنّ سبيئةً من (بيت راسٍ) تكون ـ مزاجُها عسلٌ وماءُ
على أنيابها أو طعمَ غضٍ من التفاح هصّرهُ الجناءُ
إذا ما الأشرباتُ ذُكرنَ يوماً فهنّ لطيّبِ الراحِ الفداءُ

(١) الديوان ص : ٣١٣ . الجسرة : الناقة القوية . الجلذية : الشديدة . العقام : لا تلد . الدفقة : الكريمة التي تتدفق في مشيها . زيّافة : مختالة في مشيها . تهوي خنوفاً : تميل بيديها في احد شقيها من النشاط . لفع الآل : غطى السراب .
(٢) الديوان (ب) ص ٣٢

نوليها الملامةَ إن ألمنا اذا ما كان مَغْثٌ او لحاءُ
ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما يُنهنهنا اللقاءُ (١)

وقد أجاد وصف مجالس الشراب والنَّدامى، وصورها تصويراً جميلاً كالذي تراه في قوله:

ربَّ لهوٍ شهدتُه أمَّ عمروٍ بين بيضٍ نواعمٍ في الرِّياطِ (٢)

وقوله:

وقد غدوتُ على الحانوت يسحبني من عاتقٍ مثل عين الديك شعشاعِ
تغدو عليَّ وندماني لمرفقه نقضي اللذاذاتِ من لهوٍ وأسماعِ
اذا نشاء دعوناهُ فصبَّ لنا من فرغ مُنْتَفِجِ الحيزومِ ركّاعِ
لقد غدوت أمام القوم مُنْتَطِقاً بصارمٍ مثلِ لونِ الملحِ قطّاعِ
في فتية كسيوف الهند أوجهُهم نحوَ الصريخِ إذا ما ثوّب الداعي (٣)

ومن أوصافه الجميلة لدبيب الخمر وأثرها والساقي، وهو اروع ما قيل في ذلك قوله:

تدب في الجسم دبيباً كما دبَّ دبيٌّ وسْطَ رقاقٍ هيامْ

---

(١) الديوان: ص ١٠-١١. السبئية: الخمرة. بيت راس: قرية. تكون: زائدة هنا. هصره: أماله. الجناء: الثمر. الاشربات: جمع اشربة ج شراب. المغث: الشر. اللحاء: الشتيمة. نهنهته: لففته وزجرته.

(٢) انظر كامل القصيدة في المختار من شعر حسان.

(٣) الديوان ص: ٢٠٩- ٢١. العاتقة والعتيقة: الخمر التي لم يفض احد ختامها. تغدو علي: يريد بذلك أم الوليد التي يتغزل بها. لمرفقه: متكىء على مرفقه. دعوناه: الضمير يرجع الى الخمار. الفرغ: ناحية الاناء التي يصب منها الماء. المنتفج: الممتلىء. الحيزوم: وسط الصدر. ركاع: واصل الى الارض. الصريخ: المستغيث.

كأساً إذا ما الشيخ والى بها خمساً تردّى برداءِ الغلام
من خمرِ بيسانَ تخيّرُنها ترياقةً تسرعُ فترَ العظام
يسعى بها أحمرُ ذو بُرْنُسٍ مختلق الذفرى شديدُ الحزام (١)

وقوله :

وممسكٍ بصداعِ الرأسِ من سُكُرٍ ناديته وهو مغلوب فقدّاني
لما صحا وتراخى العيشُ قلتُ له إن الحياة وإن الموتَ مثلانِ
فاشربْ من الخمرِ ما آتاك مشربُهُ واعلم بأنْ كلُّ عيشٍ صالحٍ فانِ (٢)

والرواة يروون قصة طريفة عن حسان : هي أنه دخل والأعشى بيت خمّارٍ في الشام ، فاشتريا خمراً وشربا فسكرا . فنام حسان ثم انتبه . فسمع الأعشى يقول للخمار : كره الشيخ الغُرم ، فتركه حسان حتى نام ، ثم اشترى خمر الخمار كلها ، ثم سكبها في البيت حتى سالت تحت الأعشى . فعلم انه سمع كلامه ، فاعتذر اليه ، فقال حسان يفتخر :

ولكننا شَرْبٌ كرامٌ اذا انتشوْا أهانوا الصريحَ والسديفَ المُسَرهَدا (٣)

الوصف :

اما وصفه فجيد بارع ، وقد رأيت طرفاً منه ؛ في خمرياته ، وغزله ؛ وله وراء ذلك

---

(١) الديوان ص : ٣١٢ . الدّبى : ما يدب على الارض من صغار النمل والجراد . الرّقاق : الارض الرقيقة . الهيام ، بالفتح والضم : ما لا يتماسك من الرمل فهو ينهار ابداً . الترياق : في الاصل دواء السموم ، والمراد بها الخمرة . مختلق الذفرى : تام الخَلق والجمال .

(٢) الديوان ص : ٣٤١ . مغلوب : أي غلبته الخمرة .

(٣) انظر القصة والقصيدة في الديوان ص : ١٢٢ . الصريح : اسم فحل مشهور . السديف : السنام . المسرهد : الحسن الغذاء .

وصف للابل جميل ، ولكنه قليل بالنسبة الى شعراء الجاهلية (١) . وله ايضاً وصف للطرق جيد ، يصورها لك بما فيها من ثلج ودروب وتوافل اجمل تصوير . فاستمع اليه يقول :

انظر خليلي ببطن جلّق هل ... تؤنس دون البلقاء من أحدِ
جمال (شعثاء) قد هبطنَ من الـ ... محبّس بين الكثبان فالسندِ
يحملن حُواً حورَ المدامع في الري ... ط وبيضَ الوجوه كالبردِ
من دون بصرى وخلفها جبل الـ ... ثلج عليه السحاب كالقِدَدِ (٢)

وله في الليل وظلمته وصف جيد اذ يقول :

وتكلفي اليومَ الطويلَ وقد ... صرّتْ جنادبُه من الظُهرِ
والليلةَ الظلماءَ أدلجُها ... بالقوم في الديمومة القفرِ
وتحول دون الكف ظلمتُها ... حتى تشقّ على الذى يسري (٣)

فانت ترى في هذه المقطوعة الصغيرة حسن تصويره الليل وشدة ظلمته ، وما يلاقي المدلج في الصحراء من شدته وهوله ، وما نظن ان شاعراً في الجاهلية قد استطاع بعد امريء القيس ان يجيد تصوير الليل وأهواله وحلوكته مثل حسان .

---

(١) انظر نموذجاً من ذلك في الديوان ص : ١٣٩ . ٢١٣ .

(٢) الديوان ص : ١٠١ . جلق : دمشق . شعثاء : امرأته . المحبس والكثبان والسند : مواضع . الحُوّ : جمع حواء وهي ذات الشفة الضاربة الى السواد . الريط : جمع ريطة وهي الملاءة . القدد : الشيء المتفرق .

(٣) الديوان ص ١٤٠ . صرّت : بردت وصوتت . الجنادب : جمع جندب ، وهو نوع من الجراد . أدلجها : اسير فيها ليلا . الديمومة : المفازة .

الفخر :

واما الفخر فقد برع فيه وأجاد كل الاجادة ، لان له من شرفه ونبله ومكانة اسرته في الجاهلية ما يفتخر به . ونحن اذا رحنا نستقصي فخر حسان في الجاهلية ، وجدناه ينقسم الى قسمين : فخرٌ بآبائه وآل بيته وأخواله وقبيلته من الخزرج ، وفخرٌ بنفسه وشعره ومكانته الرفيعة التي بلغها عند ملوك الغساسنة والمناذرة .

اما فخره بآبائه وايامهم في الجاهلية فكثير في شعره ، ومن ذلك قوله :

فان تَسألي الاقوامَ عني فانني ... الى مَحتدٍ تُنمى إليه المحامِدُ

وجدي خطيب الناس يوم سُميحةٍ ... وعمي ابنُ هندٍ مطعم الطير خالد

وفي كل دارٍ رَبّةٍ خَزْرجيةٍ ... وأوسيةٍ لي في ذُراهنّ والد

متى ما نَسِمْ لا يُنكرِ الناسُ وسمنا ... ونعرفْ به المجهولَ ممن نُكايدُ (١)

ويفتخر بأخواله فيقول :

سألتْ حسانَ من أخواله ... انما يُسألُ بالشيءِ الغُمُرْ

قلت : اخوالي بنو كعبٍ اذا ... أسلم الأبطالُ عَوْراتِ الدُّبُرْ

ربّ خالٍ ليَ لو ابصرته ... سَبطِ الكفّين في اليوم الخَصِرْ

---

(١) الديوان ص : ١٠٢ — ١٠٥ . يوم سُمَيْحة : يوم بين الاوس والخزرج تقاتلتا فيه قتالا شديداً ، ومشت الحرب بينهما عشرين سنة ، فلما طالت الحرب حكمتا بينهما ثابت بن المنذر ابا حسان ، وانما اطلق اسم جده على والده مجازاً ، والى هذا يشير حسان في بيت آخر :

وابي في «سميحة» القائل الفا ... صلُ يوم التقت عليه الخصومُ

يوقدُ النار اذا ما اطفئت يَعملُ القدر بأثباج الجزُر (١)

ومن جيد فخره بنفسه وشيطان شعره قوله :

... وَبذلتُ ذا رحلي وكنت به سَمحاً لهم في العُسر واليسرِ
فاذا الحوادث ما تُضعضِعُني ولا يضيق بحاجتي صدري
إني اكارم من يكارمني وعلى المُكاشح ينتحي ظُفْري
لا أسرقُ الشعراء ما نطقوا بل لا يوافق شعرُهم شعري
إني أبى لي ذلكم حَسبي ومقالةٌ كمقاطع الصخر
واخي من الجن البصيرُ إذا حالَ الكلامَ بأحسن الحِبْر (٢)

المديح :

وأما المديح عند حسان فقد قاله في الملوك والأمراء من آل غسان والمناذرة ، كما قاله في الأشراف من الخزرج ، وهو في مديحه مقلٌّ غيرُ مجيد تلك الجودة التي نجدها عند النابغة وزهير في مدائحهما ، على انه كان شديد الحرص على تقليدهما ، كثير العناية في نقل صور المديح عنهما . انظر إليه يمدح جبلة بن الأيهم ، الذي كان كثير المدح له ، حتى

---

(١) الديوان ص : ١٦٨ . اراد بالشيء الغُمُر : الشيء القليل . سبط الكفين . . . الخ : سخي في اليوم البارد . الاثباج : جمع ثَبَج ، وهو ما بين الكاهل الى الظهر . الجُزُر : جمع جزور ، وهي الناقة المجزورة .

(٢) الديوان ص : ١٤١ المكاشح : العدو المبغض . ينتحي ظفري : اقابله بمثل فعله . البصير : صفة لأخي . حالَ الكلامَ : غيَّره . الحبر : جمع حبرة وهي البُرد الجيد . « والمعنى ان شيطاني البصير بالعلم من الجن اذا اراد تنميق الكلام وتحسينه وتذويقه ، وجواب الشرط ، تقديره فلا يتعذر عليه ذلك » .

أقسم جبلة « أنه لا يطيف به ذكرُ حسان ، إلا أرسل إليه ، ولا يمر به غادٍ أو رائح الى المدينة، إلا بعث له ما يطرفه به » :

لمن الدارُ أقفرتْ بغمانِ ... بين أعلى اليرموكِ فالصمّانِ
تلك دارُ العزيزِ بعد أنيسٍ ... وحلولٍ عظيمة الاركان
قد دنا الفصحُ فالولائدُ ينظمـ ... ـن سراعاً أكلةَ المرجان
يجتنين الجاديَّ في نقب الريـ ... ـط عليها مجاسدُ الكتان
ذاك مغنىً لآل جفنة في الدهـ ... ـر وحقٌ تعاقبُ الأزمان
قد أراني هناك حقَّ مكينٍ ... عند ذي التاج مجلسي ومكاني (١)

وانظر إليه يمدح الحارث بن أبي شمر الغساني ويهجو النعمان بن المنذر اللخمي لانه سامى الحارث في الفضل فيقول :

نبئت أن أبا منذر ... يُساميك للحارث الأصغرِ
فقاك أحسنُ من وجهه ... وأمك خيرٌ من المنذر
ويُسرى يديك على عُسرها ... كيُمْنى يَدَيه على المُعسر
وشتان بينكما في الندى ... وفي البأس والخير والمنظر (٢)

فهو في مديحه هذا ساذج لا تجد فيه أثراً للروعة والبراعة اللتين تجدهما في مدائح النابغة وزهير . . .

---

(١) الديوان : ص ٣٤٣ - ٣٤٤ . اليرموك والصمان : موضعان . الفصح : عيد فطر النصارى . أكلة : ج اكليل وهو التاج . الجاديّ : نبات الزعفران . الريط : ج ريطة وهي الملاءة . المجاسد : ج مجسد : الثوب .

(٢) الديوان ص : ١٧٤

وخير ما قاله حسان في المديح قصيدته التي يمدح بها عمرو بن الحارث الغساني فقد روي عن حسان انه قال : قدمت على عمرو بن الحارث الغساني ، فاعتاص الوصولُ اليه ، فقلت للحاجب بعد مدة : إن أذنت لي عليه ، وإلا هجوت اليمنَ كلها . ثم انقلبت عليكم ؛ فأذن لي ، فدخلت عليه ، فوجدت عنده النابغةَ وهو جالس عن يمينه ، وعلقمة بن عبدة الفحل وهو جالس عن يساره . فقال لي : يا بن الفريعة ، قد عرفتُ نسبَك بغسان فارجع فاني باعث اليك بصلة سنية ، ولا احتاج الى الشعر ، فاني أخاف عليك هذين السبُعَين أن يفضحاك ! وفضيحتك فضيحتي وأنت والله ، لاتحسنُ أن تقولَ قول النابغة :

رقاقُ النعالِ طيّبٌ حُجزاتُهم ... يحيَّوْن بالريحانِ يوم السباسب

تحيتهمُ بيضُ الولائد بينهم ... وأكسيةُ الاضريج فوق المشاجب

فأبيت وقلت لا بد منه . فقال ذاك إلى عمّيك . فقلت لهما : بحق الملك إلا قدمتماني عليكما ، فقالا : قد فعلنا . فأنشأت :

أسألتَ رسمَ الدارِ أم لم تسألِ ... بين الجوابي فالبضيع فحوملِ

لله درُّ عصابةٍ نادمتُهم ... يوماً بجلّقَ في الزمان الاول

يمشون في الحلل المضاعف نسجها ... مشيَ الجمالِ الى الجمالِ البزّل

الضاربون الكبش يبرُقُ بيضُه ... ضرباً يطيح له بنانُ المفصلِ

اولاد جفنة حول قبر ابيهمُ ... قبرِ ابن مارية الكريم المفضل

يُغشَون حتى ما تهرُّ كلابُهم ... لا يسألون عن السواد المقبل (١)

---

(١) الديوان ص : ٢٤٤ وما بعدها ؛ والديوان (ب) ص : ٣٠٧ . راجع كامل القصيدة في المختار من شعر حسان .

فانت تراه في هـذه القصيدة قويّ الاسر ، جزل الالفاظ ، فخم التراكيب ، بديع الصور والمعاني .

الهجاء :

واما الهجاء فقد برع فيه كل البراعة لأنه كان لا يطيل فيه ، بل يكتفي منه بما أحاط بعنق المهجوّ ، لأنه كان لا يهجو احداً الا بما فيه ، وذلك شر الهجاء :

أبلغ هوازنَ أعلاها واسفلَها أن لست هاجيها إلا بما فيها (١)

وقد كان هجاؤه في الجاهلية بما اعتاد الجاهليون أن يتهاجوا به ، من طعن في الانساب ، ووصم بالجهل ، ورمي باللؤم والغدر ، والاساءة الى الجيران ؛ وما الى ذلك من السفاهة والفحش .

ولحسان هجاءٌ مقذعٌ في الاوس أعداء قومه ؛ فقد شهّر بهم وسبّهم اقبح سباب . فاستمع اليه يهجوهم بما كان منهم يوم بُعاث :

... كنتم عبيداً لنا نُخوّلُكم من جاءنا والعبيدُ تُضطَعَفُ
كيف تعاطَوْن مجدنا سفهاً وانتمُ دِعْوةٌ لها وكَفُ
شانكم جدُّكم ، وأكرمنا جَدٌّ في الفعال يَنتصف
هلاّ غضبتم لأعبُدٍ قُتلوا يومَ بُعاثٍ أظلمُهم ظَلَف
نقتلهم والسيوفُ تأخذهم اخذاً عنيفاً وانتمُ كُشُف (٢)

---

(١) الديوان ص : ٣٥٢ . والديوان «ب» ص : ٤٢٥ .

(٢) الديوان ص : ٢٢٧ - ٢٢٨ . نخوّلكم : نصيّركم خوَلاً وخداماً . تضطَعَفُ : تنسب الى الضعف . الدعوة «بكسر الدال» ادعاء النسب . الوكف : العيب . يوم بعاث : يوم بين الاوس والخزرج وبعاث : موضع بالقرب من المدينة وكان ذلك في السنة السابعة من النبوة . كشف : مفردها اكشف وهو الذي لا يصدق في القتال .

ولحسان هجاء في زوجه وولده ، كالهجاء الذي نجده عند صاحبه الحطيئة . قال يهجو زوجه عند ما ولدت له غلاماً لم يعجبه:

غلامٌ أتاه اللؤمُ من شطر خاله ... له جانبٌ وافٍ وآخرُ أكثمُ

فردت عليه بقولها :

غلامٌ اتاه اللؤمُ من نحو عمه ... ومن خير اعراق ابن حسان أسلمُ (١)

الرثاء :

واما رثاؤه فلم يبق لنا مما قاله في الجاهلية الا قصيدة واحدة قالها في الامير الحارث ابن ابي شمرٍ الغساني ، وهي :

إني حلفْتُ يميناً غير كاذبةٍ ... لو كان للحارث الجفنيّ أصحابُ

من جذْمِ غسان مسترخٍ حمائلُهم ... لا يُغبقون من المعزى اذا آبوا

ولا يذادون محمراً عيونُهمُ ... اذا تُحُضِّرَ عند الماجدِ البابُ

كانوا اذا حضروا شيب العقارُ لهم ... وطيفَ فيهم بأكواسٍ وأكوابِ

إذاً لآبوا جميعاً او لكان لهم ... أسرى من القوم او قتلى وأسبابُ

لجالدوا حيث كان الموتُ ادركهم ... حتى يثوبوا لهم أسرى وأسلابُ

لكنّه إنما لاقى بمأشبةٍ ... ليس لهم عند صدق الموت أحسابُ (٢)

---

(١) الديوان ص : ٣٢٨ . اكثم : بطين مشوه.

(٢) الديوان ص : ٣٤-٣٥ الجذم : الاصل والعشيرة . مسترخٍ حمائلهم : كناية عن أنهم موسّع عليهم الأمر في تصرفهم يذهبون حيث يشاؤون. لا يُغبَقون : لا يشربون الغبوق ، وهو شرب الخمر او اللبن في العشيّ . لايذادون : لا يطردون . اذا تحُضِّر : اذا حضر . الباب: المراد به البواب وفي قوله «اكواب» إقواء . يثوبون : يعودون المأشبة: الاخلاط من الناس يجتمعون من كل صوب .

فانت ترى ان هذه المقطوعة هي الى المديح اقرب منها الى الرثاء ، وأن البيت الذي تعرض فيه الى رثاء الحارث بيت ضعيف المعاني .

شعر حسان بعد الاسلام :

اما اغراض حسان بعد الاسلام فهي اغراضه في الجاهلية ، الا وصف الخمر فانه قد تركه ، وانصرف بعد اسلامه الى مديح الرسول واصحابه وذكر غزواته ، والى هجاء قريش وغيرها من القبائل المعادية للرسول والسخرية بهم . والفخر بما انعم الله عليه من الاسلام ، ورثاء الهالكين من الصحابة في ميدان الدفاع عن بيضة الاسلام . وقد تضمن شعره هذا طرفاً كثيراً من الاحوال السياسية في صدر الاسلام ، فهو سجل تاريخي قيم للحركة الاسلامية .

المديح :

اما مديح حسان للرسول واصحابه فقد تفنن فيه واكثر منه ، وكان الرسول يسر بشعره ويقول له : «قل وروح القدس معك (١)».

ويلاحظ في هذا المديح ، انه لم يكن من طراز ما نعرفه من مديح الجاهلية من وصف للجود والشجاعة والقوة ، وما الى ذلك ؛ ولكنه كان يصفه بما اظهر الله على يديه من الدين الصحيح ، وبما جاء به من تبشير للمؤمنين وانذار للمشركين ، وهو في مديحه هذا لين الالفاظ ، سهلها ، متأثر باسلوب القرآن ، وكان يشوب مدائحه بذم قريش ومعايبها ومعاتبتها على معاداتها الرسول صلى الله عليه وسلم ، كقوله :

---

(١) الاستيعاب ج ١ ص : ١٢٧ . ابن عساكر ج ٤ ص : ١٢٦

أغرُّ عليه للنبوة خاتمٌ ... من الله مشهودٌ يلوحُ ويُشهدُ

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ الى اسمه ... اذا قال في الخمسِ المؤذّنُ أشهدُ

وشقَّ له من اسمهِ ليُجِلّهُ ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

نبيٌّ اتانا بعد يأسٍ وفترةٍ ... من الرسل، والاوثان في الارض تُعبدُ

فأمسى سراجاً مستنيراً وهادياً ... يلوحُ كما لاح الصقيلُ المهنَّدُ

وانذرنا ناراً وبشرَّ جنَّةً ... وعلمنا الاسلام فاللهَ نحمدُ

وانت ـ الإله الخالق ـ ربي وخالقي ... بذلك ما عُمّرْتُ في الناس أشهدُ

تعاليتَ ـ ربَّ الناس ـ عن قول من دعا ... سواك إلهاً انت أعلى وأمجدُ

لك الخلقُ والنعماء والفضلُ كلّهُ ... فإيّاك نستهدي وإياك نَعبُدُ (١)

فانت ترى في هذه المقطوعة في مدح الرسول نوعاً جديداً من المديح عليه مسحة من القرآن الكريم، والتعاليم الاسلامية، وآداب الدين وفضائله التي دعا الناس اليها. ولحسان شعر كثير في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم، ضمّنه طرفاً من السيرة النبوية، والوقائع والغزوات (٢). اما مدائحه في اصحاب الرسول، فكانت من نمط المدائح النبوية، كلها سرد للاعمال المجيدة التي كان يقوم بها الصحابة، ولحسن بلائهم في رفع كلمة الدين، واعلاء شأن الاسلام، والدعوة الى الاخوة الاسلامية (٣).

---

(١) الديوان ص: ٧١. والديوان «ب» ٧٨

(٢) انظر الديوان ص: ٧٣ ـ ٧٤. والديوان «ب» ص: ٨٠ ـ ٨١

(٣) انظر الديوان ص: ٢٧٠ و ٢٨٧. والديوان: «ب» ص: ٣٣٨ ـ ٣٤٠

الهجاء :

برع حسان في الهجاء براعة قوية ، على الرغم مما كان في ذلك من حرج ، لأن اكثر هجائه كان موجهاً الى قريش ـ آل النبي الكريم ـ ، وقد روى العلماء ان الرسول قال له لما اراد هجاءهم : كيف تهجوهم وانا منهم ؟ و كيف تهجو ابا سفيان وهو ابن عمي ؟ فقال له : والله لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين ! ثم امره ان يقصد ابا بكر ليعلمه انساب القوم ، وقد افاد حسان جداً من ابي بكر فتعلم منه شيئاً كثيراً من انساب قريش واخبارها في الجاهلية ، نجدها مثبوتة في هجائه لقريش . وقد كان الرسول يطرب لسماع هجاء حسان فقد روى ابن سعد ان النبي (صلعم) نادى حسان بن ثابت وهو في سفر فجعل ينشده وهو يصغي اليه وهو سائق راحلته حتى كاد رأس الراحلة يمس الورك الى أن فرغ فقال له : لهذا اشد عليهم من وقع النبل (١) » .

وديوان حسان مملوء بالهجاء المقذع حتى اننا نستطيع القول ان حسان هو شاعر الهجاء الاسلامي غير مدافع ، فانه لم يترك سيداً من سادات قريش او زعيماً من زعماء الجزيرة الذين كانوا يسيئون الى النبي إلا هجاه . فمن هجاهم من الاشخاص ابو سفيان (٢) والحارث بن هشام (٣) وخالد بن أسيد (٤) وصفوان بن أمية (٥) وأمية بن خلف (٦) والوليد بن المغيرة (٧) وربيعة بن الحارث (٨) وعبد الله بن الزبعري (٩) . وممن هجاهم من

---

(١) ابن عساكر ج ٤ ص : ٤٢٩
(٢) الديوان : ص ٨ - ٥٦ - ٦٢ - ١٨٨
(٣) الديوان : ص ٤٥ - ٣٧ - ٥٣ - ٥٤
(٤) الديوان : ص ٣٢
(٥) الديوان : ص ٥٠
(٦) الديوان : ص ٥٧ - ١٩٨
(٧) الديوان : ص ٥٨
(٨) الديوان : ص ٦٦
(٩) الديوان : ص ١٦٢ - ٢٤٢

القبائل : قريش (١) وبنو العوّام (٢) وبنو اسد (٣) وبنو عُقَيْظة (٤) وبنو عديّ ، وبنو الحماس (٥) وبنو الاشعر (٦) .

الفخر :

اما فخر حسان بعد الاسلام فنوعان : فخر بنفسه وقبيلته ، عليه مسحة من الجاهلية ؛ وفخر بمواقع المسلمين وغزواتهم الموفقة وفتكهم بالمشركين . وقد اكثر في ذلك من الافتخار بيوم بَدْر وأُحد والخندق (٧) . فمن فخره بنفسه قوله :

وكنا ملوكَ الناس قبل محمدٍ ... فلما أتى الاسلام كان لنا الفضلُ
واكرمنا الله الذي ليس غيرَه ... الآهُ بايّامٍ مضتْ مالها شكلُ
بنصر الاله للنبي ودينه ... واكرمنا باسمٍ مضى ماله مثلُ
أولئك قومي خير قومٍ باسرهم ... وليس على معروفهم ابداً قفلُ (٨)

وقد اكثر حسان من الافتخار باسلامه ، وبنصرة قومه للنبي وإيوائه (٩). وقد كان الرسول يحب منه هذا الفخر ، وينصب له منبراً في المسجد يسمع منه شعره . وفي الحق ان فخره هذا نمط من الفخر الجديد الذي لم تعهده العربية من قبل .

---

(١) الديوان ص ٤٢ - ١٦١ - ١٦٦
(٢) الديوان : ص ٨٩ - ١٩٨
(٣) الديوان : ص ٧٠
(٤) الديوان : ص ١٨٢
(٥) الديوان : ص ١٨٦
(٦) الديوان : ص ٢١٤
(٧) الديوان : ص ٢٩ - ٩٧ - ١٥٧ - ٢٠٧ - ٢٣٦ - ٢٩٠ - ٣٠٦ - ٣١٥
(٨) الديوان : ص ٢٦١ . والديوان «ب» ٣٢٨
(٩) الديوان : ص ١٧١ - ٢٥٠ - ٢٦١ - ٢٦٧ - ٢٧٩ - ٣١٨ - ٣٢٢

الرثاء :

واما رثاؤه فقد كان موقوفاً على من كان يهلك في الغزوات من المسلمين ، وهو رثاء صادق ، رقيق الحس ، فيه بكاء وحرقة وألم . ومن خير شعره الرثائي ، قصائده في الرسول الذي كان كثيراً ما يبكيه . استمع اليه يقول : [الديوان «ب» ص : ٨٩]

بِطَيْبَةَ رسمٌ للرسول ومعهدُ ... منيرٌ وقد تعفو الرسومُ وتَهمُدُ

ولا تنمحي الآيات من دار حُرْمةٍ ... بها منبرُ الهادي الذي كان يصعدُ

وواضحُ آياتٍ وباقي معالمٍ ... وَرَبْعٌ له فيه مصلًّى ومسجدُ

بها حُجراتٌ كان ينزل وسطها ... من الله نورٌ يُستضاءُ ويوقدُ

معالم لم تُطْمَسْ على العهد آيُها ... اتاها البِلى فالآي منها تجدَّدُ

عَرَفْتُ بها رَسمَ الرسول وعهده ... وقبراً به واراه في التُّرْبِ مُلحِدُ

ظَلِلْتُ بها ابكي الرسولَ فأسعدت ... عيونٌ ومثلاها من الجفن تُسعِدُ

تذكر آلاءَ الرسولِ وما أرى ... لها محصياً نفسي فنفسي تَبَلَّدُ

الى ان يقول :

فبورِكتَ ياقبرَ الرسولِ وبورِكتْ ... بلادٌ ثوى فيها الرشيدُ المسدَّدُ

تهيلُ عليه التراب أيدٍ ، وأعينٌ ... عليه وقد غارت بذلك أسْعُدُ

لقد غيَّبوا حلماً وعلماً ورحمةً ... عَشِيَّةَ عَلَّوْهُ الثرى لا يُوَسَّدُ

وراحوا بحزنٍ ليس فيهم نبيُّهمْ ... وقد وَهَنَتْ منهم ظهورٌ وأعضُدُ

يبكّونَ من تبكي السماواتُ يومَه ... ومن قد بكته الارضُ فالناسُ أكمدُ

وهل عدلتْ يوماً رَزِيَّةُ هالكٍ ... رَزِيَّةَ يومٍ مات فيه محمدُ

تقطّع فيه منزلُ الوحي عنهمُ ... وقد كان ذا نورٍ يَغورُ ويُنجِدُ
إمامٌ لهم، يهديهم الحقّ جاهداً ... مُعلّمُ صدقٍ إن يطيعوه يَسعَدوا
عَفُوٌ عن الزّلاّتِ يقبلُ عُذرَهم ... وإن يُحسنوا فالله بالخير أجوَدُ
فبيناهمُ في ذلك النّورِ اذ غدا ... الى نورهم سَهمٌ من الموت مُقصِدُ
فأصبح محموداً الى الله راجعاً ... يُبكّيه جَفنُ المُرسلاتِ ويَحمَدُ

الى ان يقول :

فَبكّي رسولَ الله يا عينُ عَبْرَةً ... ولا أعرِفَنْكِ الدهرَ دمعُكِ يجمُدُ
ومالكِ لا تبكين ذا النعمةِ التي ... على الناس منها سابغٌ يَتَغَمّدُ
وما فقدَ الماضون مثلَ محمدٍ ... ولا مثلُه حتى القيامة يُفقَدُ
أعفّ وأوفى ذمّةً بعد ذمّةٍ ... وأقربَ منه نائلاً لا يُنكّدُ
وأبذَلَ منه للطّريفِ وتالدٍ ... اذا ضنّ معطاءٍ بما كان يُتْلِدُ
وأكرَمَ حيّاً في البيوت اذا انتمى ... وأكرمَ جدّاً أبطحياً يُسوَّدُ
رباه وليداً فاستتمّ تمامُه ... على أكرَمِ الخيراتِ ربٌّ مُمجّدُ
تناهتْ وصاةُ المسلمين بكفّه ... فلا العلمُ محبوسٌ ولا الرأي يُفنَدُ
أقولُ ولا يُلفى لقولي عائبٌ ... من الناس إلا عازبُ العقل مُبعِدُ
وليس هَوائي نازعاً عن ثنائه ... لعليّ به في جنّة الخُلدِ أخلُدُ
مع المُصطفى أرجو بذاكَ جِوارَهُ ... وفي نَيلِ ذاكَ اليومِ أسعى وأجهدُ

والقصيدة كما ترى تغلب عليها الرقة والتأثر العاطفي الصادق ، كما انها تفيض بالمعاني الرقيقة ، وتسودها نزعة روحية ظاهرة ؛ ولحسان رثاء كثير في خُبَيْب الانصاري وحمزة وعثمان وشهداء مؤتة وبَدْر وغيرهم من شهداء المسلمين الابرار .

مكانة حسان في الأدب العربي :

امتاز حسان بثلاث صفات اولها : كونه اشعر اهل المدن . وثانيها : انه اشعر اهل اليمن وثالثها : انه شاعر رسول الله . وقد رفعت هذه الصفات من مكانته فأحبته الناس وغالى بعضهم في حبه ، وقد كان هذا الحب سبباً في تزيد الناس من شعره ووضعهم عليه، فقد ذكر ابن سلاّم انه « قد حمل عليه ما لم يحمل على احدٍ لما تعاضهت قريش واستبّت وضعوا عليه اشعاراً كثيرة لا تليق به »(١)

وكما احبّه قومٌ وتعصبوا له ، فقد حمل عليه آخرون وعابوا عليه الليونة في شعره ؛ ومما عابوا عليه الاقواء ، ويعيبون عليه بيتيه :

لنا الجفناتُ الغرّ يلمعنَ بالضُحى واسيافُنا يَقطُرْنَ من نجدةٍ دَما
ولدنا بني العنقاء وابني محرّقٍ فأكرِمْ بنا خالاً واكرِمْ بنا ابنما

فيقولون إنه لما انشد النابغة هذين البيتين قال له انك شاعر ولكنك اقللت جفانك واسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك (٢)

وكان الاصمعي ينتقص شعره الذي قاله في الاسلام ويقول إنه : « لما جاء الاسلام سقط شعره . » ولكننا نرى ان كثيراً من شعره الاسلامي لا يقلّ عن شعره الجاهلي . وخاصة الهجاء فانه قد برع فيه واوجد فيه فناً رائعاً ، وكذلك فخره . فأما الرثاء والمديح فقد كان فيهما وسطاً ، لأنه كان يتكلم في امور اسلامية . والصدق والخير اذا دخلا في الشعر أضعفاه ، لأن الشعر نكد ، أعذبه أكذبه ، كما قال الاصمعي (٣).

---

(١) الشعر والشعراء ص : ٨٤ . تعاضهت : تشاتمت .
(٢) الموشح ص : ٦٠
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص : ٦١

الديوان :

ديوان حسان رواه ابو سعيد السكري عن ابن حبيب ، وقد طبع عدة طبعات ، اقدمها طبعة تونس سنة ١٨٦٤ ، ثم طبعة الهند سنة ١٨٦٥ في بومباي وسنة ١٨٧٨ في لاهور ، وطبع في مصر ثلاث طبعات ؛ الاولى : بعناية الاستاذ محمد شكري المكي ، والثانية : بعناية وشرح الضابط محمد العناني سنة ١٣٣١ هـ ، والثالثة : بعناية وشرح الاستاذ عبد الرحمن البرقوقي سنة ١٩٢٩ . وقد اعتمدنا على الطبعتين الاخيرتين في دراستنا ورمزنا الى الثانية بحرف « ب » . وفي الديوان نحو من مائتين وثلاثين قصيدة ومقطوعة ، قسم منها في هجاء اعداء الرسول من قريش وغيرهم ، وقسم كبير ايضاً في مديح الرسول وأصحابه ، وقد اضاف الاستاذ البرقوقي تذييلاً لابيات عثر عليها بعد طبع الديوان « اثناء سياحة له ، في الاغاني وسيرة ابن هشام (١) » .

---

(١) الديوان « ب » ص - خ - م

مختارات من شعره

قال حسان يمدح الرسول عليه الصلاة والسلام ، قبل فتح مكة ، ويهجو أبا سفيان ؛ وقد استهل هذه القصيدة بوصف الخمر ، ويقال إنه نظمها قبل اسلامه ، ثم أتمها بعد اعتناقه الاسلام (١) :

عفت ذاتُ الاصابعِ فالجواءِ ... إلى عذراءَ منزلُها خلاءُ (٢)

ديارٌ من بني الحسحاسِ قفرٌ ... تعفيها الروامسُ والسماءُ (٣)

وكانت لا يزالُ بها أنيسٌ ... خلالَ مروجِها نَعَمٌ وشاءُ

فدع هذا ، ولكنْ من لطيفٍ ... يُؤرّقُني إذا ذهبَ العشاءُ (٤)

لشعثاءَ التي قد تيَّمته ... فليس لقلبه منها شفاءُ (٥)

كأنَّ سبيئةً من (بيت راسٍ) ... يكون مزاجُها عسلٌ وماءُ (٦)

على أنيابها أو طعمَ غضٍ ... من التفاح هصّره الجناءُ (٧)

إذا الأشرباتُ ذُكِرنَ يوماً ... فهنَّ لطيّبِ الراحِ الفداءُ (٨)

---

(١) الديوان «ر» ص: ١ . (٢) ذات الاصابع والجواء والعذراء: مواضع بالشام . (٣) الحسحاس: الرجل الجواد . الروامس الرياح التي تثير التراب فتعفي على الديار . السماء : المطر (٤) الطيف . الخيال يلم في النوم . (٥) شعثاء : امرأة يهودية كان يتشبب بها . (٦) السبيئة : الخمرة وسميت كذلك لانها تستبأ اي تشتري . وبيت رأس : موضع بالاردن . (٧) هصره : امالة . الجناء : وهو الثمر الذي يجتنى . ومعنى البيتين : كأن على انيابها خمراً مجلوبة من بيت رأس مزاجها عسل وماء . او كأن عليها طعم تفاح غض . (٨) الاشربات : ج أشربة . الراح : اسم الخمر.

نوليها الملامة إن ألمنا ... اذا ما كان مغثٌ أو لحاءُ (١)

ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسداً ما ينهنهنا اللقاءُ (٢)

عدمنا خيلنا، إن لم تروها، ... تثير النقع موعدها كداءُ (٣)

يبارين الأعنة مصعدات ... على أكتافها الأسل الظماءُ (٤)

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساءُ (٥)

فاما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاءُ

وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعز الله فيه من يشاءُ

وجبريل رسول الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاءُ

وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقول الحق إن نفع البلاءُ

شهدت به فقوموا صدقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاءُ

وقال الله قد يسرت جنداً ... هم الانصار عرضتها اللقاءُ (٦)

لنا في كل يوم من معد ... سباب أو قتال او هجاءُ

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماءُ

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوفٌ نخبٌ هواءُ (٧)

بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الاماءُ (٨)

---

(١) المغث : الشر والقتال . اللحاء : السباب . «والمعنى» : ان فرط منا بسبب شرب الخمر ما نلام عليه ونجم بيننا شر وسباب أحلنا على الراح اللوم . (٢) النهنهة : اللف . (٣) النقع : الغبار . كداء : الثنية العليا بمكة . (٤) الاسل الظماء : الاسنة العطشى والمشتاقة الى الدماء . (٥) متمطرات : مسرعات تلطمهن : تغرب وجوههن . (٦) عرفتها اللقاء : اي الانصار اقوياء على القتال . (٧) المجوف والنخب : الجبان . (٨) عبد الدار : بطن من قريش .

هجوتَ محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفءٍ فشرُّكما لخيركما الفداء
هجوتَ مباركاً برّاً حنيفاً أمينَ الله شيمتُه الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحُه وينصرُه سواء
فان أبي ووالدَه وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقاء
فاما تثقفنَّ بنو لؤيٍ جُذيمةَ إنَّ قتلهم شفاء
اولئك معشرٌ نصروا علينا ففي أظفارنا منهم دماء
وحِلْفُ الحارثِ بن ابي ضرار وحلفُ قريظةٍ منا براء
لساني صارمٌ لا عيبَ فيه وبحري لا تكدره الدلاء

وقال يفتخر (١)

أهاجكَ بالبيداء رسمُ المنازلِ نعم قد عفاها كلُّ أسحمَ هاطلِ (٢)
وجرَّتْ عليها الرامساتُ ذيولَها فلم يبق منها غير أشعثَ مائل (٣)
ديارُ التي راقَ الفؤادَ دلالُها وعزَّ علينا أن تجود بنائل
لها عينُ كحلاء المدافع مُطْفِلٍ تُراعي نعاماً يرتعي بالخمائل (٤)
ديارُ التي كادتْ ونحنُ على منىً تَحُلُّ بنا لولا نجاءُ الرواحل (٥)

---

(١) الديوان «ب» ص : ٣١٣
(٢) الاسحم : السحاب الاسود .
(٣) الاشعث : الوتد . المائل : المنتصب .
(٤) «المعنى» : لها عين ظبية تراعي نعاماً يرعى في الخمائل.
(٥) نجاء الرواحل : سرعة الرواحل .

ألا أيها الساعي ليدركَ مجدَنا ... نأتكَ العُلى فاربع عليها فسائل

فهل يستوي ماء ان اخضرَّ زاخرٌ ... وحسيٌّ ظَنونٌ ماؤه غيرُ فاضل (١)

فمن يعدل الأذناب ويحكَ بالذُّرى ... قد اختلفا برٌّ يَحُقُّ بباطل

تناولْ سهيلا في السماء فهاتِه ... ستدركُنا إن نلتَهُ بالأنامل

ألسنا بحلاَّلين أرضَ عدوِّنا ... تأرَّ قليلاً سَلْ بنا في القبائل (٢)

تجدنا سبقنا بالفعالِ وبالنَّدى ... وأمرِ العوالي في الخطوب الاوائل (٣)

تجدنا سبقنا الناسَ مجداً وسؤدداً ... تليداً وذكراً نامياً غير خامل

لنا جبل يعلو الجبال مُشرَّفٌ ... فنحنُ بأعلى فرعِهِ المتطاول

مسامِيحُ بالمعروفِ وسطَ رحالنا ... وشبَّانُنا بالفحش أبخلُ باخل

ومَنْ خيرُ حيٍّ تعلمونَ لسائلٍ ... عفافاً وعانٍ موثقٍ في السلاسل (٤)

ومن خير حي تعلمون لجارهم ... إذا اختارهم في الأمنِ أو في الزلازل

وفينا إذا ماشبَّتِ الحربُ سادةٌ ... كهولٌ وفتيانٌ طِوالُ الحمائل (٥)

---

(١) الحسي : حفيرة قريبة العقر تكون في ارض أسفلها حجارة صلدة وفوقها رمل فاذا امطر الرمل نشف ماء المطر ، فاذا انتهى الى الحجارة أمسكت الماء ومنع الرمل حر الشمس ان ينشف الماء فاذا اشتد الحر نبت وجه الرمل عن ذلك الماء فنبع بارداً عذبا . والظنون : الذي لا يوثق به فهو يقول : « مثلنا ومثلكم مثل البحر والحسي وهل يستوي البحر والحسي ».

(٢) تأر قليلاً : البث قليلا .

(٣) العوالي : جمع عالية وهي القناة المستقيمة.

(٤) العاني : الاسير .

(٥) الحمائل : جمع حمالة وهي السير الذي يحمل السيف ، وطوال الحمائل يريد بها انهم يعتدّون بانفسهم في الحروب .

نصرنا وآوينا النبيَّ وصدّقت ... أوائلنا بالحق أوّلَ قائل

وكنا متى يَغْزُ النبيُّ قبيلةً ... نَصِلْ حافتيه بالقنا والقنابل (١)

ويومَ قريشٍ اذ أتونا بجمعهم ... وظِئنا العدوَّ وطأةَ المتثاقل

وفي أحُدٍ يومٌ لهم كان مخزياً ... نطاعِنُهم بالسمهريِّ الذوابل (٢)

ويوم ثقيفٍ إذ أتينا ديارَهم ... كتائبَ نمشي حولها بالمناصل (٣)

ففرّوا وشدَّ اللهُ ركنَ نبيّه ... بكل فتى حامي الحقيقة باسل

ففروا إلى حصن القصور وغلّقوا ... وكائِنْ ترى من مشفقٍ غير وائل (٤)

وأعطوْا بأيديهم صَغاراً وتابعوا ... فأولى لكم أولى حُداةَ الزّوامل (٥)

وإني لسهلٌ للصديق وإنني ... لأعدلُ رأسَ الأصعرِ المتمايل (٦)

وأجعل مالي دون عرضي وقايةً ... وأحجبُه كيْ لايطيبَ لآكل

وأيُّ جديدٍ ليس يدركه البِلى ... وأيُّ نعيم ليس يوماً بزائل

وقال يمدح عمرو بن الحارث : (٧)

أسألت رسمَ الدار أم لم تسألِ ... بين الجوابي فالبُضَيْعِ فخَوْمَلِ (٨)

---

(١) القنابل : جمع قنبلة «بفتح القاف» وهي الطائفة من الخيل والناس .

(٢) السمهري : الرمح الصليب العود . والذوابل : الدقيقة .

(٣) المناصل : جمع منصل وهو السيف .

(٤) المشفق : الخائف . غير وائل : غير ناج .

(٥) صغاراً : ذلاً . أولى لكم فاولى : تهديد . وحداة الزوامل : أي ياحداة الزوامل وهي البعير الذي يحمل عليه الرجل متاعه وطعامه .

(٦) الاصعر : المتكبر . المتمايل : الذي يميل رأسه تيهاً و كبراً .

(٧) راجع قصة هذه القصيدة في ص : ١٢٠

(٨) الجوابي والبضيع وحوامل : مواضع .

فالمرجِ مرجِ الصُفَّرَين فجاسمٍ ... فديارِ سلمى درساً لم تحْلَلِ (١)

دِمَنٌ تعاقبها الرياحُ دوارسٌ ... والمدجنات من السماكِ الأعزلِ (٢)

دارٌ لقومٍ قد أراهم مَرَّةً ... فوق الأعزَّة عزُّهم لم يُنقلِ

لله درُّ عصابةٍ نادمتُهم ... يوماً بجلقَ في الزمان الاولِ

يمشون في الحلل المضاعف نسجها ... مشيَ الجِمالِ الى الجمالِ البزّلِ (٣)

الصاربون الكبش يبرُقُ بيضُه ... ضرباً يطيحُ له بنانُ المفصلِ (٤)

والخالطون فقيرَهم بغنيهم ... والمنعمونَ على الضعيف المرملِ (٥)

اولاد جفنة حول قبر ابيهمُ ... قبرِ ابن ماريةَ الكريم المفضلِ

يُغشَون حتى ما تهرُّ كلابُهم ... لا يسألون عن السواد المقبلِ

يَسقون من وردَ البريصَ عليهم ... بردى يُصفَّقُ بالرحيق السلسلِ (٦)

يُسقَوْن درياقَ الرحيق ولم تكن ... تُدعى ولائدُهم لنَقفِ الحنظلِ (٧)

بيضُ الوجوه كريمة أحسابُهم ... شُمُّ الأنوف من الطِراز الاولِ

---

(١) مرج الصفرين موضع بغوطة دمشق . وقوله درساً لم تحلل اي درست وليس فيها حال مقيم .

(٢) الدمن : جمع دمنة وهي الباقي من آثار الديار . المدجنات : الغيوم الممطرة .

(٣) البُزَّل : البعير الذي استكمل الثامنة وطعن في التاسعة .

(٤) الكبش : سيد القوم ورئيسهم . البيض : جمع بيضة ، وهي الخوذة . وبنان المفصل : أطراف الاصابع .

(٥) المرمل : الذي زاده والمراد به الفقير .

(٦) البريص وبردى : نهران بدمشق . يصفق : يمزج . الرحيق السلسل : الخمر البيضاء اللينة والسهلة الدخول في الحلق .

(٧) الدرياق والترياق : من اسماء الخمر لانها تذهب بالهم على التشبيه . النقف : الشق .

فلبثتُ أزماناً طوالاً فيهم ثم ادّكرتُ كأنني لم افعلِ (١)
إمّا تَرَىْ رأسي تغير لونُهُ شمطاً فأصبح كالثّغامِ المُحْوِلِ (٢)
ولقد يراني مُوعِدِيَّ كأنني في قصر دُومةَ أو سواءِ الهيكل (٣)
ولقد شربتُ الخمرَ في حانوتِها صهباءَ صافيةً كطعمِ الفلفل
يسعى عليها بكأسها مُتنَطّفٌ فَيعلّني منها ولو لم اسهل (٤)
إن التي ناوَلْتني فَرَدَدتُها قُتِلَتْ قُتِلْتَ فهاتِها لم تُقتَل (٥)
كلتاهما حَلبُ العصيرِ فعاطني بزجاجةٍ أرخاهما للمفصل
بزجاجةٍ رقصت بما في قعرها رقصَ القلوصِ براكبٍ مستعجل (٦)
نسبي أصيلٌ في الكرام ومذودي تكوي مواسِمُهُ جُنوبَ المصطلي (٧)
ولقد تُقَلّدُنا العشيرةُ أمرَها ونسودُ يومَ النائباتِ ونعتلي
ويسود سيدُنا جحاجحَ سادةً ويصيبُ قائلُنا سواءَ المفصل (٨)
ونحاولُ الأمرَ المهمَّ خطابُهُ فيهم ونفصلُ كلَّ أمرٍ معضل
وتزورُ أبوابَ الملوكِ ركابُنا ومتى نُحكَّمُ في البريةِ نعدل
وفتىً يحبُّ الحمدَ يجعلُ مالَهُ من دونِ والدِهِ وإن لم يُسأَل (٩)
باكرتُ لذّتَهُ وما ماطلتُها بزجاجةٍ من خيرِ كرمٍ أهدَل (١٠)

---

(١) ادكرت : تذكرت . (٢) الشمط : بياض شعر الرأس يخالطه سواد . والثغام : نباتٌ على شكل الحلي . (٣) الموعدون : المتوعدون وهم الاعداء ، وقصر دومة هو حصن دومة الجندل ، وسواء الهيكل اي وسط الهيكل ، وهو بيت للنصارى يعظمونه . (٤) متنطف : مقرط . يعلني : يسقيني . (٥) المعنى : ان كاس الخمر التي عاطيتني مزجت بالماء - وهذا المزج هو معنى قوله قتلت - فهاتها : صرفاً غير ممزوجة . (٦) القلوص الفتية من الابل . (٧) المعنى : ان من اصطلى بناري اي من تعرض لي وسمت جنبه بلساني اي هجوته . (٨) الجحاجح : السادة . قائلهم : خطيبهم . سواء المفصل : وسط المفصل . (٩) المعنى : انه يفدي بما له عرضه وعرض والده من الذم . (١٠) كرم اهدل : اي متدل .

مصادر البحث

بالعربية

البلاذري	:	انساب الاشراف ج ٥	القدس
ابن هشام	:	السيرة النبوية	مصر
ابن سلام	:	طبقة الشعراء	مصر
ابن قتيبة	:	عيون الاخبار ، الشعر والشعراء	مصر
ابو الفرج الاصفهاني	:	الاغاني ج ٤ — ١٤	بولاق
ابن جرير الطبري	:	تاريخ الامم والملوك	مصر
ابن عبد البر الاندلسي	:	الاستيعاب	الهند
ابن عساكر	:	تاريخ دمشق	دمشق
المبرد	:	الكامل	طبعة المرصفي
القالي	:	الأمالي	بولاق
الثعالبي	:	المنتحل	مصر
〃	:	خاص الخاص	〃
المرزباني	:	الموشح	مصر
ياقوت الحموي	:	معجم البلدان	مصر
اسرائيل ولفنسون	:	تاريخ اليهود في بلاد العرب	مصر

بالفرنسية

Clément Huart : La Littérature Arabe.

Lammens : Etude sur le règne du Calife Omayade Mouawia. Beyrouth. 1906.

Encyclopédie de l'Islam. مادة (حسان)

الأخطل

التوطئة

الشعر في العصر الاموي :

بلغ الشعر في الدولة الاموية منزلة رفيعة ، والسبب في ذلك عناية رجال هذه الدولة به لحاجتهم اليه ، ولشدة تأثيره في الجماهير ، فقد جعله الخلفاء الامويون وسيلة لاذاعة محامدهم وتأييد سلطانهم والطعن في زعماء خصومهم ، وقد كان للعصبية أثرها الفعال في شيوع الشعر بين القبائل ، لان القبيلة كانت تحتاج الى الشعر للذود عنها واذاعة محامدها والرد على مناوئيها ، كما ان الشاعر كان رسول القبيلة الى الخليفة ينطق باسمها ويعبر عن امانيها ؛ فاذا حل هذا الشاعر من قلب الخليفة مكانة وفاز برضاه ، عدت القبيلة ذلك سمواً لمكانتها. اما الخليفة فقد كان يجزل عطاء الشاعر ليجتذب قلبه وقلب قبيلته . وقد استتبع عطف بني امية على من مدحهم من الشعراء ، ان يتعصب عليهم من لم يفز بنوالهم وعطاياهم ، او كان ممن يحقد عليهم سياسياً كالخوارج والشيعة والزبيرية . وقد نتج عن هذا كله رقي دولة الشعر رقياً عظيما في ايامهم ؛ فاعتنى الناس عامة به لاهميته ولما رأوا من عناية الخلفاء والامراء به ، فرووه وحفظوه وتعصبوا لاصحابه ، حتى بلغ من حبهم اياه وتعصبهم لاهله انهم كانوا يجتمعون في المجامع العامة والاسواق ويستمعون الى تهاجي الشعراء ، وربما تجالدوا بالسيوف اذا اشتد بهم تعصبهم وحماستهم ، وهكذا اصبحت تجد في الناس جريريين وفرزدقيين واخاطله . لان هؤلاء الثلاثة كانوا اعظم الشعراء صيتاً في هذا العصر ، حتى انهم اخملوا ذكر كثير من الشعراء .

والحق اننا لا نجد عصراً ازدهر فيه الشعر واصبح لرجاله مكانة رفيعة ودور خطير، مثل العصر الاموي . ويقول جرجي زيدان [لم يكن للشعر العربي تأثير في النفوس ومنزلة في الدولة ، في عصر من اعصر العرب مثل ما كان له في العصر الاموي (١)].

وقد تأثر الشعر في هذا العصر بعاملين :

اولهما : القرآن والحديث اللذين اغنيا الملكة العربية بالفاظ جديدة ، وصور عديدة ، وافكار راقية ، ظهر اثرها بيناً في ترتيب الشعر الاموي من ناحية الفكرة والعرض . يقول ابن خلدون [ان هؤلاء الذين ادركوا الاسلام ، سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثليهما ، لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على اساليبها نفوسهم ، فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من اهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم احسن ديباجة واصفى رونقاً من اولئك وارصف مبنى واعدل تثقيفاً ، بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة. (٢)] والحق ان الشعر في هذا العصر اسلامي خالص يمثل الحياة الاسلامية ، لان قائليه قوم عاشوا في الاسلام ، وتأدبوا بادب الاسلام ، وتثقفوا بثقافة الاسلام ولم يعرفوا من الحياة الجاهلية شيئاً .

وثانيهما : البيئة الشعرية ، فقد اختلفت الأجواء الادبية في هذا العصر اختلافاً جعل لكل بيئة لوناً من الشعر خاصاً بها ، فليس من الصواب ان نجمع مثلاً بين شعر ابن ابي ربيعة والاخطل في صعيد واحد ، مع انهما عاشا في زمن واحد . ولا شك ان هذا الاختلاف ناشيء عن الاختلاف في البيئة والمحيط اللذين عاش فيهما هذان الشاعران .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية : ج ١ ص ٢٣٥

(٢) المقدمة : ص ٥٨٠

في هذا العصر سما الشعر وارتقت معانيه في الغزل والمدح والهجاء حتى صلح كثير منه للغناء ، لان الغناء يزيد في قيمة الشعر وقوته ، وفي ذلك يقول الشاعر جرير مفتخراً بشعره :

وإني لقوالٌ لكلِّ غريبةٍ ورودٍ اذا الساري بليلٍ ترنَّما

* **

قلنا آنفاً ان الاسلام قد وهَّن من شأن بعض الشعر الجاهلي كالمديح والفخر الكاذبين والهجاء المقذع ، ولكنه اوجد نوعاً من المديح والهجاء والفخر مما يلائم الروح الاسلامية الجديدة ، كما اوجد نوعاً من الشعر السياسي ، وهو الذي رأيته عند حسان.

فاما العصر الاموي فقد احيا الشعر القديم بما فيه من مدح وفخر جاهليين ولكن بقالب اسلامي ، وكان الخلفاء يطربون لسماعه ويغدقون العطايا على المادحين فراج شعر المديح رواجاً عظيماً ، وابطال هذا النوع من الشعر الفرزدق وجرير والاخطل .

وقد قلّد الخلفاء الامويين ولاتهم وعمالهم ، فأجازوا على المديح الجوائز السنية ، وتسابق الشعراء الى اختراع المعاني الجديدة . اما الهجاء فقد راجت سوقه جداً وكان الخلفاء يغرون شعراءهم ، فعمَّ التهاجي والتناقض بين الشعراء ، ولعبت العصبيات دوراً خطيراً في ذلك ، فتهاجت المضرية واليمانية والقيسية والتغلبية ، ومن ابطال هذا الهجاء الشعراء الثلاثة والكُمَيت الأسدي ، وهكذا أصبح العرب في الهجاء الى شرٍ مما كانوا عليه في الجاهلية.

وقد حدث في هذا العصر نوع من الشعر جديد وهو الغزل ، وسببه ترف الحياة في مدن الحجاز ورقة مزاج اهل باديته . وكان هذا الغزل نوعين : غزل عفيف وآخر ماجن . فاما العفيف فقد كانت مواطنه في البادية ، وكان غزلاً رقيقاً لا فحش فيه ولا ذكر لما لم يألفه

الناس وانما هو وصف للحب الطاهر لا إثم في قوله ولا حرج في سماعه . وزعيم شعراء هذا الغزل جميل بن معمر صاحب بثينة ، واما الغزل الماجن فقد كان في المدن الحجازية بين ابناء المترفين من المهاجرين والانصار ، الذين ابعدوا عن السياسة فانصرفوا الى اللهو والعبث واشهرهم الاحوص الانصاري وعمر بن ابي ربيعة القرشي ، وعمر كان اكثر صراحة في شعره .

اما اسلوب الشعر في هذا العصر فلم يختلف عنه في عصر صدر الاسلام ، من حيث بناء القصيدة ، وقد كان يسهل حيث السهولة ورقة العبارة محمودتان ، ويجزل حيث غرابة الالفاظ والجزالة مرغوبتان . وقد كان الغالب على شعر المديح والهجاء والفخر والوصف والاراجيز ، الغرابة في الالفاظ ، وربما تعمد ذلك بعض شعراء ذلك العصر ليعجبوا النحاة وعلماء اللغة ، كالفرزدق مثلاً . كما كان الغالب على شعر الغزل بنوعيه ، الرقة في الالفاظ ، والسهولة في التراكيب .

وجماع القول ان هذا العصر قد ارتقى فيه الشعر ارتقاءً عظيماً في فصاحته وجمال اسلوبه وسمو معانيه ، حتى فضله بعضهم على شعر الجاهلية لأن له اسلوب الجاهليين ومتانتهم ، كما له معانٍ اسمى وانبل من المعاني الجاهلية .

الأخطل

[٦٤٠ م — ٧١٤ م]

اسمه ولقبه — حياته — الاخطل وبنو امية — الاخطل وجرير — الاخطل والفرزدق — شعره — المديح
الهجاء — الفخر — الوصف — الخمر — مكانته في الادب العربي
المختار من شعره — مصادر البحث

اسمه ولقبه :

هو غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة بن الفدوكس التغلبي ، ويكنى بأبي مالك ، ويلقب بالأخطل (١) ، ودوبل (٢) ؛ وقد رضي باللقب الاول فذكره في شعره (٣) ، وكره الثاني فانكره ، لان جريراً كان يهجوه به .

---

(١) لقب الشاعر بهذا اللقب ، وقد اختلف المؤرخون في سبب هذا التلقيب ، فقد ذكر أبو عبيدة : ان الاخطل هجا رجلاً من قومه وهو يافع ، فقيل له يا غلام : انك لأخطل ، فغلبت عليه « انظر الديوان ص ٣٣٤ » والاخطل : افعل من الخطل ، وهو الالتواء في القول او سلاطة اللسان . وذكر صاحب الاغاني القصة السابقة وقال : ان الذي سماه بذلك كعب بن جعيل شاعر تغلب «انظر الاغاني ج ٧ ص١٦٢» وقال الاصمعي : انه انما لقب بذلك لاضطراب شعره «انظر كتاب الاشتقاق لابن دريد ص٢٠٤» وقال ابن قتيبة : انه انما سمي بذلك من الخطل وهو استرخاء الاذنين «انظر الديوان ص ٣٣٥» . والذي يغلب على الظن انه انما سمي بذلك لسلاطة لسانه وبذاءته . ولم يكن هو وحده يلقب بهذا اللقب وانما عد الفيروزآبادي ثلاثة : هم الاخطل الضبعي الذي ادعى النبوة على عهد الامويين فقتله الامير ابن هبيرة ، والاخطل بن غالب الهجاشمي اخو الفرزدق ، والاخطل بن حماد التولبي وكلهم شاعر « انظر القاموس » .

(٢) الدوبل : الخنزير او ولد الحمار او الذئب كما في القاموس . قال جرير :

بكى دوبل لا يرقىء الله دمعه ولكنما يبكي من الذل دوبل

(٣) قال في الديوان ص : ١٧٧

واضحت لبعل غير أخطل اذ ثوى تلطُ بعينيها الاشاجع والكحلا

حياته :

تاريخ ولادة الاخطل غير معروف على وجه التحقيق ، وانما يذكر المؤرخون انه كان شاباً مشهوراً بقول الشعر ايام معاوية (١) الذي ولي الخلافة من سنة [٤٠ ـ ٦٠ ـ ٦٦٠ ـ ٦٨٠ (٢)] . فليس بعيداً اذن استنتاج الاب انطون صالحاني ناشر ديوانه ، انه ولد حوالي سنة ٦٤٠ م اي في خلافة عمر رضي الله عنه . وقد ذكر الاب لامنس انه ولد حول سنة ٦٥٠ في الحيرة او في بادية الشام ، غير بعيد عن الرصافة حيث كانت تقطن قبيلة تغلب (٣) .

وكانت تغلب من القبائل العربية التي تمتد مساكنها من الجزيرة الى العراق (٤) وربما احتلت منطقة منبج ايضاً (٥) ، وكان لها من العز والسلطان مارفع اسمها بين العرب ، كما كان لها الامر في تسيير القوافل التجارية في هذه المناطق . ويزعم الرواة ان عزة تغلب هي التي منعتها ان تدخل في دين الاسلام كرهاً ، وأن عمر بن الخطاب قد اقرها على ذلك وقبل منها خاصة من بين العرب ان تظل على دينها القديم (٦) .

ولد الاخطل من أم إيادية ، ولكنها توفيت وهو طفل ، فتزوج ابوه بامرأة غيرها فكانت تفضل اولادها على ربيبها ، وهكذا عاش الاخطل سنينه الاولى بالبادية متديناً بالمسيحية ،

---

(١) انظر الاغاني : ج ١٣ ص ١٢٢

(٢) تاريخ الاسلام السياسي : لحسن ابراهيم حسن ص ٣٩٥

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية : مادة « اخطل » .

(٤) انظر الاغاني : ج ١٠ ص : ٩٨ ، ج ١١ ص : ٦٢ ، ج ٢٠ ص : ١٢٧

(٥) انظر الديوان ص : ١٣٤

(٦) انظر ذلك في فتوح البلدان للبلاذري ج ١ ص ١١٠ ، ١٨١ ، ٢٤٩

ولكنها مسيحية رقيقة ، لان البدو لا يتغلغل الدين في نفوسهم ؛ وما كانت مسيحية قبيلة تغلب وغيرها من القبائل العربية المتنصرة ، إلا مسيحية ظاهرية ؛ وما كانت مسيحية الاخطل ، إلا في حلفه بالصليب والقربان ، وتزيينه جيده بالصليب ، وطلبه التماس بركة الرهبان (١) .

ويقول الرواة إن الاخطل قد قال الشعر وهو صغير ، فقد روى ابو بردة الفزاري عن رجل من تغلب ان الاخطل لحظ شكوة فيها لبن وجراباً فيه تمر وزبيب وكان جائعاً ، وكان يُضَيَّق عليه . فقال لزوج ابيه : يا أمه ! آل فلان يزورونك ويقضون حقك ، وانت لا تأتينهم وعندهم عليل ، ولو أتيتهم لكان اجمل واولى بك . قالت : جزيتَ خيراً يا بُنى ، لقد نبَّهت على مكرمة . وقامت فلبست ثيابها ومضت اليهم ، فمضى الاخطل الى الشكوة ففرَّغ ما فيها ، والى الجراب فأكل التمر والزبيب . وجاءت فلحظت موضعهما فرأتهما فارغين ، فعلمت انه قد دهاها ؛ وعمدت الى خشبة لتضربه ، فهرب وقال :

أَلَمَّ على عِنبات العجوز ... وشكوتها من غياثٍ لَمَمْ .
فظلت تُنادي - ألاَ ويلها - ... وتَلعَنُ ، واللعن منها أَمَمْ

قال ابن السكّيت : وهذا اول شعر قاله الاخطل (٢) .

***

نشأ الاخطل في تغلب يقول الشعر فيما يقوله شعراء البادية ، وكان اول ما اشتهر بالشعر أنه هجا شاعر قبيلته كعب بن جُعَيْل . قالوا وكان كعب لا يأتي قوماً الا

---

(١) الاغاني ج ٧ ص : ١٦٥ — ١٦٩ — ١٧٣ — ١٧٤

(٢) الاغاني ج ٧ ص : ١٧٠

اكرموه وضربوا له قبةً . حتى انه كانت تمد له حبال بين وتدين فتملأ له غنماً ، فأتى مرة قبيلة مالك بن جُشَم ففعلوا به ذلك ، فجاء الاخطل وهو غلام فأخرج الغنم وطردها ، فقال كعب : ان غلامكم هذا لاخطل (والاخطل السفيه) فغلب عليه ، ولجّ الهجاء بينهما. فقال الاخطل فيه :

وسُمّيتَ كعباً بشرّ العظامِ ... وكان ابوك يُسمى الجُعَل

وكان محاك من وائل ... محلُّ القراد من استِ الجمل

فقال كعب : قد كنت اقول لا يقهرني الا رجل له ذكر ونبأ (١) ! وكان الاخطل يومئذ يُغَرزِم (٢) فقال له ابوه : أبغرزمتك تريد ان تقاوم ابن جُعَيل وضربه (٣). ثم اخذ اسم الاخطل ينبُل حتى اصبح شاعر بكر بن وائل كلها ، فكانت اذا تشاجرت في شيءٍ رضيت به حكماً (٤). وما زال اسمه يطير حتى اتصل ببني امية ومدحهم فقدموه وآثروه .

الاخطل وبنو امية:

لما قوي الخلاف بين الامويين والانصار بعد معركة صفّين ، لان اكثر الانصار كانوا يحاربون مع علي ، وانتهت حرب السيف ؛ اراد الامويون الاجهاز على خصومهم ادبياً ، وخاصة بعد ان بلغت الحالة بالانصار ان احدهم وهو عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عرض

---

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ص : ١٦٠

(٢) الغَرْزَمة : الابتداء بقول الشعر .

(٣) الاغاني : ج ٧ ص : ١٦٨

(٤) الاغاني : ج ٧ ص : ١٧١

في بعض قصائده برملة بنت معاوية ، فغضب لذلك اخوها يزيد وطلب من ابيه ان يسمح له بهجاء الانصار ، فهدأ الأب من ثورة ابنه ؛ ولكن الفتى حفظها في نفسه ، واخذ يفتش عن شاعر يجرؤ على هجاء الانصار ، فدلّ على كعب بن جُعَيل فاعتذر ، ولكنه دلّه على الاخطل . وكان فيما قاله : ادأك على غلام منا نصراني لا يبالي ان يهجوهم ، كأن لسانه لسان ثور ! فلما اجتمع يزيد بالأخطل ، لقي منه ما يريد ؛ ولم تمض ايام حتى اذاع الاخطل مقطوعته الآتية :

لعن الآلهُ بني اليهودِ عِصابةً ... بالجزعِ بين جُلاجلٍ وصِرارِ
قومٌ اذا هَدَرَ العصيرُ رأيتهم ... حمراً عيونُهمُ كجمر النارِ
ذهبت قريشٌ بالمكارم والعُلى ... واللؤمُ تحت عمائم الأنصارِ
فَذَروا المعاليَ لستمُ من اهلها ... وخذوا مَساحيكم بني النجّارِ
إنّ الفوارس يعرفون ظهورَكم ... اولاد كل مُقبَّحٍ أكّارِ
واذا نسبتَ ابن الفُرَيعةِ خِلتَهُ ... كالجحشِ بين حمارةٍ وحمارِ (١)

فلما انتشرت الابيات هاج الانصار ، واوفدوا الى معاوية الصحابي النعمان بن بشير الانصاري ، فدخل على معاوية وحسر عن رأسه وقال : يا امير المؤمنين أترى لؤماً . فقال معاوية : لا ! بل كرماً وخيرا ، وما ذاك ؟ قال زعم الاخطل ان تحت عمائمنا لؤماً . فقال معاوية : أوَ فَعَل ؟ قال نعم . فقال معاوية : لك لسانه . وكتب فيه ان يؤتى به ، فلما

---

(١) الديوان ص : ٣١٤ . الجزع : منعطف الوادي . جُلاجل : اسم موضع ، وكذلك صرار . هَدَرَ العصير : غلت الخمر . المساحي : جمع مسحاة ، وهي آلة تقشر بها الارض . بنو النجار : من الانصار . الاكّار : المزارع . ابن الفريعة : حسان بن ثابت .

أتيَ به، سأل الرسولَ ليدخل الى يزيد اولاً، فأدخله عليه؛ فقال: هذا الذي كنت احاف. قال: لا تخف شيئاً. ودخل على ابيه فقال: علامَ أرسلَ الى هذا الرجل؟ وهو يرمي من وراء جمرتنا. قال: هجا الانصار. قال ومن زعم ذلك؟ قال: النعمان بن بشير. قال: لا يقبل قولُه عليه وهو يدّعي لنفسه، ولكن تدعوه بالبيّنة فان اثبت شيئاً آخذته به له. فدعاه بالبيّنة فلم يأتِ بها فخلّى سبيله. فقال الاخطل قصيدته التي مطلعها:

صحا القلب إلاّ من ظعائنَ فانني علىّ اميرٌ مستبدٌ فأصعدا (١)

ثم اخذ الاخطل في هجاء الانصار واعداء الامويين عامة، وانقطع ليزيد بن معاوية ولازمه اميراً وخليفة، وكان لا يفارقه حتى انه حين ذهب الى الحج اخذه معه. وقد روى ذلك الموصلي (٢). ولما مات يزيد قرّبه خلفاء بني امية واكرموا مثواه، وبخاصة عبد الملك بن مروان، فانه كان يسميه «شاعر امير المؤمنين واشعر العرب» (٣) ولما مات عبد الملك اتصل باولاده وناضل اعداءهم وخاصة الانصار والزبيريين. اما نضاله فكان لغاية نفعية، واما هجاؤه للزبيريين فلكي يدافع عن شرف قبيلته تغلب لأن عبد الله ابن الزبير كان فتك بها.

سمت مكانة الاخطل في عهد بني امية حتى انه كان له دار ضيافة وقيان ومجالس شراب كان يستقبل فيها الاشراف والوجوه ويسقيهم ويطعمهم وتغنيهم قيانه (٤) وقد بقي الاخطل

---

(١) الديوان: ص ٩٠ ــ ٩٧. انظر المختار من شعره فيما بعد.
(٢) الاغاني: ج ٧ ص ١٧٠
(٣) الاغاني: ج ٧ ص ١٦٤
(٤) الاغاني: ج ٧ ص ١٧٨

لاهياً مرحاً يمدح الخلفاء والاشراف ويهجو من يشاء كما يوحيه اليه هواه معتزاً بمكانته عند بني امية الى ان هلك .

يقول الاب لامنس : ان موته يجب ان يكون في أخريات عهد الوليد الأول (١) كما يفهم ذلك من كلام للعقد الفريد (٢) وقد مات الوليد سنة [٩٦ هـ ــ ٧١٤ م] وعلى هذا فقد عاش الاخطل نحواً من سبعين سنة قضى اربعين منها في خدمة بني امية.

الاخطل وجرير :

يذكر الرواة ان سبب تهاجي جرير والاخطل امران ، يذكرونهما في قصتين . اما القصة الاولى : فخلاصتها انه لما تهاجى جرير والفرزدق وشاع خبر تهاجيهما في العرب قال الاخطل لابنه مالك : انحدر الى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما . فانحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما ، ثم اتى اباه ، فقال له : كيف وجدتهما؟ قال : وجدت جريراً يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر . فقال الاخطل : فجرير اشعرهما . ثم قال :

أني قضيت قضاءً غير ذي جَنَفٍ لمّا سمعتُ ولما جاءني الخبرُ
ان الفرزدق قد شالت نعامته وعنّه حيّةٌ من قومه ذَكَر (٣)

ثم قدم الاخطل الكوفة وعليها بِشْر بن مروان اخو عبد الملك والياً ــ وكان بشر ممن يحبُّ الاغراء بين الشعراء ــ فبعث محمد بن عُمَيْر بن عُطارد ، بدراهم وحملان

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة : الاخطل .

(٢) العقد الفريد : ج ١ ص ١٥٥ و ج ٣ ص ٧٠

(٣) الديوان : ص ٣٤٩ . الجنف : الظلم . شالت نعامته : ذهب عزه ، وتفرقت كلمته « كما في القاموس » الحية : يطلق على الذكر والانثى . من قومه : لان جريراً والفرزدق من قبيلة واحدة .

وكسوة وخمر الى الاخطل ، وقال له : فضّل شاعرَنا «يعني الفرزدق» ، واهجُ جريراً ، فقال الاخطل :

أجريرُ إنك والذي تسمُو له ... كأسيفةَ فخرتْ بحدْجِ حَصان

حَمَلتْ لوبَّتها فلما عُوليتْ ... نَسلَتْ تعارضها مع الأظعان

أتعَدُّ مأثرةً لغيرك ذكرُها ... وسناؤها في غابر الازمان

في دارِمٍ تاجُ الملوك وصهرها ... أيّامَ يربوعٌ مع الرعيان (١)

فقال جرير ، يرد حكومة الاخطل من قصيدته التي مطلعها :

لِمَنِ الديارُ ببُرقةَ الريحان ... اذ لا نبيع زماننا بزمانِ

... ياذا الغباوة إنّ بِشراً قد قضى ... ألا تجوزَ حكومة النشوان

فدعوا الحكومةَ لستمُ من اهلها ... إن الحكومة في بني شيبان

كذب الأخيطلُ إنّ قومي فيهمُ ... تاجُ الملوك ورايةُ النعمان (٢)

ثم استطار الهجاء ، واضطرمت نار العداوة بينهما (٣)

واما القصة الثانية : فخلاصتها أن الحجاج اوفد ابنه عاشر عشرة من وجوه العراق فيهم

---

(١) انظر بقية القصيدة في الديوان ص : ٢٧٣ - ٧٤ . الاسيفة : الامة والاسيف العبد . الحدج : مركب من مراكب النساء «هودج» الحَصان : المرأة العفيفة . واراد بها هنا الحرة . نسلت : اسرعت في المشي «والمعنى» : هذه الامة حملت مركب مولاتها حتى ركبته فلما استوت عليه جعلت الامة تعدو خلف الركاب . الصهر « بفتح اوله » الاصهار وهو التزوج ، « والمعنى » ان الملوك يتزوجون في دارم قبيلة الفرزدق لشرفها ، اما يربوع ابوجرير فمشغول برعي بهمه شأن العبيد .

(٢) انظر بقية القصيدة في ديوان جرير : ص ٥٦٩ - ٥٧٧ . برقة الريحان : اسم مكان . النشوان : السكير .

(٣) انظر القصة في ديوان الاخطل ص : ٣٤٩ .

جرير على عبد الملك ، فجلس لهم ، ثم امر بالاخطل ؛ فدعي له . فلما دخل عليه ، قال له : يا اخطل هذا سبّك ، وجرير جالس ؛ فأقبل عليه وقال : اين تركتَ خنازير امك ؟ فقال الاخطل : راعيةً مع أعيارِ امك . ثم قال عبد الملك : انشدني يا جرير . قال جرير فانشدته القصيدة التي فيها :

اذا سعّر الخليفةُ نارَ حربٍ رأى الحجاج اثقبها شهابا(١)

فقال عبد الملك : صدقت هو كذا ، ثم قال : هاتِ للحجاج ، فانشدته القصيدة التي اولها :

شُغِفْتَ بعهدٍ ذكرته المنازل وكدتَ تناسي الحلمَ والشيبُ شامل(٢)

فلما سمع الخليفة تفخيم الحجاج فيها غضب ، ثم قال : هاتِ للحجاج فانشدته القصيدة التي اولها :

هاجَ الهوى لفؤادك المهتاج فانظر بتوضح باكر الاحداج(٣)

فلما بلغتُ فيها قولي :

من سدَّ مطلّع النفاق عليهمُ أم من يصول كصولة الحجاج
ام من يغارُ على النساء حفيظة إذ لا يثقن بغيرة الأزواج

فتكلم الاخطل وقال : فأين امير المؤمنين يا بن المراغة ؟ فعلمت انه الاخطل ، فزيّلت حيال وجهي بكمي وقلت : اخسأ ومضيت حتى انشدته القصيدة كلها . فقال الخليفة اجلس

---

(١) انظر القصيدة في ديوان جرير : ص ١٦-١٨
(٢) انظر ديوان جرير ص : ٤٣٩-٤٤٢
(٣) انظر القصيدة في ديوان جرير ص : ٨٩-٩١

فجلست ، ثم قال : قم يا اخطل هات مديح امير المؤمنين . فقام فأنشد فأجاد وأبلغ . فقال الخليفة انت شاعرنا ومادحنا ، اركبه . فرمى بردائه ، و كشف قميصه عن منكبيه ، ووضع يده على عنقي . فقال : من حضر من المضرية وقد ساءهم ذلك : يا امير المؤمنين لا يُركب الحنيف المسلم ، ولا يظهر عليه . فاستحيا عبد الملك وقال : دَعهُ (١)

وهذه القصة يغلب على الظن انها من اختراع مخيلة الاخطليين الذين ارادوا انتقاص جرير ، فما نظن ان رجلاً كعبد الملك يصدر عنه مثل هذه المخازي . هذا ما يذكره الرواة عن تهاجي جرير والاخطل . والحق ان وراء هذا سبباً اقوى ، وهو ان الفرزدق كان هو وعشيرته من بني تميم يذهبون مذهب التغلبيين في تأييد سياسة بني امية ، والطعن على القيسية والمضرية اللتين كان هواهما مع ابن الزبير ، فلذلك ناصر الاخطل الفرزدق على جرير الذي كان هواه مع قيس .

وقد اكثر الاخطل من هجاء جرير حتى ضاق به ، وزعم قوم انه قال : والله ما يهجوني الاخطل وحده ، وانه ليهجوني معه خمسون شاعراً كلهم عربي ليس بدون الاخطل ، وذلك انه اذا اراد هجائي جمعهم على شراب فيقول هذا بيتاً وهذا بيتاً ، وينتحل هو القصيدة (٢) .

الاخطل والفرزدق

كانت الصلة بين الاخطل والفرزدق على عكسها بينه وبين جرير ، لانه كان يناضل عنه وينصره على جرير ، والرواة يذكرون انهما بقيا مدة يقولان الشعر في هجاء

---

(١) انظر القصة في العمدة لابن رشيق ج ١ ص ٢٩ . وديوان الاخطل ص ٣٥١ وما بعدها .
(٢) الاغاني : ج ٧ ص ٤٠

جرير دون ان يتعارفا ، الى ان خرج الفرزدق مرة من العراق يريد بني امية في دمشق ، فرأى في طريقه بيتاً من أدم احمر ، فدنا منه وسأل عن صاحبه ، فقيل له : هـذا بيت الاخطل . فأتاه والاخطل لا يعرفه ، فقعدا يتحدثان ، فقـال له الاخطل : ممن الرجل ؟ فقال من بني تميم . فقال انك إذن من رهط اخي الفرزدق ، أتحفظ من شعره شيئاً ؟ فقال : نعم كثيرا . فما زالا يتناشدان ويتعجب الاخطل من حفظه شعر الفرزدق ، الى ان عمل فيـه الشراب . فقال : اني والله الفرزدق ؛ فقبّل الاخطل رأسه وقال : لا جزاك الله خـيراً ، لمَ كتمتني نفسك ؟ انك واياي لأشعر منه ، ولكنه أوتي من سير الشعر ما لم نؤته . . . قلت انا بيتاً ما اعلم ان احداً قال اهجى منه وهو :

قومٌ اذا استنبحَ الاضيافُ كلبَهُمُ قالوا لأمّهمُ بولي على النار

فلم يروِه الا حكماء اهل الشعر . وقال هو :

والتغلبيُّ اذا تنحنح للقرى حكَّ استه وتمثَّل الأمثالا

فلم تبق سقاة وامثالها الا رووه . فقضيا له انه أسيَرُ شعراً منهما (١).

وكان الفرزدق يعرف منزلة صديقه الاخطل في الشعر ، وخاصة في المديح . فقـد روى سِماكُ بن حَرب : ان الفرزدق دخل الكوفة فلقية ضوء بن الجُلاح ، فقال له : من امدحُ اهل الاسلام ؟ فقال له : وما تريد الى ذلك ؟ قال : تمارينا فيـه . قال : الاخطل امدح العرب (٢).

***

(١) انظر هذه القصة في الاغاني : ج ٧ ص ١٧٨ - ١٨٦ . والديوان : ص ٣٥٤

(٢) الاغاني : ج ٧ ص ١٧٢

شعره :

امتاز الاخطل بجودة الشعر وتنقيحه ، حتى قال الاصمعي : إن الاخطل كان يقول تسعين بيتاً ، فيختار منها ثلاثين(١) . وكان ابو عمرو بن العلاء يشبّه الاخطل بالنابغة لصحة شعره . وكان حمّاد الراوية يفضله ايضاً (٢) . وقال الاخطل مرة لعبد الملك : انني قد اقمت في قصيدتي « خفّ القطين » سنة . . . فما بلغت كل ما اردت . وقال عن نفسه ايضاً : فَضُلْتُ الشعراء في المديح والهجاء والنسيب بما لا يُلْحق بي فيه ، فأما النسيب فقولي :

الا يا اسلمي ياهندُ هندَ بني بدرٍ وان كان حيّانا عدىً آخر الدهر

وقولي في المديح :

نفسي فداءُ امير المؤمنين اذا ابدى النواجذَ يوماً عارمٌ ذَكَرُ

وقولي في الهجاء :

وكنتَ اذا لقيتَ عبيدَ تيمٍ وتَيْماً قلتَ أيُّهمُ العبيدُ(٣)

وقد قال الاخطل الشعر في المديح والهجاء وهما خير شعره ، وله في الخمر والفخر مقطّعات جميلة ضمنها قصائد مديحه . وهو قلما انشأ قصيدةً في غير المديح والهجاء اللذين انفق عمره فيهما . وليس للأخطل في الرثاء الا قطعة يرثي بها يزيد بن معاوية وهي :

لعمري لقد دلاّ الى اللّحد خالدٌ جِنازَةَ لا كابي الزّنادِ ولا نُغْرِ

مقيمٌ بحُوّارين ليس يَريمُها سقتهُ الغوادي من ثويٍّ ومن قَبر

---

(١) الاغاني : ج ٧ ص ١٦٨

(٢) الاغاني : ج ٧ ص ١٦٨

(٣) الاغاني : ج ٧ ص ١٦٩

تصيحُ الموالي إن رأوا امَّ خالدٍ مُسلِبَةً تبكي على الماجد الغَمْرِ

اذا جاء سِرْبٌ من نساءٍ يَعُدْنها تَعرَّينَ الاَّ من جلابيبَ او خُمْرِ (١)

واسلوب الاخطل كأسلوب القدماء من شعراء الجاهلية ، فقد كان مفتوناً بشعرهم وبخاصة النابغة . وقد رأيت كلمة ابي عمرو بن العلاء في تشبيه الاخطل بالنابغة (٢). وان مطالع قصائده ومبادئها وكثيراً من معانيه ،لتجدها في شعره وقد لاحظ هذا الامر الاب لامنس في مقاله عن الشاعر في دائرة المعارف الاسلامية .

وشعر الاخطل في المديح والهجاء له صبغة سياسية لانه كان يقوله في اغراض ترضي الخلفاء او ترضي زعماء قبيلته.

---

(١) الديوان : ص ٢٨٩ . خالد : هو ابن يزيد وبه كان يُكنَّى . جنازة لا كابي . . . الخ : جنازة رجل غير ضعيف ولا جاهل. حُوَّارين : حصن بناحية حمص مات فيه يزيد وفي معجم البلدان لياقوت نقلاً عن كتاب الفتوح لأبي حُذيفة ، حُوَّارين من تدمر على مرحلتين وبها مات يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ . يرثيها : يبرحها . الثوي : ساكن القبر . ام خالد : امرأة يزيد وهي فاختة بنت هاشم تزوجها بعده مروان بن الحكم . مسلبة : سلبت المرأة فهي مسلَّبة ومسلب : تلبس السواد للحداد . الغمر « بفتح الغين » : الكريم الواسع الخُلُق . اذا جاء . . . الخ : يشققن ثيابهن الاَّ الجلابيب . والخمر وهي الازار والمقنعة .

(٢) لا بدَّ من الاشارة هنا الى رأي الاستاذ بطرس البستاني « ج ١ ص ٣٣١ من كتابه ادباء العرب » فقد قال : « . . . ان شاعر بني امية يمتاز في صحة شعره ورونق الفاظه ، كما امتاز في ذلك صاحبه النابغة .. ولا بدع ان تظهر هذه الميزة «هكذا» على شعر الاخطل فهو من الذين يتنخلون قوافيهم ويثقفون متونها . . . ولكن هذه الصلة لا تكفي لتشبيهه بالنابغة ، فزهير عرف بصحة شعره وتنخُّل قوافيه والحطيئة عرف بذلك ، غير اننا لا نستطيع ان نشبه الاخطل باحدهما كما نستطيع ان نشبهه بالنابغة لان صحة الشعر لا تجعل وجهاً حقيقياً للشبه . فعلينا ان نلتمس هذه الصلة في اسلوب الشاعر وفي الفاظه ومعانيه وقد ذكرنا ان الاخطل يمت الى النابغة بصلة ادبية اجتماعية فكلاهما مدح الملوك وحظي عندهم. ولعل هذه الصلة التي حملت الشاعر الاسلامي على تحدي صاحبه الجاهلي ووصف الوحوش.

المديح :

انفق الاخطل عمره في المديح الذي قال اكثره في بني امية وعمالهم ، فقد مدح يزيد وعبد الله ابني معاوية ، وعبد الملك بن مروان ، والوليد وسليمان ابني عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، وخالد بن عبد الله بن أسيد ، وخالد بن يزيد بن معاوية ، وبشر ابن مروان . ومدح من العمال والاشراف : الحجاج (١) ، وعكرمة الفيّاض (٢) ، وجداراً التغلبي (٣) ، ومصقلة بن هبيرة الشيباني (٤) ، وعبّاد بن زياد (٥) وغيرهم .

ويمتاز مديح الاخطل بجزالة الفاظه ، وفخامة معانيه ، التي تخلب لبّ العربي الفخور بالنفس ، المعجب بالعظمة والفخامة . فهو حين يشبه ممدوحه لعطائه الجم بالفرات ، يصور الفرات تصويراً رائعاً يملأ العين ، ويريك الفرات متدفقاً بأواذيه امامك . وكل ذلك بلفظ جليل ، ومعنى عزيز .

وما الفراتُ اذا جاشتْ حوالبُه ... في حافتيه وفي أوساطه العُشَرُ

وذعذعتْهُ رياحُ الصيف واضطربت ... فوق الجآجيء من آذيّه غُدُرُ

---

(١) حاكم العراقين المشهور .

(٢) كاتب بشر بن مروان امير العراق . انظر الاغاني ج ٧ ص : ١٨٧-١٨٨

(٣) احد زعماء تغلب انظر ديوان الاخطل ص ٢٠٧

(٤) من كبار زعماء بني شيبان انظر الديوان ص : ١٣٨ وما بعدها .

(٥) كان اميراً على سجستان انظر تاريخ ابن خلدون : ج ٣ ص ١٧

مُسْحَنْفِرٌ من جبال الروم يَسترُه منها اكاكيفُ فيها دونه زَوَرُ(١)

هذه الصورة الرائعة للفرات كانت تعجب الاخطل ، فأنت واجدها في كثير من قصائده(٢) .

ومديح الاخطل لا يخرج في مجموعه عما الفناه في المديح الجاهلي من الصور ، ولكنه ممتاز بحسن ابرازه لهذه الصور . فأنت اذا فاضلت بين تصويرة الفرات عند الاخطل ، وبينها عند النابغة ، رأيت صورة الاخطل اجمل واروع ، ولا غرو فان الاخطل قد عاش على ضفاف الفرات ، فانطبعت في مخيلته صورة النهر الجبار ، فأجاد في تصويرها.

ثم ان شاعرنا ممتاز في مديحه بحسن الانتقال من المقدمات الى المديح ، وليس هو ممن يقتضبون ذلك اقتضاباً ، كالنابغة وغيره ؛ فانظر الى قوله :

وقمن أصْلاً وعُجنا من نجائبنا وقد تحيّنَ من ذي حاجةٍ سَفَرُ
الى امرئٍ لا تُعرّينا نوافلُه اظفره اللهُ فلْيَهْنَا له الظفرُ(٣)

فقد انتقل من وصف الطريق الى وصف الناقة بمهارة الى الممدوح ، ولقد كان الدكتور طه حسين في محاضراته عن الاخطل التي القاها في كلية الآداب سنة ١٩٣٣

---

(١) انظر بقية الابيات في المختار من شعره . ولا تغب عن ذهنك ابيات النابغة التي اعتذر بها الى النعمان ، وفيها يقول :

فما الفرات اذا هبّ الرياح له ترمي اواذيُّه العِبرين بالزَبَدِ
يمدُّه كلُّ وادٍ مترَعٍ لجبٍ فيه ركامٌ من الينبوت والخضدِ
يظل من خوفه الملاّح معتصماً بالخيزرانة بعد الأين والنجَدِ

(٢) انظر الديوان ص : ٩٦ و ١٧٢

(٣) انظر بقية المقطوعة في المختار من شعره فيما بعد .

كثير الاعجاب بحسن انتقال الاخطل هذا فقد قال مرة وهو يحلل قصيدة من قصائده : ان الاخطل وان كان انتقاله اكثر ما يكون عند ذكر النوق وقطع الطريق الى الممدوح فانه موفق في ذلك توفيقاً جميلاً لا نجده عند غيره من الشعراء .

وقصائد الاخطل في مديح بني امية كلها ممزوجة بهجاء الانصار والقيسية وذكر الوقائع والايام التي جرت بينهم ولذلك اصبح لشعره اهمية تاريخية وسياسية .

تحليل قصيدته الرائية :

وليس احسن لبيان هذا من تحليل قصيدة للاخطل ، ولتكن قصيدته الرائية التي اولها :

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بدرِ وإن كان حيّانا عدى آخر الدهرِ

فقد بدأ قصيدته هذه بشيء من النسيب الحلو ، ذكر في اوله انه ما زال وفيّاً لحبيبته ، على الرغم من أن قومها اعداء لقومه ، وعلى الرغم من انها ارادت ان تقتله بسهمي عينيها ! وهو يسوق هذا المعنى بلفظ رائع جميل ، ثم يصفها في بيت واحد وصفاً دقيقاً جامعاً ، فيجيد تصوير خديها وخصرها وساقيها . ثم يذكر في بيت واحد خيالها وطيفها وذكراها وتعرضها اليه حين النوم ، وهو ايضاً في هذا البيت مبدع كل الابداع ، ومجيد كل الاجادة . ثم ينتقل فجأة الى قيس بن عيلان ، فيذكر محاربتهم اياها ، وحملها على كل مركب صعب ، ثم يهزأ بها ويتهكم ويقول : عجيب والله امر قيس ، فانهم قد سوّدوا بني عجلان ، ومن هم بنو عجلان ؟ أليس عجلان هو ذلك الذليل الذي ظلّ زماناً كان اذا بكى يطلب الزاد ، دفعته الوليدة الى جانب البيت وحرمته الاكل فيبكي بكاء الذليل ؟ وقد صوره صورة تثير الضحك والسخرية حين قال :

فيصبحُ كالخُفاشِ يَدْلُكُ عينه فقد صَبَحَ من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْرِ

ثم يعود فيخاطب بني عجلان قائلاً : انتم والله اذل من ان تسند اليكم الرئاسة . لأنكم ابناء نساء دسمات الثياب حقيرات يعملن اعمالهن بأنفسهن وليس لهن خدمٌ ولا حشمٌ ، وقد صوّر هذا تصويراً حسناً فقال : « بني كلّ دسماء . . . الخ » . ثم يعود بعد هذا التهكم بعجلان الى الهزء بجبن رئيسها وانهزامه بفرسه امام ارماح بني تغلب ، فيصوره اذلّ صورة حين يقول : « وبجيّ ابن بدرٍ . . . الخ » . ولا نخال ان هناك صورة للمهزوم اقبح ولا اشنع منها . ثم يمعن في الاستهزاء برئيس عجلان ابن بدر ويهجوه هجاءً مراً بقوله : ركوبٌ على السوء آت . . . الخ » . ثم عمد في الابيات التي تلي هذا البيت الى الهزء بعامر وسُلَيم وسلول ونَصْر وجُشَم وغنيّ وباهلة وسواءة ، فوصف هزائمهم يوم الثرثار(١) وعدّد قتلاهم ، وذكر تمزيق الرماح اياهم واقامتهم على الثأر ، وهزء بهم شر هزء حين يقول : « وادرك عامى في سواءة . . . الخ » . ثم بعد هذا كله وصل الى المديح ، فوصف الخليفة بالكرم والعطاء الكثير ، ولم ينس أن يحذّره من قيسٍ ولؤمها ، وانها لم تخضع لامير المؤمنين لحسن اسلامها ، ولا لبصيرتها ؛ ولكنها قد اكرهت على هذا الخضوع اكراهاً . ثم يذكر مصعب بن الزبير واشياعه وضلالتهم ، وان اهل الشام قد استطاعوا سحقهم بسيوف بني تغلب العزيزة الجانب ، الممتد سلطانها من منبج الى اقاصي العراقين . ثم افتخر بقتل تغلب لعُمَيْر بن الحُباب الزعيم القيسي ، وارسالها رأسه الى عبد الملك . ثم يمعن في الافتخار باعمال تغلب المجيدة ، وبذلك يختتم القصيدة .

---

(١) يوم لتغلب على قيس وذلك انه لما استحكم الشر بينهما غزت قيس بني تغلب بماكسين من الخابور فاقتتلوا قتالاً شديداً وهي أول وقعة لهم فقتل من بني تغلب خمسمائة وقتل ورئيسها ثم تجمعت تغلب وبنو شيبان على قيس فالتقوا على الثرثار «اسم نهر» واقتتلوا فانهزمت قيس وقتلت تغلب منهم مقتلة عظيمة وبقرت منهم بطون ثلاثين امرأة . انظر الديوان ص : ٣١

وخير مديح للاخطل قصيدته التي قالها في مديح عبد الملك وبني امية والتي اولها : (خفّ القطين ... راجع المختار من شعره) فانت ترى هناك مديحاً لا نعرف له ضريباً في العربية ، ولا غرو فالاخطل قد عاش في بلاط بني امية فارهفوا احساسه ، ورأى ما هم عليه من العظمة والأبهة والمراسيم ، فقال فيهم ذلك القول المرقّص .

وللاخطل مديح آخر غير هذا المديح السياسي وهو على نمط المديح الجاهلي في معانيه والفاظه ، كقوله من قصيدة يمدح بها جدار بن عبّاد التغلبي :

لَعَمْرُ ابي لئن قومٌ أضاعوا ... لَنِعمَ اخو الحفاظ لنا جدارُ
حمانا حين أعْوَرْنا وخِفْنا ... واطعمَ حين يُتَّبَعُ القُتار
وأوقدَ نارَ مكرُمةٍ ومجدٍ ... ولم توقد مع الجشميّ نار
وأطعمَ اشهر الشهباء حتى ... تَصوَّحَ في منابته الحسار (١)

فهو يصفه بالكرم والشجاعة ، كما هي العادة فى المدائح الجاهلية .

الهجاء :

اما هجاء الاخطل فجيد كمديحه ، لانه لم يكن يستعين فيه بالمخازي والسب المفحش ، كما كان يفعل الفرزدق وجرير ؛ وانما كان يهجو بنفي مكارم الاخلاق من كرم وصدق وشجاعة ونبل . وهجاؤه عفيف ليس فيه هتك للاعراض ، ولا ذكر للعورات ، ولا شيء من

---

(١) انظر بقية القصيدة في الديوان ص ٢٠٨ . اضاعوا : مفعول اضاعوا محذوف تقديره : اضاعوا الحفاظ . اعورنا : يقال اعور الفارس اذا بدا فيه موضع خلل للطعن . القتار : ريح القتار من الشواء وغيره . السنة الشهباء ذات القحط . تصوّح : يبس . الحسار : نوع من البقل .

القصص البذيئة التي تجدها بكثرة في شعر الفرزدق وجرير . وهذه مزية نادرة جعلت كثيراً من اهل الادب يفضلونه عليهما (١).

قال الاب لامنس : [واكثر شعره عفيف إلا بعض مقطعات نجدها في ديوانه «صحيفة : ١٠٥ ـ ١٠٦ ـ ١٠٩ ـ ١١٠ ـ ١٦٥» ، ولكنه فحش ليس بشيء اذا قيس الى فحش جرير والفرزدق وغيرهما من هجائي العرب (٢)]. وفي هذا القول بعض حق ، فان كثيراً من هجاء الاخطل عفيف . ولكن الاب لامنس يبالغ في حكمه . فان للأخطل في اهاجيه بذاءة ليست اهون مما في اهاجي صاحبيه . استمع اليه يهجوا جريراً :

قومٌ اذا استنبحَ الاضيافُ كلبَهمُ ... قالوا لامهمُ بولي على النارِ

فتحبس البعل والاسبوع . تجود به الا بمقدار . (٣)

وقوله :

تَعنًّا ضلالاً ياجريرُ وانما ... محلُكَ بيت حلَّ وسط الزرائب

أتسعى بيربوعٍ لتدرك دارماً ... . (٤)

وقوله :

كليب يغالون الحمير ودارمٌ ... على العيس ثانوا الخزَّ فوق المواركِ

وكنتم . . . . . (٥)

---

(١) انظر كلمة الاخطل عن هجائه في الاغاني ج ٧ ص : ١٧١

(٢) دائرة المعارف الاسلامية : مادة الاخطل .

(٣) انظر الديوان ص : ٢٢٥

(٤) الديوان ص : ٢٨٠

(٥) الديوان ص : ٢٨٦

وهجاء الاخطل فخم، وهو في كثير منه اقرب الى الفخر منه الى الهجاء الذي نجده عند جرير ؛ وقد أحس جرير بالفخامة في شعر صاحبه ، فقال من كلمة لابنه : يابني ! ادركت الاخطل وله ناب واحد ، ولو ادركته وله ناب آخر لأكلني ؛ ولكني اعانني عليه خصلتان : كبر سن ، وخبث دين (١). فجرير يؤمن بفخامة هجاء الاخطل ، ولكنه ادركه وهو شيخ خامد ، فاستعان عليه بعنفوان الشباب ، ولولا ذلك لكان للاخطل شأن آخر .

وهجاء الاخطل قسمان : هجاء سياسي ، قاله في اعداء بني امية ؛ وهجاء شخصي ، قاله في ناس كان يحتقرهم . فاما هجاؤه السياسي ، فقد رأيت طرفاً منه (٢) وكله قاله ارضاءً لرغبات الاملاك من بني امية ، واكثره في هجاء قيس واحلافها ورؤسائها كزفر بن الحارث (٣) ونفيع بن صفار المحاربي (٤) وغيرهما . وهجاؤه هذا ينتظم السخرية بهجوه لذله ، وجبنه ، وضعة نسبه ، وحطة عشيرته ؛ وما الى ذلك . وللاخطل نوع من الهجاء ليس هجاء سياسياً خالصاً ، ولكنه هجاء مشوب بالسياسة وبالمصلحة القبلية ، كالهجاء الذي قاله في هوازن وتميم وشيبان وغني وباهلة وغيرهم من القبائل العربية ، التي كانت تريد القضاء على قبيلته ، فأخذ الاخطل يدافع عنها . وانت ترى ان هذا النوع من الهجاء جد قريب الى الهجاء السياسي . واما هجاؤه الشخصي فقد قاله في جماعة من خصومه مثل : كعب بن جعيل (٥) وجرير (٦) والنابغة الجعدي (٧) وأوس بن مغراء (٨) وغيرهم . وجرير هو اكثر الشعراء الذين تعرض لهم الاخطل ، فان له فيه قصائد عديدة ؛ وقد

---

(١) الاغاني : ج ٧ ص ١٦٣
(٢) انظر ذلك في تحليل قصيدته الرائية
(٣) الديوان : ص ١٠٥ ، ١٥١ ، ٢٢١ ، ٢٦٩
(٤) الديوان : ص ١٣٥ ، ٢٢٠
(٥) الديوان : ص ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢
(٦) الديوان : ص ١ ، ٢٥ ، ٣٠ ، ٤١
(٧) الديوان : ص ١٩١ ، ٢٨١
(٨) الديوان : ص ٢٨

كان يهجوه بأنه وضيع غير شريف ، وانه بخيل لئيم ، وانه جبان رعديد ؛ وكثيراً ما كان يعيّره بانه ابن المراغة وابن أمة لئيمة ، وان اباه ليس بشيء في تميم ؛ وكثيراً ما كان يفاضل بينه وبين الفرزدق (١) .

الفخر :

للاخطل فخر جميل سلك فيه سبيل الجاهليين ، فقد كان يفتخر بمكانته الرفيعة في تغلب الغلباء ، وبكرمه ونبل نفسه وشرف آبائه وجدوده وشجاعتهم وايامهم الغرّ في الجاهلية والاسلام . فمن ذلك قوله ، يفتخر بكرم آبائه وشجاعتهم ونبلهم :

إنّا نعجّل بالعَبيط لضيفنا قبل العيال ، ونقتل الابطالا
ابني كليبٍ إن عمَّيَّ اللذا قتلا الملوك وفكّكا الاغلالا
واخوهما السفاح ظمّأ خيله حتى وَردْن جبى الكُلاب نِهالا (٢)

ومن فخره بكرم قومه وشجاعتهم قوله :

وانّا لحيُّ الصدق لا غِرّةٌ بنا ولا مثلُ من يَقري البكي المصرَّما
نسير فنحتل المخوفَ فروعَه ونجمع للحرب الخميس العرمرما (٣)

---

(١) الديوان ص : ٢٧٢ — ٢٨٤ — ٢٧٢

(٢) الديوان ص : ٤٣ . العبيط : الطري من اللحم . بنو كليب : رهط جرير . ويريد بعميه : عمرو بن كلثوم التغلبي قاتل عمرو بن هند ملك العرب ؛ وعُصْم ابي حَنَش التغلبي قاتل شُرَحْبيل ابن الحارث آكل المرار جد امريء القيس . يوم الكلاب الاول : هو يوم لبنى تغلب على بكر بن وائل . السفاح : هو ابن خالد بن كعب من بني تميم ؛ وكانت تميم يومئذ فرقتين : فرقة مع تغلب ؛ وفرقة مع بكر بن وائل . الجبى : ما جمعته من ماء وغيره . النهال : العطاش .

(٣) الديوان ص : ٢٤٩ . لا غرّة بنا ... الخ : اي ليس فينا اغبياء ولا نحن مثل من يقري ضيفه الناقة القليلة اللبن . الخميس : الجيش العظيم .

فانت ترى في هذه المقطوعة والتي قبلها ، فخراً جاهلياً ليس عليه شيء من المسحة الاسلامية . واستمع اليه يقول مفتخراً بنفسه ومكانته في علياء تغلب :

وإني لمن علياء تغلبِ وائلٍ ... لأطولها بيتاً واثبتها اصلا
انا الجشميّ الرّحْبُ في الحي منزلا ... اذا احتلّ مضهودٌ بمضنيةٍ هزلا
وعمّايَ نعم المرء عمرو ومالكٌ ... وثعلبةُ المولي بمنظورة فضلا
وقد علمت افناء تغلبَ أنني ... نُضار ولم أُنبت بقرقرةٍ أَثْلا
وأنيَ يوماً لا مضيعٌ ذمارها ... ولا مُفلتي هاجٍ هجا تغلباً بُطلا (١)

الوصف :

قال الاخطل فيه كثيراً وبرع فيه ، وله في وصف النوق والطرائد والحمر الوحشية شيءٌ جميل ، ومن اروع وصفه ، وصفه الثور الوحشي ؛ وقد تأثر في وصفه هذا بالنابغة كما تأثر به في وصف الفرات . والأخطل في هذه المرة يأخذ عن صاحبه الصورة والبحر والقافية. استمع اليه يقول في وصف ناقته حين شبهها بالثور الوحشي :

كأنّها بُرجُ رومي يشيده ... لُزَّ بجصٍّ وآجُرٍ واحجارِ
او مقفرٌ خاضب الاظلاف جادله ... غَيثٌ تظاهر في مَيثاء مبكار
فبات في جنبِ ارْطاةٍ تكَنَّفُه ... ريحٌ شآميةٌ هبت بأمطار

---

(١) الديوان ص : ١٧٨ . المضهود : المقهور . المضنية : ما يضني ؛ ومعنى البيت : اذا حلّ بي رجل اضناه سوء الحال يجد عندي منزلاً رحباً . المنظورة : الداهية . « والمعنى » هو المعطي فضله حين تحلّ الدواهي . افناء تغلب : قبائلها . النضار : الذهب . القرقرة : الارض اللينة ويكون خشبها خواراً . الاثل : شجر ذو خشب صلب . الذمار : العرض .

يجول ليلته والعينُ تضربُه ... منها بغيثٍ اجشِّ الرعد تيّار

اذا اراد بها التغميضَ أرّقه ... سَيلٌ يدبُّ بهدمِ التُّربِ موّار

كأنه إذ اضاء البرقُ بهجتَهُ ... في اصفهانيّةٍ او مُصطلٍ نار

حتى اذا انجاب عنه الليلُ وانكشفت ... سماؤه عن أديمٍ مُصْحِرٍ عار

آنسنْ صوت قنيصٍ إذ احسَّ بهم ... كالجنّ يهفونَ من جَرْمٍ وأعمار

فانصاعَ كالكوكب الدريّ ميعتُه ... غضبانَ يخلط من معجٍ وإحضار

فارسلوهُن يُذرين التراب كما ... يُذْري سبائخَ قُطنٍ نَدْفُ أوتار

حتى اذا قُلتُ نالتْهُ سوابقُها ... وارهقته بأنيابٍ وأظفار

أنحى إليهنّ عيناً غيرَ غافلةٍ ... وطعنَ محتقرِ الاقرانِ كرّار

فعفّرَ الضّارياتِ اللاحقاتِ به ... عَفْرَ الغريبِ قداحاً بين أيْسار (١)

---

(١) كأنها : الضمير يرجع الى الناقة . لزّ : ألصق . المقفر : الثور الملازم للقفر . خاضب الاظلاف مصبوغها من وطء البقول . الميثاء الارض السهلة . المبكار : الارض التي باكرها المطر . اجشّ الرعد : غليظ الصوت . الغَين : السحاب . التيّار : الشديد الانصباب . اذا اراد بها : الضمير يرجع الى الليلة «والمعنى» : اذا اراد هذا الثور ان ينام لم يدعه السيل ان يهيل عليه التراب فيدخل في عينيه فيمنعه ذلك . الاصفهانية : الثوب المصبوغ بالزعفران . وقوله مصطلي نار : يريد به ان من يصطلي يقع عليه من نور النار ضياء اصفر فشبه به لون الثور وقت يضيئه البرق . مُصحر : احمر . عار : لا نعم فيه . القنيص : القانصون . بهم : الضمير يرجع الى القنيص وهم الصيادين . يهفونَ : يسرعون . انصاع : انفتل بسرعة . ميعته : اول ركضه . المعج : الركض ومثله الاحضار . ارسلوهن : الضمير يرجع الى الكلاب . يذرين : يثرن . السبائخ : جمع سبيخة : القطعة من القطن والصوف . أنحى اليهن ... الخ : امال الثور عينه وهي غير غافلة وطعن بقرنه كطعنة الباسل الكرّار الشديد على اقرانه . عفّر الضّاريات : صرعها ورماها الى التراب . الغريب : الذي يقامر ولا قِداح له فهو اشد استمساكاً من غيره . الايسار : جمع يسر وهم المقامرون . «والمعنى» كأن هذا الثور يعفّر الكلاب الضاريات بعزم صادق مثل عزم الغريب بين المقامرين لانه لا قداح له فهو اجسر على اللعب .

وللاخطل غير هذا الوصف الجميل ، وصف للطرائد والنياق (١) والحمار الوحشي (٢) والبادية (٣) ، وغير ذلك من افانين الوصف.

الخمر :

الاخطل خير من وصف الخمر في العصر الاسلامي ، لانه كان يدمن شربها ، وهو في كثير من خمرياته استاذ لابي نواس، وقد اخذ كثيراً من صوره عن الاعشى، وله وصف للسكران من اجمل الوصف (٤) . كما له وصف للنديم ومجالس الشراب وحال السكارى (٥). وكيف لا يجيد الخمريات ، وقد كان لا يصحو ساعة ، ولما عيره جرير بذلك قال :

تعيّرني شرابَ الشيخ كسرى ويشرب قومك العجب العجيبا

. . . . . (٦)

وكان الاخطل ينصح الشعراء ان يشربوا الخمر لينتعش فوآدهم ، ويجود شعرهم . فقد روى ابو الفرج الاصفهاني ان الاخطل قدم مرة الكوفة ، فزاره المتوكل بن عبد الله الليثي الشاعر ، وقال له : انشدني يا ابا مالك . فقال : إني خاثر . فقال : انشدني فوالله لا تنشدني قصيدة إلا انشدتك مثلها او اشعر منها . ثم انشده بعض شعره . فقال له الاخطل : ويحك يا متوكل ، لو نبحت الخمر في جوفك لكنت اشعر من فيها (٧).

---

(١) الديوان ص : ١٣٨ - ٢٣٠

(٢) الديوان ص : ١٣ - ٥٦ - ٦٠

(٣) الديوان ص : ٦

(٤) انظر ذلك الوصف في الديوان ص : ٢ وما بعدها وص : ٢٥٦ وفي المختار من شعره .

(٥) انظر الديوان ص ٧٦ - ٨٤ - ٨٩ - ٢٥١ - ٢٩٦ - ٣٢١

(٦) انظر الديوان ص : ١٥٥

(٧) الاغاني ج ١١ ص ٣٩

مكانة الاخطل في الأدب العربي :

اختلف الناس في الاخطل وجرير والفرزدق أيهم اشعر بعد ان اجمعوا على انهم أئمة الشعر الاموي الاسلامي ، وقد عدّهم ابن سلاّم اول الشعراء الاسلاميين . فأما ربيعة وبنو امية فقد تعصبت للاخطل وجعلته اولهم . وقد ذكر ابن سلاّم ان بشاراً سئل اي الثلاثة اشعر ؟ فقال : لم يكن الاخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه (١) ويقول الاساتذة مؤلفو المفصّل : «وقد كان يجود شعره ويعرضه على النقاد فيُسقط منه الرديء ، ولذلك كان شعره خالياً من الحشو والعيب ، إلا انه لم يبلغ فيه مبلغ جرير والفرزدق (٢) » . نقول : ان في هذه الحكومة شيئاً من الحق ، وكثيراً من المغالاة . فان ربيعة وبني امية ، وإن تكن قد تعصبت للاخطل ، فليس معنى هذا ان الاخطل ليس مثلهما ، وأنه لم يبلغ مبلغ صاحبيه ؛ لانه برع في نواحٍ اعترف له بها كثير من النقاد وأئمة الشعر . وقد رأيت كلمة الاصمعي فيه . سأل الحجاجُ قتيبة بن مسلم عن اشعر الشعراء فأجاب معدداً صفات الفحول منهم وقال : «الاخطل أوصفهم (٣)» . ولمروان بن ابي حفصة حكومة في الثلاثة ، اقره عليها كثير من النقاد ، وفيها فضّل الاخطل بهجائه حيث يقول :

ذهب الفرزدق بالفخار وانما ... حلو الكلام ومره لجرير

ولقد هجا فأمضّ اخطل تغلبٍ ... وحوى اللها ببيانه المشهور (٤)

***

---

(١) الموشح للمرزباني ص : ١٣٨

(٢) المفصل ج ١ ص : ١٤٤

(٣) المزهر للسيوطي ج ٢ - ص : ٢٤

(٤) الاغاني ج ٨ ص ٤٩

مختارات من شعره

قال الاخطل (١) :

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بدر ... وإن كان حيّانا عدىً آخرَ الدهر (٢)

وإن كنتِ قد أقصدتِني إذ رميتني ... بسهميك والرامي يصيبُ وما يدري

أسيلةُ مجرى الدمع أما وشاحُها ... فجارٍ ، وأمّا الحِجْلُ منها فما يجري (٣)

وكنتم اذا تدنون منا تعرّضت ... خيالاً تُكلّمُ أو بتُّ منكم على ذِكر

لقد حملتْ قيسَ بنَ عَيْلانَ حربُنا ... على يابس السيساءِ محدودبِ الظهر (٤)

وقد سرّني من قيسِ عيلانَ انني ... رأيتُ بني العجلان سادوا بني بدر

وقد غبرَ العجلانُ حيناً اذا بكى ... على الزّادِ ألقتهُ الوليدةُ في الكَسْر (٥)

فيُصبِح كالخُفّاش يدلُكُ عينَهُ ... فقُبِّحَ من وجهٍ لئيمٍ ومن حَجْر (٦)

وكنتم بني العجلانِ ألأمَ عندنا ... وأحقرَ من أن تشهدوا عالي الامر

بني كلِّ دَسْماءِ الثيابِ كأنما ... طلاها بنو العجلان من حُمَمِ القِدْر (٧)

---

(١) راجع تحليل هذه القصيدة ص :١٥٩ وقد آثرنا ان نثبت القصيدة بكاملها ليطلع القاريء على اسلوب الاخطل في نظم قصائده . (٢) عدىً : متباعدين وفسر ايضاً متعادين . (٣) أسيلة مجرى الدمع : سهلة الخدين . ويريد بقوله وشاحها جار : أنها ضامرة الكشحين . الحجل : موضع الخلخال وهو ممتلىء (٤) السيساء : عظم ظهر الحمار «والمعنى» ان حربنا حملت قيس بن عيلان على مركب صعب . (٥) «المعنى» ان العجلان بقي زماناً إذا بكى يطلب الزاد دفعته الوليدة الى جانب البيت وحرمته الاكل . (٦) الخفاش : اخفش العين ومريضها . الحجر : محجر العين . (٧) دسماء الثياب : الثياب الملونة بدسم الطعام .

ترى كعبها قد زال من طول رعيها ... وقاحَ الذُّنابي بالسويةِ والزَّفر (١)

وإن نزل الاقوامُ منزلَ عفةٍ ... نزلتم بني العجلان منزلةَ الخُسْر

وشاركتِ العجلانُ كعباً ولم تكن ... تشارك كعباً في وفاءٍ ولا غَدْر

ونجّى ابنَ بدرٍ ركضُهُ من رماحنا ... ونضّاحةُ الأعطافِ ملهبةُ الحَضْر (٢)

اذا قلتُ نالتهُ العوالي تقاذفت ... به سَوحَقُ الرِّجْلين صابيةُ الصدر (٣)

كأنهما والآلُ يَنجابُ عنهما ... اذا انغمسا فيه يعومان في غَمْر (٤)

يُسِرُّ اليها والرماحُ تنوشُهُ ... فدىً لكِ امّي إن دأبتِ الى العصر (٥)

فظلَّ يُفَدّيها ، وظلت كأنها ... عُقابٌ دعاها جُنحُ ليلٍ الى وَكر (٦)

كأن بطُبْيَيْها ومجرى حزامها ... أداوى تَسُحُّ الماءَ من حَورٍ وُفْر (٧)

ركوبٌ على السوءات قد شَنَّمَ استه ... مُزاحمةُ الاعداء والنَّخسُ في الدبر (٨)

فطاروا شِقاقاً لا ئتين فعامرٌ ... تبيعُ بنيها بالخضاف وبالتَّمْر

وأما سُلَيْمٌ فاستعاذتْ حِذارَنا ... بحرَّتها السوداء والجبل الوعر

---

(١) الذنابي : المؤخرة ، واصلها للطير . الزفر : السقاء الذي يحمل فيه الراعي ماءه . «والمعنى» ان أرجل نسائهم تشققت وذابت من كثرة المشي لرعي الابل ، واعجازهن تجرحت وتقيحت من كثرة الحمل وهو يريد بهذا الوصف أنهن كالاماء يقمن على الخدمة ورعي الابل . (٢) نضاحة الاعطاف : يريد فرساً تنضح اعطافها بالعرق . والحضر : العدو «و المعنى» انه نجى من رماحنا لانه كان يركب فرساً يحثها على السرعة في الجري حتى نضحت بالعرق . (٣) العوالي : الرماح . سوحق الرجلين : طويلة الرجلين . وصابية الصدر : اي سريعة الممر قاصدة الصدر . (٤) كأنهما : يريد ابن بدر وفرسه . الآل : السراب . (٥) يسر إليها : اي الى فرسه . دأبت الى العصر : اي سرت الى وقت العصر . (٦) وظلت : وفي رواية وطلّت : اي اشرفت . (٧) الأطباء : الاثداء واحدها طبي «بضم الطاء» . الاداوي : قرب الماء . الحور : ادم تدبغ بدباغ يقال لها الحوريّة لحمرتها . الوفر : الضخام . (٨) شنم : جرح — النخس : الوخز ، يصفهم بالمهزومين .

تَنِقُّ بلا شيء شيوخُ محاربٍ وما خلتها كانت تريش ولا تبري
ضفادعُ في ظلماء ليلٍ تجاوبتْ فدلَّ عليها صوتُها حيةَ البحر
ونحن رفعنا عن سَلولٍ رماحَنا وعمداً رغبنا عن دماء بني نَصر
ولو بيني ذبيانَ بلّتْ رماحُنا لقرّتْ بهم عيني وباءَ بهم وِتْري (١)
شفى النفسَ قتلى من سُليمٍ وعامرٍ ولم تشفها قتلى عَنِيٍّ ولا جسر (٢)
ولا جُشَمٍ شرّ القبائل إنها كبيض القطا ليسوا بسودٍ ولا حمر (٣)
وما تركت أسيافُنا حين جُرّدت لاعدائنا قيس بن عيلان من عُذر
وقد عركت بابنيْ دخانٍ فأصبحا اذا ما احزألاّ مثلَ باقيةِ البَظر (٤)
وأدرك علمي في سُواءَةَ انها تُقيم على الاوتار والمشرَب الكَدر (٥)
فأقسم لو ادركنهُ لقذفنهُ الى صَعْبة الارجاء مظلمة القعر
فوسّدَ فيها كفّهُ او لحجّلتْ ضباعُ الصحاري حوله غير ذي قبر (٦)
لعمري لقد لاقت سُليمٌ وعامرٌ على جانب الثرثار راغيةَ البكر
أَعنّي امير المؤمنين بنائلٍ وحسنِ عطاءٍ ليس بالرّيّث النزر (٧)
وانت امير المؤمنين وما بنا الى صلح قيسٍ يابن مروانَ من فقر
فان تك قيسٌ يابن مروان بايعت فقد وَهلَتْ قيسٌ اليك من العُذر (٨)

---

(١) بلت : استمسكت وعلقت . وباء : اصاب شفاء . وترى : ثأري . (٢) العني والجسر : عينا ماء مشهورتان . (٣) جشم : اسم قبيلة . (٤) احزألاّ : ارتفعا . (٥) سواءة : يريد سواءة بن عامر بن صَعصعة . (٦) معنى هذا البيت والذي قبله : هو ان خيله لو ادركت عدوّه لاءلقته في حفرة مظلمة لا يجد فيها وسادة غير كفه او لتركته طريحاً فوق الثرى تتسارع اليه ضباع الصحراء فتنوشه . (٧) الريث النزر : القليل البطيء . (٨) وهلت : فزعت اي فزعت اليك قيس معتذرة .

على غير اسلامٍ ، ولا عن بصيرةٍ ولكنهم سيقوا اليك على صُغر (١)

ولما تبيّنا ضلالةَ مُصْعَبٍ فتحنا لأهل الشام باباً من النصر

فقد أصبحت منا هوازنُ كلُّها كواهي السُّلامي زيد وقراً على وقر (٢)

سَمَوْنا بعرنينٍ أشمَّ وعارضٍ لنمنع ما بين العراق الى البِشر (٣)

فأصبح ما بين العراقين ومنبجٍ لتغلب تردى بالرُّدينيَّة السُّمر (٤)

إليك أميرَ المؤمنين نَسيرُها تَخُبُّ المطايا بالعرانين من بكر (٥)

برأس امرىء دلاً سُلَيْماً وعامرا وأورد قيساً لُجَّ ذي حدَبٍ غمر (٦)

فأسْرَيْنَ خمساً ثم أصبحن غدوةً يُخَبِّرْنَ اخباراً ألذَّ من الخمر

تَخَلَّ ابنَ صفّارٍ فلا تذكُرِ العُلى ولا تذكرَنْ حيّاتِ قومك في الذكر (٧)

فقد نهضت للتغلبيين حيَّةٌ كحيّة موسى يوم أيّد بالنصر

يُخَبِّرننا إن الاراقمَ فأقموا جماجمَ قيسٍ بين راذانَ فالحضر (٨)

جماجمَ قومٍ لم يَعافوا ظُلامةً ولم يعلموا أينَ الوفاءُ من الغدر

***

---

(١) الصغر : الصغار وهو المذلة . (٢) السُّلامى : عظام خف البعير . والوقر : الصدع يكون في العظم . (٣) البشر : ماء لبني تغلب . (٤) تردي : تمشي . والردينية : قرية بالبحرين ينبت فيها القنا وإليها ينسب . (٥) العرانين : الاشراف . (٦) امرىء : يريد به عمير بن الحباب ويشير بهذا البيت الى « يوم الحشاك » . ودلاً : من تدلية الدلو ، اي اوقعهما في ما اراد من تغريره . وذو الحدب البحر . (٧) ابن صفار : هو نفيع بن صفار المحاربي ، وهو المفتخر في ايام لقيس على بني تغلب . (٨) راذان الاسفل والاعلى : كورتان بسواد بغداد تشتمل على قرى كثيرة .

وقال يمدح عبد الملك بن مروان من قصيدة مطلعها :

خف القطينُ فراحوا منك او بكروا ... وأزعجتهم نويٌّ في صَرفها غِيَرُ(١)

. . . . . .

وَقَعْنَ أصلاً وعُجْنا من نجائبنا ... وقد تُحِنُّ من ذي حاجةٍ سَفَرُ(٢)

إلى امرىءٍ لا تُعرّينا نوافلُهُ ... أظفرَهُ اللهُ فليهنا له الظفرُ(٣)

الخائضِ الغمرَ والميمونِ طائرُهُ ... خليفةِ اللهِ يستسقى به المطرُ

والهمُّ بعد نجيّ النفسِ يبعثُهُ ... بالحزمِ والأصمعان القلب والحذرُ(٤)

والمستمرُّ به أمرُ الجميع فما ... يغترّهُ بعد توكيدٍ له غَرَرُ(٥)

وما الفرات إذا جاشت حوالبُهُ ... في حافتيهِ وفي أوساطه العُشَرُ(٦)

وذعذعتهُ رياحُ الصيف واضطربت ... فوق الجآجىءِ من آذيّه غُدُرُ(٧)

مُسحَنْفِرٌ من جبال الروم يسترُهُ ... منها أكافيفُ فيها دونه زَوَرُ(٨)

يوماً بأجودَ منه حين تسألُه ... ولا بأجهرَ منه حين يُجتهرُ(٩)

ولم يزل بك واشيهم ومكرُهُمُ ... حتى أشاطوا بغيبٍ لحمَ من يَسروا(١٠)

فلم يكن طاوياً عنا نصيحته ... وفي يديه بدنيا دوننا حَصرُ

---

(١) الديوان ص ٩٨ . (٢) وقعن أصلا : نزلن عشية . وعجنا من نجائبنا : اي عطفن الابل .
(٣) الى امريء : أي الى امير المؤمنين . (٤) الاصمعان : القلب الذكي المتيقظ والرأي الحازم. (٥) الغرر : التعريض للهلاك. (٦) جاشت حوالبه : هاجت امواجه . العُشَر : نوع من الشجر . (٧) ذعذعته : فرقته والجآجيء : ج جؤجؤ وهو صدر السفينة. الآذي : الموج المرتفع. (٨) المسحنفر : السريع الجريء . الاكافيف : التعاريج والطرق الملتفة في الجبل . والزور : الميل (٩) اجتهر الرجل : نظر اليه الرجل جهاراً واستعظمه . (١٠) اشاطوا : قتلوا ويسروا .

فهو فداء أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذ يوم باسل ذكر (١)
مفترش كافتراش الليث كلكله لوقعة كائن فيها له جزر (٢)
مقدماً مائتي ألف لمنزله ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر
يغشى القناطر يبنيها ويهدمها مسوم فوقه الرايات والقتر (٣)
حتى يكون لهم بالطف ملحمة وبالثوية لم ينبض بها وتر (٤)
وتستبين لأقوام ضلالتهم ويستقيم الذي في خده صعر (٥)

* * *

وقال من قصيدة يمدح فيها يزيد بن معاوية، ويشير الى حادثته في هجو الانصار (٦) مطلعها :

صحا القلب إلا من ظعائن فاتني بهن أمير مستبد فأصعدا (٧)
. . . . . .
وإني غداة استعبرت أم مالك لراض من السلطان ان يتهددا (٨)
ولولا يزيد ابن الملوك وسيبه تجللت حدباراً من الشر أنكدا (٩)
وكم انقذتني من جرور حبالكم وخرساء لو يرمى بها الفيل بلدا (١٠)
ودافع عني يوم حلق غمرة وهماً ينسيني السلاف المهودا (١١)

---

(١) النواجذ : ج ناجذ وهو الضرس الذي يلي الناب . يوم باسل : يوم كريه من شدة الحرب . الذكر : القوي . (٢) الجزر : كل شيء مباح للذبح . (٣) القتر : الغبار . (٤) الطف والثوية : موضعان قريبان من الكوفة . لم ينبض بها وتر : لم يرم فيها سهم . (٥) الصعر : امالة الخد من الكبر .
(٦) راجع تفصيل الحادثة في مديح الاخطل . (٧) الديوان ص ٩٠ . (٨) استعبرت : جرت عبرتها . أم مالك : امرأة الاخطل يشير الى تهديد معاوية بقطع لسانه . (٩) الحدبار : الناقة الهزيلة البادية العظم (١٠) الجزور : البئر العميقة . الخرساء : الداهية . بلد : لصق بالارض لما دهاه . (١١) الغمرة : الشدة . المهود : المسكن .

وبات نجياً في دمشق لحيّة ... اذا عضّ لم ينم السليمُ وأقصدا (١)

يخفتّه طوراً وطوراً اذا رأى ... من الوجه اقبالاً ألحّ وأجهدا

ابا خالدٍ دافعتَ عني عظيمة ... وادركت لحمي قبل ان يتبددا

وأطفأت عني نارَ نعمانَ بعد ما ... أغذّ لامرٍ عاجزٍ وتجرّدا (٢)

ولما رأى النعمانُ دوني ابنُ حرّةٍ ... طوى الكشح اذ لم يستطعني وعرّدا (٣)

ولاقى امرءاً لا ينقضُ القومُ عهدَه ... أمرَّ القوى دون الوشاة وأحصدا

اخا ثقةٍ لا يجتويه ثويّه ... ولا نائياً عنه اذا ما تودّدا (٤)

كأن ذوى الحاجات يغشوْن مصعباً ... أزبَّ الجرانِ ذا سنامين أحردا (٥)

تخمّطَ فحلَ الحربِ حتى تواضعت ... له واعتلاها ذا مشيبٍ وامردا (٦)

وما وجدت فيها قريش لأمرها ... أعفَّ وأوفى من ابيك وأمجدا

وأصلبَ عوداً حين ضاقت أمورُهم ... وهمّتْ معدٌّ أن تخيم وتخمُدا (٧)

وأورى زنديه ولو كان غيرُه ... غداة اختلاف الامر أكبا وأصلدا (٨)

فأصبحتَ مولاها من الناس بعده ... وأحرى قريش أن يهاب ويحمدا

وفي كل أفقٍ قد رميت بكوكبٍ ... من الحرب مخشيٍّ اذا ما توقّدا

---

(١) الحيّة : يريد بها معاوية . لم ينمَ : لم يسلم السليم . وأقصدت الحية : لدغت فقتلت .
(٢) نعمان : يريد به النعمان بن بشير الانصاري . أغذّ : أسرع السير . لأمر عاجز : الامر شديد يعجز صاحبه (٣) طوى الكشح : اضمر العداوة ولم ينطق . عرّد : هرب (٤) لا يجتويه ثويه : لا يكرهه ضيفه . (٥) المصعب : ويريد به البعير الذي يصعبه صاحبه ، اي لا يتعبه بل يتركه مهملاً لنجابته وطلب نسله ، شبه ممدوحه به . (٦) الازب : الكثير الوبر . الجران : العنق . الاحرد : الشامخ برأسه . (٦) تخمط : اهتاج وهدر وضرب بذنبه . (٧) تخيم : تجبن وتنكص . (٨) اكبا الرجل واصلدا : قدح فلم يرو .

وتشرق أجبالُ العوير بفاعلٍ إذا خبَتِ النيرانُ بالليل أوقدا

ومنتقمٍ لا يأمن الناسُ فجْعَهُ ولا سَوْرة العادي، إذا هو أوعدا (١)

وما مزبدٌ يعلو جزاءَ حامرٍ يشُقُّ إليها خيرزاناً وغرقدا (٢)

تحرّزَ منه أهلُ عانةَ بعدما كسا سُورَها الأعلى غُثاءٌ مُنضدا (٣)

يقمص بالملاح حتى يشُفّه الحذارُ وإن كان المشيحَ المعوّدا (٤)

بمطرّد الآذيّ جوْنٍ كأنما زفا بالقراقير النّعامَ المطرّدا (٥)

كأن بناتِ الماء في حجراته أباريقُ أهدتها دِيافُ لصَرْخدا (٦)

بأجود سيباً من يزيد اذا غدت به يختُهُ يحملن ملكاً وسُؤددا (٧)

يُقلّصُ بالسيف الطويل نِجادُه خميصٌ، اذا السربالُ عنه تقدّدا (٨)

فاقسمت لا أنسى، مدى الدهر، سيبه غداة الليالي ما اساغ وزودا

***

---

(١) السورة: الصولة والوثبة. العادي: العدو، الاسد.

(٢) المزبد: الذي يأتي بالزبد ويريد به فيض الفرات. والغرقد: العوسج اذا عظم.

(٣) العانة: قرية في العراق. وغثاء: ما يقذفه السيل من قش وزبد وورق بالٍ.

(٤) يقمص بالملاح: اى يحمله على الوثوب ويعلقه. المشيح: الحاذق بالشيء.

(٥) مطرد الآذي: الموج المتتابع. زفا بالقراقير: حث السفينة الطويلة العظمة وطردها، وقد شبه السفن التي يدفعها الموج بنعام ناشر جناحيه مطرّد.

(٦) دياف وصرخد: قريتان في الشام، وصرخد هي صلخد اليوم.

(٧) البخت: الابل الخراسانية.

(٨) يقلص: يشمر. النجاد: حمائل السيف. الخميص: الضامر البطن. تقدد: تقطع.

وقال يصف الخمر ، من قصيدة مطلعها (١) :

عفا واسطٌ من آل رضوى فنبتلُ ... فمُجْتَمَعُ الحُرَّيْنِ فالصبر أجملُ

. . . . . .

صريعُ مُدامٍ يرفع الشربُ رأسه ... ليحيا وقد ماتتْ عظامٌ ومَفصِلُ (٢)

تُهاديه أحياناً وحيناً تجُرُّه ... وما كاد إلا بالحشاشةِ يَعْقِل (٣)

إذا رفعوا عظماً تحامَلَ صدْرُهُ ... وآخرُ مما نالَ منها مُخبَّل

شربت ولاقاني لحلْ أَلِيَّتي ... قِطارٌ تَرَوَّى من فلسطين مثقل (٤)

عليه من المِعزى مُسوكٌ رويَةٌ ... مُمَلأةٌ يُعلا بها وتُعَدَّل (٥)

فقلت اصبحوني لا أبا لأبيكم ... وما وضعوا الاثقال إلا ليفعلوا

أناخوا فجرّوا شاصياتٍ كأنها ... رجالٌ من السودان لم يتسربلوا (٦)

وجاؤوا ببيسانيةٍ هي بعد ما ... يَعُلُّ بها الساقي ألذُّ وأسهل (٧)

تمرّ بها الايدي سنيحاً وبارحاً ... وتُوضَعُ باللهم حيّ وتُحمَلُ (٨)

---

(١) الديوان : ص ١ .

(٢) الشرب : ج شارب .

(٣) تهاديه : تسوقه . الحشاشة : بقية النفس .

(٤) القطار « بالكسر » قطعة من الابل على نسق واحد ، « وبالضم » السحاب العظيم القطر .

(٥) المسوك : ج المسك وهو الجلد به الزق . الروية : الضخام .

(٦) الشاصيات : الشائلات القوائم من امتلائها ، وعنى بالشاصيات الرقاق لانها اذا امتلأت شاركت اكارعها ، يقال شصاً برجله اذا رفعها وشصا ببصره اذا شخص .

(٧) بيسانية : خمرة بيسان وهي بناحية الاردن .

(٨) السنيح : ما جاء عن يمينك يريد شمالك . والبارح : ما جاء عن شمالك يريد يمينك ، و « المعنى » ان هذه الخمرة تأتي عن اليمين واليسار ويذكر اسم الله عليها في وضعها ورفعها .

وتُوقفُ أحياناً فيفصلُ بيننا غناءُ مغنٍّ أو شواءٌ مُرَعْبَلُ (١)

فلذَّتْ لمرتاح وطابت لشارب وراجعني منها مراحٌ وأخبلَ (٢)

فما لَبِثتنا نَشوةٌ لحقت بنا توابعُها مما نُعَلُّ ونُنهَلُ

تَدِبُّ دبيباً في العظام كأنه دبيبُ نِمال في نقاً يتهيَّل (٣)

فقلت اقتلوها عنكمُ بمزاجها فأطيبُ بها مقتولةً حين تُقتل

رَبتْ وربا في حِجرها ابنُ مدينةٍ يَظَلُّ على مِسحاته يتركّل (٤)

إذا خاف من نجمٍ عليها ظماءة أَدَبَّ اليها جدولاً يَتسلسل (٥)

***

---

(١) شواء مرعبل : شواء مقطع .

(٢) مراح : من المرح وهو النشاط . واخيل : من الخيلاء وهو الكبر .

(٣) النقا : التل من الرمل . يتهيل : يتحدر . « والمعني » ان الخمرة تدب دبيب النمل في تل يتهال منه الرمل .

(٤) ربا : نشأ . ابن مدينة : يريد سكان المدينة وهم الانصار . المسحاة وهي التي يسحا بها التراب « المجرفة » . يتركل : يدفعها برجله « والمعني » : انه نشأ في حجرها ابن المدينة المزارع ، وكانت تلك سبة عند العرب .

(٥) النجم : يريد نجوم الصيف اي اذا خاف عليها حرارة الصيف أسال عليها جدولاً عذباً بارداً .

مصادر البحث

بالعربية :

ديوان الاخطل	:	رواية ابي سعيد السكري	طبع اليسوعية	سنة ١٨٩٨
ملحق ديوان الاخطل	:	اسمه الشذر الذهبي	〃 〃	بيروت
الاغاني	:	لابي الفرج الاصفهاني	طبع الساسي	مصر
الاشتقاق	:	لابن دريد الازدي	〃 وستنفلد	ليدن
فتوح البلدان	:	للبلاذري	〃 ذي خوي	〃
انساب الاشراف	:	〃	〃 الجامعة العبرية	القدس
معجم البلدان	:	لياقوت الحموي	طبعة الخانجي	مصر
جمهرة اشعار العرب	:	لابي زيد القرشي	〃 بولاق	〃
الموشح	:	للمرزباني	المطبعة السلفية	〃
الامالي	:	لابي علي القالي	طبعة دار الكتب	〃
عيون الاخبار	:	لابن قتيبة الدينوري	〃 〃 〃	〃
محاضرات في الادب الاموي	:	للدكتور طه حسين	غير مطبوع	
〃 〃 〃 〃	:	للمرحوم الشيخ السكندري	〃 〃	
شرح ديوان جرير	:	للصاوي	مطبعة الصاوي	مصر

بالفرنسية :

Journal Asiatique 1834 - 1894

Encyclopédie de l'Islam. Art. Akhtal. par H. Lammens.

ابن المقفع

التوطئة

نشأة النثر الفنى وتطوره :

قلنا في التوطئة التي مهدنا بها للكلام في علي ، انه لم يكن للجاهليين نثر فني يعتمد على قواعد البيان ، وانما كان عندهم نثر عادي مصدره السليقة (١) وهو الذي نجده في خطب الخطباء وسجع الكهان (٢) .

---

(١) ولكن الدكتور زكي مبارك لا يرى هذا الرأي ، بل يقول في ص ٣٤ ج ١ من كتابه « النثر الفني » : «انه كان للعرب قبل الاسلام نثر فني يتناسب مع صفاء اذهانهم وسلامة طباعهم ، ولكنه ضاع لأسباب أهمها شيوع الامية وقلة التدوين وبعد ذلك النثر عن الحياة الجديدة التي جاء بها الاسلام ودونها القرآن .» ولا يستدل على نظريته بشيء مما اثر عن الجاهليين من سجع الكهان وخطب الخلفاء لانها في رأيه كلها منحولة والشاهد الوحيد على وجود النثر الجاهلي هو القرآن . يقول في ص : ٣٨ : « ولا ينبغي الاندهاش من عد القرآن اثراً جاهلياً فانه من صور العصر الجاهلي اذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره ، وهو - بالرغم مما اجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات ادبية لم تكن معروفة في ظنهم عند العرب - يعطينا صورة للنثر الجاهلي ، وان لم يمكن الحكم بان هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبي من الكتاب والخطباء . »

(٢) يشك بعض الادباء كالدكتور زكي مبارك في صحة السجع المروي عن الجاهليين ، ونرى انه لا مجال للشك في ذلك فقد تواترت الاقوال بوجوده . ففي موطأ الامام مالك : ان الرسول نهى بعض الصحابة عن سجع الكهان «انظر الموطأ ج ٢ ص ١٩٢ » وقال الجاحظ : «وكان الذي كرّه الاسجاع بعينها ان كهان العرب الذين كان اكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم كانوا يتكهنون ويحكمون بالاسجاع » « البيان والتبيين : ج ١ ص ١١٢ - ١١٣ » ثم مالنا نذهب بعيداً وهذا القرآن ينفي عن الرسول الكريم ان يكون كاهناً او مجنوناً او شاعراً وينفي ان يكون القرآن من جنس سجع الكهان فيقول : «وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون » . « ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » « انظر سورتي الطور والحاقة » .

فاما جاء الاسلام وانقلب العرب هذا الانقلاب السياسي الخطير ، كان من الضروري ان يعنى بأمر النثر الذي به تقوم دعائم الدول ، وهكذا قد كان إذ اعتمد صاحب الرسالة الاسلامية على النثر في دعوته واملى على كتابه رسائله الى عماله والى زعماء القبائل والأمراء وملوك الامم المجاورة ، وقد كان يتوخى في رسائله اسلوباً معيّناً فيطيل حيث تقتضي الاطالة ، ويغرب حين يكتب الى الفصحاء من العرب ، ويجنح الى السهولة والايجاز اذا كتب لغير العرب حتى يسهل منهم كلامه وترجمته. (١) على ان امتداد الفتوح واتساع رقعة البلاد الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين اضطر المسلمين الى العناية بأمر الكتابة في هذا الدور من تأسيس دولتهم .

ولما جاءت الدولة الاموية كثرت دواعي الكتابة لأمور :

اولها : اتساع رقعة البلاد الاسلامية اتساعاً عظيماً اضطر الخلفاء الى اتخاذ الكتّاب العديدين ليكتبوا عنهم الى عمالهم في مختلف انحاء المملكة الاسلامية الكبرى . وبذلك عظم شأن الدواوين عما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، فزاد معاوية على الدواوين التي وجدت في عهد عمر دواوين ثلاثة ، اولها : للخراج وثانيها : للرسائل وثالثها : للخاتم. وقد خصص معاوية كل ديوان من هذه الدواوين برجل مشهود له بالبراعة في شؤون ديوانه . ومن اشهر هؤلاء الكتّاب ، عبد الله بن أوس الغسّاني كاتب الرسائل . وسرجون الرومي كاتب الخراج (٢).

---

(١) انظر طرفاً من ذلك في جمهرة رسائل العرب ج ١ ص : ٣٥ - ٧٩

(٢) كان سرجون يكتب الخراج بلغته الرومية التى ظلّت لغة المال في هذه الدولة الى ان نقلت دواوين الخراج من الرومية الى العربية على يد سلمان بن سعد في عهد عبد الملك بن مروان .

وثانيها : ميل الخلفاء الامويين الى اظهار أبهة الخلافة مما استتبع العناية الكبرى بما يصدر عنهم من رسائل . وظهرت بواكير هذا الميل في عهد معاوية ، ولكنها ظهرت جلية في عهد عبد الملك وابنه الوليد . يقول صاحب صبح الاعشى في صناعة الانشاء المتوفى [سنة ٨٢١] : « ولم يزل امر المكاتبات في الدولة الاموية جارياً على سنن السلف الى ان ولي الوليد بن عبد الملك فجوّد القراطيس وجلّل الخطوط وفخم المكاتبات ، وتبعه من بعده الخلفاء على ذلك ، الا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد ، فانهما جَرَيا في ذلك على طريق السلف . ثم جرى الأمر من بعدهما على ماسنّه الوليد ، الى ان صار الأمر الى مروان بن محمد آخر خلفائهم ، وكتب له عبد الحميد بن يحيى ، وكان من اللسن والبلاغة على ماشتهر ذكره ، فاطال الكتب واطنب فيها حيث اقتضي الحال تطويلها والاطناب فيها ، حتى يقال إنه كتب كتاباً عن الخليفة وَقْر جمل ، واستمر ذلك فيما بعده (١) » .

وثالثها : اختلاط العرب بالطبقة المثقفة من ابناء الامم الخاضعة لسيطرتهم ، فليس من شك في ان العرب قد افادوا من حصافة عقول هذه الامم وبخاصة الفرس والروم ، وقد كان من نتائج هذه المخالطة ان ظهرت الكتابة بمظهر جديد وهو الاطالة ، فوضع عبدالحميد ابن يحيى الكاتب نواة هذه الطريقة ، وهو اول من اطال الرسائل ، وهنا لا بدّ لنا من الاشارة الى تأثير الفرس في الكتابة العربية (٢) . وكان عبد الملك بن مروان كثيراً مايقول عن رَوْح بن زنباع الجذامي الزعيم المشهور بالخطابة والعلم والسياسة انه : « شامي الطاعة ، عراقي الخط ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة (٣) » .

---

(١) صبح الاعشى ج ٦ ص : ٣٩١

(٢) ولكن الدكتور طه حسين يخالف هذا الرأي فارجع اليه « ص : ١٨-٢٠ » من حديث النثر والشعر .

(٣) راجع امراء البيان لكرد علي ج ١ ص : ٢١

هذه هي اهم الاسباب التي دعت الى تطور الكتابة في العصر الاموي . اما اساليب الكتابة في هذا العصر فهي الاساليب التي كانت في صدر الاسلام من جزالة وعدم تصنع وايجاز حيث الايجاز محمود ، واطناب حيث الاطناب منشود . قال القلقشندي : [ولتحري الصدر الاول من الكتّاب ايقاع المناسبة بين كتبهم وبين الاشياء المتقدمة الذكر « يعني مايقتضيه المقام من احوال المخاطب » استعمل كتاب الدولة الاموية من الالفاظ العربية الفحلة والمتينة الجزلة ما تستعمل مثله الدولة العباسية ، لأن كتّاب الدولة الاموية قصدوا ماشاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها (١)] .

جاءت دولة بني العباس واشتدت صلة العرب بالاعاجم ، فتأثرت الكتابة العربية بالثقافتين الفارسية واليونانية ، وتغيرت اساليبها عن اساليب العصر الأموي . واليك مجمل هذه التغيرات .

اولاً : حدوث خواص جديدة للكتابة لم تكن في العصر الأموي ، كالخواص التي حدثت في عهود البيعة للخليفة وولي العهد والقضاة والعمال . وقد كانت كتابة هذه العهود في الدولة الاموية ساذجة فجعلها العباسيون منمقة كثيرة الاسهاب والاطناب ، مشحونة بالأيمان والمواثيق ، واخذ الكتّاب يتفننون في كتابة هذه العهود فيفصلون فيها مايجب للخليفة على الأمة ومايجب عليه نحوها .

ثانياً : المغالاة في الايجاز والاطناب ، والتهويل في الخطاب والالقاب ، والافراط في استعمال المجاز والصور البيانية .

اما المغالاة في الايجاز ، فكانت تكون في التوقيعات التي تصدر عن الخليفة او

---

(١) صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٩٧

الوزير او السلطان الى من هم دونهم . وقد بلغ بهم الايجاز الى درجة الاشارة والرمز حتى قال جعفر بن يحيى البرمكي لكتابه : «ان قدرتم ان تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا (١)» .

واما المغالاة في الاطناب ، فكانت في عهود البيعات والرسائل والمنشورات التي تقرأ على العامة في الولايات مما تضمن شرحاً لفكرة دينيه ، او رأي سياسي ، او إخبار عن احوال الغزاة من الجند في بلاد العدو (٢) .

واما التهويل في الخطاب والالقاب فكان في العهود التي تصدر عن مقام الخلافة ، وهذا امر ادخله الفرس في اللغة العربية لأنه مما اعتادوا عليه في دولتهم الكسروية ، وما كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام يعرفون شيئاً من هذه المبالغات والتهويلات .

واما الافراط في استعمال المجاز والصور البيانية ، فكذلك نشأ عند اتصال العرب بالثقافة الفارسية التي تتسم بالتنميق والزخرفة ، فكثرت انواع البديع ، وشاعت المحسنات اللفظية والمعنوية على ألسنة الشعراء والكتاب والخطباء . ذكر صاحب الصناعتين [المتوفى سنة ٣٩٥ هـ] بعد ان عدّد خمسة وثلاثين نوعاً من انواع البديع ما نصه : «فهذه انواع من البديع ادعى من لا روية له ان المحدثين ابتكروها ، وان القدماء لم يعرفوها ؛ وذلك

---

(١) من اجمل امثلة التوقيعات ما كتب به جعفر البرمكي الى عامل شكي عليه «قد كثر شاكوك وقل شاكروك فاما اعتدلت وإما اعتزلت» ، ومنها قول عمرو بن مسعدة في وصاة الى بعض الوزراء «كتابي اليك ، كتاب معنيّ بمن كتب له ، واثق بمن كتب اليه ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية» انظر طرفاً من هذه التوقيعات في ضحى الاسلام لاحمد امين ج ١ ص : ١٨٨»

(٢) انظر نماذج من هذه العهود والرسائل والمنشورات في جمهرة رسائل العرب لاحمد زكي صفوت ج ٣ ص : ١٥ - ٦٩ - ٣٢٦ - ٥٠٢

لما اراد ان يفخّم امر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام اذا سلم من التكلف ، وبريء من العيوب ، كان في غاية الحسن ونهاية الجودة (١)» .

ثالثاً : سهولة العبارة ، وانتقاء اللفظ ، وجودة الرصف ، ووضوح الفكرة . قال ابو هلال العسكري : «الكلام (ايدك الله) يحسن بسلاسته ، وسهولته ، ونصاعته ، وتخيّر لفظه ، واصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل اطرافه ، وتشبه اعجازه بهواديه ، وموافقة مآخيره لمباديه ، مع قلة ضروراته ، بل عدمها اصلاً ؛ حتى لا يكون لها في الالفاظ أثر (٢)» .

رابعاً : الزيادة في مباديء الرسائل وخواتيمها ، وكان لكل صنف من الكتب مبدأ خاص به ، فمبدأ عهود الخلفاء ، غير مبدأ عهود الولاة والقضاة ؛ومبدأ الرسائل الاخوانية يخالف مبدأ الرسائل التي تصدر عن الخلفاء والعمال . فقد كانت الرسائل في العصر الاسلامي تبدأ بالبسملة واما بعد ، وتختتم على الاكثر (بالسلام عليكم) و (السلام على من اتبع الهدى) . ولما ان جاء العباسيون زادوا في ذلك ذكر القابهم وكناهم في صدر رسائلهم بعد البسملة ، وتكرار التحميدات التي كانوا يتفننون فيها (٣) .

وبعد فقد عرضنا عليك بايجاز تطور النثر العربي منذ نشأته الى ان اكتمل نموه في العصر العباسي الذي لمع فيه نجم ابن المقفع .

***

(١) ابو هلال العسكري : كتاب الصناعتين : ص ٢٥٦

(٢) كتاب الصناعتين ص ٥٢ .

(٣) انظر طرفاً في تلك التحميدات في رسائل البلغاء ص : ١٣١ - ١٦٦ - ١٦٧

ابن المقفع

[١٠٦ هـ ؟ — ١٤٢ هـ ؟]

حياته ونشأته — مصرعه — اخلاقه — عقيدته — اراؤه الاجتماعية — رأيه في السلطان وحاشيته
رأيه في العمال والقضاة والجند ورجال المال — رأيه في عامة الشعب — مذهبه الاخلاقي :
رأيه في العقل والاخلاق والتعلم والصداقة والمرأة والزهد وآداب المجالسة — مصادر ثقافته
ادبه — طريقته — مكانته في الادب العربي — آثاره وتحليلها
مختارات من ادبه

حياته ونشأته :

هو روزبة بن داذويه ، ويكنى بابي عمرو ، ثم تسمى بعد اسلامه بابي محمد عبد الله بن المقفع (١) ، وقد اختلف المؤرخون في سنة ولادته (٢) كما اختلفوا في مكان ولادته (٣).

---

(١) سمي ابو عبد الله بالمقفع لأنه كان يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف الثقفي ، وقيل لخالد ابن عبد الله القسري ، وهذا ما رجحه المرحوم الاسكندري في محاضراته عن الادب العربي في العصر العباسي ص : ١٤٧ ، فاحتجن شيئاً من مال السلطان فضربه الامير ضرباً تقفّعت منه يده ، اي تشنجت ، وغلب ذلك على اسمه «داذويه» ولقبه «المبارك» .

(٢) جاء في كتاب المرحوم الاسكندري ما يأتي: ولد في العشر الاول من القرن الثاني . «الادب العربي في العصر العباسي ص : ١٤٧» وقال الاستاذ عبد اللطيف حمزة في رسالته عن ابن المقفع ص: ٥٠ « فلسنا نعرف بالضبط متى ولد » ويقول الاستاذ سليم الجندي في كتابه عن ابن المقفع ص : ٦ ما يـأتي « ولد عبد الله بن المقفع حوالي سنة ١٠٦ هـ» وجاء في كتاب امراء البيان للاستاذ كرد علي ما يلي : «لم نعلم سنة مولد ابن المقفع بالتحقيق ... ويحتمل بهذا ان يكون عبد الله بن المقفع ولد في عشر التسعين ظناً ص : ١٠٣ »

(٣) يقول الاسكندري ص : ١٤٧ « واصل اهله من خوز ، مدينة من كور فارس ... ونشأ بالبصرة» . ويقول الاستاذ عبد اللطيف حمزة: « ولد بقرية من فارس اسمها جور وموضعها فيروز اباد الحالية ص : ٥٠» . ويقول الاستاذ كرد علي ص : ١٠٢ « ولد في مدينـه جور على الاغلب ... على عشرين فرسخاً من شيراز» . ويقول الاستاذ سليم الجندي : « ولد ابن المقفع بالبصرة » .

وكذلك فقد اختلفوا في نشأته ايضاً (١). ونرى انه ولد في جور، كما ورد ذلك في كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري؛ وان الذي ضلّل من كتب عن ابن المقفع ونسبه الى خوز او خوزستان، أن كلمة «جور» رسمت خطأ في الفهرست لابن النديم «خوز».

نشأ عبد الله في فارس، فتعلم من ابيه اللغة الفارسية والثقافة الفارسية، ثم ارتحل الى البصرة وكانت يومئذٍ عامرة بحلقات العلم والشعر والادب، وكان المربد يومئذٍ مألف الفصحاء من الاعراب وغيرهم. فاتصل ابن المقفع ببني الاهتم مواليه، وكانوا معروفين بالفصاحة واللسن؛ وتردد على مجالس المربد، وخالط العلماء والاعراب، فكان ذلك سر براعته في العربية، ولا نعرف احداً من شيوخه الذين درس عليهم إلا ابا الجاموس ثور بن يزيد الاعرابي، وعنه اخذ ابن المقفع علم اللغة؛ واول ما نعرف عن حياة ابن المقفع العملية انه كتب لداود بن عمر بن هبيرة في عصر بني امية. ولما جاءت الدولة العباسية اتصل ابن المقفع بأعمام الخليفة المنصور، فاستكتبه عيسى بن علي ايام ولايته على كرمان وعلى يديه اسلم؛ جاء اليه يوماً بعد ان سمع شيئاً من الذكر الحكيم فقال له: «دخل الاسلام في قلبي واريد ان اسلم على يدك». ثم اتصل ابن المقفع بسليمان بن علي فاستكتبه هذا ايام ولايته على البصرة والبحرين وعُمان من سنة ١٣٣ الى سنة ١٣٩ هـ حتى عزله

---

(١) يقول الاستاذ الاسكندري انه نشأ بالبصرة «ص: ١٤٨» ويقول الاستاذ كرد علي «لا نعلم بالتحقيق اين تلقى تعليمه الاولي في جور ام في البصرة، والارجح انه كان في جور، اذ من الصعب ان يثقف الثقافة الفارسية التي تثقفها في البصرة... والارجح ان والده توطن البصرة بعد ان اصبح ابنه يافعاً. ص: ١٠٣» ويقول عبد اللطيف حمزة: «عاش ابن المقفع في احضان والده بفارس وهنالك اشتغل بطبيعة الحال بالثقافة الفارسية وكان ينتحل نحلة المجوس ثم رحل الى البصرة في وقت لا نستطيع ان نحدده ايضاً. ص: ٥١ - ٥٢». ويقول الاستاذ الجندي: «ضنّ علينا التاريخ بتفسير نشأته وفاتحة حياته، فلم نر فيما اطلعنا عليه مما كتبه الكاتبون في ابن المقفع الا جملاً مجملة».

المنصور وولى مكانه سفيان بن معاوية المهلبي ، الذى كان على يده مصرع ابن المقفع سنة ١٤٢ هـ (١) .

مصرعه :

اجمع المؤرخون على ان الذي قتل ابن المقفع هو سفيان بن معاوية المهلبي في البصرة ، ولكنهم اختلفوا في سبب هذا القتل ، فقد قال قوم : إنه لما امتنع عبد الله بن علي عن بيعة المنصور وانهزم من ابي مسلم الخراساني ، لجأ الى اخيه سليمان بن علي وهو والٍ على البصرة واختفى عنده حتى عزل المنصور سليمان وولى مكانه سفيان المهلبي ، فتوارى عبد الله ، ولما علم المنصور به عزم على سليمان ان يأتيه باخيه على ان يأخذ له من شروط الامان ما شاء ، فكتب عبدالله بن المقفع الامان وتشدد فيه على المنصور ، وكان مما كتبه : « ومتى غدر امير المؤمنين بعمه عبد الله فنساؤه طوالق ، ودوابه حُبُس ، وعبيده احرار ، والمسلمون في حل من بيعته » . فاشتد ذلك على المنصور ، وخاصة ما كان من امر البيعة وحقدها عليه . ويقال انه كتب الى سفيان بقتله خفية بعد حادثه الامان بأربع سنين خشية غضب عمه . ويقال ان ابن المقفع كان يستخف بسفيان ويهزأ به ، فلذلك قتله . وقال آخرون ان سبب قتله زندقته . والمشهور ان سفيان امر بتنور فأُسجر ، ثم امر بابن المقفع فقطع منه عضو ثم القي في التنور ، وابن المقفع ينظر حتى اتى على جميع جسده ، ثم اطبق عليه التنور وقال : « يابن الزنديقة ، لاحرقنّك بنار الدنيا قبل نار الآخرة (٢) » . ثم ذرى رماده في بطيحة

---

(١) اختلف المؤرخون في تحديد سنة قتله ، فقد قال المرحوم الاسكندري ص : ١٥٠ « انه قتل سنة ١٤٢ هـ » . ويقول الاستاذ الجندي : « ان قتله كان سنة ١٤٢ او ١٤٣ او ١٤٤ » . ويقول عبد اللطيف حمزة : « فاما مقتله فيقع بين عامي ١٤٢ و ١٤٥ . ص : ٥٠ » .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ص : ١١٩

البصرة كي لا تبقى له رمة ، وقال : ليس عليّ في هـذه المثلة من حرج لأنه «زنديق افسد الناس» . والذي نراه ان كتابة العهد لم تكن السبب الحقيقي في مقتـله ، لأن المنصور امضى عهـد الامان واقرّه ، فكيف يقبله ويقتل كاتبـه وهو ليس إلا مأموراً ، وانما قتله سفيان لوقيعته فيه وزندقته . وكان المنصور يومئذٍ قـد شرع يفتك بالزنادقة ، فانتهز سفيان الفرصة فاغتاله ، ولم يطالب المنصور بدمه لأنه كان يرى فيـه عدواً للدولة العباسية ، وداعية لآل علي . اما الدكتور طه حسين فانه يرجح ان الذي قتـل ابن المقفع ليست الزندقة ، ولا تشدده في الامان ؛ لكن رسالته التي وجههـا الى المنصور ، وهي الرسالة التي تسمى «رسالة الصحابة» ، ويقول: «واما انا فارجح جداً ان الذي قتل ابن المقفع ليست الزندقة ، ولم يقتله تشدده في الأمان الذي كتبه لعبد الله بن عليّ لانه يوشك ان يكون اسطورة ليس لدينا منها نص ، ولكن لابن المقفع رسالة اخشى ان تكون هي التي قتلتـه لأنها توشك ان تكون برنامج ثورة ؛ وهي موجهة الى المنصور ؛ لأن فيها ذكراً لأبي العباس السفّاح(١) [وقد ذكرنا طرفاً من هذه الرسالة ثم أتبعناه بتلخيص ماتضمنته في المختار من آثار ابن المقفع فارجع اليها] .

اخلاقه :

في كتب الأدب قصص كثيرة عن اخلاق ابن المقفع الرفيعة وأدبه الجم (٢) ونحن لانريد ان نسرد هذه القصص ، وانما نريد ان نستخرج اخلاقه من آثاره فانها اصدق شيء

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص : ٧٠

(٢) انظر : عيون الاخبار لابن قتيبة الدينوري ج ١ ص : ٢٠١ و ج ٢ ص : ٣٣٩ . البخلاء للجاحظ ص : ١٣٣ . محاضرات الادباء للاصفهاني ج ١ ص : ٢٩ . سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون ص : ١٤٩

على ادبه النفسي ، فأنت اذا قرأت كتابه كليلة ودمنة رأيته يتحدث عن الاخلاق تحدّث المتخلق بها و كذلك اذاقرأت رسالتيه المعروفتين بالأدب الكبير والأدب الصغير رأيتهما مملؤتين بما يدلك على ان صاحب هذا الكلام على جانب عظيم من حسن الأدب و نبل النفس و كيف لا يكون نبيل النفس وهو لايترك حادثة من حوادث الدهر الا نظر فيها واعتبر بها . روى الاصمعي عن ابن المقفع انه سئل من ادّبك ؟ فقال : نفسي ، اذا رأيت حسناً أتيته وان رأيت قبيحاً أبيته ! . وكان في سائر اخواله عفيف النفس قليل الاختلاط الا بنفرٍ اصطفاهم لنفسه ، فقد كتب اليه يحيى بن زياد قبل مصادقته اياه يلتمس منه اخاءه ، فكتب إليه عبد الله : « ان الاخاء رقٌّ فكرهت ان املّكك رقيّ قبل ان اعرف حقّ كنهك » فانت ترى من وراء هذه الكلمات القليلة نفساً تحذر الاختلاط بالناس الا بعد معرفة « كنهها » ، وكان اذا صادق انساناً أخلص اليه ، ومن خير ما يؤيد ذلك قصته مع صديقه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، فانه لما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، استخفى كاتبه عبد الحميد ، فعثر عليه في الجزيرة عند ابن المقفع ، وكان صديقاً له ، فغمز عليه ، وفاجأهما الطلب وهما في بيت واحد . فقال للذين دخلوا من الجند : أيكما عبدا لحميد؟ فقال كل منهما : انا ، خوفاً على صاحبه . ثم عُرف عبد الحميد بامارات به ، فأخذ ، وسلمه الجند الى السفّاح فسلمه الى القتل . وقد قال ابن المقفع : اذا نابت اخاك احدى النوائب ، من زوال نعمة ، او نزول بلية ؛ فاعلم انك قد ابتليت معه : إما بالمواساة فتشارك به البلية ، واما بالخذلان فتحتمل العار (١)

---

(١) الاديب الكبير : ص ٧٩

هذه القصة تدلك على نبل الاخلاق التي كان يتحلى بها ابن المقفع فقد جاد بحيانه لينقذ صديقه وآواه في ساعة يفر فيها عنه ابوه وامه وبنوه.

وكان ابن المقفع موصوفاً بالجود والسخاء وحب اللهو البريء يمثل الفتوة الفارسية في ذلك، فقد حدّث محمد بن سلام الجمحي قال: اجتمع عند ابن رامين. معن بن زائدة ورَوْح بن حاتم وابن المقفع، فلما تغنّت الزرقاء بعث اليها معن بدرةً فصُبّت بين يديها ولم يكن عند ابن المقفع دراهم فبعث فجاء بصك ضيعته وقال: هذه ضيعتي خذيها واما الدراهم فما عندي منها شيء (١).

وبعد فقد رأيت مما حدثناك به عن اخلاقه، انه كان فتى من فتيان فارس، شديد الوفاء، جواداً، سخياً يحب اللهو وكثرة العطاء فيه، دون ان يبلغ درجه الاسفاف في ذلك. ونحسب انه كان لابن المقفع نظرة في الحياة تحمله على انتهاج الطريق التي رأيت، وتقوم عليها جميع علاقاته بالناس. يقول الاستاذ عبد اللطيف حمزة: «انه كان يصدر في كل عمل من اعماله عن مبدأ من المباديء الاخلاقية التي يراها خليقه به وبأمثاله من فضلاء الناس. وكان يصدر في كل افعاله عن فكرة هي من خَلْق نفسه، ونتيجة من نتائج فلسفته، فكأن عقله ـ لا دينه، كائناً ما كان هذا الدين ـ هو الذي كان يهديه الى الطريق التي يسلكها في معاملة الناس ومواجهة الاشياء. وكأن رغبته في المثل العليا وتعلقه بها، هي التي كانت تحمله على فعل الخير لأنه خير، وتجنب الخبيث لأنه خبيث، وهو اذن ممن كانوا يعبدون الفضيلة لا عبادة العبيد، ولكن عبادة الاحرار... بقي ان اوضح خلقين من اخلاق الرجل يزيدان من تصورنا له ولطبيعته؛ اما الاول: فاصطناعه الحذر

---

(١) الاغاني ج ١٣ ص: ١٣٢

واخذه بالتقية ... واما ثاني الخلقين: وهو ما لا اتصور الرجل الاّ به، ولا اتمثله في خاطري الا عليه، فهو السخرية وشدة التهكم، ولكن الرجل كان لا ينال بسخريته ابداً الاّ العرب، ولا يقصد بتهكمه قوماً غيرهم (١)».

عقيدته:

اختلفت آراء مؤرخي الادب العربي في عقيدة ابن المقفع، فذهب فريق منهم الى انه كان مؤمناً مسلماً صادقاً الاسلام، وذهب آخرون الى انه كان زنديقاً ملحداً اظهر الاسلام وابطن الالحاد، وفريق ثالث احجم عن الخوض في هذه المشكلة العسير حلها. واليك موجز هذه الاراء:

من القائلين بحسن اسلام ابن المقفع الاساتذة: كرد علي والجندي ومحمود مصطفى. فاما كرد علي فيقول بعد ان ساق رواية عن صاحب الاغاني يتهم فيها ابن المقفع بالزندقة: «ونحن نشك كثيراً في روايات صاحب الاغاني لأنه كان مستهتراً. ويجب ان يصف بالاستهتار كلّ عظيم، ولو كان ممن ثبتت عفّته وطهارته. ولقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرنا، فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته ... ولو كان في دينه ادنى عهدة، لكان المنصور العباسي قتله على الزندقة جهرة يوم ازمع قتله (٢)». واما الجندي فيقول: «اما كتبه وآثاره، فهي براء من مسحة المجوسية، خلوٌ من لَوْث الزندقة، وحيثما اجلت طرفك في كتبه لا تجد الا اشعة الاسلام والاخلاق الفاضلة تلمع في تضاعيف سطورها».

---

(١) ابن المقفع ص: ٩٤-٩٦

(٢) انظر ذلك في امراء البيان ج ١ ص: ١٢٢. حيث يناقش الاستاذ ايضاً قضية اتهام ابن المقفع بمعارضة القرآن وبتمثله ببيتي «حاتكة» فارجع اليه اذا شئت.

ولم يصح عن ابن المقفع ما يوجب الجزم بمروقه من الدين ، على ان الرمي بالالحاد والزندقة سلاح قديم يحارب به اهل الفضل في كل عصر ومصر ... ان ابن المقفع كان مسلماً حقاً وان اتهامه بالزندقة لم يكن الا من مخالطة المتهمين بها (١)». واما محمود مصطفى فيقول : « ان ابن المقفع لم يسلم بايعاز والحاح ، ولم يدفعه الى الاسلام طمع في مادة او قربى من اصحاب الدولة ، فقد كانت له هذه المزايا وهو على المجوسية ... اما ما شاع عن زندقته وما انبنى عليها من قتله بيد سفيان بن معاوية فيصح ان يكون ذلك قد اتخذ ذريعة الى قتله ... وقد بلغ من حسد الناس له على فضله ورغبتهم في الحط من شأنه ان ألف بعضهم الكتب في الالحاد ونسبها الى ابن المقفع ولكنها تدل بسخف عبارتها وضعة معانيها على ان ابن المقفع بريء منها (٢)».

واما القائلون بزندقته والحاده فهم الاساتذة : الاسكندري وطه حسين وعبد اللطيف حمزة . فاما الاستاذ الاسكندري فيقول : « يتهم كثير من اهل الاخبار ابن المقفع في اسلامه كأنهم رأوا انه رغب بذلك في دنيا يحصلها من دولة بني هاشم ، وان اتصاله بسليمان وعيسى عمي المنصور وكتابته لهما وتوليه باسلامه لهما اطمعه في ذلك ، ولهم في ذلك عدة شبه [وبعد ان يعدد الشبه يقول] نقول ان هذه الشبه محتملة الصدق كما انها محتملة البطلان ، اذ يجوز ان هذه الكتب ترجمها قبل اظهاره الاسلام فانتشرت في ايدي الزنادقة وكانت سبباً في ضلال كثير من الناس ... وان كان اعتقادنا ان كثيراً من امثال ابن المقفع من ابناء الفرس تظاهروا بالاسلام اما لاصابة غرض معاشي او سياسي من الدولة

---

(١) عبد الله بن المقفع ص : ٤٠ - ٤٩

(٢) الادب العربي وتاريخه ج ٢ ص : ٢٤٦-٢٤٩ .

واما لنكاية في الاسلام وتضليل لأهله ، وحوادث التاريخ وكتب الديانات شواهد عدل على اعمالهم (١)». واما الدكتور طه حسين فيقول : «وابن المقفع اسلم في ايام العباسيين ، ولكن اسلامه لم يكن فيما يظهر صحيحاً ولا خالصاً لله ، فقد كتب في الزندقة كتباً كثيرة ، اضطر بعض المسلمين ان يرد عليها ايام المأمون (٢)». واما عبد اللطيف حمزة فقد عقد لذلك فصلاً مطولاً ، تحدث فيه عن نشأة الزندقة في الاسلام ، وعن مشاهير الزنادقة واخبارهم ، وعلاقة ابن المقفع بهم ، الى ان قال : «وهكذا عرف ابن المقفع بالزندقة ، وهكذا اشتهر بها ، وهكذا تناقل الناس اخباره عنها ؛ حتى أثر عن الخليفة المهدي — وهو الخليفة الذي عرف بمحاربته للزنادقة — انه كان يقول دائماً ، [ما وجدت كتاب زندقه الا واصله ابن المقفع (٣)] . . . ولا نذهب بعيداً ، فأمامنا كتاب كليلة ودمنة ، وفيه باب برذويه ، الذي يزعم الباحثون انه من اضافة ابن المقفع . . . ومن هذا الكتاب نستطيع ان نعرف شيئاً غير قليل عن اخلاق ابن المقفع وعن عقيدته . . . واما عقيدته فقد تستطيع ان تلمح لها ظلاً واضحاً فيما اثاره الكاتب في هذا البعض ايضاً من شكوك دينية كثيرة ، حاول اخفاءها بما كان يكتبه حول هذه الشكوك نفسها من عبارات اسلامية يرضى بها الرأي العام (٤)».

واما الذين توقفوا عن الخوض في هذا الامر فزعيمهم الاستاذ احمد امين الذي يقول: اشتهر رمي ابن المقفع بالزندقة . . . [وبعد ان يعدد الشبه في ذلك يقول] : «فلو سئلنا ما

---

(١) محاضرات الادب العربي في العصر العباسي ص : ١٥٠ - ١٥٢

(٢) من حديث الشعر والنثر ص : ٦٩

(٣) ابن المقفع ص : ١٣٠

(٤) ابن المقفع ص : ١٣٣

كانت منزلة الاسلام من قلبه ؟ غير الاّ نحاول الاجابة فنحن لا نستطيع الحكم في هذا على من هم تحت سمعنا وبصرنا فكيف بمن باعدت بيننا وبينه القرون ونغمس في السياسة وأحزابها وحارب وحورب بها ! فلنكله الى الله فالله وحده خير الحاكمين (١) ».

ونحن بعد دراستنا لآثار ابن المقفع وما وصل الينا من اخباره ، لا نستطيع اتهامه بالزندقه او نفيها عنه ، لان من المتعذر جداً الحكم على ما يعتقد الناس او يبطنون .

آراؤه الاجتماعية :

قلنا في كلامنا عن اخلاق ابن المقفع ، إنه كان يصدر فيها عن مباديء ومثل اجتماعية؛ وليس من شك في ان ذلك قد اتاه من نزعة فلسفية في نفسه ، ولا غرو فقد اطلع على كثير من اقوال الحكماء والفلاسفة من القدماء ، وبخاصة اجداده الفرس ، وسترى في كلامنا على آثاره ما ترجمه عنهم من كتب الاخلاق والحكم ، التي اراد ان يتحلى بها الناس، فهو في هذا يضع نفسه موضع المصلح الاجتماعي ، الذي يرى امراض امته فيعمل على تشخيصها ومعالجتها . ولا ريب في ان اكثر هذه الامراض كانت متفشية في بلاط الخلافة ، وبين رجال الحكومة من قضاة وعمال وجند ورجال مال ، وبين طبقات الشعب.

رأيه في السلطان :

يرى ابن المقفع ان السلطان عماد الناس في دينهم ودنياهم ، وانه لا بدّ لهم منه ، سواء أكان برّاً ام فاجراً ، وهو في هذا يرى رأي الامام علي بن ابي طالب ، ويوصي السلطان اذا ابتلي بهذه المنزلة ان يتعوّذ بالعلماء (٢) ، وألا يغضب ، لأن القدرة من وراء حاجته ؛

---

(١) ضحى الاسلام : ج ١ ص : ٢٢٣-٢٢٧ .

(٢) الادب الكبير ص : ٨

وألا يكذب ، لأنه لا يقدر احد على استكراهه على ما يريد ؛ وليس له ان يبخل ، ولا ان يكون حقوداً ولا حلافاً . ولا عيب على الملك في تعيشه وتنعمه ولعبه ولهوه ، اذا تعاهد الجسيم من الامر بنفسه ، وأحكم المهم ؛ وفوض ما دون ذلك الى الكفاة (١) .

وقد ملأ ابن المقفع كتابيه : الادب الكبير ، وكليلة ودمنة ، بالنصائح التي قدمها الى الخلفاء والسلاطين ، وليس من شك في ان كثيراً من هذه النصائح مقتبس عن الاكاسرة .

رأيه في رجال البلاط :

هاجم ابن المقفع في الرسالة التي سماها « رسالة الصحابة » ، صحابة الخليفة ورجال بلاطه ، فذكر فيها ان من كان حول امير المؤمنين ليسوا من العلية ، لان شرهم في الناس كبير ، وأثرهم في رأي امير المؤمنين سيء لانهم عيونه وآذانه ، فيجب ان يكونوا صلحاء ، ليكونوا أداة إصلاح بين الخليفة ورعيته ، وان يكونوا جديرين بهذه المنزلة الممتازة ، لانهم بهاء السلطان وزينته ، وخاصته من عامته ، وألسنة لرعيته . لا تصلح الرعية الا بهم ، ولا تستقيم الامور الا على ايديهم . ويرى ابن المقفع انهم لا يمكن ان يكونوا كذلك حتى يتوفر فيهم امران : الحسب والعقل . ولا بد ان يكون لكل واحد من هؤلاء عمل لا يتعداه الى سواه ، فعمل الوزير غير عمل الكاتب ، وعمل الحاجب غير عمل الوزير . وهكذا دواليك . ولا ريب عندنا ايضاً في ان ابن المقفع قد اخذ هذا عن انظمة البلاط الفارسي .

رأيه في القضاة :

واما رأيه في القضاة الذين كانوا في ايامه فقاس جداً ، لانه يراهم فريقين : فريق يحكم بالسنة او القياس ، وفريق يحكم بالرأي ؛ وكلا الفريقين مخطيء ، لان الفريق الاول يطبق

---

(١) الادب الكبير ص : ٢١ — ٢٤

على الزمن الحاضر حكما لا يصلح الا للزمن الماضي ، ولأن الفريق الثاني يحكم كل منهم برأيه ، ويبلغ باحدهم الأمر ان يقول : «في الامر الجسيم - من امر المسلمين - قولا لا يوافقه عليه احد ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك ، وامضائه الحكم عليه ، وهو مقر انه رأي منه ، لا يحتج بكتاب ولا سنة» . فالافضل اذن للسلطان ان يجعل نفسه المرجع الاسمى للقضاة ، فلا يفصلون في امر اختلفوا فيه ، الا بعد اخذ رأيه فيه ، فاذا رأى في ذلك رأياً كتبه واذاعه على القضاة في الامصار .

رأيه في العمال :

يحذر ابن المقفع العمال والولاة من حب المدح والتزكية ومن ان يعرف الناس عنهم تلك الصفة فيقتحمون عليهم منها ويغتابونهم بها ويضحكون منهم لها (١) . ويوصي الوالي بثلاث خصال : رضى الرب ، ورضى السلطان ، ورضى صالح الرعية . ويوصيه ايضاً «ان يتفقد لطيف امور رعيته فضلاً عن جسيمها ، فان للطيف موضعاً ينتفع به ، وللجسيم موضعاً لا يستغنى عنه» . ويوصيه ايضاً : «الاّ يحسد من دونه ، فانه اقلّ في ذلك عذراً من السوقة التي انما تحسد من فوقها ، وكل لا عذر له» . وألا «يولع بسوء الظن بالناس ، وألا يضيع التثبت عند ما يقول ، وعند ما يعطي ، وعند ما يعمل ؛ فان الرجوع عن الصمت احسن من الرجوع عن الكلام . وليعلم الوالي ان من الناس حرصاء على زيه إلا من لا بال له ، فليكن للدين والبرّ والمروّة عنده نفاق (٢)» .

***

(١) الادب الكبير ص : ١٠

(٢) الادب الكبير ص : ٢٥ - ٢٩ .

رأيه في الجند :

وأما رأيه في الجند فقد تحدث عنه مطولاً في رسالة الصحابة ، فعاب عليهم اموراً كثيرة ، كسوء الخلق والجهل والضغينه والترف والزهو . واقترح ابن المقفع على الخليفة ان يبذل وسعه في اصلاح امورهم ، بأن يجعل اساس ارتقائهم الكفاية وحدها ، وكما اقترح عليه : «ان يتعهد ادبهم في تعليم الكتاب ، والتفقه في السنة ، والامانة ، والعصمة ، والمباينة لاهل الهوى» . كما اوصاه بأن لا يولي احداً منهم الخراج «فان ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة . ولم يزل الناس يتحامون ذلك منهم» .

رأيه في رجال المال :

واما رأيه في المال ورجاله ، فمنثور في كتابيه : [كليلة ودمنة ، ورسالة الصحابة] وهو يرى «ان المال عند العاقل بمنزلة المدر» فينبغي ان ينفقه ، وبذلك تكثر اخوانه وأعوانه «فما الاخوان ولا الاعوان ولا الاصدقاء إلا بالمال ، ومن لا مال له اذا اراد امراً قعد به العدم عما يريده» . واما رأيه في رجال المال والخراج ، وما كانوا عليه من الفوضى في ايامه . فقد ذكره في رسالة الصحابة وبين فوضى امورهم ، وانهم يخفون عن السلطان كثيراً من امورهم ، مع انهم من اوجب من ينبغي على السلطان مراقبتهم ، والضرب على ايديهم ، ليستريح الناس ويأمنوا على اموالهم . وينصح ابن المقفع السلطان بأن تمسح الارض وتكتب اسماء اصحابها في سجلات ، ويكتب امام كل ملاك المبلغ الذي يؤديه للدولة : «فلو ان امير المؤمنين اعمل رأيه في التوظيف (الضريبة) على الوساتيق والقرى والارضين ، وظائف معلومة وتدوين الدواوين بذلك واثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل الا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد في عمارة الا كان له فضلها ونفعها لرجونا ان يكون في ذلك

صلاح للرعية وعمارة للأرض وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال ، وهذا رأي مؤونته شديدة ورجاله قليل ونفعه متأخر » .

رأيه في عامة الشعب :

تحدث ابن المقفع عن العامة في آخر مقطع من رسالة الصحابة وذكر ان العامة لا بدّ لها من رجل يشرف على اصلاحها لأن عامة قط لم تصلح من قبل نفسها ولم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها وذلك لأن عدد الناس في ضعفتهم وجهالهم الذين لا يستغنون برأي انفسهم ولا يحملون العلم ولا يتقدمون في الأمور ، فاذا جعل الله فيهم خواصّ من اهل الدين والعقول ينظرون اليهم ويسمعون منهم ، اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليه بجدٍ ونصحٍ ومثابرة ، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم وسبباً لأهل الصلاح من خواصهم وزيادة فيما انعم الله به عليهم وبلاغاً الى الخير كله » .

مذهبه الاخلاقي : (١)

نريد ان نتحدث في هذا الفصل عن آراء ابن المقفع في العقل والاخلاق والتعلم والصداقة والمرأة والزهد واداب المجالسة مما يمثل لنا بوضوح النواحي الهامة من مذهبه الاخلاقي او فلسفته — ان صح ان يسمى هذا فلسفة — .

رأيه في العقل :

يرى ابن المقفع ان افضل ما رزق الله الانسان «العقل الذي هو الدعامة لجميع الاشياء والذى لا يقدر احد على اصلاح معيشته ولا احراز نفع ولا دفع ضرر الاّ به» ويرى ان

---

(١) ذكرنا في الفصل السابق آراء ابن المقفع في كثير من المسائل الاجتماعية الخاصة بعصره ، ونذكر في هذا الفصل مذهبه الاخلاقي فيما يراه مثلاً اعلى يصح اتباعه في كل مكان وزمان .

هذا العقل غريزي يزيده الانسان بسعيه وعمله وتجاربه وسعاً ورجحاناً فيقول : « والعقل مكتسب بالتجارب والأدب ، وله غريزة مكنونة في الانسان ، كامنة كالنار في الحجر ، لا تظهر ولا يرى ضوؤها حتى يقدحها قادح من الناس ، فاذا قدحت ظهرت طبيعتها ، وكذلك العقل كامن في الانسان لا يظهر حتى يظهره الأدب وتقويه التجارب ، ومن رزق العقل ومنّ به عليه وأعين على صدق قريحته بالأدب، حرص على طلب سعد جدّه ، وادرك في الدنيا امله ، وحاز في الآخرة ثواب الصالحين(١) ».

اما فائدة العقل فكبيرة جداً عليه تقوم أسس حياة الانسان الاخلاقية ، وبه يميز طرق سعادته الدنيوية لان « العقل ملكة تنير لصاحبها السبيل ، وبها يميز الخبيث من الطيب ». اما من حُرم نعمة العقل فهو كمن حرم نعمة البصر ، لأن اعمى البصر واعمى البصيرة سواء في الضلال عن الطريق وعدم تميز الاشياء ، فهما « اثنان لا ينظران : الاعمى والذي لا عقل له ، وكما ان الاعمى لا ينظر السماء ونجومها وارضها ولا ينظر القرب والبعد ، كذلك الذي لا عقل له ، لا يعرف الحسن من القبيح ، ولا المحسن من المسيء »(٢).

وعلى العاقل ان يتحلى بأمور ، وان يتجنب اخرى ؛ اما الصفات الايجابية التي يجب ان يتصف بها العاقل « هي ان يصدّق بالقضاء والقدر ، ويأخذ بالحزم ، ويحب للناس ما يحب لنفسه ، ولا يلتمس صلاح نفسه بفساد غيره (٣) » اما اهم الصفات السلبية التي يجب ان يتجنبها فهي « سورة الغضب ، وسورة الحميّة ، وسورة الحقد ، وسورة الجهل (٤) » وعليه الاّ

---

(١) باب برزويه ص : ٢٧

(٢) باب ايلاذ وبلاذ وايراخت ص : ١٨٢

(٣) باب عرض الكتاب ص : ٤٢

(٤) الادب الكبير ص : ٨٤

يغرم بالنساء لأن « من اوقع الامور في الدين ، وانهكها للجسد ، واتلفها للمال ، واقتلها للعقل ، وازراها للمروءة ، واسرعها في ذهاب الجلال والوقار : الغرام بالنساء . ومن البلاء على المغرم بهن انه لا ينفك يأجم (يكره) ما عنده ، وتطمح عيناه الى ما ليس عنده (١) » .

رأيه في الاخلاق :

يرى ابن المقفع ان جماع الاخلاق الفاضلة التي يجب ان يسير عليها المرء : التنزه عن الدنايا ، واتباع العقل السليم « وان يخزن الانسان عقله وكلامه ، الاّ عند اصابة الموضع (٢) » « والاّ يكثر من ادعاء العلم (٣) » وان يتحلى بحلية المروءة عند العامة ، وان يسلك الجدّ (٤) وان تكون غايته فيما بينه وبين عدوه العدل ، وفيما بينه وبين صديقه الوضاء ، ذلك ان العدو خصم يصرعه بالحجة ويغلبه بالحكام ، وان الصديق ليس بينك وبينه قاضٍ ، فانما هو رضاه وحكمه (٥) . ويعدد ابن المقفع الصفات التي يجب ان يتحلى بها الصديق فيقول : « اذا نظرت في حال من ترتاد لاخائك ؛ فان كان من اخوان الدين ، فليكن فقيهاً غير مراء ولا حريص ؛ وان كان من اخوان الدنيا ، فليكن حراً ليس بجاهل ، ولا كذاب ، ولا شرير ، ولا مشنوع ؛ لان الجاهل اهل ان يهرب منه ابواه ، وان الكذاب لا يكون اخا صادقاً ، لان الكذب الذي يجري على لسانه ، انما هو من فضول كذب قلبه ، وانما سمي الصديق من الصدق ؛ وقد يتهم صدق القلب ، وان صدق اللسان ؛ فكيف به اذا

---

(١) الادب الكبير ص : ٩٨ - ٩٩
(٢) » » » : ٦٤
(٣) » » » : ٦٨
(٤) » » » : ٧٠
(٥) » » » : ٧٢

ظهر الكذب على اللسان ؟ وان الشرير يكسبك الاعداء ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة ، وان المشنوع شانع صاحبه (١) » . ويوصي ابن المقفع الانسان العاقل ان يكون ذا لباسين « لباس انقباض وانحجاز من الناس تلبسه للعامة ، فلا يلقونك الا متحفظاً متشدداً ، متحرزاً مستعداً . ولباس انبساط واستئناس تلبسه للخاصة الثقات من اصدقائك فتلقاهم بذات صدرك ، وتفضي اليهم بمصون حديثك ، وتضع عنك مؤونة الحذر والتحفظ فيما بينك وبينهم . واهل هذه الطبقة قليل من قليل حقاً ، لان ذا الرأي لا يُدخل احداً من نفسه هذا المدخل الا بعد الاختبار والتكشف والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد (٢) »

رأيه في التعلم :

يحرض ابن المقفع الانسان على طلب العلم لان فيه فائدتين : فائدة نفعية عملية ، واخرى عقلية ترفع من قدر الانسان ، فهو يقول : « حبّب الى نفسك العلمَ حتى تلزَمه وتألفه ويكونَ هو لهوَك ولذتك وسلوتك وتعلُّك وشهوتك . واعلم ان العلم علمان : علم للمنافع ، وعلم لتذكية العقول ، وافشى العلمين منفعة واحراها ان ينشط له صاحبه من غير ان يُحضَّ عليه علم المنافع . والعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها ، له فضيلةٌ منزلة عند اهل الفضيلة والالباب (٣) » ويوصي ابن المقفع طالب العلم بالاً يكتفي بمعرفة الفروع دون الاصول فان استطاع الجمع بينهما فهو افضل « ياطالب العلم والادب ! ان كنت نوعَ العلم تريد ، فاعرف الاصولَ والفصولَ ، فان كثيراً من الناس يطلبون الفصول مع

---

(١) الادب الكبير ص : ٧٤

(٢) الادب الكبير ص : ٧٧

(٣) الادب الكبير ص : ٨٨

اضاعة الاصول فلا تكون حقيقة دَرَكهم دَرَكاً . ومن احرز الاصول اكتفى بها عن الفصول ،وان اصاب الاصل بعد احراز الفصل فهو افضل (١)» ويوصي ابن المقفع المتعلم بالتواضع وعدم الادعاء فيقول «لا تكثرن ادعاء العلم في كل مايعرض بينك وبين اصحابك فانك من ذلك بين فضيحتين: اما ان ينازعوك فيما ادعيت فيُهجم منك على الجهالة والسخف والصلف ، واما الاّ ينازعوك ويُخلّوا في يديك ما ادعيت من الامور فينكشف منك التصنع والمعجزة (٢)» ويرى ابن المقفع ان افضل ما يتحلى به العالم عدم التفاخر بعلمه ، والتشدق بمعارفه «ان اردت ان تلبس ثوب الوقار والجمال ، وتتحلى بحلية المروءة عند العامة ، وتسلك الجدد الذي لا خَبارَ فيه ولا عثار ، فكن عالماً كجاهل ، وناطقاً كعيي، فاما العلم فسيزينك ويرشدك ، واما قلة ادعائه فسينفي عنك الحسد ، واما المنطق ـ اذا احتجت اليه ـ فستبلغ منه حاجتك ، واما الصمت فيكسبك المحبةَ والوقار (٣)» .

رأيه في الصداقة :

يرى ابن المقفع ان افضل ما يكسبه المرء في حياته هو صديق مخلص في حالتي الرخاء والشدة فيقول : «اعلم ان اخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا . هم زينة في الرخاء ، وُعدة في الشدة ، ومعونة على خير المعاش والمعاد ، فلا تفرطنّ في اكتسابهم وابتغاء الوُصلات والاسباب اليهم ، واعلم انك واجد رغبتك من الاخاء عند اقوام قد حالت بينك وبينهم بعض الابهة ، التي قد تعتري بعض اهل المروءات ، فتحجز عنهم كثيراً ممن يرغب في

---

(١) الادب الكبير ص : ٤

(٢) الادب الكبير ص : ٦٨

(٣) الادب الكبير ص : ٧٠

امثالهم . فان رأيت احداً من اولئك قد عثر به الدهر ، وعرفت نفسك انه ليس عليك في دنوك منه وابتغائك مودته ، وتواضعك له مذلة ؛ فاغتنم ذلك منه ، واعمل فيه(١) » .

ويعالج ابن المقفع قضية هامة فى الصداقة ، وهي حسن الظن بالصديق المخلص ، اذا ما رآه المرء مع عدوه فيقول : « ان رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك فانما هو احد رجلين ؛ ان كان رجلا من اخوان الثقة فانفع مواطنه لك ، اقربها من عدوك ! لشر يكفه او لعورة يسترها منك ، او غائبة يطلع عليها لك . فاما صديقك فما اغناك ان يحضره ذو ثقتك ، وان كان رجلا من غير خاصة اخوانك ، فبأي حق تقطعه من الناس ، وتكلفه ألاّ يصاحب ولا يجالس الا من تهوى ؟(٢) » .

رأيه فى المرأة :

اما رأي ابن المقفع بالمرأة ، فلا يعدو الرأي الذي رأيت عند علي بن ابي طالب : من سوء ظن بها ، لانها ليست موضعاً للثقة بها ، ولا بيتاً للسر « ان اموراً ثلاثة لا يجترىء عليهن الا اهوج ولا يسلم منهن الا قليل : وهي صحبة السلطان ، وائتمان النساء على الاسرار ، وشرب السم للتجربة (٣) » . ويحذر الرجل من الوقوع في حبائل غرام النساء لان من وراء ذلك شروراً جساماً ، فيقول : « اوضع الأمور في الدين ، وانهكها للجسد ، واتلفها للمال ، واقتلها للعقل ، وازراها للمروءة ، واسرعها في ذهاب الجلال والوقار : الغرام بالنساء (٤) » ، كما ينهى ابن المقفع الرجل عن مشاورة المرأة فان رأيهن الى أفْن ، وعزمهن الى وهن ؛

---

(١) الادب الكبير ص : ٨٣

(٢) » » : ٦٧

(٣) كليلة ودمنة باب الاسد والثور ص : ٦٤

(٤) الادب الكبير ص : ٩٨

ويوصي الرجل ان يحجب المرأة عن اعين الناس ، وتمنع من الاختلاط والبروز الى الاسواق، فيقول : « واكفف عليهن من ابصارهن بحجابك اياهن ؛ فان شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فان استطعت ألاّ يعرفن غيرك فافعل » ويوصي الرجل الا يمكن المرأة من شيء غير امورها الخاصة فيقول : « ولا تملكنّ امرأة من الامر ماجاوز نفسها ، فان ذلك انعمُ لحالها ، وارخى لبالها ، وادومُ لجمالها . وانما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة ، فلا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تعطها ان تشفع عندك لغيرها(١) » .

رأيه في الزهد :

تحدث ابن المقفع في الادب الكبير عن الزهد ، وحض الناس عليه اذا استطاعوا اليه سبيلاً ، قال : « اذا دعتك نفسك الى رفض الدنيا وهي مقبلة عليك ، فاسرع اجابتها (٢) » فانت ترى انه يشترط للزهد في الدنيا ، ان يكون مقبلة ، وألا يكون زهده زهداً حقيقياً . وهو يفرق بين الزهد الحقيقي في الدنيا ، وبين الضجر منها ، فيقول : « إن رأيت نفسك تصاغرت اليها الدنيا ، او دعتك الى الزهادة فيها ، على حال تعذر من الدنيا عليك ، فلا يغرنّك ذلك من نفسك على تلك الحال ؛ فانها ليست بزهادة ، ولكنها ضجرٌ واستخذاءٌ ، وتعيير النفس عليك عند ما اعجزك من الدنيا ، وغضب منك عليها ، لما التوى عليك منها ؛ ولو تمّمتَ على رفضها ، وامسكت عن طلبها ؛ اوشكت ان ترى من نفسك من الضجر والجزع ، اشد من ضجرك الاول باضعاف (٣) » .

---

(٤) انظر هذه الفقرات الثلاثة الاخيرة في كتاب امراء البيان ج ١ ص : ١٣٨

(٢) الادب الكبير ص ١٢٦

(٣) » » » ١٢٥

رأيه في آداب المجالسة :

اما ادب المجالسة عند المقفع ، فقد تحدث عنه طويلاً في كتابه : [الادب الصغير والادب الكبير] ولا شك في انه قد تأثر كثيراً بما كانت عليه المراسيم والآداب الفارسية؛ فهو يوصي الانسان بان يكثر من الصمت ، ويقل من الحديث ما استطاع ، وان يتعلم حسن الاستماع ، كما يتعلم حسن الكلام ، وان من حسن الاستماع : « امهال المتكلم حتى ينقضي حديثه ، وقلةُ التلفت الى الجواب ، والاقبالُ بالوجه ، والنظر الى المتكلم ، والوعيُ لما يقول(١) » وينهى الرجل عن ان يقطع حديث محدثه ، او يعترض عليه قبل اتمامه حديثه ، لان ذلك « من الاخلاق السيئة (٢) » كما ينهاه عن التعريض او التهكم الخفي باحد حباً بالتشفي من صاحب ثقلت عليه نعمته فيقول : « قد رأينا من سوء المجالسة ان الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه ، فيكون ما يشتفي بصاحبه ـ في تصغير امره ، وتكدير النعمة عليه ـ ان يذكر الزوال والفناء والدول كانه واعظٌ وقّاصٌ . فلا يخفى ذلك على من يُعنى به ولا غيره (٣) » .

مصادر ثقافته :

نشأ ابن المقفع مجوسياً ، زرادشتياً ، فتثقف بالثقافة الفارسية المجوسية ، وبرع بلغتها الفهلوية (الفارسية القديمة) . وليس من شك في انه استفاد من ابيه شيئاً كثيراً ، مما كان يعرفه عمال الخراج و كتّاب الدواوين ، لأن اباه كان منهم . وقد كان هؤلاء الكتاب

---

(١) الادب الكبير ص : ١٢١

(٢) » » : ١٢٣

(٣) » » : ١٢٩

ايام الدولة الساسانية عماد الدولة ، كما كانوا خير من يمثل الثقافة الفارسية . يقول الجهشياري: «وكانت ملوك فارس تسمي كتّاب الوسائل تراجمة الملوك ... وكانت الملوك تقدم الكتّاب ، وتعرف فضل صناعة الكتابة ، وتحظي اهلها بما يجمعونه من فضل الرأي الى الصناعة ، وتقول هم نظام الأمور ، وكمال الملك ، وبهاء السلطان ، وهم الالسنة الناطقة عن الملوك وخزّان اموالهم ، وامناؤهم على رعيتهم وبلادهم (١)».

الى جانب هذه الثقافة الفارسية التي جعلت من ابن المقفع ممثلاً لهذه الثقافة في العصر العباسي بما ادخله من عناصر جديدة في الادب العربي ، الى جانب هذا نجد مصدراً آخر من مصادر ثقافة ابن المقفع ، الا وهو ثقافته العربية .

اذا رحنا نتتبع مراحل دراسته العربية ، وجدناها تبدأ باتصاله وهو غلام يافع ببني الأهتم ، وهم قوم مشهورون بالفصاحة واللّسن والشعر والخطابة (٢) . ولا ريب في ان نشأته بالبصرة قد أثرت في ثقافته العربية ، لأنها كانت يومئذٍ حلبة فصحاء العرب ، وعش الفقهاء والمحدثين ، وملتقى رجال اللغة والرواة ؛ ومِرْبَدها كان اعظم مركز للثقافة العربية الاسلامية في ذلك العصر . ويغلب على الظن ان ابن المقفع كان شديد الاتصال بفصحاء الاعراب ، الذين كانوا يفدون على سوق المِرْبَد ، ولم يحفظ التاريخ لنا من اسماء هؤلاء إلا أعرابياً واحداً هو ابو الجاموس ، الذي كان كثير الاتجاع لآل سليمان بن علي . ولا نشك في ان ابن المقفع درس ما كان يدرس طالب العلم العربي في عصره ، من قرآن كريم ،

---

(١) الوزراء والكتاب ص : ٣

(٢) ومن بني الاهتم نشأ الخطيبان المشهوران خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة . انظرهما في البيان والتبين ج ١ ص ٣٥-٣٦ .

وحديث شريف ، وشعر ، وادب ؛ وبخاصة ادب علي بن ابي طالب الذي كان لخطبه ورسائله واقواله تأثير بعيد في ابن المقفع (١) . اضف الى هذا ملازمته صديقه عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، فقد اقتبس كل من صاحبه خصلة كانت لقاحاً لكتابته . اقتبس عبد الحميد من فارسية ابن المقفع : تهويل الاوصاف ، وتفخيم الالقاب ، وإطالة التحميد ، ودقة التصوير ؛ واقتبس ابن المقفع من زميله : وضاحة المعاني ، وجزالة الالفاظ ، ولطف الاشارة ، والازدواج ، وسهولة القول ، وصناعه الرسائل المسهبة ، التي ورثها عبد الحميد من استاذه سالم مولى هشام بن عبد الملك ، ويظهر ان صداقتهما كما يرى الاستاذ المرحوم الاسكندري كانت منذ ايام الصبا ، اذ نشأ كلاهما بالعراق ، لأن عبد الحميد من اهل الأنبار ؛ ثم استمرت الصحبة حتى فرّق الموت بينهما (٢) .

ولا ينبغي ان ننسى أن عنايته بالترجمة لكثير من كتب الأمتين الفارسية واليونانية ، قد اثرت في ثقافته تأثيراً كبيراً ، وسنفصل ذلك في كلامنا على آثار ابن المقفع .

وبعد فان لتجارب ابن المقفع في حياته تأثيراً كبيراً في توسيع مداركه ، وبعد نظره ، وفهمه لاسرار الحياة ومشكلاتها .

ادبه :

كان ابن المقفع امةً في البلاغة واجادة القول ، في لفظ سهل ، واسلوب رشيق . و لا توصف بلاغته بأجمل مما وصف هو البلاغة به ، حيث قال : « هي التي اذا سمعها الجاهل ،

---

(١) روي عن ابن المقفع انه قال : شربت الخطب ريّاً ولم اضبط لها رويّاً ، ففاضت ثم فاضت فلا هي نظاماً وليس غيرها . كلاماً ويقولون ان المراد بهذه الخطب خطب علي بن ابي طالب .

(٢) محاضرات الادب العربي في العصر العباسي ص : ١٤٨

ظنّ انه يحسن مثلها». وكان ينصح المتأدب بقوله: «اياك والتتبع لوحشي الكلام، فانها العي العجب الاكبر». وكان يقول: «عليك بما سهل من الالفاظ، مع التجنب لالفاظ السفلة». وكان الجاحظ يظهر اعجابه بأدب ابن المقفع فيقول: «ومن المعلمين، ثم البلغاء المتأدبين، عبد الله بن المقفع... وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة، واختراع المعاني وابتداع السير. وكان جواداً، فارساً جميلاً. وكان اذا شاء ان يقول الشعر قاله.

وفيه يقول ابو العيناء: «كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح. كأن بيانه لؤلؤ منثور، وروض ممطور».

وقد اعجب الناس بأدب ابن المقفع ونثره اعجاباً عظيماً، كما شهد بذلك ابو العيناء والجاحظ. ولعلك لحظتَ في كلمة الجاحظ اشارة الى ان ابن المقفع، وان عرف بنثره، إلاّ انه كان يستطيع قول الشعر اذا شاء، وقد ذكر هذه الفكرة الجاحظ عن ابن المقفع غير مرة في البيان والتبيين والحيوان. والرواة يذكرون ان ابن المقفع سئل: مالك لا تقول الشعر؟ فقال: [الذي ارتضيه لا يجيبني، والذي يجيبني لا ارتضيه(١)]. وقد رويت له ابيات قليلة، منها ابيات ثلاثة قالها في رثاء يحيى بن زياد، وقيل عبد الكريم بن ابي العوجاء:

رُزِئنا ابا عمروٍ ولا حيَّ مثلُه ... فلله ريبُ الحادثات بمن وَقعْ

فان تكُ قد فارقتنا وتركتنا ... ذوي خَلّةٍ مافي انسدادٍ لها طَمَع

---

(١) محاضرات الادباء للاصفهاني ج ١ ص: ٣٨

فقد جرّ نفعاً فقدُنا لك اننا أمنّا على كلّ الرزايا من الجزع

وقوله في وصف الشراب :

شأ شرب ما شربت على طعامٍ ثلاثاً ثم اتركه صحيحا
فلستُ بقارفٍ منه اثاماً ولستُ براكب منه قبيحاً

ولسنا نرى في هذا الشعر روعةً في اللفظ ، وابداعاً في المعنى ، وانما هو شعر يدل على فطنةٍ وفهم ، ولا يدل على شاعرية فياضة .

اسلوبه وطريقته :

يذهب بعض مؤرخي الادب العربي في عصرنا هذا الى ان ابن المقفع لم يكن صاحب طريقة في الكتابة ، وانما هو مقلّد لصديقه عبد الحميد (١) . ولكن في هذا الرأي شيئاً من المبالغة ، فنحن نرى ان الكتابة والنثر الفني ، وإن بدئا بعبد الحميد ، فان ابن المقفع هو الذي نظمها ، فقلده الكتاب والمنشئون في عصره والعصور التي جاءت من بعده ، واستظهروا كلامه ، وساروا على غراره . وهذا ما يراه ايضاً الاستاذ الاسكندري حيث يقول ، في فصل عنوانه (طريقة ابن المقفع في الكتابة) : «ويشتهر ابن المقفع في عالم الكتابة بعدة امور ، قد يشركه في بعضها نفرٌ من كتاب زمانه كعبد الحميد ، ويحيى بن زياد

---

(١) ومن هؤلاء استاذنا سليم الجندي في كتابه عن ابن المقفع اذ يقول : «قسم بعض الادباء طرق الانشاء الى اربعة وجعل اولها طريقة ابن المقفع ، ولكن يظهر للمتأمل المعمن انه كان يتبع عبد الحميد بن يحيى في اسلوبه ويحتذي على مثاله . ومن الغبن الفاحش ان لا يكون عبد الحميد هو صاحب هذه الطريقة وهو الذي افتنّ في البدء والختام واطال المقدمات وميز الفصول وكان ابن المقفع يطبع على غراره ويترسم خُطاه حذو القذة بالقذة ، وانما زاد عليه ابن المقفع ما ترجمه او وضعه على ألسن الحيوان وهذا ليس بطريقة مستقلة» «ابن المقفع ص : ٨٣»

الحارثي ، وعُمارة بن حمزة (١)». ونحن اذا رحنا نستقصي خصائص اسلوب ابن المقفع في طريقته وجدناها تنحصر في الأمور الآتية :

اولاً) : حسن انتقاء المفردات الحلوة في النطق ، الخفيفة على السمع ، المتباعدة عن ابتذال العامة ، وإغراب المتشدّقين ؛ كقوله : «اذا كلمك الوالي فأصغ لكلامه ، ولا تشغل طرفك عنه بنظرٍ الى غيره ، ولا اطرافك بعمل ، ولا قلبك بحديث نفسٍ . واحذر هذه الخصلة من نفسك وتعاهدها بجهدك (٢)» .

ثانياً) : سهولة التراكيب وسلامتها من التعقيد اللفظي والمعنوي ، وجمالها ؛ كقوله يعزي بعض اصحابه : «أما بعد فان امر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبّرهما ويقضي فيهما ما يشاء ، لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لحكمه ؛ فان الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة لئلا يطمع احد من خلقه في خُلد الدنيا ، ووقّت لكل شيءٍ ميقات اجل لا يستأخرون عنه ساعةً ولا يستقدمون ، فليس احدٌ من خلقه إلا وهو مستيقنٌ بالموت ، لا يرجو ان يخلّصه من ذلك احد ؛ نسأل الله حسنَ المنقلَب . وبلغني وفاة فلان ، فكانت وفاته من المصائب الجسام ، التي يُحتسب ثوابها من ربنا الذي اليه منقلبنا ومعادنا وعليه ثوابنا . فعليك بتقوى الله والصبر وحسن الظن بالله ، فانه جعل لأهل الصبر صلوات منه ورحمة وجعلهم من المهتدين (٣)» .

ثالثاً) : إطالة الرسائل والاسهاب فيها تأسياً بعبد الحميد ، على أنّ إطالة الرسائل

---

(١) محاضرات الادب العربي في العصر العباسي ص : ١٥٥

(٢) الادب الكبير ص : ٤٨

(٣) رسائل البلغاء ص : ١٣٣

الديوانية والعهود كانت طريقة معبدة من قبل في اواخر العصر الاموي ، وإن كانت تخالف طريقة عبد الحميد وابن المقفع في التحميد في اوائل الكتب واواخرها ، و كثرة الدعاء للخليفة في خواتيمها . واما اطالة الرسائل في الاغراض السياسية والاجتماعية والعلمية ونحوها من الاغراض ، فهي مما ابتدعه عبد الحميد وابن المقفع ورجال طبقتهما ، بل لاتكاد تجد لغير هؤلاء ممن سبق جيلهم رسائل في هذه الاغراض . ولا نكون مخطئين اذا قلنا إن أمثال هذه الرسائل تعتبر مقدمات لتأليف الكتب في زمن ابي جعفر المنصور . وينبغي الا ننسى ذكر رسائل الخميس التي كانت تكتب عن ديوان الخلافة وترسل الى الجند في خرسان وغيرها لتقرير الدعوة العباسية وحمل العامة على جعلها من امور دينهم . ويظهر ان انشاء هذه المقالات المطولة جاء ابن المقفع وعبد الحميد من ثقافتهما الفارسية واليونانية . ومن اهم مظاهر التطويل عند ابن المقفع ورجال مدرسته تكرار التحميدات وتفخيم اسم الله طوراً بكثرة الترادف في المفردات والجمل ، وطوراً بزيادة الشرح واستقصاء المعاني ، وحيناً آخر بتهويل امر الخلافة والخليفة واهل بيته . واليك نموذجاً عن ذلك :

تحميد لابن المقفع :

الحمد لله ذي العظمة القاهرة ، والآلاء الظاهرة ؛ الذي لايعجزه شيء ولا يمنع منه ، ولا يدفع قضاءه ولا امره ، وانما قوله اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون . والحمد لله الذي خلق الخلق بعلمه ، ودبر الامور بحكمته ، وانفذ فيما اختار ، واصطفى عزمه بقدرة منه عليها ، وملكة منه لها ، لا معقب لحكمه ، ولاشريك له في شيء من الامور ، يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان للناس الخيرة في شيء من امورهم ، سبحان الله وتعالى عما يشركون .

والحمد لله الذي جعل صفو ما اختاره من الامور دينه الذي ارتضى لنفسه ، ولمن اراد كرامته من عباده ، فقام به ملائكته المقرّبون يعظّمون جلاله ، ويقدسون اسماءه ، ويذكرون آلاءه ، لا يستحسرون عن عباده ولا يستكبرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وقام به من اختار من انبيائه وخلفائه واوليائه في ارضه يطيعون امره ويذبّون عن محارمه ، ويصدقون بوعده ، ويوفون بعهده ، ويجاهدون عدوه وكان لهم عنده ماوعدهم من تصديق قولهم ، وافلاجه حجتهم ، واعزازه دينهم ، واظهاره حقهم ، وتمكينه لهم ، وكان لعدوه وعدوهم عندما اوعدهم من خِزْية ، وإحلاله يأسه بهم ، وانتقامه منهم ، وغضبه عليهم ، مضى على ذلك امره ، ونفذ فيه قضاؤه فيما مضى ، وهو ممضيه ومنفذُه على ذلك فيما بقي ، ليتمّ نوره ولو كره الكافرون ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون . والحمد لله الذي لا يقضي في الامور ولا يدبرها غيره ، ابتدأها بعلمه ، وامضاها بقدرته ، وهو وليّها ومنتهاها ، وولّي الخيرة فيها ، والامضاء لما احبّ ان يمضي منها ، يخلق ما يشاء ، ويختار ما كان ، له الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون . والحمد لله الفتاح العليم ، العزيز الحكيم ، ذي المنّ والطَوْل ، والقدرة والحَوْل ، الذى لا ممسك لما فتح لأوليائه من رحمته ، ولا دافع لما انزل باعدائه من نقمته ، ولا رادّ لأمره في ذلك وقضائه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . . . (١) » .

رابعاً) : الاقتباس من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وامثال العرب . وقد رأيت طرفاً من اقتباسه للقرآن في التحميد السابق ؛ وكقوله في رسالة الصحابة ، مضمناً الحديث النبوي المشهور : « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » ، وكقوله في باب النبوة

---

(١) رسائل البلغاء ص : ١٣١ - ١٣٢

والاسوار والشغبر ، مضمناً الحديث النبوي المشهور : « كما تَدين تُدان » [فاصبري على غيرك ، كما صبر غيرُكِ على فعلك ؛ فانه قد قيل : كما تدين تدان] . وكقوله : « ما ترك الاول للآخر شيئاً » ، فانه قد اقتبسه من قول عنترة : هل غادر الشعراء من متردَّم ؟ .

خامساً) : الايجاز في القول ، وجعل الالفاظ القليلة تشتمل على الكثير من المعاني ، وهذا الامر لايستطيعه الاّ البارع القابض على زمام الكلام وتصريفه كيف شاء . فمن ذلك قوله في تعزية عن ولد : « اعظم الله اجرك في كل مصيبة ، واوزعك الشكر على كل نعمة . اعرف لله حقه ، واعتصم بما امر به من الصبر ، تظفر بما وعد من عظيم الأجر (١) » . وقوله في تعزية عن بنت : « جدَّد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك بما رزئته ، وعوَّضاً من المصيبة به ؛ ورزقك من الثواب عليه اضعاف ما رزأك به منها ، فما اقلَّ كثير الدنيا في قليل الآخرة ، مع فناء هذه ودوام تلك (٢) » .

سادساً) : الوضع لكثير من اصطلاحات الرسائل الديوانية ، والفاظها وتراكيبها بما بقي مرعياً في دواوين بني العباس ، بل انتقل عنهم الى الأمويين في الاندلس والفاطميين في مصر .

سابعاً) : قلة استعمال المحسنات البديعية ، لأن هذا امر لا يفشو إلا حين تنصرف جهود الكاتب الى الصيغة والشكل دون المغزى والمعنى والروح . فانت اذا قرأت ما بقي من كتب ابن المقفع ، فلن تعثر فيها إلا على شيء قليل من هذه الصناعة .

ثامناً) : الاسلوب المنطقي ، فأنت اذا قرأت كتابيه : كليلة ودمنة ، والادب الكبير

---

(١) كليلة ودمنة ص : ١٨٦

(٢) كليلة ودمنة باب الفحص عن امر دمنة ص : ١٠١

او رسالة الصحابة ؛ وجدته يتسلسل في سرد افكارة تسلسلاً منطقياً ، بحيث لا تستطيع ان تعمل في جملة من جمله تقديماً او تأخيراً . وليس من شك في ان هذا يصدر عن ثقافة منطقية واسعة .

تاسعاً) : ايراد الحكم والامثال والمواعظ والاكثار من ذلك في اغلب كتاباته ، وهذا بدون ريب قد جاءه من الفرس والهند الذين كانوا يضمنون كتاباتهم امثالاً ويستشهدون فيها بالقصص والاخبار .

عاشراً) : الغموض في بعض الاحيان وذلك ناشيء فيما نعتقد عن ان الرجل كان يترجم . فكان من الطبيعي ان تصبح بعض فقراته غامضة ، لأن الترجمة من لغة الى لغة اخرى ليست بالامر السهل ، فانك واجد عند ابن المقفع ، وخاصة في كتابه كليلة ودمنة ، امثلة على هذا الغموض كقوله في باب الاسد والثور : « . . . وان كان ذا مال واكتساب ، ثم لم يحسن القيام عليه ، اوشك المال ان يفنى ويبقى معدماً » . وفي هذه الجملة غموضان : اولهما : مرجع الضمير في قوله (عليه) . وثانيهما : (فاعل يبقى) . فمرجع الضمير في قوله (عليه) الى (الاكتساب) . مع انه ينبغي ان يرجع الى ما قبله وهو المال ، وهذا ما تأباه القواعد النحوية . وفاعل يبقى هو صاحب المال ، مع انه في ظاهر الجملة يرجع الى المال ذاته .

مكانته وتأثيره في الادب العربي :

رأيت في الفصل السابق خصائص اسلوب ابن المقفع التي امتاز بها والتي اقتبسها الناس عنه ، وتوارثها الكتاب من بعده ، على الرغم من مجيء الجاحظ بعده باسلوب جديد ، وطريقة في الكتابة طريفة ، كلها حياة وكلها روعة . فان طائفة من الناس ظلت

محافظة على طريقة ابن المقفع ، يؤيد هذا ما لقيه كتابه كليلة ودمنة من رواج وخلود ، حتى ان كثيراً من الناس عارضوه إنْ شعراً وإنْ نثراً ، فنظمه أبان بن عبد الحميد اللاحقي وقدمه ليحيى بن جعفر البرمكي ، فقدمه لأولاده لحفظه . وأبان هذا ممن عُنوا بآثار ابن المقفع ، وتأثر بها كل التأثر ؛ فنظم له غير كليلة ودمنة ، ترجمة كتاب مزدك وسيرة اردشير. وممن تأثر بابن المقفع من الشعراء : ابو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس ، اللذان طغيا على كثير من حكمه . واما تأثيره في الكتّاب ، فمن اشهر من تأثروا به الجاحظ ، وابن قتيبة ، وابن عبد ربه . فاما الجاحظ فقد كان معجباً بأدبه مكبراً له. واما ابن قتيبة فقد استفاد في كتابه عيون الاخبار بكثير من آثار ابن المقفع . وكذلك ابن عبد ربه فقد ملاء كتابه العقد الفريد بحكم ابن المقفع وامثاله .

وينبغي الاّ يسهى عن بالنا ان كتاب كليلة ودمنة ، قد أثر في المؤلفين . فكثر مقلدوه ، ومن أقدمهم ابن الهبّارية العباسي المتوفى سنة [٥٠٩ هـ] ، فقد الف كتابا في الفي بيت على مثال كليلة ودمنة اخترع حكاياته وامثاله بنظم يذوب رقةً وانسجاما وسماه [الصادح والباغم] وألف ابن ظَفَر المكيّ المتوفى سنة [٥٦٠ هـ] لبعض قواد صقلية كتابا اسمه [سلوان المطاع في عدوان الاتباع] على نمط كليلة ودمنة . ونظم القاضي اسعد بن مماتي سنة [٥٨٠ هـ] كتاب كليلة ودمنة بأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي.

وفي سنة [٨٥٢هـ] الف احمد بن محمد الحنفي المعروف بابن عربشاه كتاباً مسجعاً على مثال كليلة وسلوان المطاع .

واما اللغات الشرقية التي نقل اليها هذا الكتاب فقد أمر الامير ابو الحسن نصر

ابن احمد السامانى امير بخارى وخراسان احد علماء عصره فنقله من العربية الى فارسية زمانه ونظمه شاعره زودكي حسن بالفارسية ايضاً . وفي عصرنا هذا ظهرت عدة تراجم بالتركية والفارسية الحديثة ولغة الملايو والتتار وغيرهم .

هذا هو تأثير ابن المقفع وانت ترى انه يحتل مكانة بين فحول الأدب العربي ، وهو كما يقول الاستاذ عبد اللطيف حمزة في نهاية بحثه عن ابن المقفع : « نعمة انعم الله بها على الأدب الاسلامي والثقافة الاسلامية ؛ فهو نعمة على الأدب الاسلامي ، لأنه غذى هذا الادب بعنصر من العناصر الاجنبية القوية ـ وهو العنصر الفارسي . وهو نعمة على الثقافة الاسلامية ، لأنه انتقل بها من طور الضيق والفقر الى طور السعة والثروة . واذا صح ان يكون تاريخ الدول الاسلامية في زاهي عصورها ـ قد حظي برجل تتمثل فيه الحضارات الشرقية القديمة كلها في احسن اثوابها ، كما تتمثل فيه العواطف الانسانية كلها في انبل صورها وارقى درجاتها ـ لما كان هذا الرجل غير « عبد الله بن المقفع (١) » .

آثاره وتحليلها :

خلف لنا ابن المقفع كتباً قيمة كان لها أثر عظيم في أدب الكتاب وتهذيب اقلام المتأدبين وتعليم الناشئة . واشهر هذه الآثار هي كليلة ودمنة ، الأدب الكبير ، الأدب الصغير ، واليتيمة ، رسالة الصحابة ، كتاب خداينامه في السير ، كتاب ابين نامه في الأصر ، مزدك ، والتاج في سيرة انوشروان(٢) . واليك الآن تحليل بعض هذه الكتب تحليلاً يقفك على موضوعها واسلوبها ومكانتها في الادب .

---

(١) ابن المقفع ص : ٣٣٢ .

(٢) ولابن المقفع كتب غير هذه اختلف في امر نسبتها اليه ، ولهذا آثرنا ذكر المشهور منها ، واذا شئت فارجع الى فهرست ابن النديم ، فان فيه بغية المتوسع المستزيد .

كليلة ودمنة (١)

كتاب وضع على ألسنة العجماوات لتلذ مطالعته للعامة والخاصة من الناس ؛ وقد رمى به مؤلفه الى إصلاح الملوك واعوانهم ، وقد رسم لهم الطرق الواضحة لحسن السيرة والعدل والرشاد وتعليم الناس الحكمة وتنبيههم الى واجبهم تجاه المليك من طاعة وحب واحترام ، لتكون حياتهم هادئة ناعمة ، بعيدة عن موطن السوء ومنزلق الهلاك . وليكون لمن ينظر فيه حظ من الهداية . . .

وقد جاء في باب مقدمة الكتاب أنه « جعل على ألسن البهائم والسباع والطير ، ليكون ظاهره لهواً للخواص والعوام ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة ، وضمنه ما يحتاج إليه الانسان من سياسة نفسه وأهله وخاصته ، وجميع ما يحتاج إليه من أمر دينه ودنياه ، وآخرته وأولاه ، ويحضه على حسن طاعة للملوك ، ويجنبه ما تكون مجانبته خيراً له ، ثم جعله باطناً وظاهراً كرسم سائر الكتب التي ترسم الحكمة ، فصار الحيوان لهواً ، وما ينطق به حكمة وأدباً (٢) »..

وقال أيضاً في باب ترجمة ابن المقفع :

« وينبغي للناظر في هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى اربعة اغراض : أحدها ماقصد فيه الى وصفه على ألسنة البهائم غير الناطقة ، ليسارع الى قراءته أهل الهزل من الشبان فتستمال به قلوبهم ، لأنه الغرض بالنوادر من حيل الحيوانات . والثاني : إظهار خيالات الحيوانات لصنوف الأصباغ والألوان ، ليكون أنساً لقلوب الملوك ، ويكون

---

(١) يقول سلفستر دي ساسي في طبعته لكليلة ودمنة : ان كلمتي « دمنة و شتربة » آتيتان من كلمتي « دمناك وشترباك » في الهندية. واما كليلة فمأخوذة من « كالالاك » انقلبت الكاف هاء وابدلت الالفين يائين.

(٢) كليلة ودمنة ، باب بمرض الكتاب ص : ٢٦

حرصهم عليه اشد للنزهة في تلك الصور . الثالث : أن يكون على هذه الصفة ، فيتحذه الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك انتساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الايام ، ولينتفع بذلك المصور والناسخ ابداً . والغرض الرابع وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة».

فأنت ترى بعد هذين القولين ، ان العناية في وضع هذا الكتاب مبذولة من أجل الملوك الذين في صلاحهم صلاح للرعية ، وفي ضلالهم ضلال لهم .

وقد وضع هذا الكتاب في أحد وعشرين باباً تضمن الكثير من الحكم الرائعة والقصص الجميل ، الذين لم يكن معروفاً عند العرب من قبل ، كل ذلك في اسلوب فخم ونسج قوي ، وتعبيرات بليغة .

مؤلف هذا الكتاب :

اختلف المؤرخون في نسبة هذا الكتاب فذهب بعضهم الى انه من وضع الهند ، ثم ترجم الى الفارسية فزيد عليه بابان او ثلاثة ، ثم ترجمه ابن المقفع الى العربية ، ويؤيد هذا قول ابن المقفع في باب عرض الكتاب : « هذا كتاب كليلة ودمنة ، وهو ممن وضعته علماء الهند من الامثال والاحاديث التي ألهموا ان يدخلوا فيها ابلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي ارادوا » .

وذهب آخرون الى ان الكتاب من وضع ابن المقفع نفسه ، وانما نسبه الى الهندية لغرض اخفاه في نفسه وليصادف رواجاً واقبالاً ، لأن الناس ينظرون الى كل كلام قديم نظرة تقديس واعجاب . ويقول الجاحظ في كتاب البيان والتبيين : « كنت اؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، انسبه الى نفسي فلا ارى الاسماع تصغي اليه ولا الارادات

تيمم نحوه ، ثم اؤلف ما هو انقص منه رتبةً واقل فائدة وانحله ابن المقفع او سهل بن هارون او غيرهما ممن صارت اسماؤهم من المصنفين ، فيقبلون على كتبي ويسارعون الى نسخها ، لا لشيء ، إلا لنسبتها المتقدمين » .

فلنبحث الآن في كل من هذين الرأيين ، حتى نصل الى الحقيقة .

المسعودي اقدم من شك في نسبة الكتاب برمته الى ابن المقفع فقد ذكر عند حديثه عن دبشليم الملك : « وهو الواضع كتاب كليلة ودمنة الذي ينسب الى ابن المقفع (١) ». ويقول ابن النديم في الفهرست عند كلامه عن ابن المقفع : « وكان ممن يعمل الاسمار والخرافات على ألسنه الناس والطير والبهائم ، جماعة منهم عبد الله بن المقفع ، وسهل بن هارون ، وعلي بن داود كاتب زبيدة وغيرهم . . . فأما كتاب كليلة ودمنة فقد اختلف في امره ، فقيل عمله الهند ، وقيل عمله ملوك الأشكانية [الفرس القدماء] ونحلته الهند ، وقيل عمله الفرس ونحلته الهند ، وقال قوم ان الذي عمله بُزُرْجُمْهر الحكيم اجزاء والله اعلم » ثم قال في وصف كتاب كليلة ودمنة : « ولهذا الكتاب جوامع وانتزاعات ، عملها جماعة منهم ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وسَلْم صاحب بيت الحكمه ، والمُريد الأسود الذي استدعاه المتوكل في ايامه من فارس » فانت ترى ان كلمة « عمل » استعملها ابن النديم هنا للوضع والانتزاع والتأليف .

وقال ابن خلكان في ترجمة ابن المقفع : « ويقال ان ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كليلة ودمنة ، وقيل لم يضعه ، وانما كان باللغة الفارسية فعرّبه ونقله الى العربية ، وان الكلام الذي في اول هذا الكتاب من كلامه » .

---

(١) المسعودي : مروج الذهب

رأيت فيما عرضنا عليك من كلام القدماء ، الشكوك التي حامت حول الكتاب ، ولم يفصل في امره ؛ حتى جاء العالم الانكليزي «هرتل Hertel» واكتشف اصولاً هندية فيها بعض قصص كليلة ودمنة . تقول دائرة المعارف الاسلامية في مادة كليلة ودمنة : إن اصل هذا الكتاب ألّفه رجل من البراهمة ، لا يعلم اسمه ، وكان ذلك على ما رواه هرتل حوالي سنة (٣٠٠ بعد المسيح) في كشمير ، ويشتمل على مقدمة وخمسة ابواب واسمه «تاتنترا Tatantra» ومعناها : «صندوق المعاني الطيبة ، او المقالات» . وقد ترجم هذا الكتاب من اللغة «السنسكريتية (١) Sanscrit» هرتل المذكور ووضع له مقدمة وحواشي ، وطبعه في ليبسك وبرلين سنة ١٩٠٨ في مجلدين . ولهذا الكتاب نسخة اخرى اسمها «الباتشتنترا Pantschtantra» ومعناها : «المقالات الخمس (٢)» .

ويقول الاستاذ عبد اللطيف حمزة : قد عُثر في النسخة الهندية القديمة على الابواب الخمسة الآتية :

١) باب الاسد والثور .

٢) » الحمامة المطوقة .

٣) » البوم والغربان .

٤) » القرد والغيلم .

٥) » الناسك وابن عرس .

---

(١) كان عند الهنود القدماء لغتان : اللغة السنسكريتية ، وهي لغة العلم والادب . واللغة البركريتية Parcrit ، وهي اللغة العامية .

(٢) انظر ذلك في دائرة المعارف الاسلامية ، ماده «كليلة ودمنة» .

ويقول البارون دي ساسي في مقدمة طبعته : إنه قد عثر في كتاب هندي آخر اسمه [المهابهارتا Mahabharata] على الابواب الثلاثة الآتية :

١) : باب الجرذ والسنور .

٢) : باب الملك والطائر فنزة .

٣) : باب الأسد وابن اوى .

وعثر ايضاً في كتاب هندي قديم اسمه [فشنوسارنا Vischnou-Sarna] على باب : ملك الفيران . . وقد حاول دي ساسي ان يحل مشكلتين ، عبر عن الاولى بقوله : الى اي حد استطاع ابن المقفع ان يبتعد عن النص الفارسي ؟ . وعبّر عن الثانية بقوله : ان احداً لايجد من السهل عليه ان يحصي اوجه الخلاف العديدة بين النسخ المأخوذة من هذه الترجمة العربية نفسها ، وهو نوع من الخلاف اخشى ان يميل معه الباحث الى الاعتقاد بأنه قد كانت هناك تراجم عربية عديدة للكتاب ، لا نسخ متعددة فقط من هذه الترجمة العربية التي عني بها ابن المقفع . وقد اجاب البارون دي ساسي عن المشكلة الاولى بما خلاصته : «ليس عندنا من شك في ان ابن المقفع ما كان ليتقيد كثيراً بالنص الفارسي لأنه كان يرمي من وراء كتابه الى اهداف متعددة : منها انه كان يخاطب عرباً لم يطلعوا على دفائن المكتبة الفارسية ، فأظهر ما اظهره لهم باسلوب يوافق عقولهم . ومنها انه كان يريد ان يوجه كلامه الى خليفة داهية ، يخاف طغيانه كل فرد ؛ فعمد ابن المقفع الى تلك الطريقة ، يبيّن له فيها عيوبه واخطاءه . ومنها انه كان يريد ان يشكك المسلمين في عقائدهم التي كانت موضع فخرهم على غيرهم من الامم . فكيف يتمكن ابن المقفع الوصول الى هذه الاهداف المتعددة ، ان تقيد بالنص الفارسي ؟ الحق انه كان مضطراً الى التصرف

في النص القديم ، وانه ربما حذف الفقرة منه ، كما انه كان يضيف اليه الفصل الكامل من عنده ، إن رأى من وراء ذلك موجباً .

ويذهب الباحثون الى ان الابواب التي اضافها ابن المقفع ، تنحصر فيما يأتي :

١) الباب الاول في مقدمة الكتاب ، لعلي بن الشاه الفارسي .

٢) = الثالث في عرض الكتاب ، ترجمة عبد الله بن المقفع .

٣) = السادس في الفحص عن امر دمنة .

٤) = = عشر وهو باب الناسك والضيف .

٥) = العشرون وهو باب البطة ومالك الحزين .

٦) = الحادي والعشرون وهو باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين .

٧) باب برزويه ترجمة بزرجمهر بن البختكان .

وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة الى اكثر لغات العالم حتى اصبح كتاباً عالمياً ، وطبع هذا الكتاب عدة طبعات عربية اقدمها طبعة البارون دي ساسي في باريز سنة ١٨١٦ ، وهذه الطبعة لها الفضل على جميع قراء العربية شرقاً وغرباً في هذا الجيل ، وعنها اخذت الطبعة الثانية العربية في عهد محمد علي باشا الكبير . ومن هذه الطبعة طبعت الطبعات المصرية والسورية .

***

لاندري سر هذه التسمية ولا واضعها ، ولكن يغلب على الظن انها وضعت تمييزاً بين هذا الكتاب والكتاب الثاني المعروف بالادب الصغير . والادب الكبير يقع في نحو من مائة وثلاثين صفحة بالقطع الصغير ، وهو مقسوم الى مقدمة وقسمين : اولهما ينظم فصلين: الأول خاص بالسلطان وآدابه ، والثاني في صحبة السلطان .

ثانيهما : في معاملة الاصدقاء . اما المقدمة فقد ضمنها بعض النصائح القيمة لطالب العلم والأدب .

وقد استوفى البحث في القسم الاول استيفاءً حسناً ، لانه كان كثير الاتصال بالخليفة المنصور العباسي واعمامه كما كان كثير العلاقات مع صحابة الخليفة ، فلا غرو ان يتحدث عن هذا الموضوع ويجيد فيه ويضمنه كثيراً من حكم الاولين من فرس وهنود . كما استوفى ايضاً في القسم الثاني البحث عن الصداقة والاصدقاء وآدابهم ، وقد رأيت تفصيل ذلك في الفصل الذي عقدناه عن مذهبه الاجتماعي .

واما اسلوبه في هذا الكتاب فواضح كاسلوبه في كليلة ودمنة ورسالة الصحابة وليس فيه شيء من التعقيد والغموض الذي نجده في الأدب الصغير ، والسر في ذلك فيما نعتقد انه قد كتب هذا الكتاب متوخياً تحليل بعض القضايا الاجتماعية فكان يسوق الفكرة ،

---

(١) ذهب بعض الناس الى ان هذا الكتاب والادب الصغير والدرة اليتيمة ، ترجمها ابن المقفع . كما يذكر ذلك ابن النديم في الفهرست ، وتبعه على ذلك جرجي زيدان ؛ ولكن الاكثرين يرون على انها من تأليفه ، وهذا ما يشعر به قاريء هذه الكتب . ولعلّ ابن النديم يريد انه اخذ افكارها من اللغة الفارسية ، وصبّها بقالب عربي جميل . وهذا ما يذهب اليه ايضاً الاستاذ احمد امين « ضحى الاسلام : ص ٢٠٠ »

ثم يكثر من الأدلة عليها بعد ان يحللها ويستنبط منها ما فيها من عبر ومواعظ. وفي هذا الكتاب كثير من التقاليد الفارسية وخاصة في القسم الاول منه من آداب السلطان وصحابته. وهو يكثر في هذا الكتاب من قوله: «قالت الحكماء»، «واحفظ قول الحكيم» والغالب انه يريد بذلك حكمة الفرس، ثم انه في كثير من نصائحه متأثر بعهد اردشير، كما لاحظ الاستاذ احمد امين (١).

الادب الصغير:

هو كتاب كاسمه صغير الحجم لايزيد على خمسين صفحه بالقطع الصغير، وهو مقدمة وبحث واحد.

اما المقدمة فقد ذكر فيها حاجة العقل الى الأدب وتأثير الأدب في انماء العقول، وان العقل لايمكنه ان يستفيد من الأدب الا بستة اشياء: ايثار الأدب على كل شيء، والمبالغة في طلب الأدب، والتثبت في تخير الأدب والثقة بأن الذي استقر عليه رأيك سيعود عليك بالخير العميم، وعدم نسيانك هذا الذي اخترته، ووضعه في الموضع اللائق به. واما موضوع الكتاب فهو - كما يوضحه ابن المقفع بقوله - «ومن اخذ كلاماً حسناً عن غيره، فتكلم به في موضوعه على وجهه، فلا يُرَيَّنَ في ذلك عليه ضؤولة. من أُعين على حفظ قول المصيبين، وهُدي للاقتداء بالصالحين، ووفق للأخذ عن الحكماء - ولا عليه ألاّ يزداد - فقد بلغ الغاية. وليس بناقصه في رأيه... ألاّ يكون هوقد استحدث ذلك وسبق اليه (٢)».

---

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص: ٢٠٣

(٢) رسائل البلغاء ص: ٢١-٢٢

ثم يأخذ ابن المقفع بعد ذلك في ايراد الحكم والامثال ، التي سترى منها طرفاً في المختار من ادبه .

اما اسلوب الادب الصغير ليس كاسلوب الادب الكبير ، لأنه لا يتعمَّد الاكثار من البراهين ، كما هو شأنه في الادب الكبير ؛ بل ينثر الحكم والنصائح نثراً دون ان يكون بينها في كثير من المواضع ارتباط قوي . وهو في هذا الكتاب متأثر ايضاً بحكماء الفرس والهند ، مع شيء من ادب الاسلام وثقافته .

وبعد فان الادبين من اشرف ما كتب في اللسان العربي اسلوباً ومعاني . وقد كان لهما التأثير البعيد في الكتّاب الذين جاءوا من بعده .

رسالة الصحابة :

هي رسالة كتبها ابن المقفع لأمير المؤمنين المنصور العباسي ، يذكره فيها باحوال رعيته ، وما ينبغي ان يوجه نظره اليه بشأن العراق والشام والحرمين ، وبشأن صحابته واعوانه ، وجنده وتنظيم احوالهم . وسترى تحليل هذه الرسالة ونماذج منها ، في المختار من ادبه .

الدرة اليتيمة :

ذهب بعض الادباء (١) الى ان الدرة اليتيمة هي الادب الكبير ، وقد خالفهم في ذلك الاستاذ الاسكندري ، اذ يقول : إنه عثر في دار الكتب المصرية على جزء من كتاب المنثور والمنظوم لأبي الفضل احمد بن طيفور [المتوفى سنة ٢٨٠ هـ] وفيه يقول :

---

(١) ومنهم الاستاذ كرد علي ناشر رسائل البلغاء ص : ٥٥

«ومن الوسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا اشباه، وهي اركان البلاغة، ومنها استقى البلغاء؛ لانها نهاية في المختار من الكلام، وحسن التأليف والنظام: الوسالة التي لابن المقفع وهي اليتيمة. فان الناس مجمعون على انه لم يعبّر احد عن مثلها، ولا تقدمها شيء من الكلام قبلها ومن فصولها، ولم نكتبها بتمامها لشهرتها وكثرتها في ايدي الرواة ـ قوله في صدرها». ثم ذكر فصلاً ليس هو في شيء من موضوع الادب الكبير. وهذا يجعلنا نميل الى الاعتقاد بان الدرة اليتيمة كتاب غير الادب الكبير، ولكنه مفقود. وقد ضرب الناس قديماً المثل ببلاغة ابن المقفع فيها، حتى قال ابو تمام من قصيدة يمدح فيها الحسن بن وهب:

ولقد شهدتُك والكلام لآلىء ... تُومٌ: فبكر في الكلام وثيبُ

فكأن قساً في عكاظٍ يخطب ... وكأن ليلى الأخيلية تندب

وكُثَيِّر عِزَّةَ يوم بَيْنٍ ينسب ... وابن المقفع في (اليتيمة) يسهب

***

مختارات من ادبه

«اقرأ واعمل وانتفع»

كليلة ودمنة :

ثم إن العاقل إذا فهم هذا الكتاب ، وبلغ نهايةَ علمه فيه ، ينبغي له أن يعمل بما علم منه لينتفع به ، ويجعلَه مثالاً لايحيد عنه ، فاذا لم يفعل ذلك ، كان كالرجل الذي زعموا أن سارقاً تسوَّر عليه وهو نائمٌ في منزله ، فعلم به فقال : واللهِ لأسكتنَّ حتى انظرَ ماذا يصنع ، ولا أذْعرُه ولا أعلمه أني قد علمتُ به ، فاذا بلغ مرادَه قمتُ إليه ، فنغَّصتُ ذلك عليه ، ثم إنه أمسكَ عنه . وجعل السارقُ يتردَّدُ ، وطال تردُّدُه في جمعه مايجده ، فغلب الرجلَ النعاسُ فنام ، وفرغ اللصّ مما أراد ، وأمكنه الذهاب . واستيقظ الرجل ، فوجد اللصَّ قد اخذ المتاعَ وفاز به ، فأقبل على نفسه يلومُها ، وعرَفَ أنه لم ينتفعْ بعلمه باللصّ ، إذ لم يستعملْ في أمره مايجبُ ؛ فالعلمُ لايتمُّ إلاّ بالعمل ، وهو كالشجرة والعملُ به كالثمرة . وانما صاحب العلم يقومُ بالعمل لينتفعَ به ، وإذ لم يستعملْ ما يعلمُ لا يُسمَّى عالماً . ولو أنَّ رجلاً كان عالماً بطريقٍ مخوفٍ ، ثم سلكهُ على علمٍ به ، سُمّيَ جاهلاً ، ولعلّهُ إن حاسبَ نفسه ، وجدها قد رَكِبَتْ أهواءَ هَجَمَتْ بها فيما هو أعرفُ بضررها فيه ، أذاها من ذلك السالك في الطريقِ المَخُوفِ الذي قد جهلَه . ومَن رَكِبَ هواه ورفض ما ينبغي أن يعمل بما جرَّبهُ هو او أعلَمَهُ به غيرُه ، كان كالمريض العالم برديءِ الطعام والشراب وجيّده وخفيفه وثقيله ، ثم يحملُهُ الشرَهُ على

أكل رديئه ، وترك ما هو أقرب الى النجاة والتخلص من علّته .

وأقلّ الناس عذراً في اجتناب محمود الافعال ، وارتكاب مذمومها ، من أبصر ذلك ، وميّزه ، وعرف فضل بعضه على بعض ، كما أنه لو أن رجلين أحدهما بصير والآخر أعمى ، ساقهما الأجل إلى حفرة فوقعا فيها ، كانا اذا صارا في قاعها بمنزلة واحدة ، غير أن البصير أقلّ عذراً عند الناس من الضرير ، إذا كانت له عينان يبصر بهما ، وذاك بما صار إليه جاهل غير عارف (١) .

* * *

« ارسل حكيماً ولا توصه »

زعموا أن أرضاً من اراضي الفيلة تتابعت عليها السنون ، وأجدبت وقلّ ماؤها ، وغارت عيونها ، وذوى نبتها ، ويبس شجرها ؛ فأصاب الفيلة عطش شديد . فشكوْن ذلك الى ملكهن ، فأرسل الملك رسله وروّاده في طلب الماء في كل ناحية . فرجع اليه بعض الرسل ، فأخبره أني قد وجدت بمكان كذا عيناً ، يقال لها عين القمر ، كثيرة الماء . فتوجه ملك الفيلة بأصحابه الى تلك العين ليشرب منها هو وفيلته ، وكانت العين في ارض للأرانب ، فوطئن الارانب في أجحارهن ، فأهلكن منهن كثيراً . فاجتمعت الارانب الى ملكها فقلن له : قد علمت ما اصابنا من الفيلة . فقال : ليحضر منكن كل ذي رأي رأيه . فتقدمت ارنب من الارانب يقال لها : « فيروز » . وكان الملك يعرفها بحسن الرأي والادب ، فقالت : إن رأى الملك أن يبعثني الى الفيلة ،

---

(١) كليلة ودمنة ، الطبعة الاميرية ص : ٣٩

ويرسلَ معي أميناً ، ليرى ويسمعَ ما اقوله ، ويرفعه الى الملك . فقال لها الملك : إنت أمينةٌ ، ونرضي بقولك ؛ فانطلقي الى الفيلة ، وبلّغي عني ما تريدين ، واعلمي ان الرسول برأيه وعقله ، ولينه وفضله ، يُخبرُ عن عقل المرسل . فعليك باللين والرفق ، والحلم والتأني ؛ فان الرسول هو الذي يُلين الصدورَ اذا رَفق ، ويُخشّنَ الصدورَ اذا خَرِق (١) . ثم ان الارنب انطلقت في ليلة قمراء ، حتى انتهت الى الفيلة ، وكرهت ان تدنوَ منهن ، مخافة ان يطأنها بأرجلهن ، فيقتلنها ، وان كنّ غيرَ متعمداتٍ . ثم أشرفت على الجبل ، ونادت ملكَ الفيلة ، وقالت له : إن القمر ارسلني اليك ، والرسول غيرُ ملومٍ بما يُبلّغ ، وإن أغلظ في القول . قال ملك الفيلة : فما الرسالة ؟ قالت : يقول لك : « إنّ من عرف فضلَ قوّته على الضعفاء ، فاغترّ بذلك في شأن الاقوياء ، قياساً لهم على الضعفاء ، كانت قوتُه وبالاً عليه ؛ وانتَ قد عرفت فضلَ قوتك على الدوابّ فغرّك ذلك . فعمدتَ الى العين التي تُسمّى باسمي ، فشربت منها وكدّرتها ، فارسلني اليك ؛ فانذرك ألاّ تعود الى مثل ذلك ، وإنك إن فعلتَ أغشى بصرَكَ وأتلفَ نفسَك ؛ وإن كنتَ في شكٍ من رسالتي فهلمّ الى العين من ساعتك ، فاني موافيك بها » . فعجب ملكُ الفيلة من قول الارنب ، فانطلق الى العين مع فيروزَ الرسولِ ؛ فلما نظر اليها ، رأى ضوء القمر فيها . فقالت له فيروزُ الرسولُ : خذ بخرطومك من الماء فاغسل به وجهَك واسجد للقمر . فأدخل الفيلُ خرطومَه في الماء فتحرك ، فخيّلَ للفيل أن القمر ارتعد . فقال : ما شأنُ القمر ارتعد ؟ أتراه غضب من إدخالي الخرطومِ في الماء ؟ قالت فيروزُ الارنبُ : نعم . فسجد الفيلُ مرةً اخرى وتابَ مما صنع ، وشرط ألا يعود الى مثل ذلك هو ولا أحدٌ من فيلته » .

---

(١) حمق .

« آداب السلطان »

« إن ابتليتَ بالسلطان (١) ، فتعوَّذ بالعلماء ؛ واعلم ان من العيب أنْ يُبتلى الرجل بالسلطان ، فيريد ان ينتقص من ساعات نصَبه (٢) وعمله ، فيزيدها في ساعات دَعَتِه (٣) وفراغه وشهوته وعَبَثه (٤) ونومه .

وإنما الرأي له والحق عليه ، أن يأخذ لعمله من جميع شغله ، فيأخذَ له من طعامه وشرابه ونومه وحديثه ولهوه ونسائه ، قَدْرَ ما يكون به إصلاحُ جسمه ، وتقويةٌ له على اتمام عمله ، وإنما تكون الدعة بعد الفراغ ؛ فاذا تقلدتَ شيئاً من امر السلطان ، فكنْ أحدَ الرجلين :

إما رجلاً مغتبطاً به ، محافظاً عليه ، مخافة ان يزول عنه ؛ وإما رجلاً كارهاً له ، مُكرَهاً عليه ؛ فالكاره عامل في سخرة ، إما للموك إن كانوا هم سلطوه ، وإما لله تعالى إن كان ليس فوقه غيرُه (٥) » .

« غضب اهل السلطان »

« اعلم أن من الناس ناساً كثيراً يبلغ من أحدهم الغضبُ ، اذا غَضِبَ ، أن يحملَه

---

(١) لفظة السلطان في كتابات المتقدمين ، وفي جملتهم ابن المقفع ، لغاية عصر هارون الرشيد لا تدل على المعنى المعروف في ايامنا هذه ، بل تدل فقط على السلطة وولاية امور الناس وتدبير امور الجمهور . ثم اطلقوها على كل انسان يتولى شيئاً من اعمال الحكومة ، فهي عند المتقدمين بمعنى الوالي والحاكم وصاحب الامر . « احمد زكي باشا » . (٢) النصب : التعب . (٣) الدعة : الراحة ، (٤) العبث : اللعب . (٥) الادب الكبير « طبعة احمد زكي باشا » ص : ٨

ذلك على الكُلوح (١) والقطوب في وجه غيرِ من اغضبه ، وسوء اللفظ لمن لا ذنبَ له ، والعقوبة لمن لم يكن يَهمُّ بمعاقبته ، وشدة المعاقبة باللسان واليد لمن لم يكن يريد به إلاَّ دون ذلك ؛ ثم يبلغُ به الرضى ، اذا رضي ، أن يتبرَّع بالامر ذي الخطر ، لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي من لم يكن يريد إعطاءه ، ويكرم من لم يردْ اكرامه ، ولا حقَّ له ولا مودَّةَ عنده .

فاحذَرْ هذا البابَ الحذرَ كلَّه ، فانه ليس احدٌ أسوأَ فيه حالاً من السلطان الذين يُفْرِطون باقتدائهم في غضبهم ، وبتسرُّعهم في رضاهم ، فانه لو وُصف بهذه الصفة من يُلْتَبَس بعقله ، اريتَخبَّطُه المَسُّ ، أن يعاقب عند غضبه غيرَ من أغضبه ، ويحبو (٢) عند رضاه غير من أرضاه ، لكان حائزاً ذلك في صفته » .

« صحبة السلطان »

« إذا أصبت عند السلطان لطفَ منزلة لغناء يجده عندك ، او هوىً يكون له فيك ، فلا تطمحنَّ كلَّ الطماح ، ولا تُزَيِّنَنَّ لك نفسك المزايلةَ له عن أليفه ، وموضعِ ثقته وسرّه قبلك ، تريدُ أن تقلعَه وتدخلَ دونه . فان هذه خلَّةٌ من خلال السَّفَه ، قد يُبْتَلى بها الحكماء عند الدنوّ من السلطان ، حتى يُحدّثَ الرجلُ منهم نفسَه ، ان يكون دون الاهل والولد ، لفضلٍ يظنّه بنفسه ، أو نقصٍ يظنه بغيره » .

« ولكلّ رجلٍ من الملوك او ذي هيئة من السوقة أليفٌ وأنيسٌ ، قد عرَفَ روحُه روحَه ، واطّلعَ قلبُه على قلبه ، فليست عليه مؤونةٌ في تبذُّلٍ يتبذَّلُه عنده ،

---

(١) الكلوح والكُلاح : التكشر في عبوس . (٢) يحبو : يعطي . (٣) الادب الكبير ص ١٧

او رأي يستبينُ منه ، او سرٍ يُفشيه اليه ، غير أن تلك الأَنَسةَ وذلك الالفَ يَستَخرِجُ من كل واحد منهما ، ما لم يكن ليظهرَ منه عند الانقباض والتشدُّد . ولو التمس ملتمسٌ مثل ذلك عند من يستأنفُ ملاطفتَه ومؤانستَه ومناسمتَه (١) ، وان كان ذا فضلٍ في الرأي ممن قد كُفيَ مؤانستَه ، ووقع على طباعه . لان الانَسةَ رَوْحٌ للقلوب (٢) وان الوحشةَ روعٌ عليها (٣) ، ولا يلتاطُ (٤) بالقلوب الا ما لانَ عليها ، ومن استقبل الانسَ بالوحشة ، استقبل امراً ذا مؤونة .

فاذا كلفتك نفسُك السموَّ الى منزلةٍ من وصفتُ لك ، فاقدَعْها (٥) عن ذلك ، بمعرفة فضل الاليفِ والأنيس ، واذا حدثتك نفسُك او غيرُك ممن لعله ان يكون عنده فضلٌ في مروءة — أنك اولى بالمنزلة عند السلطان من بعض دُخلائه وثِقاته — فاذكرِ الذي على السلطان من حق أليفه وثقتهِ وانيسه في التكرمة والمكانة والرأي ، والذي يُعينه على ذلك من الرأي ، الذي يجده عند الأليف والأنيس ، مما ليس واجداً عند غيره . فليكن هذا ممن تتحفَّظُ فيه على نفسك ، وتعرِفُ فيه عذرَ السلطان ورأيَه (٦) » .

« منزلة الصديق »

« إجعل غاية نيّتك في مؤاخاة مَنْ تؤاخي ، ومواصلة من تواصلُ ، توطينَ نفسك على أنه لا سبيل لك الى قطيعة اخيك ، وإن ظهر لك منه ما تكره ، فانه ليس كالمملوك الذي تعتقُه اذا شئت ، او كالمرأة التي تطلقها اذا شئت ، ولكنَّه عرضُك ومروءتُك . وإنما مُروءةُ الرجل إخوانُه وأخدانه ؛ فان عثر الناسُ على أنك قطعتَ رجلاً من

---

(١) المناسمة : كالملامسة وهي المسارّة . (٢) رَوْح : راحة . (٣) روع : خوف وفزع .
(٤) يلتاط : يلتصق (٥) اقدعها : ازجرها وامنعها . (٦) الادب الكبير ص ٥٠

إخوانك ـ وان كنت معذوراً ـ نزل ذلك عند اكثرهم بمنزلة الخيانة للإخاء والملال فيه، وان انت مع ذلك تصبَّرْتَ على مقاربته على غير الرضى، دعا ذلك إليك العيبَ والنقيصة.

فالاتئادَ الاتئادَ (١)، والتثبتَ التثبتَ (٢)».

«صاحب لابن المقفع»

إني مخبرك عن صاحب لي. كان من اعظم الناس في عيني، وكان رأس ما أعظمَهُ في عيني صغرَ الدنيا في عينه. كان خارجاً من سلطان بطنه، فلا يتشهّى ما لا يجدُ، ولا يكثرُ اذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا يدعو اليه ريبة، ولا يستخفُّه رأيٌ ولا بدنٌ. وكان خارجاً من سلطان لسانه، فلا يقولُ ما لا يعلم، ولا ينازع فيما يعلم. وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يُقدِمُ أبداً إلاّ على ثقةٍ بمنفعة.

كان اكثرَ دهره صامتاً، فاذا نطق بذَّ الناطقين. كان يُرى مستضعَفاً، فاذا جاء الجدُّ كان كالليث عادياً. كان لا يدخلُ في دعوى، ولا يشتركُ في مِراءٍ، ولا يدلي بحجة؛ حتى يرى قاضياً عدلاً، وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذرُ في مثله، حتى يعلمَ ما اعتذاره. وكان لايشكو وجعاً إلا من يرجو عنده البُرْء. وكان لا يستشيرُ إلا من يرجو عنده النصيحة. وكان لا يتبرَّمُ، ولا يتسخَّط، ولا يتشهى، ولا يتشكّى. وكان لا ينقمُ على الوالي، ولا يَغْفُلُ عن العدوّ. ولا يخصُّ نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

---

(١) وفي رواية الارتياد: اي التطلب ودقة البحث.

(٢) الادب الكبير ص: ٧٣

فعليك بمثل هذه الاخلاق ان أطقتَ ، ولن تطيق . ولكنَّ اخذَ القليل خيرٌ من ترك الجميع (١) » .

* * *

الادب الصغير :

« المال المال »

ما التبعُ والأعوانُ والصديقُ والحشمُ الا للمال ، ولا يُظهرُ المروءةَ الا المالُ ، ولا الرأي والقوة الا بالمال . ومن لا إخوان له فلا اهل له ، ومن لا اولادَ له فلا ذكرَ له ، ومن لا عقل له فلا دنيا له ، ولا آخرة من لا مال له ، ولا شيء له . والفقر داعيةٌ الى صاحبه مقتَ الناس ، وهو مسلبةٌ للعقل والمروءة ومذبةٌ للعلم والادب ومعدنٌ للتهمة ، ومجمعةٌ للبلايا ، ومن نزل به الفقر والفاقة ، لم يجد بداً من ترك الحياء ؛ ومن ذهب حياؤه ذهب سروره ، ومن ذهب سروره مُقِتَ (٢) ومن مقت أوذي ، ومن اوذي حزن ، ومن حزن ذهب عقله ، واستنكر حفظه وفهمه ، ومن اصيب في عقله وفهمه وحفظه ، كان اكثرُ قولِه وعمله ، فيما يكون عليه لا له . فاذا افتقر الرجل اتهمه من كان له مؤتمناً ، واساءَ به الظن من كان يظن به حسناً ، فان أذنب غيره أظنوه (٣) ، وان كان للتهمة وسوء الظن موضعاً ، وليس خلةٌ هي للغنى مدح ، الا هي للفقر عيبٌ (٤) » .

« الدنيا والآخرة »

« إن العاقل ينظر فيما يؤذيه ، وفيما يسرُّه ، فيعلم ان احقَّ ذلك بالطلب — ان كان مما

---

(١) الادب الكبير ص : ١٢٩ . (٢) مقت : البغض . (٣) أظنوه : اتهموه . (٤) رسائل البلغاء « الادب الصغير » ص : ٥١

يُحَبُّ - واحقّه بالاتقاء - ان كان مما يكره - اطولُه وادومه وابقاه، فاذا هو قد ابصرَ فضل الآخرة على الدنيا، وفضل سرور المروءة على لذة الهوى، وفضل الرأي الجامع العامّ الذي تصلح به الانفس والاعقاب على حاضر الرأي الذي يستمتعُ به قليلاً، ثم يضمحلُّ، وفضل الأكلات على الأكلة، والساعات على الساعة (١)».

«الاصدقاء والاخوان»

ان اولى الناس بفضل السرور وكرم العيش وحسن الثناء من لا يبرحُ رحلُه من اخوانه واصدقائه من الصالحين موطوءً، ولا يزال عندَه منهم زحامٌ يسرُّهم ويسرونه، ويكون من وراء حاجاتهم وامورهم، فان الكريم اذا عثر، لم يستقل (٢) الا بالكرام كالفيل إذا وَحِلَ (٣) لم تستخرجه الا الفيلةُ».

«ومن المعونة على تسلية الهموم وسكون النفس، لقاءُ الأخ اخاه وإفضاء كلّ واحد منهما الى صاحبه ببثّه، واذا فرق بين الاليف وإلفه فقد سُلبَ قرارَه وحُرِمَ سروره (٤)».

* * *

رسالة الصحابة:

وهي رسالة كتبها لأمير المؤمنين يذكره بأحوال الرعية وما يلزم ان يوجه نظره إليه في خصوص بعض الأقطار، ولصحابته وما يلزمهم وما يلزم لهم.

أما بعد! أصلح الله أمير المؤمنين، وأتم عليه النعمة، وألبسه المعافاة والرحمة، فان

---

(١) رسائل البلغاء «الادب الصغير» ص ٢٥. (٢) يستقلل: ينهض من عثرته. (٣) وحل: وقع
(٤) رسائل البلغاء «الادب الصغير» ص ٥٣

أمير المؤمنين حفظه الله يجمع مع علمه المسألة والاستماع كما كان ولاة الشر يجمعون مع جهلهم، العجب والاستغناء، ويستوثق لنفسه بالحجة، ويتخذها على رعيته، فيما يلطف له من الفحص عن امورهم، كما كان أولئك يكتفون بالدعة، ويرضون بدحوض الحجة، وانقطاع العذر في الامتناع ان يجترىء عليهم احد برأي او خبر، مع تسليط الديان، وقد عصم الله امير المؤمنين حين أهلك عدوه، وشفى غليله، ومكن له في الارض، وآتاه ملكه وخزائنها من ان يشغل نفسه بالتمتع والتفتيش والتأثل والاخلاد، وان يرضى ممن آوى بالمتاع به، وقضاء حاجة النفس منه. وأكرم الله امير المؤمنين باستهانة ذلك واستصغاره اياه. وذلك من ابين علامات السعادة وأنجح الاعوان على الخير. وقد قص الله عز وجل من نبأ يوسف بن يعقوب، انه لما تمت نعمة الله عليه، وآتاه الملك، وعلمه من تأويل الاحاديث، وجمع له شمله، واقر عينه بأبويه واخوته، اثنى على الله عز وجل بنعمته، ثم سلا عما كان فيه، وعرف ان الموت وما بعده هو اولى فقال: «توفني مسلماً والحقني بالصالحين».

وفي الذي قد عرفنا من طريقه امير المؤمنين، ما يشجع ذا الرأي على تناوله بالخبرة فيما ظن انه لم يبلغه إياه غيره، وبالتذكير بما قد انتهى اليه، ولا يزيد صاحب الرأي على ان يكون مخبراً او مذكراً، وكل عند امير المؤمنين مقبول ان شاء الله».

وبعد ان ينتهي من بيان غرضه من الرسالة وهو اصلاح أمور الدولة، ذكر امير المؤمنين بالجند، وخص بالذكر الخراسانيين لأنهم «أهل بصر بالطاعة، وفضل عند الناس وعفاف نفوس وفروج، وكف عن الفساد، وذل للولاة، ودعا الى زيادة أعطياتهم واجرائها عليهم في اوقات معينة، وأن لا يولى احد منهم الخراج لأن ولاية الخراج مفسدة

للمقاتلة» وطلب تعهدهم «بالتعليم والتفقة في السنة والامانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى».

ثم ذكر امير المؤمنين باهل العراق واثنى عليهم وأبان ان ما ازرى بهم «ان ولاة العراق فيما مضى كانوا اشرار الولاة وان أعوانهم من اهل امصارهم كذلك، فحمل جميع اهل العراق على ما ظهر من اولئك الفسول وتعلق بذلك أعداؤهم من اهل الشام»، ورجا ان يسهر امير المؤمنين على نشر العدل بالتساوي بين جميع الاقطار لأنه لا ينبغي «ان يستحل الدم والفرج بالحيرة وهما يحرمان بالكوفة». وان لا يهرق دمٌ بغير بينةٍ ولا حجة.

وذكّره باهل الشام واستعطفه عليهم ورجا ان لا يؤاخذهم بالعداوة «ولا يطمع منهم في الاستجماع على المودة» ورأى ان يستعملوا في شؤون الدولة ويقربوا من السلطان وبذلك ينفصلون عن اهل الهوى ويدخلون فيما حملوا من امرهم. ثم ذكّره بأصحابه «الذين هم بهاء فنائه وزينة مجلسه وألسنة رعيته، والأعوان على رأيه ومواضع كرامته والخاصة من عامته». وبين وظائفهم ومزاياهم وفضلهم. ثم ذكره بفتيان أهل بيته، وبني أبيه، وبني علي، وبني العباس «فان فيهم رجالاً لو متعوا بجسام الامور، والاعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى» وبامر الارض والخراج وسيرة العمال.

ويذكره أخيراً بجزيرة العرب، ويرجو امير المؤمنين أن تسخو نفسه عن أموالها من الصدقات، وان يختار لولايتها الخيار من أهل بيته، ثم يصف العامة من الناس وصفاتهم والخاصة منهم وسيرتهم. وينهي رسالته بقوله: «فان الامر اذا أعان على نفسه جعل للقائل مقالاً، وهيأ للساعي نجاحاً، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهو رب الخلق، وولي الامر، يقضي في امورهم. يدبر امره بقدرة عزيزة وعلم سابق. فنسأله ان يعزم لامير المؤمنين على المراشد، ويحصنه بالحفظ والثبات والسلام، ولله الحمد والشكر (١)».

---

(١) رسائل البلغاء ص ١٢٠ وما بعدها.

مصادر البحث

بالعربية :

ابن المقفع	كليلة ودمنة	المطبعة الاميرية	١٩٢٣
″	الادب الكبير	طبعة احمد زكي باشا	١٩١٢
″	الادب الصغير	″ ″ ″ ″	″
″	رسائل البلغاء	طبعة محمد كرد علي	١٩١٣
الجهشياري	الكتّاب والوزراء	″ البابي الحلبي	١٩٣٨
الجاحظ	البيان والتبيين	″ السندوبي	١٩٣٢
ابن النديم	الفهرست	″ مصطفى محمد	
ابو هلال العسكري	كتاب الصناعتين	″ علي صبيح	
ابو الفرج الاصبهاني	الاغاني	″ الساسي	
ابن قتيبة	عيون الاخبار	″ مصر	١٣٤٣
المسعودي	مروج الذهب	″ محمد محيي الدين	١٩٣٨
ابن خلكان	وفيات الاعيان	″ بولاق	
الراغب الاصفهاني	محاضرات الادباء	″ مصر	
احمد الاسكندري	محاضرات الادب العربي في العصر العباسي	مطبعة العلوم	١٩٣١
احمد امين	ضحى الاسلام	″ الاعتماد	١٩٣٣
احمد زكي صفوت	جمهرة رسائل العرب	″ الحلبي	١٩٣٧
محمد كرد علي	امراء البيان	طبعة لجنة التأليف	١٩٣٧
محمد سليم الجندي	عبد الله بن المقفع	مطبعة الترقي دمشق	١٣٥٥
زكي مبارك	النثر العربي	طبعة دار الكتب	١٩٣٤
عبد اللطيف حمزة	ابن المقفع	″ دار النشر الحديث	١٩٣٧
خليل مردم بك	″ ″	″ عرفة	١٩٣٠
جرجي زيدان	تاريخ الادب العربي	″ دار الهلال	١٩٣٠

بالفرنسية :

Encyclopédie de l'Islam : . Art. Ibn - el - Macaffa et Kalilah wa Dimna.

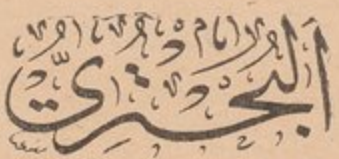
Baron Silvestre de Sacy : Mémoires Historiques - Paris.

Browne : A Literary History of Persia London

Nickolson : A Litérary History of Arabs.

Pierre André : L'Islam et les Races - Paris.

Zaki Mubarak : La prose arabe au IV^e siècle de l'Hégire (Paris 1931) .


البحتري

التوطئة

الشعر في العصر العباسي :

انتقلت الخلافة الاسلامية من الامويين الى العباسيين ، وتحولت العاصمة من دمشق الى بغداد ، فكان لهذا التحول والانتقال اثرهما في الشعر والادب والعلم ، وخصوصاً بعد ان قويت العناصر الاجنبية في العاصمة الجديدة بغداد ، من فرس وانباط وروم وترك وغيرهم . وكان سبباً في نمو المواهب وازدهار العبقريات ، فقد كثر عدد الشعراء والكتاب وتألق نجمهم في سماء النظم والبلاغة وبلغ الفن الشعري والكتابي اقصى درجات الاجادة والابداع ، حتى ان العرب لم يعهدوا عصراً ارتقت فيه دولة الادب وراجت فيه سوق الشعر ، ونشطت العقول وتنبهت القرائح وكثر الانتاج مثل عصرنا هذا .

لم يمض على تأسيس بغداد قرن واحد حتى صارت ميداناً لتسابق جياد العقول في كل علم وفن ولا سيما الشعر ، فقد كان له عند الخلفاء والملوك والامراء والوزراء والقواد ، سوق رائجة ، حتى عند الاعاجم منهم من ترك وديلم وروم ، وقد تكلف بعضهم نظم الشعر والنبوغ فيه . ودامت الحال على هذا المنوال الى اواخر الدولة العباسية ، بعصورها الثلاثة .

وقد تفنن الناس بالشعر تفنناً عظيماً وابدعوا في ابوابه ومعانيه ما لم يعهد في اللغة العربية من قبل ، فاستعملوه في كل غرض من اغراض الحياة حتى التعبد به ، وتشكلت اساليبه وتنوعت معانيه ، بما يلائم اغراض استعماله ، ولكن هذه الحركة القوية في التجديد

لم تمنع قالة الشعر من المحافظة على قديمهم والحنين الى تراثهم الشعري . فنحن اذا طالعنا قصائد ابي تمام والبحتري والشريف الرضي ومهيار الديلمي ، وغيرهم من أئمة الشعر في العصر العباسي وجدناها على ما فيها من جديد وطريف مملوءة من النسيب بالديار ودروسها والاظعان وحدوجها ، والابل واعطانها، والمها وعيونها ، فكأنهم ابقوها في شعرهم تذكاراً لوطنهم البدوي القديم النازحين عنه الى مدنهم الجديدة المتحضرة ، وحنيناً الى مهد لغتهم الجزيرة العربية ، ونزوعاً الى بعث اخيلتهم وصورهم الرائعة . على ان هذا الطابع القديم لم يعد ملتزماً في مطالع القصائد بل كثيراً ما كانوا يتحدثون في مطالعهم عن القصور الجديدة ، والعيش الرخص ، والاخوان الاصفياء ، وحياة اللهو والغناء ، ما الى ذلك من ذكر الخمر واوصاف مجالسها وسقاتها وندمانها ، ويظن ان اول من ترك التقاليد القديمة في كثير من قصائده ابو نواس ! فهو الذي سخر من القدماء وازرى بمطالع قصائدهم كقوله :

تبكي على طللِ الماضينَ من اسدٍ ... لا درَّ دَرُّكِ قل لي من بنو اسدِ

لا جفَّ دمعُ الذي يبكي على حجرٍ ... ولا صبا قلب من يصبو الى وتدِ

وقوله :

سُقياً لغيرِ العلياء فالسندِ ... وغيرِ اطلال ميَّ بالجرد

وقد استحسن بعض الشعراء ، من ابي نواس ، هذه المطالع والمعاني فنسجوا على غرارها وعدوها من حسنات المولدين جرياً على سنة التقدم والتجديد .

اما الامور التي طرأت على الشعر في هذا العصر فيمكن تلخيصها فيما يأتي :

اولاً : — ما يتعلق بفنون الشعر واغراضه .

ثانياً : — ما يتعلق بالفاظه واساليبه .

ثالثاً : ــ ما يتعلق بمعانيه وصوره وخيالا ته .

رابعاً : ــ ما يتعلق بأوزانه وقوافيه .

فنون الشعر واغراضه :

لا ريب في ان لتطور الزمن تأثيراً كبيراً في اغراض الشعر ، لان تبدل الحياة من شدة الى رخاء ، ومن جهل الى علم ، ومن اضطراب وحركة الى هدوء وسكينة ؛ كل هذا له تأثيره في الشاعر اكثر من غيره . لهذا كان من الضروري ان يتطور الشعر في هذا العصر الجديد وان تصبح له اغراض وفنون غير اغراضه وفنونه التي كانت في العصور السابقة ، ولكن لا ينبغي ان نظن ان الناس قد انسلخوا عن القديم انسلاخاً تاما ، فقد بقي فيهم محافظون حافظوا على كثير من الاغراض والفنون السابقة ، كما ان كثيرين قد اخترعوا ضروباً من فنون الشعر . ويمكن اجمال ما احدثه المحدثون من الفنون فيما يأتي :

اولاً : ــ زيادة استعماله في إثارة العصبيات والمنافرات والمفاخرات ، إما بين العرب والعجم ، او بين العرب انفسهم من مضرية ويمانية او علوية وعباسية ، واما بين علماء المذاهب المختلفة في الاعتقاد والفقه والنحو (١) .

ثانياً : ــ زيادة استعماله في الاغراض السياسية من استحقاق الخلافة وتحريض العمال والولاة وتهديدهم وانتقاد اعمالهم في شعر كثير من شعراء العصر .

---

(١) من ابطال شعراء المفاخرات بين العرب والعجم ، بشّار بن برد وعبد الله بن طاهر وغيرهما . ومن ابطال شعر المفاخرات بين اليمنية والمضرية مسلم بن الوليد وابو نواس وخلف الاحمر . ومن رجال شعراء العلويين والعباسيين مروان بن ابي حفصة وعلي بن الجهم ودعبل الخزاعي وغيرهم . واما شعراء المذاهب المختلفة فكثيرون امثال : ابي محمد اليزيدي والكسائي واضرابهما .

ثالثاً : ــ الاغراق في المدح والتملق المشين وذلك لكثرة الشعراء وقلة موارد الكسب ، ولم يجد الشاعر سوقاً رائجة لبضاعته غير ابواب الملوك والخلفاء ، وما كان الشاعر يرى لنفسه شعراً أسْيَرَ ولا جائزة اكثر إلاّ اذا اغرق في المديح وخرج فيه عن الذوق بل العقل بل الشرع (١) .

رابعاً : ــ الغزل بالمذكر والاغراق فيه ، حتى غلب على ما سواه من انواع الغزل . ويظهر ان اول من اظهر هذا النوع من الشعر والبة بن الحباب وتلميذه ابو نواس ورفيقه الحسين بن الضحّاك وشعراء حلبتهم .

خامساً : ــ الاقذاع في الهجاء والتعرض للحرم ، وهذا النوع وان كان معروفاً في نقائض جرير والفرزدق والاخطل الاّ انه في هذا العصر اكثر ذيوعاً .

سادساً : ــ اكثار شعراء المسلمين من ذكر الخمرة واوصافها ومجالسها ، حتى ان هذا اصبح فناً من فنون الشعر ؛ ونظن ان اول من اكثر في هذا من شعراء المسلمين ابو الهندي عبد القدوس بن شبث بن ربعي اليربوعي (٢) احد شعراء خراسان من مخضرمي الدولتين ،

---

(١) كمثل قول العكّوك في مديح ابي دُلف العجلي :

انت الذي تنزل الايامَ منزلها ... وتنقل الدهر من حال الى حالِ
وما مددتَ مدى طرفٍ الى احدٍ ... الاّ قضيتَ بارزاق وآجالِ

وقول علي بن جَبَلة في مديح ابى دُلَف العجلي :

انما الدنيا ابو دلفٍ ... بين باديه ومحتضره
فاذا ولىّ ابو دلفٍ ... ولت الدنيا على اثره

(٢) راجع : الشعر والشعراء لابن قتيبة ص : ١٦١

ومنه اخذ بشّار وابو نواس وصريع الغواني وكشاجم(١) والوأواء الدمشقي (٢).

سابعاً : ــ كثرة تفنن الشعراء في وصف القصور والبساتين والرياض ومجالس الانس واللهو وتقلبات الطبيعة ووصف الصيد ووحوشه . واشهر شعراء هذا النوع ابو نواس ومسلم بن الوليد والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والمتنبيء والمأموني (٣).

ثامناً : ــ كثرة تفنن الشعراء في الشعر الوعظي والزهدي والحكمي ، ومن اشهر شعراء هذا الصنف ابو العتاهية ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي ناظم كتاب كليلة ودمنة للبرامكة .

تاسعاً : ــ اقتباس الشعراء تعبيرات فلسفية ومعاني جديدة من حكماء اليونان والفرس (٤). وقد ظهرت شعراء عدّوا بين الفلاسفة ، وخاصة في العصر العباسي الثاني والثالث امثال المتنبي والمعري وغيرهما .

---

(١) هو ابو الفتح محمود بن الحسين . هندي الاصل وله ديوان شعر مطبوع في بيروت ، مات سنة (٣٦٠ هـ) .

(٢) هو ابو الفرج محمد بن احمد الغساني . شاعر مجيد وله ديوان مطبوع في روسيا توفي سنة (٣٩٠ هـ)

(٣) هو ابو طالب عبد السلام من ذرية الخليفة المأمون . اقام في بخارى ومات سنة (٣٨٠ هـ) ومن شعره في وصف قصر بناه الصاحب بن عبّاد :

... فهنيئاً منها بدار حوت منـ ... ـك جبالا من الحلوم رجاحا
ذات صدر كرحب صدرك قد زا ... د على ظن آمليك انفساحا

ثم يأتي على وصف القصر وصفاً يطابق ما فيه تماما ، متدرجاً من وصف الفناء الى البهو فالصحن فالغرف الخ . . .

(٤) من ذلك قول ابي العتاهية في رثاء ابنه :

كفى حزناً بدفنك ثمّ أنّي ... نفضتُ تراب قبرك من يديّ
وكانت في حياتك لي عظاتٌ ... فانت اليوم اوعظُ منك حيّا

وقد اخذ هذا المعنى من بعض حكماء اليونان في رثاء الاسكندر .

عاشراً : ــ ضبط قواعد العلوم من فقه ونحو وغيرهما ، واول من فعل ذلك أبان اللاحقي ايضاً .

الفاظ الشعر وأساليبه :

من الطبيعي ان يتأثر لفظ الشعر واسلوبه بالمدنية في هـذا العصر ، وخصوصاً حين طلبه الخلفاء والامراء في مجالس لهوهم وغنائهم ، ويمكن تلخيص التطورات التي حدثت في الفاظ الشعر وأساليبه بما يأتي :

اولاً : ــ دخول كثير من الالفاظ الاعجمية ، وخاصة الفارسية على هيئتها دون تغيير في لفظها الفارسي او تعريب ، وقد فعلوا ذلك تظرفاً او حباً في احياء الأدب الفارسي ، ومن اشهر رجال هـذا الصنف : ابو نواس ، وابن المعتز ، وابراهيم الموصلي وابن الرومي (١) .

ثانياً : ــ البعد عن الالفاظ الغريبة التي كانت فاشية في الشعر الاموي .

ثالثاً : ــ الاكثار من التشبيه والاستعارات والمحسنات البديعية ، واول من فتق اكمام البديع بشار بن برد ، ثم تبعه مسلم بن الوليد وابو نواس ، ثم جاء من بعدهم

---

(١) قال ابو نواس :

أَلبستُ كفي « دستباناً » مشعراً فروة سنجاب تؤآماً اوبرى

الدستبان : القُفَّاز .

وقال ابراهيم الموصلي :

اذا ما كنت يوماً في شجاها فقل للعبد يسقي القوم « يَرَّا »

اليرا الملآن ، ويريد بها الكأس الممتلئة .

ابو تمام فاغرق فيه ، واخيراً جاء ابن المعتز فاكثر منه وبلغت فنون البديع عنده مبلغاً عظيماً ، وألّف في ذلك كتاباً خاصاً (١) .

رابعاً : — رقة الاسلوب برقة الفاظ الشعر ورشاقة معانيه ؛ ومن ارق الشعراء اسلوباً في هذا العصر العباس بن الاحنف والبحتري وابن الرومي .

خامساً : — طول القصيدة ؛ حتى بلغت القصائد المئات من الابيات . كقصيدة الواساني وغيره (٢) ، ومع هذا فان العرب لم يبلغوا ما بلغته الامم الاخرى من الاطالة كما عرف عن اليونان في «الاوديسة والالياذة» ، والفرس في «الشاهنامة» .

معاني الشعر وصوره وأخيلته :

حافظ الشعراء في هذا العصر على المعاني القديمة ، كما اخترعوا معاني جديدة . ثم ان المعاني القديمة التي حافظوا عليها لم تخلُ من تصرف في ابداع (٣) . اما المعاني الجديدة فقد جاءتهم بها الحضارة الحديثة وليدة حكمة الهند ، ونتاج عقل اليونان ، وصفوة ادب الفرس ، وثمار بلاغة العرب . ولا ريب في ان الشاعر العباسي كان يصور ما يحس به ، وما يقع تحت بصره من آثار الحضارة مما لم يره الشاعر الجاهلي والاسلامي . ويمكن اجمال التغير الذي طرأ على المعاني والاخيلة الشعرية بما يأتي :

---

(١) طبع هذا الكتاب مؤخراً بعناية المستشرق الروسي كراتشوفسكي .

(٢) انظر قصيدة الواساني في ترجمته في يتيمة الدهر للثعالبي

(٣) من الامثلة على ذلك قول عُروة بن الورد :

ومن يك مثلي ذا عيال ومقتراً ... من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً او ينال رغيبة ... (ومبلغ نفسٍ عذرَها مثل مُنجحِ)

اخذ معنى الشطر الاخير ابو تمام فقال :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتةً ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر

اولاً : ــ تنظيم الصور الشعرية تنظيماً لم يألفه العرب من قبل حتى انك اذا عمدت الى قصيدة من قصائد الشاعر العباسي فقدّمتَ فيها واخرت ، اضطربت القصيدة اضطراباً كلياً . واننا لا نجد في ترتيب القصيدة المنطقي عند الشاعر العباسي ، ذلك الاختلال الذي كنا نجده عند اكثر شعراء الجاهلية والاسلام .

ثانياً : ــ كثرة الخيال ونموه نمواً عظيماً واشهر من عرفوا بسعة الخيال في هذا العصر ابو نواس وابو تمام وابن الرومي والمتنبيء .

ثالثاً : ــ شيوع الحكم والامثال والروح الفلسفية وشمائر الدين في اقوالهم مما لم يألفه العرب من قبل . واشتهر في هذا النوع من الشعر صالح بن عبد القدوس وابو العتاهية وابو تمام والمتنبيء .

رابعاً : ــ ابتداع الخيالات الجيدة التصوير ، وترى هذا بكثرة في شعر ابي نواس والبحتري وابن الرومي والمعري .

خامساً : ــ حدوث انواع جديدة في الشعر تلائم الحالة الاجتماعية في هذا العصر واهمها : شعر الاخوانيات من عتاب ومداعبات ، وشعر السلطانيات والمقارضات «المدائح» والزهريات ، واصبح لهذه الاخيرة شعراء لا يقولون الشعر الاّ فيها ؛ امثال الصنوبري وكشاجم .

سادساً : ــ البراعة بمطالع القصائد وخواتيمها وحسن التخلص فيها من النسيب الى المديح ، فقد اجادوا المطالع واختاروا لها الالفاظ المناسبة ليكون اول كلام يقرع السمع

جاذباً انتباه المخاطب داعياً الى حسن الاستماع. وكذلك فعلوا في الخواتيم، فقد اهتموا بها ليعرف السامع ان القول اشرف على الانتهاء، وليأخذ السامع صورة جيدة تستقر في نفسه بعد انتهاء القصيدة. واما حسن التخلص فقد برعوا فيه براعة عظيمة واصبحت لا ترى عندهم ما كنت تراه في اكثر الشعر الجاهلي من التنقل من معنى الى آخر بلا اي تمهيد.

سابعاً: — الغموض والاستغلاق عند كثير من الشعراء حتى انك اذا قرأت شعرهم احتجت الى امعان واعمال فكر لتفهم المراد. وليس من شك في ان هذا قد جاءهم من تغلغل الفلسفة فيهم وحبهم للبديع. واكثر شعراء هذا العصر غموضاً: ابو تمام والمعري والشريف الرضي.

اوزان الشعر وقوافيه:

تفنن الشعراء في هذا العصر تفنناً عظيماً في اوزان الشعر فلم يكتفوا بالاوزان التي جمعها الخليل، وانما اخترعوا بحوراً جديدة · كالبحر المستطيل (١) والممتد (٢) والمتوافر (٣) والمتئد (٤). ونحن اذا رحنا نلخص الامور التي طرأت على الاوزان الشعرية والقافية، امكن تلخيصها فيما يأتي:

اولاً: — اختراع البحور الجديدة التي رأيت طرفاً منها.

ثانيا: — اختراع الفنون السبعة الآتية:

---

(١) وهو مقلوب الطويل، واجزاؤه: مفاعيلن فعولن «اربع مرات».

(٢) وهو مقلوب المديد، واجزاؤه: فاعلن فاعلات «اربع مرات».

(٣) وهو محرف الرمل، واجزاؤه: فاعلاتك فاعلاتك فاعلن.

(٤) وهو مقلوب المجتث، واجزاؤه: فاعلاتن فاعلاتن مستفعلن.

السلسلة ، والدوبيت ، والقوما ، والموشح ، والزجل ، والكان كان ، والمواليا (١)

ثالثاً : — الاكثار من النظم على بحور لم تكثر منها العرب القدماء كالنظم من المضارع والمقتضب والمجتث والمتدارك والمنهوك ومخلع البسيط وغير ذلك . واما الامور التي استحدثت في القافية فيمكن اجمالها في النقاط الثلاثة الآتية :

١) الشعر المسمط : وهو ان يبتدىء الشاعر بشطر مصرّع ثم يأتي بأشطر على غير قافية ثم يعيد شطراً من جنس ما ابتدأ به .

---

(١) فالسلسلة : بحر اجزاؤه فعلن فعلاتن منفعلن فعلاتان كقول الشاعر :

السحر بعينيك ماتحرّكْ او جال الا ورماني من الغرام بأوجال

ياقامة غصن نشا بروضة احسان ايان هفتْ نسمة الدلال به مال

والدوبيت : هو وزن فارسي مركب من بيتين، واوزانه كثيرة ، واشهرها : فعلن متفاعلن فعولن فعلن . ومنه قول ابن الفارض :

روحي لك يازائر الليل فدى يامؤنس وحدتي اذا الليل هدا

ان كان فراقنا مع الصبح بدا لاأسفر بعد ذاك صبح ابدا

والقوما : وهو اختراع بغدادي ، ووزنه : مستفعلن فعلان . ومنه قول الشاعر :

ياسيد السادات لك في الكرم عادات

انا ابن ابو قطة تعيش ابويا مات

والموشح : اختراع اندلسي ، واوزانه كثيرة منها : مستفعلن فاعلن فعيل . مثل قوله :

ياجيرة الابرق اليماني هل الى وصلكم سبيل

والزجل : اختراع اندلسي ايضاً ، وليس له وزن معيّن ، واشهر اصحاب الزجل الاندلسيين : ابن قزمان .

والكان كان : اختراع بغدادي ، سمي بذلك لانهم لاينظمون فيه سوى الخرافات والحكايات ، ومثاله قول الشاعر

قم يا مقصر تضرع قبل ان يقولوا كان وكان

والمواليا : شعر بغدادي قيل في رثاء البرامكة ، وهو من بحر البسيط في اغلب حالاته .

٢) المخمس : وهو ان يؤتى بخمسة اشطر من وزن وقافية ثم بخمسة اخرى من الوزن وقافية اخرى الى آخر القصيدة .

٣) المزدوج : وهو ان يؤتى بشطرين من قافية ثم بآخرين من قافية اخرى ، وقد اكثر الشعراء منه في نظم كتب الادب والعلوم .

طبقات الشعراء :

كثر الشعر في هذا العصر كثرة عظيمة لرغبة الملوك والامراء فيه ، ولميل العرب والمستعربين اليه . ومن أجل هذا عمد مؤرخو الادب الى تقسيمهم طبقات :

اولها : = طبقة مخضرمي الدولتين الذين ادركوا اواخر دولة بني امية وصدر دولة بني العباس ، واشهر هؤلاء : ابو دلامة «مات سنة ١٦١ هـ» ، بشار بن برد و صالح بن عبد القدوس «ماتا سنة ١٦٧ هـ» ، حماد عَجْرَد «مات سنة ١٦٨ هـ» ، مطيع بن اياس «١٦٩ هـ» ، السيد الحميري «١٧٣ هـ» ومروان بن ابي حفصة «١٨١ هـ» .

ثانيها = طبقة نشأت في صدر دولة بني العباس واشهرها : مَسْلَم الخاسر «مات سنة ١٨٦ هـ» ، العباس بن الاحنف «١٩٢ هـ» ، ابو نواس «١٩٨ هـ» ، مسلم بن الوليد «٢٠٨ هـ» وكلثوم بن عمرو العتّابي «٢٢٠ هـ» .

ثالثها : = طبقة ابي تمام «توفي سنة ٢٢١ هـ» ومن اشهر رجالها : ديك الجن الحمصي «٢٣٥ هـ» ، دِعبل الخزاعي «٢٤٦ هـ» والحسين بن الضحّاك «٢٥٠ هـ»

رابعها : = طبقة ابن الرومي «توفي سنة ٢٨٣ هـ» ، والبحتري «٢٨٤ هـ» ، ومن أشهر رجالها ابن المعتز «٢٩٦ هـ» وابن بسام «٣٠٢ هـ» .

ولما ان جاءت دولة بني بويه وانقسمت المملكة الاسلامية الى رقعتين عظيمتين ، انقسم الشعراء ايضاً الى قسمين : شعراء العراق والمشرق ، وشعراء الشام ومصر والمغرب

فاما شعراء المشرق والعراق فاشهرهم : ابو الحسن السلامي « توفي سنة ٣٣٩ هـ » ، ابو الفتح البستي « ٤٠٠ هـ » ، ابن نُباتة السعدي « ٤٠٥ هـ » ، الشريف الرضى « ٤٠٦ هـ » وتلميذه مهيار الديلمي « ٤٢٨ هـ » ، ابو المظفر الابيوردي « ٥١٥ هـ ».

واما شعراء الشام ومصر والمغرب فكثيرون واشهرهم : ابو الطيب المتنبي « توفي سنة ٣٥٤ هـ » ، ابو فراس الحمداني « ٣٥٧ هـ » ، كشاجم « ٣٦٠ هـ » ، ابن هانىء الاندلسي « ٣٦٣ هـ » ، السَّري الرفّاء « ٣٦٣ هـ » ، الوأواء الدمشقي « ٣٩٠ هـ ؟ » ، ابو الفرج الببّغاء « ٣٩٨ هـ » ، ابو العلاء المعري « ٤٤٧ هـ » ، ابن سناء الملك « ٦٠٨ هـ » والبهاء زهير « ٦٥٦ هـ ».

البحتري

[٢٠٦ هـ ؟ — ٢٨٤ هـ]

حياته — اخلاقه ودينه — ثقافته — شعره — صنعته — اغراضه الشعرية — المديح — الهجاء — الرثاء
الغزل — الوصف — العتاب — الحكمة — الفخر — سرقاته — مكانته في الادب العربي
ديوانه واثاره — المختار من شعره — مصادر البحث

حياته :

هو الوليد بن عُبَيد بن يحيى وينتهي نسبه الى بحتر وهو بطن من طيء ولد بمنبج (١) سنة ست ومائتين (٢) وبها نشأ وتعلم وقال الشعر وهو صغير ، وقد نقل ابن خلكان عن صالح المنبجي قال : رأيت البحتري هاهنا عندنا ، قبل ان يخرج الى العراق يجتاز بنا في الجامع من هذا الباب [وأومأ الى جنبتي المسجد] يمدح اصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه ، ثم كان منه ما كان في علوة التي شبّب بها في كثير من اشعاره (٣).

هذا كل ما نعرفه عن اولية البحتري في مسقط رأسه . والرواة يحدثوننا بانه لما كان فقير الحال ذهب الى ابي تمّام بحمص فاتصل به وكان ذلك سبب اشتهاره واليك مايذكره ابو بكر الصولي في كتابه الذي وضعه في اخبار ابي تمام قال : [حدثني البحتري قال :

---

(١) وقيل بَزَرْدَفْنَه ، وهي قرية من قرى منبج . انظر ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٥

(٢) وقيل سنة خمس ومائتين « انظر ابن خلكان ج ١ ص ١٧٨ » ، و كتاب الانساب للسمعاني صحيفة ٦٧

(٣) ابن خلكان ج١ ص ١٧٥

كان اول امري في الشعر ونباهتي فيه اني صرت الى ابي تمام وهو بحمص (١) فعرضت عليه شعري . وكان يجلس ولا يبقى شاعر الا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري اقبل علي وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال : انت اشعر من انشدني فكيف حالك ؟ فشكوت خلةً ، فكتب لي الى اهل معرة النعمان ، وشهد لي بالحذق وقال : امتدحهم . فصرت اليهم فاكرموني بكتابه ووظفوا لي اربعة آلاف درهم فكان اول ما أصبته(٢)].

ثم ينقل الصولي عن ابي عبد الله الألوسي عن جماعة من اهل المعرة انه لما ورد كتاب ابي تمام وُجد فيه: [يصل كتابي على يدي الوليد بن عبادة ، وهو على بذاذته (٣) شاعر فاكرموه (٤)]. وبعد ان نال البحتري من اهل المعرة مبتغاه رجع الى بلده ثم تحركت همته لقصد بغداد ، قبة ، الاسلام وموطن الخلافة ، حيث المال والجاه والعلم والشهرة ، فذهب اليها والى سرّ من رأى(٥) فمدح الكبراء وراجت سوقه عندهم ثم طمع بالوصول الى الخليفة فمدح وزيره الفتح بن خاقان وطلب الدخول عليه فبقي شهراً لا يستطيع ذلك لي ان جلس

---

(١) وهناك روايات اخرى عن اول اتصاله بابي تمام ، فارجع اليها في ابن خلكان ج ١ ص ١٧٥ ، والاغاني ج ٨ ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢) اخبار ابي تمام للصولي ص : ٦٦

(٣) البذاذة : سوء الحال .

(٤) اخبار ابي تمام للصولي ص : ٦٦ . ولا بد لنا من الاشارة هنا الى ان والد البحتري لم يكن يسمى عبادة ، بل عُبَيد باجماع من ترجموا له فليصحح .

(٥) يقول الرواة : انه لما دخل العراق ترك كنية ابي عبادة واكتنى بابي الحسن ليزيل العنجهية والاعرابية ويساوي في مذاهبه اهل الحاضرة ويقرب بهذه الكنية الى اهل النباهة والكتاب من الشيعة . وقد ذكر بعضهم انه كان يكنى ابا الحسن ، وانه لما اتصل بالمتوكل وعرف مذهبه عدل الى ابي عبادة ، والاول اثبت « الموازنة للآمدي ص ١١ — ١٢ » .

الوزير مجلسه العام فدخل البحتري وانشده وكان الوزير يبتسم عند كل بيت جيد فينشرح بذلك صدر البحتري . ولنترك الكلام الآن الى البحتري نفسه يحدثنا عن تلك الساعة التاريخية في حياته قال : [دخلت عليه وانشدته فجعل يبتسم عند كل بيت جيد فعلمت انه يعرف الشعر وكان ذلك اعجب من جميع ما وصلني به . وكان اول ما اهتز له قولي :

وقد قلتُ للمُعلي الى المجدِ طَرْفَهُ ... دعِ المجدَ فالفتح بن خاقانَ شاغلُهْ

صَفتْ مثل ماتصفو المدامُ خِلالُهُ ... ورَقَّت كما رَقَّ النسيم شمائلُهْ

ثم انه امر لي بخمسة آلاف درهم وقال : امير المؤمنين يخرج لصلاة الفطر ويخطب ، فاعمل شعراً تنشده اياه اذا رجع ، ففعلت ما امر ؛ ثم دخلت على المتوكل فانشدته :

أَبرَّ على الأنواءِ نائلُك الغَمْرُ ... وبِذْتَ بفخرٍ ما يشاكِلُه فخرُ

وانت (امينَ الله) في الموضع الذي ... أَبى الله أَن يسمو الى قدره قَدرُ

تحسَّنَتِ الدنيا بعدلِك فاغتدت ... وآفاقُها بيضٌ واكنافُها خُضرُ (١)

فأمر لي المتوكل بعشرة آلاف درهم] . ثم ما زال البحتري متعلقاً بحبال الفتح بن خاقان حتى صار من خاصته وحاشيته ، وما زال الفتح يجله ويقدمه حتى جعله من ندماء الخليفة المتوكل على الله ، فأحبه المتوكل وجعله من خاصته بل جعله شاعره ؛ وانت واجد في ديوانه سجلاً تاريخياً لأعمال المتوكل ؛ ففي سنة ٢٣٥ هـ حين قسم المتوكل المملكة الاسلامية

---

(١) أبرّ : زاد . الانواء جمع نوء ، وهو سقوط نجم وظهور آخر ؛ وكانوا يستدلون به على المطر فأطلق واريد به المطر نفسه تجوزاً . الغمر : الكثير . بذت : تميّزت . يريد بالآفاق البيض : ذات السحاب المتراكم ، وبالاكناف الخضر : المخضرة بالزروع .

بين اولاده الثلاثة ، نجد صدى ذلك في شعر البحتري (١) . وفي سنة ٢٣٧ هـ حين ثار الارمن على الخليفة وقضى على ثورتهم ، تغنى البحتري بذلك (٢) . ونجده يحث الخليفة على ترك العراق والذهاب الى الشام مسقط رأسه ، وحين يذهب الخليفة اليها سنة ٢٤٣ هـ ينشرح صدر البحتري لهذه الرحلة ويسجلها في قصيدته (٣) . ثم حين يعود الخليفة الى بغداد يمدحه ويذكر ذلك (٤) ولما قتل المنتصر اباه المتوكل والفتح بن خاقان كان البحتري حاضراً في المجلس (كما يحدثنا بذلك المسعودي (٥)) فرثاه بقصيدة من عيون شعره (٦) ثم قفل راجعاً الى منبج ولكنه ما لبث ان عاد بعد زمن قليل يحمل مدائحه

---

(١) انظر الديوان — طبعة سركيس ، ونرمز اليه فيما بعد بحرف « س » ص : ٩ ، والديوان — طبعة الجوائب ، وسنرمز اليه بحرف « ج » — ص : ٥ ؛ حيث يقول :

حاط الرعيةَ حين ناط امورَها ... بثلاثة بكروا ولاةَ عهودِ
قدّامهم نورُ النبي وخلفهم ... هديُ الإمام القائم المحمودِ

(٢) الديوان « ج » ص : ٥ ، والديوان « س » ص : ٩ حيث يقول :

ورمى سوادَ الارمنين وقد عدا ... في عقر دارهم قدارَ ثمودِ
فغدوا حصيداً للسيوفِ تكبّهم ... اطرافُهن وقائماً كحصيدِ

(٣) انظر الديوان « ج » ص : ٩ ، والديوان « س » ص : ١٤ ، حيث يقول :

قد رحلنا عن العرا ... قِ وعن قطبها النَّكدْ
حبّذا العيش في دمشـ ... قَ اذا ليلها بَرَدْ

(٤) الديوان « ج » ص : ٢٦ ، والديوان « س » ص : ٤١ ، حيث يقول :

اتى من بلاد الغرب في عدد النقا ... نقا الرمل من فرسانه وخيوله
فأسفرَ وجهُ الشرق حتى كأنما ... تبلّج فيه البدرُ بعد أفوله
وقد لبست بغدادُ احسنَ زيّها ... لاقباله واستشرفت لعدوله

(٥) مروج الذهب ج ٣ ص : ٦٨

(٦) راجع القصيدة في المختار من شعره .

للخليفة الجديد المنتصر فاصبح شاعر البلاط في عهد المنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد. ويظهر انه كان كثير الاتصال بالمعتز لاننا نجد له فيه نحواً من ثلاثين قصيدة على اننا لا نجد له في بقية الخلفاء الا اربعاً او خمساً. وكان من الطبيعي بعد ان صار شاعر القصر ان يعرفه كبار رجال الدولة من وزراء وقواد وامناء سر ورجال قصر وعلماء، وقد مدح كثيراً من هؤلاء. فمن الوزراء الفتح بن خاقان التركي وزير المتوكل، والحسن بن مخلد الفارسي وزير المعتمد، وابراهيم بن المدبّر الفارسي من كبار رجال الدولة. والوزراء بنو سهل، وعبد الله بن يحيى بن خاقان واخوه علي من وزراء المتوكل وغيرهم، ومن القواد ابو سعيد الثغري الطائي، وآل حميد الطوسي الطائي، ومالك بن طوق التغلبي، واسماعيل ابن بلبل الشيباني وغيرهم، ومن امناء السر احمد بن ثوابة، وعيسى بن ابراهيم وغيرهم، ومن رجال القصر علي بن المنجّم وابن حمدون وغيرهما، ومن العلماء المبرّد النحوي وابن خرداذبه الجغرافي وابو العيناء الاديب... وهكذا اضحى ديوان شعره سجلا تاريخياً لكثير من حوادث عصره.

عاد البحتري الى الشام في اواخر ايامه فاستقر بمنبج وكان يرحل بين الفينة والاخرى الى بغداد الى ان توفي بداء السكتة بمنبج سنة ٢٨٤ هـ وقد خلّف ثروة طائلة بقيت في عقبه مدة طويلة ويرى الاستاذ خليل مردم بك ان ثروته هذه [ربما كانت من الاسباب التي جعلتهم من الوسطاء فمن احفاده ابو عبادة بن يحيى بن الوليد واخوه عبيد الله كانا رئيسين في زمانهما ومدحهما المتنبيء، وذكر ياقوت في معجم البلدان ان للبحتري في منبج املاكاً، وذكر في المشترك ايضاً ان قرية على باب منبج ذات بساتين هي وقف على ولده (١)].

---

(١) شعراء الشام ص: ٧٤

اخلاقه ودينه :

قال صاحب الاغاني : [كان البحتري من اوسخ خلق الله ثوباً وآلةً وابخلهم على كل شيء وكان له اخ وغلام معه في داره فكان يقتلهما جوعاً فاذا بلغ منهما الجوع أتياه ، فكان يرمي اليهما بثمن اقواتهما ، مضيقاً مقتراً ويقول : كُلا ! اجاع الله اكبادكما واطال اجهادكما! قال ابو مسلم الاصفهاني : دخلت على البحتري يوما فاحتبسني عنده وكان عنده شيخ فدعانا الى الطعام فامتنعت واكل الشيخ معه اكلا عنيفاً فالتفت الي وقال : اتعرف الشيخ ؟ قلت: لا . قال : هو من بني الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة خصُّ اللحى متشابهو الألوان
لو يسمعون بأكلة او شربة بعُمان اضحى جمعهم بعمانِ

قال : فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك . وكان للبحتري غلام رومي اسمه نسيم قد جعله باباً من ابواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه ويعتمد ان يصيّره الى ملك بعض اهل المروءات ومن ينفق عنده الادب فاذا جعل في ملكه شبّب به وتشوقه حتى يهبه له فلم يزل كذلك حتى مات فكفي الناس امره[1]] .

وروى ابو الفرج عن ابي العنبس الصيمري قال : كنت عند المتوكل والبحتري ينشد قصيدته :

عن اي ثغرٍ تبتسم وبأي طرف تحتكم

وكان البحتري من ابغض الناس انشاداً يتشادق ويتزاور في مشيه ، مرة جانباً ومرة القهقرى ، ويهز برأسه مرةً ومنكبيه اخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول :

---

(١) الاغاني ج ١٨ ص : ١٧٠

احسنتُ والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون احسنتَ ، هذا والله ما لايحسن احدٌ ان يقول مثله ، فضجر المتوكل من ذلك واقبل عليه وقال : اما تسمع ياصيمري ما يقول؟ فقلت : بلى ، فأمرني فيه بما احببت . قال : بحياتي اهجه على هذا الروى . . . فقلت :

ادخلت رأسك . . . . . (الى آخر القصيدة)

قال فغضب وخرج والمتوكل يضحك ويصفق حتى غاب (١) .

هذا ما يقوله صاحب الاغاني، والظاهر ان في كلامه هذا شيئاً من التحامل؛ فكيف تصح وساخة ثوبه مع انه كان ملازماً للخلفاء والوزراء امثال المتوكل والفتح بن خاقان ، وربما ظن انه كان يتنظف حين منادمة الخليفة ، وانه حين مكثه بين اهله وضيعته كان يرجع الى سابق عاداته . اما بخله فيظهر ان ابا الفرج كان مبالغاً فيه ايضاً على الرغم مما حُدث عنه ، فقد كان الرجل يحب الحياة والتمتع بملاذها والانفاق في سبيل ذلك .

قال من قصيدة يمدح بها بني المدبر :

أقمت من سيبكم في يانع زَهِر وسرت من جاهكم في يانع خَضِلِ

كما ان ابن خلكان يحدثنا انه ردَّ مائة دينار جاءته جائزة من بعض الاشراف ، ولا يفعل هذا الأمر من كانت اخلاقه على ما يصوره به صاحب الاغاني (٢) .

كان البحتري موصوفاً بقلة الوفاء ، فقد رأيت انه مدح المنتصر عقب قتله لأبيه المتوكل الذى غمره باحسانه ، كما انه هجا كثيرين ممن مدحهم . قال المزرباني في الموشح : ان البحتري قد هجا نحواً من اربعين رئيساً ممن مدحهم منهم خليفتان . . . بعد ان مدحهم

---

(١) الاغاني ج ١٨ ص : ١٧٠

(٢) ابن خلكان ج ١ ص : ١٧٧

واخذ جوائزهم ، وحاله في ذلك تنبيء عن سوء العهد وخبث الطريقة (١) » . وكان مضطربا في دينه : حدّث ابراهيم بن عبد الله الكجي قال: قلت للبحتري : ويحك اتقول في قصيدتك التي مدحت بها ابا سعيد :

يرمون . . باقبح قولهم . . . . . .

أصرتَ قدرياً معتزلياً ؟ فقال لي : كان هذا ديني ايام الواثق ثم نزعت عنه في ايام المتوكل . فقلت له : يا ابا عبادة هذا دين سوء يدور مع الدول (٢) . وقال احمد بن محمد ابن زياد : سألت ابا الغوث (ابن البحتري) عن السبب في خروج ابيه عن بغداد . فقال لي : كان ابي قد قال في قصيدته التي رثى فيها ابا سعيد بن صاعد ابياتاً وجد بها بعض اعدائه عليه مقالاً ، فشنّع عليه انه ثنوي ودارت في الناس . وكانت العامة حينئذٍ غالبة في بغداد فخافهم على نفسه . فقال لي : قم بنا يا بنيّ حتى نطفيء عنا هذه الثائرة بخرجة نلمّ فيها ببلدنا ونعود . قال فخرجنا فاقام فلم يعد(٣)].

ثقافته :

ولد البحتري في منبج ، وتربى في قبائل طي الضاربة في شواطىء الفرات ، فنشأ نشأة عربية خالصة ، ثم اتصل بابي تمام فافاد من شعره ومعانيه الشيء الكثير ، وانت اذا رحت تستقصي المعاني التي اخذها من ابي تمام جئت بالجم الوافر . وقد روى الصولي في اخبار ابي تمام عن ابي الحسن الكاتب قال : [كان ابراهيم بن الفرج البندنيجي

---

(١) الموشح ص : ٣٣٦

(٢) » » ٣٤١

(٣) » » ٣٤٢

الشاعر يجيئنا كثيراً ، وكان اعلم الناس بالشعر ؛ ويجيئنا البحتري وعلي بن العباس الرومي ، وكانوا اذا ذكروا ابا تمام عظّموه ورفعوا مقداره في الشعر حتى يقدموه على اكثر الشعراء وكلٌ يقرّ باستاذيته وأنه منه تعلّم (١)]. ويحدثنا الصولي ايضاً : انه سمع ابا محمد بن سعد يقول للبحتري وقد اجتمعا في داره بالخُلْد وعنده محمد بن يزيد (المبرّد) النحوي وذكروا معنىً تعاوره البحتري وابو تمام : انت في هذا اشعر من ابي تمام ، فقال : كلا والله ذاك الرئيس الاستاذ ، والله ما اكلت الخبز الا به. فقال له محمد بن يزيد : يا ابا الحسن تأبى الاّ شرفاً من جميع جوانبك (٢)].

هاتان القصتان اللتان رواهما معاصر ثقة تدلان على ان البحتري مدين بثقافته وشعره الى حد بعيد لاستاذه ابي تمام . ويظهر ان البحتري لم يكن يحفل كاستاذه بالعلم والمنطق وانما كانت ثقافته عربية خالصة ليس فيها شيء من الثقافات الاجنبية التي كانت مستفيضة في عصره ، وهو حين يسمع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر يقول متفلسفاً :

والعقل ضربان ان نظرت فمو ... هوبٌ وثان للمرء يكتسبه

يهزأ به وبمنطقه وفلسفته فيقول :

والعقل من صيغة وتجربةٍ ... شكلان مولوده ومكتسبُه
كلفتمونا حدودَ منطقكم ... في الشعر يُلغى عن صدقه كذبُه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ... ـطق ما نوعه وما سببُه

---

(١) اخبار ابي تمام ص : ٦٧ = ٦٨

(٢) » » » » : ٦٦ = ٦٧ . الخُلْد : قصر بناه المنصور ببغداد على دجلة سنة ١٥٩هـ وبنيت حواليه منازل فصارت محلة كبيرة .

والشعر لمحٌ تكفي اشارته وليس بالهَذرِ طوّلت خطبه(١)

والحق انك اذا قرأت ديوان البحتري كله لم تحس بثقافة غير الثقافة العربية من ادب جاهلي واسلامي ، و احتذاء بأئمة الشعر في الجاهلية والاسلام . ومن ذلك قوله وهو مما يدل على ثقافة فقهية اسلامية :

لي حاجةٌ ارجو لها احسانك الاوفى وفضلك

والمجد مشترط عليـ ك قضاءها والشرط املك

أما ماأخذه من معانٍ عن ابي تمام فانك واجد فيه شيئاً من الثقافة غير العربية ، وسترى فيما بعد عند كلامنا في المقارنة بينه وبين استاذه ومكانته في الشعر العربي ، ان الذين فضلوا البحترى احتجوا بأنه كان صحيح السبك ، حسن الديباجة ، حسن التخلص ، يضع الكلام في مواضعه وأنه اعرابي الشعر مطبوع ؛ وانه على مذهب الاوائل من الشعراء ما فارق عمود الشعر ، وانه كان يتجنب التعقيد ووحشي الكلام ، فهو بأن يقاس بأشجع السُلمي وغيره من الشعراء اولى (٢) .

شعره :

قال البحتري : كنت في حداثتي اروم الشعر ، و كنت ارجع فيه الى طبعي ، ولم اكن اقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه ، حتى قصدت ابا تمام وانقطعت فيه اليه ، واتكلت في تعريفه عليه ؛ فكان اول ما قال لي : يا ابا عُبادة ! تخير الاوقات ، وانت قليل الهموم ، صفر من الغموم ؛ واعلم أنّ العادة جرت في الاوقات أنْ يقصد الانسان

---

(١) الديوان « ج » ص : ١٣٣ ، والديوان « س » ص : ٢٠٥

(٢) انظر ذلك في مقدمة الموازنة بين الطائيين للآمدي ص : ٢

لتأليف شيء او حفظه في وقت السَحَر، وذلك ان النفس اخذت حظّها من الراحه وقسطها من النوم ؛ وإن اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقاً ، والمعنى رشيقاً ، واكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الاشواق ، ولوعة الفراق . فاذا اخذت في مديح سيدٍ ذي أيادٍ . فأشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه ، وشرّف مقامه ؛ وتَضَدّ المعاني ، واحذر المجهول منها ؛ وإياك أن تشين شعرك بالالفاظ الرديئة ؛ ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد ؛ واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل شعرك إلاّ وانت فارغ القلب ؛ واجعل شهوتك الى الشعر ، الذريعةَ الى حسن نظمه ، فان الشهوة نعم المعين . وجملة الحال أن تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسن العلماء فاقصده ، وما تركوه فاجتنبه ، ترشد ان شاء الله .

قال البحتري : فأعملت نفسي فيما قال ، فوقفت على السياسة .

اتبع البحتري نصيحة استاذه في قرض الشعر وانتفع بها ، فجعل الفاظه رقيقة ، ومعانيه رشيقة ، وابتعد عن الالفاظ الرديئة ، وجعل من نفسه خياطاً يقطع الثياب على مقادير الاجساد ؛ فاستحسن الناس شعره وأحبوه ، ووصفوه بأنه شاعر الالفاظ الموسيقية والشعر الغنائي:

اذا نحن كافأناكمُ عن طبيعة ... أَنِفنا ، فلا التقصير منا ولا الكفرُ
بمنقوشةٍ نقشَ الدنانير ، يُنتقى ... لها اللفظُ مختاراً كما يُنتقى التبرُ

والحق ان للبحتري وراء هذه المزية مزية اخرى ، هي غوصه على المعاني واستنفاده لها . وهكذا وفق البحتري الى شعر خالد على مر العصور ، لأنه يصور النفس البشرية واحاسيسها وما يطرأ عليها من مختلف العواطف والنوازع احسن تصوير ، ولنضرب لذلك مثلاً بما

تراه في قصيدته الهائية التي تكلم فيها عن ثورة بني تغلب ، فانه قد صوّر فيها الحياة البدوية والطبيعة العربية اروع تصوير (١) .

يقول الدكتور طه حسين : إن الذين «يقرأون شعر هذا الرجل يُفتنون اولاً بجمال اللفظ ، وربما كان البحتري اظهر الشعراء الذين احتفظوا بجمال الديباجة العربية كأحسن ما يحتفظ الشاعر بجمال هذه الديباجة في القرن الثالث ، ولم يخطيء شيوخ صاحب الاغاني حين ختموا به الشعر ، لان هؤلاء الناس كانوا من الادباء المحافظين . . . » . ثم يقول : «إن شعر البحتري إنْ كان قد غلب عليه الجمال اللفظي الخدّاع — وهذه المعاني التي يحسّها الناس بغير مشقة ولا كلفة ، والتي لا بقاء لها ولا ثبات — فقد وفق البحتري الى شعر آخر ، تتغير الظروف والعصور وهو باقٍ خالدٌ ، لانه يصور خلاصة الحياة (٢)» .

صنعته :

عُرف ابو تمام بشدة ولعه بالغريب ، والصنعة البديعية ، وتفتيشه عن الصور الغريبة ، والمحسنات اللفظية والمعنوية ، فغمض بذلك شعره ، وثقل على الآذان والقلوب لخروجه في كثير من ابياته عن الجادة المستقيمة وعمود الشعر . والشعر كما يقول البحتري : لَمْحٌ تكفي اشارته ، وليس بالهذر طُوّلت خطبُه ، ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه » وهكذا كان شعر البحتري سهلاً قليل الصنعة البديعية المتكلفة ، واضحاً .

قال الآمدي في الموازنة بين الطائيين : « . . . إن ابا تمام يعمل ان يدلّ في شعره

---

(١) انظر القصيدة في المختار من شعره ومطلعها :

منى النفس في اسماء لو يستطيعها ... بها وجدها من غادة وولوعها

(٢) من حديث الشعر والنثر ص : ١٩٩ ، ٢١٣

على عامه باللغة وبكلام العرب فيعمد لادخال الفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره وذلك نحو قوله :

هنَّ البُجارى يا بُجَير اهدى لها الأبؤسَ الغوير

وقوله : قَدْكَ اتئب ابيتَ في الغلواء . . . . . .

وهذا في شعره كثير ، موجود والبحتري لم يقصد هذا ولا اعتمده، ولا كان عنده فضيلةً ، ولا رأى انه علم لأنه نشأ ببادية منبج ، وكان يتعمد حذف الغريب والوحشي من شعره ليقربه من فهم من يمتدحه الاّ ان يؤآتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لها ، ويرى ان ذلك اتفق له وابلغ بالمراد والغرض(١) » .

وقال في موضع آخر تحت عنوان «باب فضل البحتري » : ووجدت اكثر اصحاب ابي تمام لا يدفعون البحترى عن حلو اللفظ ، وجودة الوصف ، وحسن الديباجة ، وكثرة الماء ؛ فانه اقرب مأخذاً ، واسلم طريقاً ، من ابي تمام . . . وليس الشعر عند اهل العلم به إلا حسن التأتي ، وقرب المأخذ ، واختيار الكلام ، ووضع الالفاظ في مواضعها ، وان يورد المعنى باللفظ المستعمل في مثله ، وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له ، فان الكلام لا يكتسي البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف ، وتلك طريقة البحتري(٢) » .

اغراضه الشعرية :

للبحتري شعر كثير ، ولعله بعد ابن الرومي اكبر شاعر عربي ديواناً واطول نفساً .

---

(١) الموازنة بين الطائيين ص : ١١

(٢) المصدر السابق ص : ١٧٢

وديوانه هذا مملوء بالاغراض الشعرية المعروفة في زمانه من مديح وهجاء ورثاء وغزل ووصف وعتاب وحكمة .

المديح :

استنفد المديح اكثر ديوان البحتري لانه جعله مورد رزقه ووسيلة يدفع بها عنه مال التقسيط الذى كان يفرض على املاكه في منبج . فكان اذا احتاج الى المال شد رحاله الى عاصمة الخلافة مادحاً مستجدياً . وقد رأيت انه مدح الخلفاء والوزراء والقواد وامناء السر للفوز بعطاياهم او للاحتماء بظلّهم . وكان لا يتورع ان يهجو من مدحه اذا كان في ذلك ارضاء لمن يبتغي من ورائه منفعة .

اما مدائحه للخلفاء — واكثرها في المتوكل — فانها كانت تدور حول سلطتهم الدينية واعزازهم الخلافة الاسلامية وحبهم لبني علي ، وحين رأى الخليفة المتوكل ينكل بالعلويين سكت على مضض ، فلما ان جاء المنتصر وقرّبهم فرح بذلك ومدحه على هذا بقوله :

وآلُ ابي طالب بعد ما أذيع بسربهمُ فابذّعرْ
ونالت أدانيهمُ جفوةٌ تكاد السماء لها تنفطرْ
وصلْتَ شوابك ارحامهم وقد اوشك الحبل ان يذبترْ
فقرّبتَ من حظهم ما نأى وصفّيتَ من شربهم ما كدرْ
قرابتكم بل اشقاؤكم واخوتكم دون هذا البشرْ
ومن هم وانتم يدا نصرةٍ وحدٌّ حسامٍ قديمِ الاثرْ

يُشادُ بتقديمكم في الكتاب وتتلى فضائلُكم في السوَرْ
وإنَّ علياً لأولى بكم وأزكى يداً عندكم من عُمَرْ(١)

ومدائحه في الخليفة المتوكل منحصرة في تشبيهه بالنبي (صلى الله عليه وسلم) في تقواه وزهده واحيائه للسنة وإماتته للبدعة :

اسلم امير المؤمنين لسنَّةٍ احييتها والناس حيرى ضُلَّلُ
ورعية احسنت رعيَ سوامها حتى غدت والعدل فيها مُهمَلُ
وغدوت في برد النبيّ وهديه تخشى لحكم قاصدٍ ومُؤمَّلُ

وكيف لايعيد في هذه المعاني ويبدي، والمتوكل اقوى خليفة رآه، وهو آخر الخلفاء الذين كانت بيدهم السلطة الدينية والزمنية ؛ وبقتله انهارت ار كان الخلافة الاسلامية . ولم يتعرض البحتري بعد قتل المتوكل لذكر الخلافة والاشادة بها كما كان يفعل ايام المتوكل لانه لم يخلص في حبه لاحد منهم اخلاصه للمتوكل ، وانه لم يعد يرى في الخلفاء من بعد المتوكل الا هياكل يسيرها الموالي ؛ وهو حين يمدح المعتز لقتل بغا التركي، يبتهج بذلك وينشرح صدره بزوال دولة الموالي والاتراك، وعودة الخلافة وسلطتها الى العرب فيقول :

فاليوم عاودتِ الخلافةُ عزَّها وأضاء وجهُ الملك بعد ظلامِ
اضحى بغَاء واقربوه وحزبُهُ وكأنهم حلمٌ من الاحلامِ
طاحوا فما بكت العيون عليهم بدموعها ومضوا بغير سلامِ
فاسلم امير المؤمنين ممتعاً بتتابع الالآء والانعامِ

---

(١) ابذعر : تفرق . تنفطر : تتشقق . شوابك : متقاربة . ينبتر : ينقطع . سربهم : جماعتهم .

لكن ذلك كان مع الأسف فورة ثم همدت ، فاضطر الشاعر ان يعود الى مداراة الاعاجم والموالي وتملقهم في مدائحه ، فيقول من قصيدة للمعتز :

اما الموالي فجند الله حملهم ان ينصروك فقد قاموا بما احتملوا

بقاؤهم عصمة الدنيا وعزهم سترٌ على بيضة الاسلام منسدل

اما اسلوب البحتري في مدائحه، فهو اسلوب القدماء من ابتداء بالغزل، وتحدث عن الديار والدمن ـ في بعض الاحيان ـ واشادة بمناقب الممدوح واعماله المجيدة، مع شيء كبير من المغالاة ، وخاصة مدائحه في الخلفاء. وشعره المديحي مملوء بالحوادث التاريخية التي جرت في ايامه ، من اخبار الثوار والخارجين على الخلافة.

* * *

الهجاء :

لا نجد في ديوان البحتري كثيراً من القصائد المطولات في الهجاء ، وانما هي مقطوعات قليلة لا تدل على براعة في هذا النوع من الشعر ؛ ويعلل صاحب الاغاني ذلك بالقصة الآتية : لما حضرت البحتري الوفاة ، دعا ابنه ابا الغوث فقال له : يا بني اجمع كل شيء قلته في الهجاء ، ففعل ، فأمره باحراقه ، ثم قال له : يا بني ! هذا شيء قلته في وقت شفيت به غيظي ، وكافأت به قبيحاً فُعِلَ بي ، وقد انقضى أربي من ذلك ؛ وان بقي رُوِيَ ، وللناس اعقابٌ يورثونهم العداوةَ والمودةَ ، وأخشى ان يعود عليك من هذا شيء من نفسك او معاشك لا فائدة لك فيه . قال : فعلمت انه نصحني واشفق عليَّ فأحرقته . ويعقب صاحب الاغاني على هذا بأنه ربما كان حقاً ، ولكنه لا يقوم دليلاً على

براعة البحتري في الهجاء (١) فان ما بقي من شعره ضعيف ورديك ، لا يتناسب وقوة شعره .

ولعل ابا الغوث بن البحتري اخترع تلك القصة للدفاع عن أبيه ، فانت اذا قرأت ما بقي من هجائه رأيت شعراً مهلهلاً وبذيئاً وأكثره شتم وسباب . قال ابو الفرج : وما نعرف له من هجاءٍ جيد الا قصيدتين : احداهما في ابن ابي قماش (٢) والثانية في يعقوب بن الفرج النصراني (٣) وابو الفرج مغالٍ ايضاً في حكمه هذا فان للبحتري قصائد في الهجاء اجاد فيها غير القصيدتين اللتين ذكرهما ، مثل قصيدته التي قالها في يعقوب بن احمد بن صالح (٤) وقصيدته التي قالها في ابن البريدي (٥) ، وقصيدته في هجاء احمد بن طولون (٦) وقصيدته في هجاء المستعين وغيرها (٧) .

ولعل احساس بن الرومي يضعف زميله البحتري في هذا النوع من الشعر هو الذي حمله على هجائه والاكثار من ذلك فيه :

والفتى البحتري يسرق ما قا ... ل ابنُ أوسٍ في المدح والتشبيبِ
كل بيت له يجوّد معنا ... هُ ، فمعناهُ لابن أوسٍ حبيبِ

---

(١) الاغاني ج ٨ ص ١٦٧
(٢) الديوان «ج» ج ٢ ص : ١٥٩ ، والديوان «س» ص : ٦٤٠
(٣) الديوان «ج» ج ٢ ص ١٠٠
(٤) راجع القصيدة في المختار من شعره
(٥) الديوان «ج» ج ١ ص : ٢١٦
(٦) راجع القصيدة في المختار من شعره
(٧) الديوان «ج» ج ٢ ص : ٢٤٧

وقال فيه ايضاً :

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب

وقد يجيء بخاطٍ ، فالنحاس له ... وللأوائل ما فيه من الذهب

يعيب شعري وما زالت بصيرته ... عمياء عن كل نورٍ ساطع اللهب

الحظ اعمى ولولا ذاك لم تره ... للبحتري بلا عقلٍ ولا حسب

وقد اراد البحتري ان يسكت خصمه فاحتال ولكنه لم ينجح في ذلك ؛ قال ابن رشيق : هجا ابن الرومي البحتري « وابن الرومي من علمت » فأهدى اليه « البحتري » تخت متاع و كيس دراهم ، و كتب اليه ليريه ان الهدية ليست تقيةً ولكن رأفة عليه ، وانه لم يحمله على ما فعل الا الحسد المفرط :

شاعر لا أهابُه ... نبحتني كلابُه

إنَّ من لا أعِزُّهُ ... لعزيزٌ جوابُه(١)

الرثاء:

لم يكثر البحتري من الرثاء ، ولكنه مجيد فيما ابقاه لنا من ذلك ، لأنه كان يقصره على احبابه الاعزاء ، فلم يقله الا في المتوكل من الخلفاء وفي آل حميد الطوسي ، وآل ابي سعيد الطائي من الاشراف الذين كانت تربطه بهم اواصر المودة والقرابة ؛ وله بعض المقطعات والقصائد في رثاء بعض من يتصلون به فاحبهم كغلامه قيصر وجارية له .

وافضل ما قاله في الرثاء قصيدته في المتوكل ، وقد قال عنها الامام ابو العباس ثعلب

---

(١) العمدة ج ١ ص : ٧٠

النحوي : « ما قيات هاشمية احسن منها ، وقد صرّح بها تصريح من اذهلته المصائب عن تخوّف العواقب (١) » . وقد استهل قصيدته هذه بندبة القصر العظيم الذي قتل فيه الخليفة والذي اصبح قفراً موحشاً بعد ان كان مألفاً للظباء ، ومسرحاً للأرآم ، ومجلى للأنس ، فتغير حسنه وانسه ، وتهدم بناؤه ، فرحل عنه ساكنوه ، وأصبح مبعثاً للأسى واللوعة . بعد ان كان بهجةً للعيون ومسرةً للخواطر . ثم رجعت بالشاعر مخيلته فتصوّر تلك المشؤومة التي قتل بها الخليفة على حين غرة ، فذعرت الناس وخرجن يولولن ويعولن ويمزقن الستائر ، فأصبح بعد هذه الجريمة الشنعاء مقفراً من بهجة الخلافة التي كانت طلقةَ المحيا ، مشرقة زاهرة ثم يتمثل الشاعر الخليفة في مجلسه الرهيب تحيط به الحجّاب ، يقضي بين الناس ، ويغيث الملهوفين ، وينصر الضعفاء والمظلومين ؛ فلا يرى شيئاً من ذلك ، بل يرى الخليفة صريعاً على الارض ، قد طعنه مغتاله غيلة ، فلم تدفع عنه جنوده واتباعه هذه الطعنة . ثم يشتد به حزنه لموت الفتح بن خاقان الذي سقط صريعاً الى جانب مولاه ، ولتغيب طاهر بن الحسين في خراسان ، وحين لا يرى نصيراً يلجأ الى تعزية نفسه بأن لكل اجل كتاب . ثم يعود فيتخيل الخليفة تفتك به السيوف ، فيحاول البحتري الدفاع عنه ، ولكنه كان اعزل فلم يستطع انقاذ مولاه ، ثم تثور عاطفة الولاء في نفسه ، فلا يجد ما يخفف من ثورته النفسية الاّ ان يحرض على الاخذ بثأر القتيل ، ولكن من يحرّض والموتور هو الواتر ، ثم يدعو على ولي العهد دعاءً مراً يتمنى له فيه قصر العهد . ثم يختم قصيدته ببكاء الدم المسفوح والدعوة للامة الاسلامية بأن يلي امورها خليفة يسير على نهج المتوكل الشهيد .

---

(١) زهر الآداب ج ١ ص : ١٩٥

وبعد فليس من شك في ان البحتري قد رثى الخليفة وقلبه مفعوم اسى ، فجاء رثاؤه آية من آيات البلاغة الشعرية (١) .

الغزل :

لا تكاد تخلو قصيدة للبحتري من تصدير في الغزل ، فهو يصدر به مدائحه واهاجيه وفخره ، وهو في غزله سهل الالفاظ ، جيد في جميعه ، ولو حاولت ان تنتقي منه مختاراً لما استطعت ، فكل غزله جيد غني بالصور الرائعة ، والمعاني الجميلة ، والاحساسات اللطيفة ، والعشق الصادق ، فقد تيمه حب علوة الحلبية التي اكثر في شعره من التغزل بها والحنين الى الاماكن والمتنزهات التي كانت تأوي اليها . قال من قصيدة يمدح الفتح بن خاقان ويحنّ الى علوة ودبوعها :

جفَوتُ الشام مرتبعي وأنْسي ... وعلوة خلّتي وهوى فوآدي

وقال من قصيدة يمدح المعتز :

خيالٌ يعتريني في المنام ... لِسَكْرى اللحظ فاتنة القوام

لعلوةَ انها شجَنٌ لنفسي ... وبلبالٌ لقلبي المستهام

أأتخذ العراق هوىً وداراً ... ومن اهواهُ في ارضِ الشآم

وللبحتري غزل شبيه بالغزل الجاهلي كقوله من قصيدة يمدح الفتح بن خاقان :

هبِ الدار ردّت رجع ما انت قائلُه ... وابدى الجوابَ الربعُ عما تسائلُه

افي ذاك برءٌ من جوىً ألهب الحشا ... توقّدهُ واستغزر الدمعَ جائلُه

---

(١) انظر القصيدة في المختار من شعره .

وللبحتري ولع كثير في التحدث عن الطيف والخيال حتى صار لاشتهاره مثلاً فيقال : «خيال البحتري (١)» .

ألمَّت وهل إلمامُها لك نافع ... وزارت خيالاً والعيون هواجعُ

بنفسي من تنأى ويدنو ادّكارها ... ويبذل عنها طيفُها وتمانعُ

وله غزل في المذكر يدلّ على مجونه وتهتكه :

أنسيمَ هل للدهر وعدٌ صادقُ ... فيما يؤمّلُه المحب الوامقُ

مالي فقدتك في المنام ولم يزل ... عون المشوق اذا جفاه الشائقُ

ومنعتَ انت من الزيارة رقبةٌ ... منهم، فهل مُنع الخيال الطارقُ

وله اختيار جيد للبحور التي تلائم الغزل فمن ذلك قصيدته التي اولها :

لم لا ترق لذل عبدك ... وخضوعه فتني بوعدك

وقوله :

عن أي ثغر تبتسم ... وبأي طرف تحتكم

وقصيدته التي اولها :

منى وصل ومنك هجر ... وفيّ ذل وفيك كبر

واختيار البحتري لهذه البحور الرشيقة في الغزل يدل على اذن موسيقية وروح خفيفة تتناسب ونشوة الحب التي تلهم الشاعر تلك المعاني الساحرة المرقصة . وربما قال البحتري المقطوعة الغزلية وليس فيها كبير معنى ولكنها محببة الى النفوس لما احتوت من لفظ رشيق ووزن سهل وأسلوب خلاّب . انظر اليه يقول :

---

(١) زهر الآداب ج ٣ ص : ١٢٠

مخلفٌ في الذى وعـد ... ـسيْلَ وصلاً فلم يجد
وهو بالحسن مستبّ ... ـد وبالدلّ منفرد
يتثنّى على قضيـ ... ـبٍ ويغترُّ عن بَرَد
قـد تطلبتُ مخرجـاً ... من هـواهُ فلم اجد
بأبي انت ليس لي ... عنـك صبرٌ ولا جلد
ضاق صدري بما أجَنْـ ... ـنَ وقلبي بما وَجَد
وتغضبتَ ان شكو ... تُ جوى الحب والكمد
واشتكائي هواك ذنـ ... ـبٌ فان تعفو لا أُعُدْ (١)

الوصف :

يشغل الوصف ناحية هامة من شعر البحترى ، فهو الذي أحلّه مرتبة الفحول بين شعراء العربية ، لأنه كان يتناول موصوفه فلا يترك فيه ناحية دون ان يتعمق في وصفها وابرازها بصورة رائعة ؛ ولم يكن وصفه مقصوراً على الصور الحسية فحسب ، بل تعداها الى وصف الصور المعنوية والخيالية ، فجعلها كأنها ملموسة محسوسة ؛ وليس من شك في ان هذا قد جاءه من نشأته البدوية الصافية وكثرة تطوافه ومشاهداته ، ومما وهبه الله من نفس حساسة كأنها عدسة المصور ؛ ولا نظن ان في العربية شاعراً يفضله في هذه الناحية ، إلا ابن الرومي . وسترى في كلامنا عن براعته التي سمت به في سماء هذا الفن الشعري سمواً عالياً .

وصف البحتري اروع ما وقعت عليه عينه من مظاهر المدنية والعمران ، فوصف

---

(١) الديوان «ج» ج ١ ص : ٨ والديوان (س) ج ١ ص : ١٤

كثيراً من المدن والمواضع (١) ، وايوان كسرى (٢) ، وبركة المتوكل (٣) وقصره (٤) وقصر المعتز (٥) ، وقصر الزو (٦) ، ويوم المهرجان وأبهته (٧) ، والوفود التي كانت تفد على الخليفة (٨) ، ورحلات الخليفة (٩) . كما وصف الحروب ومواقعها والجيوش وفرسانها (١٠) .

ووصف من الحيوان : الأسد ومبارزاته (١١) ، والذئب (١٢) ، والفرس (١٣) ، والبغل (١٤) . ووصف ملاذ الحياة ، ومجالس اللهو والشراب (١٥) . واكثر من وصف الطيف (١٦) ، والشيب (١٧) . والروض (١٨) . وأجاد تصوير الحريق (١٩) .

واجمل قصيدة وصفية عند البحترى هي قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى وقصيدته في وصف بركة المتوكل . قال ابن المعتز : لو لم يكن للبحتري الا قصيدته في ايوان كسرى «فليس للعرب سينية مثلها» وقصيدته في وصف بركة المتوكل لكان اشعر الناس» .

---

(١) انظر الديوان (ج) ج ١ ص : ٩ ، ١١ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١١٦ ، ١٢٥

(٢) انظر الديوان (ج) ج ١ ص : ١٠٨ ، ١١٩

(٣) » » » » » » : ١٦

(٤) » » » » » » : ٢٠ ، ٢١

(٥) » » » » » » : ٨٢

(٦) » » » » » » : ٩٧

(٧) » » » » » » : ١٧٥

(٨) » » » » » » : ١٤

(٩) » » » » » » : ٢٦

(١٠) » » » » » » : ٥ ، ١٠ ، ١٣ ، ٢٤ ، ٣٨ ، ٩٠ ، ١٤٢

(١١) انظر الديوان (ج) ج ١ ص : ٥٢

(١٢) » » » » » » : ١١٠

(١٣) » » » ٢ » : ١٩ ، ٢٠

(١٤) » » » ٢ » : ١٩

(١٥) » » » ١ » : ٦ ، ٩٠ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ٢٣٨ . وج ٢ ص : ٢٣٧

(١٦) انظر الديوان (ج) ج ١ ص : ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٨٥

(١٧) انظر الديوان (ج) ج ١ ص : ٩٨

(١٨) » » » » » » : ٧٨

(١٩) » » » ٢ » : ١٤٧

***

ولا شك في ان سينية البحتري هي دمية شعره لما تضمنته من صور رائعة ، ومعانٍ عجيبة ، ووصف للنعيم والمجد الداثر ، وعتاب للدهر على ما فعل بمجد بانيه ، وقد اخلص البحتري للفرس فيها اصدق اخلاص وليس له من غرض يرمي اليه سوى الاشادة بعظمة الاكاسرة والفرس الذين ساعدوا اجداده العرب على سحق كتائب ارياط الحبشي ، وقد اشار من وراء حجاب في قصيدة له يمدح ابن ثوابة الفارسي الى السبب الذى دفعه الى مديح الايوان فقال :

قد مدحنا ايوان كسرى وجئنا نستثيب النعمى من ابن ثوابه

تحليل السينية :

ابتدأ البحتري قصيدته بالتبرم بالعيش . وشكوى الزمان ، وتقلبات الدهر ، وظلم الاقارب ومحاولته العودة الى وطنٍ يحن اليه . ثم تكلم عن تاريخ الايوان وبنائه واصحابه الذين كانوا يرتعون في ظله ، ثم اخذ يصف الصور والنقوش وتأثيرها في نفس من يراها ، فذكر انه قد شاهد في الايوان صورة كسرى محاصراً انطاكية ، تلك الصورة التي لو رأيتها لارتعت من شدة حملة الفرس على الروم شدةً لا تقدر معها ان تتصور الاّ انك امام اجسام تتحرك ، لا صور جامدة ؛ وتحس معها انك في ميدان الحرب ، والمنايا مواثل امامك وكسرى يسوق الجيوش تحت العلم الكبير ؛ وهو لا يهمل تصوير ثياب الجند من اخضرٍ واصفر ، وما هم فيه من عراك وطعان ، ثم يمعن في التصوير فيقول :

يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهمُ يداىَ بِلَمْسِ

وهو هنا يراهم احياء وإن لم يسمع لهم صوتاً ولا لسيوفهم صليلاً فيرتاب ويضع يده على الجدران ليتحقق ما امامه فاذا هو امام صور حيّة . ثم يصف الايوان وعجيب صنعته

واكتئابه لفراق احبابه وصبره عليهم على الرغم من مصائب الدهر، وعلى الرغم من خلوه من الديباج والدمقس وهو ما يزال مشمخراً، عالية شرفاته، ثم يتخيل البحتري عود الحياة الى القصر، فيرى الرسوم كانها تتحرك، وتنبعث صور الرجال من مواضعها. فتنظم حلقات اللهو وتدير الكؤوس، وتهب الفتيان وسط المقاصير، ثم يتصور قدوم الوفود لتمثل امام كسرى. ثم يختم قصيدته بالسبب الذى دفعه الى بكاء الفرس اصحاب البناء الذين ايدوا ملك العرب واعانوا على طرد ارياط واعتذر للعرب عن ذلك بأنه يحب الاشراف من اى جنس كانوا ولا عيب في ذلك (١).

العتاب :

برع البحترى في العتاب حتى قال صاحب العمدة : «وللعتاب طرائق كثيرة، وللناس فيه ضروب مختلفة : فمنه ما يمازجه الاستعطاف، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف، وقد يعرض فيه المنّ والاجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف، واحسن الناس طريقاً في عتاب الاشراف، شيخ الصناعة، وسيد الجماعة ابو عبادة البحتري الذي يقول :

يريبني الشيء تأتي بـه ... واكبر قدرك ان استريبا
اكذّب ظني بأن قد سخط ... تَ وما كنت اعهد ظني كذوبا
ولو لم تكن ساخطاً لم اكن ... اذمُّ الزمان واشكو الخطوبا
وما كان سخطك الا الفراق ... افاضَ الدموع واشجى القلوبا
واو كنت اعلم ذنباً لمـا ... تخالجني الشك في ان اتوبا

(١) انظر في المختارات : القصيدة السينية في وصف الديوان، والقصيدة الهائية في وصف البركة.

سأصبر حتى ألاقي رضا كَ ، إما بعيداً وإما قريبا(١)

وحق ما قال ابن رشيق ، فان في هذا العتاب الذي رأيت روحاً «نابغيـة» تستبي قارئها . وللبحتري قصائد كثيرة في العتاب ، وهي في اكثرها تبدأ بالغزل ، ثم بالاعتذار وطلب الصفح عما رمى به ، اوما اقترفت يداه .

الحكمة :

للبحتري حكمة نثرها في قصائد رثائه ومديحه ، وهي قسمان : حكم استخلصها من عبر الحياة وتجاربها ، وحكم جاءته من فلسفة الأوائل وآرائهم . فمن الاول مطلع قصيدته في مديح ابي العباس ابن بسطام:

مَنْ قائلٌ للزمان ما أَرَبُهْ في خُلُقٍ منه قد بدا عجبُهْ
يُعطى امرؤ حظَّه بلا سببٍ ويحزم الحظَّ محصد سببه
نجهل نفع الدنيا فندفعه وقد نرى ضرّها فنجتنبه
لا يَيْأسِ المرءُ أن ينجّيَه ما يحسب الناسُ انه عطبه
يَسرُّكَ الأمر قد يسوء وكم نوّه يوماً بخاملٍ لقبه
رأيت خير الانامِ قلَّ فعد لله أخرى الايام احتسبه
واستؤنف الظلمُ في الصديق فهل حرٌّ يبيع الانصافَ او يهبه
وخيرُ ما اخترتُ او تُخيّر لي رضى شريفٍ يسوؤني غضبه

فهل ترى حكمة ابلغ من هذه الحكمة ؟ . ثم استمع اليه يقول من قصيدة اخرى :

---

(١) العمدة ج ٢ ص : ١٢٩

أرى غفلةَ الايامِ إعطاءَ مانعٍ يُصيبُك أحياناً وحلمَ سفيهِ
اذا ما نسبتَ الحادثاتِ وجدتها بناتِ الزمانِ أرصدتْ لبنيه
متى أرتِ الدنيا نباهةَ خاملٍ فلا ترتقب إلا خمولَ نبيه

وله ايضاً من رائع الحكمة وفلسفة الحياة :

متاعٌ من الدهر استجدَّ بجدتي وأعظم جرم الدهر ان يمتع الدهرُ
سترتُ على الدنيا ولو شئت لم يكن على عيبها من نحو ذي نظرٍ ستر
وخادعتُ رأيي إنما العيش خدعةٌ لرأيك تستدعي الجهالة او سُكْر
وما زلت مذ ايسرت اسمو الى التي تُرادُ لها حتى يشادَ بها الذكر
اذا ما الفتى استغنى فلم يعطِ نفسَه تعلّيَ نفس بالغنى فالغنى فقر

ونحن لو رحنا نستقصي ما نثره البحتري في ديوانه من شريف الحكمة لجئناك بالشيء الكثير .

ومن النوع الثاني ، قوله من قصيدة يمدح بها اسماعيل بن نوبخت :

لولا التباين في الطبائع لم يكن بنيان هذا العالم المجبول
قول يترجمه الفعال وانما يتفهم التأويل والتنزيل

الفخر :

للبحتري فخر جيّد ، واكثر ما يفتخر به هو شرف قبيلته طيء ومناقبها وايامها وسؤددها في الجاهلية والاسلام ، وخير قصائده في الفخر قصيدته التي يقول فيها :

انما الغنيُّ ان يكون رشيدا فانقصا من ملامه او فزيدا (١)

---

(١) راجع القصيدة في المختار من شعره .

ومن قراءة هذه القصيدة يظهر لك تعصبه لعرب اليمن ، وانهم افضل من عرب الشمال « الحجاز » (١) ، على ان له فخراً بآبائه وماثرهم في منبج ، ومن ذلك قصيدته التائية التي عاتب فيها بعض اقاربه واهل بلده ، وافتخر عليهم بآبائه ، وفيها يقول :

ومن الاقارب من يُسَرُّ بميتتي ... سَفهاً ، وعزٌّ حياتهم بحياتي
إن أَبق او اهلك فقد نلت التي ... ملأت صدور اقاربي وعداتي

وربما افتخر البحتري بشعره وانتشاره بين الناس ، فمن ذلك قوله :

ضوارب في الآفاق ليس ببارحٍ ... بها من محلٍ اوطنته ارتحالها
قصائرها رهنٌ بتجزية العلى ... وتبقى ديوناً في الكرام طوالها

وقال :

جئناك نحمل الفاظاً مدبَّجةً ... كأنما وشيها من يمنة اليمنِ
من كل زهراء كالنوار مشرقةً ... ابقى على الزمن الباقي من الزمن

سرقاته :

اتّهم النقاد قديماً وحديثاً البحتري بأنه سرق كثيراً من معاني استاذه ابي تمام : روى الآمدي عن محمد بن داود : ان ابن ابي طاهر اعلمه انه اخرج للبحتري ستمائة بيت مسروق ، منها ما اخذه من ابي تمام خاصةً مائة بيت (٢) » . ثم عقد الآمدي فصلاً

---

(١) ومن افضل قصائده التي يفتخر بها بقحطان قصيدته التي اولها :

حاشاك من ذكرٍ ثنته كئيبة ... وصبابةٍ ملأت حشاه ندوبا

(الديوان « ج » ج ١ ص : ١٦٤)

(٢) الموازنة ص : ١٢٤

في ثلاث ورقات ذكر فيه سرقات البحتري ممن تقدمه من الشعراء ، وعقّب على ذلك بفصل في ست ورقات عنوانه : « وهذا ما اخذه البحتري من معاني ابي تمام خاصة (١)» ، ولا نريد هنا ان نعدّد المعاني التي سرقها البحتري من ابي تمام ، ولا ان نبيّن ان الذين قالوا بذلك كانوا على حق او باطل ، وانما نريد ان ننبّهك على ان البحتري لم يكن يتورع في كثير من قصائده ان ينسج على منوال استاذه ، وانه ربما اخذ المعنى منه فحسنّه ، فمن ذلك قوله :

ولن تستبينَ الدهرَ موضعَ نعمةٍ اذا انت لم تدلل عليها بحاسدِ

أخذه من قول ابي تمام :

واذا اراد الله نشر فضيلةٍ طويت أتاح لها لسان حسودِ

وقوله : ولو ان مشتاقاً تكلف فوق ما في وُسْعه لسعى اليك المنبرُ

اخذه من قول ابي تمام :

لو سعت بقعةٌ لاعظام نعمى لسعى نحوها المكانُ الجديبَ

وقال ابو تمام :

اورقت لي وعداً وثقت بنجحه بالأمس إلا انه لم يثمرِ

أخذه البحتري فحسّنه وقال :

والوعدُ كالورق الجنيّ تأوّدت منه الغصونُ ونجحه أن يثمرا

وقال ابو تمام :

إن الهلال اذا رأيت نموّهُ أيقنتَ أنْ سيكونُ بدراً كاملاً

---

(١) الموازنة ص : ١٢٢ — ١٣٩

اخذه البحتري فقال :

مثل الهلال فلم يبرح به صوغ الليالي فيه حتى اقمرا

مكانته في الأدب العربي :

كان البحتري من أئمة الشعر في عصره ان لم يكن امامه ، لما أوتيه من رشاقة لفظ ، وعذوبة معنى ، وسيرورة شعر ، واقبال كافة الطبقات على شعره لسهولة معانيه وعذوبة موسيقاه ، فلم يكن عنده إغراب استاذه حبيب ولا مغالاته . قال ابن الأثير في المثل السائر : « اراد البحتري ان يشعر فغنى » ، ولذلك فضله كثير من الناس على استاذه ، وانقسم الناس فيهما قسمين : قسم يفضله على استاذه ، وآخر يقدم استاذه عليه ؛ وألفت كتب كثيرة للفصل في هذه القضية ، ومن اشهرها كتاب « الموازنة بين ابي تمام والبحتري » لابي القاسم الحسن بن بشر الآمدي النحوي (١) « المتوفي سنة ٣٧٠ هـ » وقد تعصب في كتابه هذا للبحتري ، وإن كان قال في مقدمته : « اما انا فلست افصح في تفضيل احدهما على الآخر ، ولكني اقارن بين قصيدتين من شعرهما اذا اتفقا في الوزن والقافية واعراب القافية ، وبين معنى ومعنى فاقول : ايهما اشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى (٢) ؟ » هذا ما صدر به الآمدي بحثه في الموازنة ، ولكنه قد تعصب للبحتري ، حتى قال ياقوت في معجم الأدباء : « ... الموازنة في عشرة اجزاء « فصول » وهو حسن ، وان كان قد عيب عليه في مواضع ، ونسب الى الميل مع البحتري . . . والناس على فريقين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم ،

---

(١) طبع هذا الكتاب المرة الاولى في مطبعة الجوائب بالاستانة سنة ١٢٨٧ وطبع مؤخراً في مصر طبعة مشوهة نشرها محمد علي صبيح بدون تاريخ .

(٢) الموازنة ص : ٣

وطائفة اسرفت في التقبيح لتعصبه ؛ فانه جدّ واجتهد في طمس محاسن ابي تمام ، وتزيين مرذول البحتري ، ولعمري ان الامر لكذلك ، وحسبك انه بلغ في كتابه الى قول أبي تمام :

اصمّ بك الناعي وان كان اسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وشرع في اقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين ، فتارة يقول : هو مسروق وتارة يقول : هو مرذول ؛ ولو انصف وقال في كل واحد بقدر فضائله ، لكان في محاسن البحتري كفاية عن التعصب ، بالوضع من ابي تمام (١) » .

والحق ان كثيراً من الناس منذ زمن البحتري حتى يومنا هذا يفضلون البحتري على كافة شعراء العربية . وكثيرون هم الذين قلدوه وعارضوا قصائده في القديم والحديث ، امثال محمود سامي باشا البارودي وشوقي وغيرهما ، ممن عارضوا سينيته لاعجابهم بها . قال شوقي في كلمة عن رحلته الى الاندلس : « وكان البحتري رحمه الله رفيقي في هذا الترحال ، وسميري في الرحال ، والاحوال تصلح على الرجال ، فانه ابلغ من جلّ الاثر ، وحيّ الحجر ، ونشر الخبر ، وحشر العبر ، ومن قام في مأتم على الدول الكبر ، والملوك البهاليل الغرر . عطف على الجعفري حين تحمل عنه الملا ، وعطل من الحلى ، ووُكِلَ بعد المتوكل للبلى ، ... وتكفّل بعد ذلك لكسرى بايوانه ، حتى زال عن الارض الى ديوانه ؛ وسينيته المشهورة في وصفه ، ليست دونه وهو تحت كسرى في رصّه ورصفه ... ، وهذه السينية هي التي يقول في مطلعها « صنت الخ ... » والتي اتفقوا على ان البديع الفرد من ابياتها قوله :

والمنايا موائل وانو شر وان يزجي الصفوف تحت الدّرفس

---

(١) معجم الادباء ج ٣ ص : ٥٤

فكنت كلما وقفت بحجر ، او طفت بأثر ، واسترحت من موائل العبر الى آياتها ، انشدت فيما بيني وبين نفسي :

وعظ البحتري ايوانُ كسرى وشفتني القصور من عبد شمس(١)».

هكذا كان تأثير البحتري في امير الشعراء الذي كان كثير الاعجاب بأبي عبادة ، ومثله في هذا الاعجاب الدكتور طه حسين الذي يقول : «شعر البحتري من اجمل ما ترك لنا الأدب العربي العباسي ، وكل ما اتمناه ان اكون داعياً لكثير من الذين لم يتعودوا قراءة الشعر العربي القديم ان يقرأوه. وان اعدهم بأنهم سيجدون فيه لذة لا تعدلها لذة(٢)».

ديوانه وآثاره :

للبحتري ديوان مشهور ، جمعه الامام ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ورتبه على حروف المعجم ، كما رتبه المؤرخ علي بن حمزة الاصفهاني على الاغراض . ويقول السمعاني في كتاب الانساب : « روى عنه اشياءَ من شعره محمد بن يزيد المبرد ، ومحمد بن خلف بن المرزبان ، وابو عبد الله بن المحامدي ، ومحمد بن يحيى الصولي ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه النحوى ، وديوان شعره سائر مشهور (٣)» .

وقد طبع ديوانه لأول مرة في مطبعة الجوائب بالاستانة « سنة ١٣٠٠» ضمن جزأين في نحو من ٥٠٠ صفحة ، وطبع ثانية في بيروت «سنة ١٩١١» بعناية الأديب رشيد عطية في نحو من ٨٠٠ صفحة . وطبعة الجوائب وان لم تكن مضبوطة بالشكل الكامل فانها اتم

---

(١) الموازنة بين الشعراء لزكي مبارك ص : ١٣٢-١٣٤

(٢) من حديث الشعر والنثر ص : ٢٢٦

(٣) كتاب الانساب ص : ٦٧

وقد اعترف بهذا ناشر الديوان ببيروت فقال : «فوكلت الى صديقي رشيد افندى عطية الكاتب البليغ ضبط الديوان بالشكل الكامل بعد اسقاط طائفة قليلة من ابياته ، وشرح ما ابهم من بعض الفاظه (١)» . ويظهر ان الابيات التي اسقطها هي الابيات العويصة المعنى (٢).

وكلا طبعتي الديوان مشوشة الترتيب، والديوان محتاج الى ان يعتنى بطبعه من جديد وان يرتب بحسب الاغراض والقوافي .

وقد شرح ديوان البحتري جماعة من الأدباء ، منهم محمد بن اسحاق الزوزني ، المتوفى سنة ٤٩٣ ، ولا وجود لهذا الشرح فيما نعلم . ومنهم ابو العلا المعرى وقد سمى شرحه « عبث الوليد » ولم يشرح فيه الاّ بعض ابيات غريبة . وقد طبع الكتاب بدمشق سنة ١٣٥٥ هـ ، بعناية الأديب محمد عبد الله المدني . ومنهم الآمدي صاحب الموازنة ، كما ذكر ذلك ياقوت صاحب معجم الادباء .

وللبحتري ديوان حماسة قلّد فيه ابا تمام ، ولكنه اكثر فيه من الابواب فجعلها ١٧٤ وقد طبعت حماسته في مصر وبيروت . وله ايضاً كتاب اسمه « معاني الشعر » وهو مفقود . فيما نعلم .

***

---

(١) مقدمة الديوان ص : ٢

(٢) من ذلك حذفه البيت (١٨) من الديوان «ج» ج ١ ص : ١٥٦
ومن » » » (١٢) » » » » » » : ١٥٨
» » » » (١٢) » » » » » » : ١٦٠
» » » » (٢٠) » » » » » » : ١٦٣
» » » » (٣) » » » » » » : ١٦٧ وهكذا ...

مختارات من شعره

المديح :

قال البحتري يمدح أمير المؤمنين المتوكل على الله ويذكر صلح بني تغلب (١) :

مُنى النفسِ في اسماء لو يستطيعها ... بها وَجدُها من غادةٍ وَلوعُها

وقد راعني منها الصدودُ وإنما ... تصُدُّ لِشيبٍ في عذاري يروعها

حملتُ هواها يومَ منعرَجِ اللوى ... على كبدٍ قد اوهنتْها صدوعها (٢)

وكنتُ تَبيعَ الغانياتِ فانما ... يَذمُّ وفاء الغانياتِ تبيعها

وحسناءَ لم تُحسن صنيعاً وربما ... صبوتُ الى حسناء سيء صنيعها

عجبت لها تُبدي القِلى واوَدُّها ... وللنفسِ تَعصيني هوىً وأطيعها

تشكّى الوحى والليل ملتبسُ الدُّجى ... غُرَيريَّةُ الانساب مرتٌ بقيعها (٣)

ولستُ بزوّار الملوكِ على الوَجى ... لئن لم تجُل اغراضُها ونُسوعها (٤)

تؤُمُّ القصورَ البيضَ من ارض بابلٍ ... بحيثُ تلاقى غربُها وبديعها

اذا أشرفَ البُرجُ المُطِلُّ رَمَيْنَهُ ... بأبصارِ خُوصٍ قد أَرثَّت قطوعها (٥)

---

(١) الديوان «ج» ص : ٢ و«س» ص : ٥ . (٢) أوهنتها صدوعها : اضعفتها شقوقها . (٣) تشكى تتشكى . الوحى : الحفا او أشد منه . غريرية : واحدة الغريريات وهي بقر منسوبة الى غرير وهو حبل. المرت : المفازة بلا نبات . البقيع : الموضع فيه أروم الشجر من ضروب شتى . (٤) الاغراض : جمع غرض وهو للرحل كالحزام للسرج . والنسوع : جمع نسع وهو حبل من أدم ينسج عريضاً تشد بها الرحال . (٥) الخوص : جمع خوصاء : وهي الغائرة العين . أرثّت : جرحت .

يُضيء لها قصدَ السُّرى لمعانُهُ ... اذا اسودّ من ظلماءِ ليلٍ هزيعُها

تَزورُ اميرَ المؤمنين ودونَهُ ... سُهوبُ البلادِ رَحبُها ووسيعُها (١)

اذا ما هبطنا بلدةً كرَّ أهلُها ... أحاديثَ إحسانٍ نَداهُ يُذيعُها

حَمى حوزةَ الاسلام فارتدع العدى ... وقد علموا أن لا يُرامَ منيعُها

ولما رعى سربَ الرعيةِ ذادها ... عن الجَدْبِ محضرٌ التلاعِ مَريعُها (٢)

علمتُ يقيناً مذ توكلَ جعفرٌ ... على الله فيها أنه لا يُضيعُها

جلا الشكَّ عن أبصارنا بخلافةٍ ... نفى الظلمَ عنا والظلامَ ، صديعُها (٣)

هي الشمسُ أبدى رونقُ الحق نورَها ... وأشرقَ في سرّ القلوبِ طلوعُها

أسيتُ لأخوالي ربيعةَ إذ عفتْ ... مصايفُها منها وأقْوَتْ ربوعُها (٤)

بِكُرْهي إن باتتْ خلاءً ديارُها ... ووحْشاً معانيها وشتى جميعُها

وأمست تُساقي الموتَ من بعدما غدت ... شروباً تساقي الراحَ رَفْهاً شُروعُها (٥)

اذا افترقوا عن وقعةٍ جَمعتهُمُ ... لأخرى دماءٌ ما يُطَلّ نجيعُها (٦)

تَذُمّ الفتاةُ الرودُ شيمةَ بعلِها ... اذا باتَ دونَ الثأرِ وهو ضجيعُها (٧)

حميّةُ شَعْبٍ جاهليّ وعِزّةٌ ... كليبيّةٌ أعيا الرجالَ خضوعُها

وفرسانِ هيجاءٍ تجيشُ صدورُها ... بأحقادها حتى تضيقَ دروعُها

---

(١) السهوب : جمع سهب وهو الناحية . (٢) ذادها : طردها ودفعها . المريع : الخصيب . (٣) الصديع : الصبح . (٤) أسيت : حزنت . عفت الديار : محيت . أقوت ربوعها : خلت من ساكنيها . (٥) الرفه : ورود الابل الماء . الشروع : الابل الداخلة في الماء . (٦) يطل : يهدر . نجيعها . دمها الغارب الى الواد . (٧) الفتاة الرود : الفتاة اللينة .

تُقتّلُ من وِتْرٍ أعزَّ نفوسها ... عليها بأيْدٍ ما تكاد تطيعُها (١)

اذا احتربتْ يوماً ففاضت دماؤها ... تذكرتِ القربى ففاضت دموعها

شواجرُ ارماحٍ تُقَطّعُ بينهم ... شواجرَ ارحامٍ مَلومٍ قُطوعها (٢)

فلولا اميرُ المؤمنين وطَوْلُهُ ... لعادت جيوبٌ والدماءُ دُموعها (٣)

ولاصْطَلَمَتْ جُرثومةٌ تغلبيةٌ ... به استُبْقِيَتْ أغصانُها وفروعها (٤)

رفعتْ بضَبْعَيْ تغلبَ ابنةِ وائلٍ ... وقد يئستْ ان يستقلّ صريعها (٥)

وكنتَ امينَ اللهِ مولى حياتها ... ومولاكَ فتحٌ يومَ ذاكَ شفيعها

لعمري لقد شرّفتَهُ بصنيعةٍ ... اليهم ، ونُعمى ظلّ فيهم يُشيعها

تألّفهم من بعد ما شَرَدتْ بهم ... حفائظُ اخلاقٍ بطيءٍ رجوعها

فأبصرَ غاديها المحجّةَ فاهتدى ... وأقصر غاليها ودانى شسوعها (٦)

وأمضى قضاءً بينها فتحاجزتْ ... ومخفوضُها راضٍ به ورفيعها (٧)

وقد رُكّزتْ سُمْرُ الرماحِ وأغمدت ... رِقاقُ الظُبى مجفوُّها وصنيعها (٨)

فقرّتْ قلوبٌ كان جمّاً وجيبُها ... ونامت عيونٌ كان نزراً هُجوعها (٩)

أتتك وقد ثابت اليها حُلومُها ... وباعدَها عما كرهتَ نُزوعها (١٠)

---

(١) الوتر : طلب الثأر . (٢) شواجر ارماح : أرماح مرفوعة للطعن ، وشواجر ارحام : ارحام متشابكة . (٣) الطول : القوة . ردوعها : لطخ بالدم . (٤) اصطلمت : قطعت . (٥) الضبع : العضد ، والابط . (٦) المحجة : الجادة الواضحة . الشسوع : البعيد بمعنى شاسع . (٧) تحاجزت : تمانعت . (٨) الظبى : جمع ظُبة وهي حد السيف والسنان . (٩) وجيبها : خفقانها . نزراً هجوعها : قليلا نومها . (١٠) ثابت حلومها : عادت عقولها وأناتها .

تُبيدُ وتبدي من ثناءٍ كأنه سبائبُ روضِ الحزنِ جادَ ربيعُها (١)

تصُدُّ حياءً أن تراكَ بأعينٍ أتى الذنبَ عاصيها فليمَ مطيعها

ولا عُذرَ إلا أن حلمَ حليمها يُسَفِّهُ في شرٍّ جناهُ خليعها

بقيتَ، فكم أبقيتَ بالعفو مُحسناً على تغلبٍ حتى استمرَّ ظليعها

ومشفقةٍ تخشى حِماماً على ابنها لأولِ هيجاءٍ تلاقى جموعها

ربطتَ بصُلحِ القومِ نافرَ جأشها فقرَّ حشاها واطمأنتْ ضلوعها

وقال يمدح المتوكل (٢):

لي حبيبٌ قد لجَّ في الهجرِ جداً وأعادَ الصدودَ منه وأبدى

ذو فنونٍ يريكَ في كل يومٍ خُلُقاً من جفائه مُستجدّا

يتأبَّى منعماً، ويُنعمُ إسعا فاً، ويدنو وصلاً، ويبعدُ صدّا

أغتدي راضياً وقد بتَّ غضبا نَ، وأمسي مولىً وأصبحُ عبدا (٣)

وبنفسي أفتدي على كل حالٍ شادياً لو يُمَسُّ بالحسن أعدا (٤)

مرَّ بي خالياً فأطمعَ في الوصـ ـلِ، وعرَّضتُ بالسلام فردّا

وثنى خدَّهُ اليَّ على خوْ فٍ، فقبَّلتُ جُلَّناراً ووردا

سيدي انت ما تعرَّضتَ ظُلماً فأجازى بهِ، ولا خنتُ عهدا

---

(١) سبائب: جمع سبيبة، وهي كل شجر يعظم وله شوك.

(٢) الديوان: «ج» ص: ١٢، والديوان «س» ص: ٢٠.

(٣) المولى: السيد.

(٤) الشادي: من شدا الابل اي ساقها وحدا لها ونحسب انها محرفة عن لفظ «شادناً» وهو الغزال.

رقَّ لي من مدامعٍ ليس ترقا ... وارث لي من جوانحٍ ليس تهدا (١)

أتراني مستبدلاً بك ما عش ... تُ بديلا ، او واجداً منك نِدّا

حاشا لله ، انت أفتنُ ألفا ... ظاً وأحلى شكلاً وأحسنُ قدّا

خلقَ الله جعفراً قَيْمَ الدنـ ... ـيا سداداً وقيمَ الدين رُشدا

أكرمُ الناس شيمةً وأتم النا ... س خلقاً واكثر الناس رِفْدا (٢)

مَلِكٌ حَصَّنَتْ عزيمتُهُ المل ... كَ فأضحتْ له مَغاثاً وردّا (٣)

أظهرَ العدل فاستنارتْ به الار ... ضُ وعمَّ البلادَ غوراً ونَجدا

وحكى القطرَ بل أبرَّ على القط ... رِ بكفٍ على البرية تندى (٤)

هو بحرُ السماحِ والجود فازْدَدْ ... منه قرباً تزْدَدْ من الفقر بُعدا

يا ثِمال الدنيا عطاءً وبَذلاً ... وجمالَ الدنيا ثناءً ومجدا (٥)

وشبيهَ النبي خَلقاً وخُلقاً ... ونسيبَ النبي جدّاً فجدّا

بك نَستعتبُ الليالي ونستعـ ... ـدي من دهرنا المسيء فنُمدا

فابقَ عمرَ الزمانِ حتى نُؤَدي ... شكرَ إحسانك الذي لا يُؤدّى

***

---

(١) ترقا : واصلها ترقأ ، وهي ان يجف الدمع ويسكن .

(٢) الرفد : العطاء .

(٣) مغاثاً : ملجأ .

(٤) حكى : شابه . ابرّ : زاد .

(٥) الثمال : الغيّاث الذي يقوم بامر قومه .

قال من قصيدة يمدح بها القائد الكبير ابا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي ، ومطلعها (١) :

زعمَ الغرابُ مُنَبِّيءُ الأنباءِ أنَّ الأحبةَ آذنوا بتنائي

***

ما للجزيرة والشآم تبدّلا بعدَ ابن يوسفَ ظُلمةً بضياءِ (٢)

جفَّ الفرات وكان بحراً زاخراً واسودَّ وجهُ الرقّةِ البيضاء

ولقد ترى بأبي سعيدٍ مرةً مَلقى الرحال وموسمَ الشعراء

إذْ قيظُها مثلُ الربيع وليلُها مثلُ النهار يخالُ رادَ ضحاء (٣)

رَحلَ الاميرُ محمدٌ فترحّلتْ عنا غُضارةُ هذه النعماء

والدهر ذو دُوَلٍ تنقّلُ في الورى أيامُهنّ تنقّلَ الأفياء

إن الاميرَ محمداً لمهذبُ الأ فعالِ في السرّاء والضرّاء

مَلكٌ اذا غشّى السيوفَ بوجهه غَشيَ الحِمامُ بأنفس الاعداء (٤)

قُسمتْ يداهُ ببأسه وسماحه في الناس قِسْمَيْ شدةٍ ورخاء

مُلئتْ قلوبُ العالَمينَ بفعله المحمود من خوفٍ له ورجاء

---

(١) الديوان : « ج » ج : ٢ ص : ٢٢٧ والديوان « س » ص : ٧٤٤

(٢) ذكر في نسختي الديوان « ظلمةً بيضاء » وقد علق عليها سر كيس بقوله : « كان القياس ان يقول (بيضاءَ) بالنصب على انها نعت لظلمة ، ولكنه جرّها اتباعاً لحركة القافية اولسبب آخر لم اعلمه ، والصواب كما اثبتنا (بضياء) لأن ذلك اوفق للمعنى لان الجزيرة والشآم بدلا ، بعد ابن يوسف ، الظلمة بالضياء .

(٣) قيظها : صيفها . راد ضحاء : ويريد بها رأد الضحى اي حين الضحى .

(٤) الحمام : الموت .

أغنى جماعةَ طيءٍ عما ابتنتْ آباؤها القدماءُ للابناءِ

فاذا همُ افتخروا به لم ينجحوا بقديم ما ورثوا من العلياءِ

صعدوا جبالا من علاكَ كأنها هضباتُ قدسَ ويذبلٍ وحراء (١)

واستمطروا في المحلِ منك خلائقاً أصفى وأعذبَ من زُلال الماء

وضمنتَ ثأرَ محمدٍ لهمُ على كلَبِ العِدى وتخاذُل الاحياء

ما انفكَّ سيفُك غادياً او رائحاً في حصد هاماتٍ وسفك دماء

حتى كفوتَهمُ الذي استكفوكَ من أمرِ العدى ووفَيْتَ أيَّ وفاء

ما زلتَ تقرعُ بابَ «بابَك» بالقنا وتزورُه في غارةٍ شعواء (٢)

حتى أخذتَ بنصل سيفِك عَنوةً منه الذي أعيا على الامراء

أخليتَ منه البذَّ وهي قرارُه ونَصَبْتَهُ علَماً بسامراء (٣)

لم يُبقِ فيه خوفُ بأسكَ مطمعاً للطير في عَوْدٍ ولا إبداء

فتراه مُطَّرِداً على أعواده مثل اطرادِ كواكب الجوزاء

مستشرفاً للشمس منتصباً لها في أخريات الجِذْع كالحرباء

* * *

---

(١) قدس ويذبل وحراء : جبال .

(٢) بابك وهو احد الذين ثاروا على العباسيين ، وقد ابتدع ديناً جديداً عرف باسم « الدين الخرّمي » والبحتري يشير هنا الى حادثة صلبه في سامراء .

(٣) البذ والسامراء : موضعان .

الفخر :

قال يفتخر : (١)

إنما الغيُّ أن يكون رشيدا ... فانقصا من ملامه او فزيدا (٢)

خلّياه وجدّةَ اللهوِ مادا ... م رداءُ الشبابِ غضاً جديدا

إن أيامهُ من البيضِ بيضٌ ... ما رأينَ المفارقَ السودَ سودا

أيها الدهرُ حبذا أنت دهراً ... قِفْ حميداً ولا تُولِ حميدا

كلَّ يومٍ تزدادُ حسناً فما تبـ ... ـعثُ يوماً إلا حسبناهُ عيدا

إن في السربِ لو يساعدُنا السر ... بُ شموساً يمشين مشياً وئيدا (٣)

يتدافعنَ بالأكفّ ويعرِضْـ ... ـنَ علينا عوارضاً وخُدودا

يتبسمنَ عن شتيتٍ أراهُ ... أقحواناً مفصّلاً او فريدا (٤)

رُحنَ والليلُ قد أقام رُواقاً ... فأقمن الصباحَ فيه عمودا

بمهاةٍ مثل المهاةِ أبَتْ أن ... تصلَ الوصلَ او تصدُّ الصدودا

ذاتُ حُسنٍ لو استزادت من الـ ... ـحسنِ إليه لما أصابتْ مزيدا

فهي الشمسُ بهجةً والقضيبُ الغـ ... ـضُّ ليناً والرئمُ طرفاً وجيدا (٥)

---

(١) الديوان « ج » ج ١ ص : ٣٣ و الديوان « س » ص : ٤٥٠

(٢) الغي : الضلال .

(٣) السرب : القطيع من الظباء ، والجماعة من النساء وغيرهن . الوئيد : الرزانة والتأني .

(٤) الشتيت : التباعد بين الاسنان .

(٥) الرئم : الظبي وهو مشهور بجمال العين والعنق .

يا ابنة العامريّ كيف يرى قو ... مُك عَدْلاً أن تبخلي وأجودا

إن قومي قومُ الشريفِ قديماً ... وحديثاً أبُوَّةً وجدودا

لم أَدَعْ من مناقب المجد ما يُقْـ ... ـنِعُ من هَمَّ أن يكونَ مُجيدا

ذهبتْ طيءٌ بسابقة الـ ... ـمجدِ على العالَمين بأساً وجودا

معشرٌ امسكتْ حلومُهمُ الار ... ضَ وكادت من عزّهم أن تميدا (١)

نزلوا كاهلَ الحجاز فأضحى ... لهمُ ساكنوهُ طُرّاً عبيدا

منزلاً قارَعوا عليه العمالي ... قَ وعاداً في عزّها وثمودا

فاذا قوتُ وائلٍ وتميمٍ ... كان ان كان حنظلاً وهبيداً (٢)

ظلَّ ولدانُنا يُغادون نخلا ... مؤتياً أكلَه وطَلْحاً نَضيدا (٣)

بلدٌ يُنبِتُ المعالي فما يَثـ ... ـغرُ الطفلُ فيه حتى يسودا (٤)

وليوثٌ من طيءٍ وغيوثٌ ... لهمُ المجدُ طارفاً وتليدا

فاذا المحل جاء جاؤوا سيولاً ... واذا النَّقْعُ ثارَ ثاروا اسودا (٥)

يَحسُنُ الذّكرُ عنهمُ والاحا ... ديثُ اذا حدّثَ الحديثُ الحديدا

في مقامٍ تخُرُّ في ضَنْكِه البيـ ... ـضُ على البيضِ رُكّعاً وسجودا

معشرٌ يُنجزون بالخير والشـ ... ـرّ يدَ الدهر موعداً ووعيدا

يَفْرِجون الوغى اذا ما أثار الضـ ... ـربُ من مُصمَتِ الحديد صعيدا

---

(١) تميد . تميل . (٢) الهبيد : ثمر الحنظل وهو شديد المرارة . (٣) الطلح : الموز . (٤) يثغر الطفل : ينبت ثغره ، اي تظهر اسنانه ؛ ويريد بذلك طفولته . (٥) النقع : الغبار ويريد نشوب الحرب .

بوجوه تُغْشي السيوف ضياء ... وسيوفٍ تُعشي الوجوهَ وقُودا

عدلوا الهضبَ من تهامةَ أحلا ... ماً ثقالاً ، ورملَ نَجدٍ عديدا

ملكوا الارضَ قبل ان تُملَكَ الار ... ضُ وقادوا في حافتيها الجنودا

وجَرَوْا قبل مولد الشيخ إبرا ... هيمَ في المكرمات شأواً بعيدا

فهمُ قومُ تُبَّعٍ خيرُ قومٍ ... لهمُ اللهُ بالفَخار شهيدا

بمساعٍ منظومةٍ أَلبَسَتْ ... هُنَّ اللآلي قلائداً وعقودا

سائلِ الدهرَ مذ عرفناه هل يعـ ... ـرِفُ منا إلا الفَعالَ الحميدا

قد ، لعمري ، رُزناه كهلاً وشيخاً ... ورأيناه ناشئاً ووليدا (١)

وطوينا ايامه ولياليـ ... ـه على المكرُمات بيضاً وسودا

لم نزل قطُّ مذ ترعرعَ نكسو ... هُ ندىً ليناً وبأساً شديدا

فهو من مجدنا يروحُ ويغدو ... في عُلىً لا تبيد حتى يبيدا

عبدُ شمسٍ ، شمسُ القريب أبونا ، ... مَلكَ الناسَ واصطفاهم عبيدا

وطيءَ السهلَ والحزونةَ بالأبـ ... ـطالِ شُعثاً والخيلِ قُبّاً وقُودا (٢)

وأبو الأنجُمِ التي لاتني تُجْـ ... ـري على الناس أَنحُساً وسُعودا

نحن ابناءُ يَعرِبٍ أعربَ النا ... سِ وأَنضرُ الناس عودا

وكأنَّ الإلهَ قال لنا في الـ ... ـحرب كونوا حجارةً وحديدا

***

---

(١) رزناه : جربناه .

(٢) الحزونة : خلاف السهولة . الشعث : جمع اشعث وهو المغبر الرأس والمتلبد الشعر . القب : جمع أقب : وهو من الخيل الرقيق الحصر الضامر البطن . القود : جمع اقود وهو من الخيل الذلول .

قال من قصيدة يمدح بها صاعداً ، ويهجو يعقوب بن احمد بن صالح ، مطلعها (١):

قلتُ للائم في الحبِّ أَفِقْ ... لا تهوّن طعمَ شيءٍ لم تَذُقْ

***

أَدَعُ الصاحبَ لا أَعْذِلُهُ ... لا يُسمى بعقوقٍ فيعُق

وأَرى الاملاقَ أحجى بالفتى ... من ثراءٍ يَطَّبيه بالمَلَق (٢)

ليس فيه غيرُ ما يُغري به ... فاذا قيلَ انشوى ، قال احترق

اكثرُ الاشفاقِ يُرجى نفعُه ... بعدان تَطّرِحَ الخلَّ الشفِق

هَبِلَ الجحشُ فما أَوتَحَ ما ... يقتنيه من قبولٍ او لَبَق (٣)

وإخاءٌ منه لو يُعرَض للبَـ ... ـيْعِ في سوق الثلاثا ما نفق

وكأنَّ الفَسْلَ يأتي ما أتى ... من قبيحٍ في رهانٍ او سبَق (٤)

من زياداتِ النقيصاتِ له ... طَبَقٌ يَركَبُهُ بعدَ طبق

كان قبحُ الوجه يُجزينا فقد ... زادنا ملعوننا قُبحَ الخُلُق

عَلَمٌ في الافك لو قال لنا ... كلمةَ الاخلاصِ ما خلنا صدق

غلَظٌ في جِرْمه يَشفَعُه ... حَسَبٌ أَهزَلَ في اللؤم فدَق

---

(١) الديوان « ج » ج ١ : ص ٢٨٠ والديوان « س » ص : ٣٢١ .

(٢) الاملاق : الفقر . أحجى : افضل وادل على العقل . يطبيه بتشديد الطاء : يداويه .

(٣) هبل : ثكل ويقال هبلتْه امه : ثكلته . أوتح : قل ماله .

(٤) الفسل : الضعيف الرذيل الذي لا مروءة له .

وقال من قصيده يهجو بها ابن قماش ، مطلعها (١) :

مَرَّتْ على عزمها ولم تَقِفِ مبديةً للشنانِ والشَّنَفِ (٢)

* * *

انت، كما قد علمتَ، مضطربُ الهيـ ـئة والقدّ ظاهرُ الجَلَفِ (٣)

وألسنٌ قد بَيَّنَتْ فناءَكَ في شدْقٍ على ما ضغيكَ مُنخَسِف

وجهٌ لعينُ القسمين يقطعُهُ أنفٌ طويلٌ محدّدُ الطرف

ورتّةٌ تحت غُنّةٍ قَذُرَت من هالك الراء زامر الألف (٤)

كأن في فيه لُقمةً عقلت لسانه فالتوى على حَنَفِ (٥)

تناصرَ النَّوْكُ والركاكةُ في مُخبَّلِ الانحناء والخَنَفِ (٦)

وأعرضت ظامةُ الخضاب على عُثْنون تيسٍ باللؤم منعقف (٧)

مُحرِّكٌ رأسَه توهّمه قد قامَ من عَطْسَةٍ على شُرُف

سماجةٌ في العيون فاحشةٌ خَلَفَتْ في جُلّها أبا خلف

تروم وصلَ المها وانت كذا هذا لعمري ضربٌ من السَّرَف

* * *

---

(١) الديوان : «ج» ج : ٢ ص : ١٥٩ . «س» ص : ٦٤٠

(٢) الشنان والشنف : البغض .

(٣) الجلف : الغلظ .

(٤) الرتة : العجمة . ومعنى هذا البيت أنه اذا تكلم لايبين وانه يقلب الراء ألفاً مع غنة .

(٥) عقلت : ربطت . الحنف : اعوجاج الرجل الى داخل .

(٦) النوك : الحمق . مخبل : فاسد الأعضاء . الخنف : انهضام احد جانبي الصدر او الظهر

(٧) العثنون : شعرات مقدم اللحية تحت الشفة . منعقف : منعكف . جلها : كلها .

الرثاء:

قال يرثي المتوكل (١) :

مَحَلٌّ على القاطولِ أخلق دائرُه ... وعادتْ صروف الدهرِ جيشاً تغاورُه (٢)

كأن الصبا تُوفي نُذوراً إذا انبرت ... تراوحُه أذيالُها وتباكره

وربَّ زمانٍ ناعمٍ ثَمَّ عهدُه ... ترِقّ حواشيه ويورِقُ ناضره (٣)

تغيّر حُسنُ الجعفريّ وأنسُه ... وقُوِّضَ بادي الجعفريّ وحاضره (٤)

تحمَّلَ عنه ساكنوه فُجاءةً ... فمادَتْ سواءً دورُهُ ومقابره

إذا نحنُ زرناه أجدَّ لنا الأسى ... وقد كان قبل اليوم يَبهجُ زائره

ولم أنسَ وحشَ القصر إذ ريع سربُه ... وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذره

وإذ صيح فيه بالرحيل فهُتِّكت ... على عجلٍ أستارُه وستائره

وَوَحْشتَهُ حتى كأن لم يُقمْ به ... أنيسٌ ولم تحسُنْ لعينٍ مناظره

كأن لم تبتْ فيه الخلافةُ طلقةً ... بشاشتُها والملكُ يُشرقُ زاهره

ولم تجمعِ الدنيا اليه بهاءَها ... وبهجتَها والعيشُ غضٌّ مكاسره

فأين الحجابُ الصعبُ حيث تَمنّعتْ ... بهيبتها ابوابُه ومقاصره

وأين عميدُ الناس في كل نوبةٍ ... تنوبُ ، وناهي الدهرِ فيهم وآمره

تخفّى له مغتالُه تحت غِرّةٍ ... واولى لمن يغتالُه لو يجاهره (٥)

---

(١) الديوان «ج» ج ١ ص : ٢٨ «س» ص : ٤٤ . (٢) القاطول : موضع على دجلة حيث قصر جعفر المتوكل . أخلق : بلى . الدائر : الماحي البالي . صروف الدهر : مصائبه . تغاوره : تحاربه . (٣) ترق حواشيه : تسعد اوقاته . (٤) قوض : تهدم . (٥ الغرة : الغفلة .

فما قاتلَتْ عنه المنايا جنودُه ... ولا دافعت أملاكُه وذخائرُه

ولا نصرَ المعتز من كان يُرتجي ... له وعزيزُ القومِ من عزّ ناصره

تعرَّض نصل السيف من دون فتحه ... وغُيِّبَ عنه في خراسانَ طاهره (١)

ولو عاشَ مَيْتٌ او تقربَ نازحٌ ... لدارتْ من المكروهِ ثَمَّ دوائره

ولو لعبيدِ الله عونٌ عليهمُ ... لضاقَتْ على وُرَّادِ أمرٍ مصادره

حلومُ أضلتها الأماني ومدّةٌ ... تناهتْ وحتفٌ اوشكته مُقادره (٢)

ومُغتصِبٍ للقتل لم يُخشَ رهطُهُ ... ولم تُحتَشَمْ اسبابه وأواصره

صريعٌ تقاضاهُ السيوفُ حشاشةً ... يجود بها ، والموتُ حُمرُ أظافره (٣)

أدافعُ عنه باليدين ولم يكن ... لِيثني الأعادي أعزلُ الليل حاسره (٤)

ولو كان سيفي ساعة الفتك في يدى ... درى الفاتكُ العجلانُ كيف أساوره (٥)

حرامٌ عليَّ الراحُ بعدَكَ او ارى ... دماً بدمٍ يجري على الارض مائره (٦)

وهل أرتجي ان يطلبَ الدمَ واترٌ ... يدَ الدهر ، والموتور بالدم واتره (٧)

أكان وليّ العهد أضمرَ غدرةً ... فمن عجبٍ أنْ وليّ العهد غادره

فلا مُلّيَ الباقي تُراثَ الذي مضى ... ولا حَمَلَتْ ذاكَ الدعاءَ منابره (٨)

---

(١) فتحه : يريد الفتح بن خاقان نديم الخليفة الذي قتل معه . وطاهره : عبيدالله بن طاهر ، وكان والي خراسان اذ ذاك . (٢) حلوم : عقول . الحتف : الموت . (٣) تقاضاه السيوف : تأخذه . الحشاشة : البقية من الروح . (٤) الاعزل : من لا سلاح معه ، ويعني البحتري نفسه . والحاسر من لا ورع معه . (٥) اساوره : أواثبه وادافعه . (٦) مائره : جاريه . (٧) الواتر : الظالم . الموتور : من قتل له قاتل ولم يأخذ بدمه . والمعنى : كيف أرتجي الثأر للخليفة مع ان صاحب الثأر هو ابنه المنتصر الذي قتله فهو واتر وموتور . (٨) ملي : تمتع .

ولا وألٍ المشكوكُ فيه ولا نجا ... من السيف ناضي السيف غدراً وشاهرُه (١)

لنعمَ الدمُ المسفوحُ ليلةَ جعفرٍ ... هرقتُمْ وجنحُ الليل سودٌ دياجره

كأنكمُ لم تعلموا مَنْ وليُّهُ ... وباغيه تحت المرهفات وثائره (٢)

وإني لأرجو أن تُردَّ اموركم ... الى خَلَفٍ من شخصه لا يغادره

مُقلّب آراءٍ تُخافُ أناتُه ... اذا الأخرقُ العجلانَ خيفَتْ بوادره (٣)

وقال من قصيدة يرثي بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي (٤):

أنظره إلى العلياء كيف تُضام ... ومآتمِ الأحسابِ كيفَ تُقامُ

وُضِعتْ سروجُ أبي سعيدٍ واغتدت ... اسيافُه دونَ العدوّ تُشام (٥)

خبرٌ ثنى رُكَبَ الركابِ ولم يدع ... للركب وجهَ ترحُّلٍ فأقاموا

ورزيئةٌ حملَ الخليفةُ شطرَها ... والمسلمون وشطرَها الاسلام

من يَعْتفي العافي بهمتهِ ومن ... يحدو إليه المعتمُ المُعْتام (٦)

أين السحابُ الجَوْدُ والقمر الذي ... يجلو الدّجى والضيغمُ الضرغام (٧)

أين العبوسُ المشمئزُّ إذا رأى ... جَنَفاً وأين الأبلجُ البسام (٨)

سكنَ العُلى أودى فهُنَّ ثواكل ... وابو العُفاة ثوى فهمْ ايتام (٩)

---

(١) وأل : نجا . ناضي السيف : مسلله . (٢) باغيه : سافكه . المرهفات : السيوف الرقاق .
(٣) الاخرق : ضعيف الرأي والاحمق .

(٤) الديوان «س» ص : ٤٨٨ . (٥) تشام : تغمد . (٦) يعتفي : يأتيه ويطلب معروفه . العافي : الفقير المعدم . يحدو : يطلب الجدوى « العطية » . المعتم : الداخل في العتمة . المعتام : من اختار واخذ العيمة « بكسر العين » وهي خيار المال . (٧) الضيغم والضرغام : الاسد . (٨) الجنف : الظلم .
(٩) سكن العلى : ساكنها أبو العفاة . يريد به ابا سعيد . ثوى : اقام « في القبر » .

ولي وقد أولى الورى من جوده ... نعماً يقوم بشكرها الأقوام
لا يهنيء الروم استراحتهم فقد ... هدؤوا بأفواه الدروب وناموا
أمنوا وما أمنوا الردى حتى انطوى ... في التُرْب ذاك الكر والاقدام
أسفاً عليه لآسف بين القنا ... أسوان تعذل خيله وتلام (١)
ولمجتدٍ رجعت يداه بلا جدى ... أعيا عليه البذل والانعام
يا صاحب الجدث المقيم بمنزل ... ما للأنيس بحجرتيه مقام (٢)
قبر تكسر فوقه سمر القنا ... من لوعة وتشقق الأعلام
ملآن من كرم فليس يضره ... مر السحاب عليه وهو جهام (٣)

* * *

الغزل :

قال من قصيدة يمدح بها المتوكل ، ويذكر غرامه بعلوة (٤) :

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر ... وألام في كمد عليك وأعذر
وأراك خنت على النوى من لم يخن ... عهد الهوى ، وهجرت من لا يهجر (٥)
وطلبت منك مودة ، لم أعطها ... إن المعنى طالب لا يظفر (٦)
هل دين علوة يستطاع فيقتضى ... او ظلم علوة يستفيق فيقصر

---

(١) أسوان : حزين . (٢) الجدث : القبر . (٣) الجهام : السحاب الذي لا يمطر .
(٤) الديوان « ج » ج ١ ص : ١٠ والديوان « س » ص : ١٧
(٥) النوى : البعد . (٦) المعنى : المحزون .

بيضاء يعطيك القضيبُ قوامَها ... ويريك عينيها الغزالُ الأحورُ
تمشي فتحكُمُ في القلوب بدلّها ... وتميسُ في ظلّ الشباب وتخطر (١)
وتميل من لين الصبي فيقيمُها ... قدٌّ يؤنّثُ تارةً ويُذكّر
إني وإن جانبتُ بعضَ بطالتي ... وتوهّمَ الواشون إني مقصر
ليشوقني سحرُ العيونِ المجتلى ... ويروقني وردُ الخدود الاحمر

وقال من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان (٢) :

فؤادي منكَ ملآنُ ... وسري فيك إعلانُ
وأنتَ الحسنُ لوكا ... نَ وراء الحسن إحسانُ
غزالٌ فيه إبعادٌ ... وإعراضٌ وهجرانُ
ودون النُّجح من مَوْ ... عودِه مَطْلٌ وليّانُ
سقاني كأسه شزراً ... وولّى وهو غضبانُ
وفي القهوة أشكالٌ ... من الساقي وألوانُ
حبابٌ مثلُ ما يضْ ... حكُ عنه وهو جذلانُ
وسُكْرٌ مثلُ ما أسكَرَ ... طرفٌ وهو وسنانُ
وطعمُ الريق إذ جادَ ... به والصبُّ هيمانُ
لنا من كفه راحٌ ... ومن ريّاه ريحانُ

* * *

(١) تميس وتخطر : تميل .
(٢) الديوان « ج » ج ١ ص : ٥٣ ، والديوان « س » ص : ٨٤ .

الوصف :

قال يصف إيوان كسرى (١) :

صُنتُ نفسي عما يُدَنِّس نفسي ... وترفعت عن جدا كل جِبْسِ (٢)
وتماسكتُ حيث زعزعني الدهـ ... ـرُ التماساً منه لتَعْسي ونكسي (٣)
بُلَغٌ من صُبابَةِ العيش عندي ... طفَّفتها الايام تطفيفَ بَخس (٤)
وبعيدٌ ما بين وارد رِفْهٍ ... علَلٍ شُرْبُهُ ووارد خِمس (٥)
وكأنَّ الزمان اصبح محمو ... لاً هواهُ مع الاخسِّ الاخسّ
واشترائي العراقَ خطَّةَ غَبنٍ ... بعد بيعي الشآم بيعةَ وَكْس (٦)
لا تَرُزْني مُزاولاً لاختبارى ... عند هذي البلوى فتُنْكِرَ مسي (٧)
وقديماً عَهِدْتُني ذاهنات ... آبياتٍ على الدنيئات شُمس (٨)
ولقد رابني نبوءُ ابنِ عمي ... بعدَ لينٍ من جانبيه وأنْس (٩)
واذا ما جُفيتُ كنتُ حرياً ... أن أرى غيرَ مصبحٍ حيث أمسي
حضرت رحلي الهمومُ فوجَّهْـ ... ـتُ الى ابيضِ المدائن عنسي (١٠)

---

(١) الديوان « ج » ج ١ ص : ١٠٨ ، والديوان « س » ص : ١٦٧

(٢) الجدا : العطاء . والجبس : الجبان اللئيم . (٣) التعس : الهلاك اوالشر . والنكس : ان ينقلب الرجل على رأسه ، اي الهزيمة والسقوط (٤) بلغ : جمع بلغة ، وهي ما يكفي من العيش ولا يفضل . الصبابة : البقية . طففتها : نقصتها . البخس : الغبن والظلم .(٥) الرفه : اللين . العلل : الشرب تباعاً. الخمس من اظماء الابل . (٦) اشترائي العراق : اقامتي بها ، وبيعي الشآم : رحلتي عنها . الوكس : النقصان . (٧) لا ترزني : لا تجربني. (٨) الهنات : خصال « شر » . شمس : عنيدة لا تذل . (٩) النبو : النفور والجفوة . (١٠) العنس : الناقة العظيمة .

أتسلّى عن الحظوظ وآسى ... لمحلٍّ من آل ساسانَ دَرْسِ (١)

ذكّرَ تَنْيهم الخطوبُ التوالي ... ولقد تذكرُ الخطوب وتنسي

وهمُ خافضون في ظلّ عالٍ ... مشرفٍ يُحسِرُ العيونَ ويخسي (٢)

مُغلَقٌ بابُه على جبل القَبْـ ... ـقِ الى دارَتَيْ خلاطٍ ومكس (٣)

حلَلٌ لم تكن كأطلال سُعدى ... في قفارٍ من البسابس مُلس (٤)

ومساعٍ لولا المحاباة مني ... لم تُطِقْها مسعاةُ عُنْسٍ وعَبس (٥)

نَقل الدهرُ عهدَهنّ عن الـ ... ـجدّة حتى غدونَ أنضاءَ لُبس (٦)

فكأنّ الجرماذَ من عَدَم الأنـ ... ـس وإخلالِه بَنِيّةُ رَمس (٧)

لو تراه علمتَ أنّ الليالي ... جعلتْ فيه مأتماً بعد عُرس

وهو ينْبيكَ عن عجائب قومٍ ... لا يشابُ البيانُ فيهم بلَبس (٨)

فاذا ما رأيتَ صورةَ أنطا ... كيةَ ارتعْتَ بين روم وفُرس

والمنايا موائلٌ وأنو شروا ... نُ يُزجي الصفوف تحت الدِرَفس (٩)

في اخضرار من اللباس على أصـ ... ـفرَ يختالُ في صبيغةِ وَرس (١٠)

وعراكُ الرجالِ بين يديه ... في خُفوتٍ منهم واغماضِ جَرس (١١)

---

(١) آسى : أحزن . آل ساسان : الكسرة الفرس . درس : دارس . (٢) هم : الضمير يعود الى آل ساسان . خافضون : رغيدو العيش . عال : قصر مرتفع . يحسر العيون : يضعفها . يخسي : يؤلم (٣) القبق : جبل القوقاز . خلاط ومكس : من مدن ارمينية الوسطى . (٤) الحلل : جمع حلة وهي الطائفة من البيوت . البسابس : القفار . الملس : الخالية (٥) عنس وعبس : قبيلتان . (٦) أنضاء لبس : اي ان لباسهم بال . (٧) الجرماز : بناء كان عند ابيض المدائن ثم عفا اثره . الرمس : القبر . (٨) لا يشاب : لا يختلط . اللبس : عدم الوضوح . (٩) يزجي يسوق . الدرفس : العلم الكبير . (١٠) الدرس : نبات ذو صبغة صفراء . (١١) الجرس . : الصوت

من مُشيحٍ يهوي بحاملِ رُمحٍ ومُليحٍ من السنانِ بترْسِ (١)
تَصفُ العينُ أنهم جِدُّ أحـ ياءٍ لهم بينهم إشارةُ خرس
يَغتلي فيهمُ ارتيابي حتى تتقراهمُ يدايَ بلمس (٢)

الايوان :

وكأنَّ الايوانَ من عَجَبِ الصنـ ـعةِ جَوْبٌ في جَنبِ أَرعنَ جَلْسِ (٣)
يُتظنَّى من الكآبة أن يبْـ ـدو لعينَيْ مُصبِّح او مُمسّي
مُزعجاً بالفراق عن أنْسِ إلفٍ عزَّ او مُرهقاً بتطليق عِرس
عَكستْ حظَّهُ الليالي، وبات المشـ ـتري فيه، وهو كوكب نحس
فهو يُبدي تجلُّداً وعليه كَلْكَلٌ من كلاكل الدهر مُرْسي (٤)
لم يَعبْه أن بُزَّ من بُسُطِ الديـ ـباج واستُلَّ من ستور الدِّمَقس (٥)
مُشمخرٌ تعلو له شُرُفاتٌ رُفعتْ في رؤوس رَضْوى وقُدس (٦)
لابساتٌ من البياض فما تبـ ـصِرُ منها إلا غلائلَ بُرس (٧)
ليس يَدرى أَصنع إنسٍ لجنٍّ سكنوه أم صنع جنٍّ لانس
غير أني اراه يشهدُ أن لم يك بانيه في الملوك بنكس (٨)

---

(١) المشيح : الحذر . المليح : الذي يخاف ويحذر . (٢) يغتلي : يزيد . تتقراهم : تتبعهم (٣) الجوب : الخرق . أرعن : النتوء في الجبل . الجلس : الجبل العالي والمعنى : كأن هذا الايوان بالنسبة الى قصر الابيض العظيم خرق في جانب ناتيء من جبل عال . (٤) الكلكل : الصدر ومعناها هنا المصيبة . (٥) بزّ : سلب . استل : انتزع . الديباج : الثوب سداه ولحمته حرير . الدمقس : الحرير الابيض . (٦) مشمخر : عال . رضوى وقدس : جبلان . (٧) الغلائل : جمع غلالة وهي شعار يلبس تحت الثوب . برس : القطن ويشبهه . والمعنى ان هذه الجبال مستورة بالثلوج . (٨) النكس : الدنيء الضعيف .

عُمرَت للسرور دهراً فصارت للتعزي رباعُهم والتأسي
فلها أن أعينَها بدموعٍ مُوقفاتٍ على الصبابة حبس
ذاك عندي وليست الدارُ داري باقترابٍ منها ، ولا الجنسُ جنسي
غير نُعمى لاهلها عند اهلي غرسوا من زكائها خير غَرس (١)
أيدوا ملكنا وشدّوا قواه بحُماةٍ تحت السَّنَوَّر حُمس (٢)
وأعانوا على كتائب أريا طَ بطعنٍ على النحور ودَعس (٣)
وأراني من بعدُ اكلَفُ بالأشـ ـراف طُرّاً من كلّ سنْخٍ وجنس (٤)

وقال من قصيدة يمدح بها المتوكل ، ويصف بركته ومطلعها (٥) :

ميلوا الى الدار من ليلى نحييها نَعمْ ونسألُها عن بعض اهليها

***

ما بالُ دجلةَ كالغَيْرى تُنافسُها في الحسن طَوْراً ، وأطواراً تباهيها
أما رأت كالىء الاسلام يكلؤُها من أن تُعابَ وباني المجد بانيها (٦)
كأن جنّ سليمانَ الذين وَلُوا إبداعَها فأدقوا في معانيها
فلو تمرُّ بها بلقيس عن عرضٍ قالت هي الصَّرْحُ تمثيلاً وتشبيها (٧)

---

(١) زكائها : نمائها . (٢) السنور : كل سلاح من حديد . حمس : شجعان . (٣) أرياط : قائد جيش فتح اليمن قديماً ثم اخرجه الاحباش بمعونة الفرس . الدعس : الدوس والطعن . (٤) السنخ : الاصل والمنبت .

(٥) الديوان : « ج » ج ١ ص : ١٦ ، والديوان « س » ص : ٢٦ . (٦) كالىء : راعي وحافظ .
(٧) الصرح : القصر وكل بناء عالٍ .

تَنصبُّ فيها وفودُ الماء معجلةً ... كالخيل خارجةً من حبل مُجريها

إذا النجوم تراءت في جوانبها ... ليلاً حسبت سماءً ركّبَتْ فيها

لا يبلغ السمكُ المحصورُ غايتها ... لبُعد ما بين قاصيها ودانيها

يَعُمْنَ فيها بأوساط مُجَنَّحةٍ ... كالطير تَنقَضُّ في جوّ خوافيها

لَهُنَّ صخبٌ رحيبٌ في أسافلها ... إذا انحططن وبهوٌ في أعاليها

كأنما الفضةُ البيضاء سائلةً ... من السبائك تجري في مجاريها

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكاً ... مثل الجواشن مصقولاً حواشيها (١)

فحاجبُ الشمس أحياناً يضاحكها ... وريّقُ الغيث أحياناً يُباكيها (٢)

---

(١) الصبا : الريح الشرقية . الحبك : طرائق سطح الماء وغضونه . الجواشن : جمع جوشن وهو الدرع .

(١) ريق الغيث : اوله وافضله .

مصادر البحث

اخبار ابي تمام	للصولي	طبعة لجنة التأليف	مصر ١٩٣٧
الاغاني	للاصفهاني	« الساسي	
الانساب	للسمعاني	طبعة مرغليوت	لندن ١٩١٢
امراء الشعر في العصر العباسي	للمقدسي	المطبعة الادبية	بيروت ١٩٣٢
البديع	لابن المعتز	طبعة كراتشوفسكي	لندن ١٩٣٥
الديوان	البحتري	« الجوائب	الاستانة ١٣٠٠
«	«	« سركيس	بيروت ١٩١١
ديوان الحماسة	«	« اليسوعية	بيروت
ديوان ابي تمام	ابو تمام	« الخياط	«
زهير الآداب	للحصري	« زكي مبارك	مصر ١٩٢٥
الشعر والشعراء	لابن قتيبة	« محمود توفيق	« ١٣٣٢
شعراء الشام	لخليل مردم بك	مطبعة الترقي	دمشق ١٩٢٥
الصناعتين	لابي هلال العسكري	طبعة صبيح	مصر
العمدة	لابن رشيق	« النعساني	مصر ١٩٠٧
الفهرست	لابن النديم	« مصطفى محمد	مصر ١٣٤٨
معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص	لعبد الرحيم العباسي	« مصر	١٣١٦
معجم الادباء	لياقوت الحموي	« هندية	مصر ١٩٢٣
معجم الشعراء	للمرزباني	« كرنكو	« ١٣٥٤
الموازنة بين ابي تمام والبحتري	للآمدي	« الجوائب	الاستانة ١٢٨٧
الموازنة بين الشعراء	لزكي مبارك	مطبعة المقتطف	مصر ١٩٢٦
الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء	للمرزباني	« السلفية	« ١٣٤٣
من حديث الشعر والنثر	لطه حسين	« الصاوي	« ١٩٣٦
نقد الشعر	لقدامة بن جعفر	طبعة الجوائب	الاستانة ١٣٠٢
وفيات الاعيان	لابن خلكان	« البابي الحلبي	مصر ١٣١٠
يتيمة الدهر	للثعالبي	طبعة القاهرة	مصر ١٩٣٤

Encyclopédie de l'Islam. Art. : Bohtori (Margholiouth)

ابن الرومي

[٢٢١ هـ — ٢٨٣ هـ؟]

حياته — موته — مزاجه واخلاقه — طيرته — عقيدته — ثقافته العقلية — شعره — اغراضه الشعرية — الهجاء
الوصف — الرثاء — الغزل — المديح — العتاب — الاستعطاف — التهاني — فلسفته
مكانته في الادب العربي — المختار من شعره — مصادر البحث

حياته :

هو ابو الحسن ، علي بن العباس بن جُرَيج (١) ، المعروف بابن الرومي ؛ مولى عبيد الله بن جعفر بن المنصور العباسي (٢) . ولد يوم الاربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب ، ببغداد ، في الموضع المعروف بالعقيقة ، في دار بازاء قصر جعفر بن عيسى (٣) .

---

(١) او جورجيس كما في ابن خلكان ج ١ ص : ٣٥٠ ، وجورجيوس كما جاء في معجم ياقوت ج ٦ ص : ٤٧٤ .

(٢) كما في ابن خلكان ج ١ ص : ٣٥٠ — ٣٥١ . وقال ابن الرومي يفتخر بمواليه العباسيين :

قومي بنو العباس حلمهمُ حلمي كذاك وجهلهم جهلي
نبلي نبالهم اذا نزلت بي شدة ونبالهم نبلي
لا ابتغي ابداً بهم بدلاً لفَّ الاله بهم شملي
انا منهم ، بقضاء من حُتمت وسلُ الاله به ، وهم اهلي
مولاهم وعُذبيّ نعمتهم والروم حين تنصني اصلي

« اه » كما في الديوان اختيار كامل كيلاني «وسنرمز اليه بحرف ك» ص : ٣٤٤ — ٣٤٥

(٣) ابن خلكان ج ١ ص : ٣٥١ .

لا نعرف من اولية ابن الرومي ، إلا انه عاش ببغداد في عصر من ازهى العصور التي شهدها العرب وأغناها ؛ فهو غني بعلومه وآدابه وثقافاته ، غني بشعرائه وكتابه ، غني بحوادثه واضطراباته وثوراته المحلية ؛ هو عصر المتناقضات : فقد جمع الخير والشر ، والصلاح والطلاح ، والنظام والفوضى ، والزهد والخلاعة ؛ الى غير ذلك من مختلف مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية .

والحق ان الحالة السياسية على الرغم من مظاهر الاستقرار الخارجية ، كانت على غاية من الاضطراب والفوضى ؛ ففي هذا العصر قوي نفوذ الاعاجم والاتراك وهزلت هيبة الخلافة ، وتطاولت العوام على الخلفاء والرؤساء ؛ وفي هذا العصر تناحرت العناصر في الجيش والبلاط ، وكثرت المؤامرات في قصور الامراء . واذا رحنا نفتش عن اسباب هذا كله ، وجدناها ترجع الى القطيعة التي وقعت بين العنصر العربي والعباسيين عقب انتصار المأمون وقتل الامين . اما الحياة الاجتماعية فقد قوي فيها اللهو والترف ، ومال الناس الى الخلاعة والاستمتاع بملاذ الحياة ، وشاع اقتناء الجواري والغلمان ، واستباح الناس المحرمات وتهافتوا عليها . وقد صور لنا ابن الرومي في قصائده تلك الحياة اروع تصوير ، وبين لنا في بعض قصائده عيشة الوزراء والاغنياء وتنعمهم باموال الرشى ؛ كما صور لنا بؤس العامة والطبقة المحرومة (١) .

---

(١) قال ابن الرومي يصف الحياة في عصره (الديوان طبع الشيخ محمد شريف سليم وسنرمز اليه بحرف « ش ») ج ١ ص : ٤٣٤ :

اتراني دون الألى بلغوا الآ ... مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى في النفوس والاحباب
ليس فيهم مدافع عن حريم ... لا ولا قائم بصدر كتاب
من اناس لا يرتضون عبيداً ... وهم في مراتب الارباب
اصبحوا ذاهلين عن شجن النا ... س وان كان حبلهم ذا اضطراب

واما الحياة الفكرية فقد كانت جدّ مزدهرة على الرغم من اضطراب الحيانين السياسية والاجتماعية ؛ ففي هذا العصر دوّنت الآداب ، وترجمت الكتب ، وعرفت العلوم دور الاستقرار بعد ان اجتازت في العصر الماضي دور التنقيب والجمع . وفي هذا العصر خطت علوم العربية : من رواية وادب ولغة ، خطوة واسعة في سبيل التحضير . وفي هذا العصر عمت الثقافات الاجنبية كافة الطبقات ، وعم التأليف في كافة المواضيع من ادبية وتاريخية وفلسفية وعلمية ؛ وقد لاقى علم النجوم رواجاً عظيماً «لطرافته وموافقته احوال الزمن وتقلباته ، وشيوع الحضارة الفارسية التي كان اهلها يعبدون الكواكب ، وينوطون بها مقادير الخير والشر ، وطوالع السعود والنحوس ؛ ولم يكن الايمان بالسعد والنحس ، والزجر والقيافة غريباً عن العرب ، فقبلوا العلم الحديث غير متحرجين ، وافرطوا فيه (١)» .

في هذا العصر المضطرب ، ولد ابن الرومي من ابوين اعجميين : أب رومي ، وام فارسية (٢) ؛ وقد كان لهذا المزاج الجنسي تأثير كبير في عقليته وانتاجه . وقد مات ابوه وهو صغير في المكتب ، وعنى به اخوه ابو جعفر محمد فرباه وحنا عليه حنو الوالد الشفيق (٣) .

---

(١) ابن الرومي للعقاد ص : ٣٨ .

(٢) قال : نحن بني اليونان قومٌ لنا حجى ومجدٌ وعيدان صلاب المعاجم
وقال : كيف اغضي على الدنية والفر س خؤولي والروم اعمامي

(٣) كان محمد هذا اديباً كاتباً ، يحب اللهو والمجون ، مات حوالي سنة ٢٦٠ هـ . وقد رثاه اخوه بقطع متعددة ومن ذلك قوله :

وتسليني الايام ، لا أن لوعتي ولا حزني ، كالشيء ينسى ويعرب
ولكن كفاني مُسْلِماً ومعزياً بأن المدى بيني وبينك يقرب

الديوان « ك » ص : ٣٢

واصيب وهو كهل بوفاة امه فجزع عليها جزعاً شديداً واكثر من رثائها(١) ، ثم أصيب باخيه فازداد حزنه ، والى ذلك اشار بقوله :

بأخٍ شقيقٍ بعد أمٍ بَرَّةٍ بالأمس قَطّع منهما اقرانه

وتزوج فوهب اولاداً ثلاثاً ، ولكنه لم يلبث ان فجع بأوسطهم ، ثم بأولهم واصغرهم ؛ وقد رثى الاوسط منهم بقصائد هي افجع ما رثى به أبٌ ولده (٢) ، ثم فجع بوفاة زوجه فظل بعدها زمناً لا يتزوج . ويظهر انه لما ادركته السن تزوج ثانية ، ولكنه فجع بها ايضاً ؛ ومات ولا زوج له ولا بنون ، يوم الاربعاء لليلتين بقيتا من جمادي الاولى سنة ثلاث وثمانين ومائتين ببغداد (٣) ، ودفن بمقبرة باب البستان .

موته :

اما سبب وفاته فالروايات مجمعة على انه مات مسموماً . قال ابن خلكان : « وكان سبب موته رحمه الله تعالى ، ان الوزير ابا الحسن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ،

---

(١) فمن ذلك قوله : اقول وقد قالوا : ابكي كفاقد رضاعاً ، واين الكهل من راضع الحلم
هي الام يالناس جُرّعت فقدها ومن يبك اماً لم تُذَمْ قط لا يُذَمْ

(٢) راجع القصيدة في المختارات من شعره .

(٣) يقول ابن خلكان ج ١ ص: ٣٥١ «وقيل سنة اربع وثمانين وقيل سنة ست وسبعين ومائتين» وليس من شك في ان التاريخ الثاني خاطيء لان المسعودي يذكر في مروج الذهب «ج ٤ ص : ٢٠٣» « ان قطر الندى بنت خمارويه وصلت الى مدينة السلام في ذي الحجة سنة احدى وثمانين ومائتين ، وفي ذلك يقول ابن الرومي :

يا سيد العرب الذي زفّت له باليمن والبركات سيدة العجم
اسعد بها كسعودها بك انها ظفرت بما فوق المطالب والهمم »

فهذا يدل على ان ابن الرومي عاش الى ما بعد سنة ست وسبعين .

وزير المعتضد (١)، كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش، فدسّ عليه ابن فراس، فأطعمه خشكنانجة [بسكويت] مسمومة وهو في مجلسه، فلما اكلها احسّ بالسم، فقال له الوزير: الى اين تذهب؟ فقال: الى الموضع الذي بعثتني اليه. فقال له: سلّم على والدي! فقال: ما طريقي على النار. وخرج من مجلسه وأتى منزله واقام اياماً ومات. وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم، فزعم انه غلط في بعض العقاقير...».

غلط الطبيبُ على غاطةَ مورد ... عجزت مواردُه عن الاصدار

والناس يلحون الطبيب وانما ... غلط الطبيب اصابة الاقدار (٢)

وروى الشريف المرتضى في اماليه قصة موته بشكل آخر، قال: «اتصل بعبيد الله ابن سليمان بن وهب، امرُ عليّ بن العباس بن الرومي، وكثرة مجالسته لابي الحسين القاسم [ابنه]؛ فقال لابي الحسين: قد احببتُ ان ارى ابن روميّك هذا. فدخل يوماً عبيد الله على ابي الحسن، وابن الرومي عنده، فاستنشده من شعره، فأنشده؛ وخاطبه، فرآه مضطرب العقل جاهلاً؛ فقال لابي الحسين بينه وبينه: ان لسان هذا اطول من عقله؛ ومن هذه صورته، لاتؤمن عقاربُه عند اول عتبٍ، ولا يفكر في عاقبته، فأخرجه عنك. فقال: اخاف حينئذٍ ان يعلن ما يكتمه في دولتنا، ويذيعه في تمكننا. فقال: يابني! اني لم ارد باخراجك له طرده، فاستعمل فيه بيت ابي حيّة النميري:

---

(١) كان هذا الوزير شديد الاقدام، سفاكا للدماء، توفي سنة ٢٩١ هـ وهجاه عبدالله بن سعد بقوله:

شربنا عشية مات الوزير ... سروراً ونشرب في ثالثه

فلا رحم الله تلك العظام ... ولا بارك الله في وارثه

«ابن خلكان ج ١ ص: ٣٥٢».

(٢) ابن خلكان ج ١ ص: ٣٥١

فقلن له سرّاً ، فديناك ، لا ترح سليماً ، والا تقتليه فالمحي

فحدث القاسم بن فراس (١) بما جرى ، وكان اعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه باهاج قبيحة ؛ فقال له الوزير اعزّه الله ــ وقد اشار بأن يُغتال حتى يُستراح منه ــ وانا اكفيك ذلك . فسمه في الخشكنانج فمات . . . » . قال الباقطاني : « والناس يقولون ما قتله ابن فراس ، وانما قتله عبيد الله » .

وقد اورد هاتين الروايتين الاستاذ عباس محمود العقاد ، فضعّف الاولى لان عبيدالله مات سنة ٢٨٨ هـ ، أي بعد وفاة ابن الرومي بأربع سنوات ، فلا معنى لان يقول القاسم له : سلم على والدي . وضعّف الثانية بأن عبيد الله كان يعرف ابن الرومي قبل سنوات ، وانه قد مدحه وتردد عليه ، فلا حاجة الى ان يطلب رؤيته ليختبره ، ثم يقول الاستاذ العقاد : « ويصعب علينا ان نستخلص الحقيقة من هذا الخلف والاضطراب . . . واذا اردنا ان نمزج بين الروايتين ونسقط منهما ما يجب اسقاطه ، فالخلاصة منهما : أن عبيد الله خاف هجاء ابن الرومي فأوعز الى ابنه ان يسمّه لانه كان اقرب الى مخالطته ومنادمته ، ولا صحة لما بعد ذلك من حديث القاسم وابن الرومي ، وانما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صدق التاريخ (٢) » . ويذكر الاستاذ العقاد في موضع آخر رأياً آخر في موت ابن الرومي فيقول : [مات ميتة طبيعية تشتبه اعراضها باعراض التسمم المعروفة في زمانه . فمن كلام الناجم الذي زاره في مرض وفاته ، نعلم انه كان يشكو من الحاح البول ، فلما لاحظ الناجم ذلك قال :

---

(١) وقد رأيت ابن خلكان يسميه ابن فراش ، والصواب بالسين كما حقق ذلك الشيخ شريف في شرحه لديوان ابن الرومي .

(٢) ابن الرومي للعقاد ص : ٢٥٧

غداً ينقطع البول ويأتي الهول والغول

وانه كان اعدّ ماءً مثلوجاً لانه «قلما يموت الانسان وهو ظمآن» . . . والظمأ والحاح البول عرضان من اعراض مرض السكر ، وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولا سيما بعد اكل الحلوى والافراط فيها ، وابن الرومي لم تكن تنقصه اسباب الاصابة به ، لانه كان منهوماً بالحلوى والاطعمة الثقيلة ، مستسلماً للشهوات ، مسرفاً في الشراب ، مع ضعف اعصابه واعتلال جسمه (١) .

فانت ترى ان الاستاذ العقاد يقول اولاً ان القاسم لم يقتله ، ولكنه لايلبث ان يعود الى قبول نظرية القتل فيقول : «اما ان القاسم كان اهلاً لان يغدر بابن الرومي ، وان ابن الرومي كان عرضةً لغضب ذلك الوزير الفاتك المغتال ، فهو احتمال جد قريب . . . وليس ايسر من ان ينسى القاسم رجلاً كابن الرومي ، حين اقبلت الدنيا عليه وعلى ابيه . . . وليس ايسر من ان يطمع ابن الرومي في عمل او مرتب او مكافأة تغنيه ، حين اقبلت الدولة على ممدوحيه واصحابه بالامس في ايام التطلع والانتظار ؛ ومن هنا يبدأ الغضب ، فاللوم ، فالوشاية ، فالمبالغة في الجفاء ، فالهجاء من الشاعر ، فالوعيد من الامير الذي ليس بين وعيده وانجازه عائق . . . فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة ، وهذا الهجاء ، ان يتورع القاسم عن قتل ابن الرومي اذا استطاعه ، وهو مستطيعه (٢) » .

واصح الروايات في رأينا رواية ابن خلكان ، ولكن الرواة قد تزيدوا فيها الجملة التي زعموا ان القاسم قالها لابن الرومي عند ما احسّ بالسم ، وهي قوله : «سلم على والدي» وكذلك جواب ابن الرومي ، وغرضهم في هذه الزيادة المداعبة والنكتة لاغير .

---

(١) ابن الرومي للعقاد ص : ٢٥٧ ـ ٢٥٨

(٢) ابن الرومي للعقاد ص : ٢٥٩ ـ ٢٦١

مزاجه واخلاقه :

كان ابن الرومي من اغرب الناس مزاجاً واكثرهم اضطراباً في اخلاقه : فيه ايمان وإلحاد ، وفيه كرم وبخل ، وفيه خفة روح وثقل نفس ، يهجو ثم يمدح ويمدح ثم يهجو . . . ولعلّ السر في ذلك التناقض ضعف بنيته ، واختلال اعصابه ، وكثرة المصائب التي لقيها في شبابه ، واضطراب عصره .

وكان ابن الرومي مخلصاً الى اصدقائه الذين يراهم عوناً في النوائب ، ومن اروع ما يصور هذه الخليقة عنده قوله :

خليلٌ أظلُّ اذا زارني ... كأني انشأ خلقاً جديدا
. اراني وإن كثر المؤنسو ... ن ماغاب عني وحيداً فريدا
بلوت سجاياه في النائبات ... فلم ابل منهن الا حميدا (١)

ولكنه كان مع اخلاصه اذا احسّ من صديقه إعراضاً عنه هجره ولم يلتفت اليه ، وربما هجاه شر هجاء ، فمن ذلك قوله من قصيدة يخاطب بها الوزير القاسم بن عبيد الله :

انا عبد الانصاف قرن التعدي ... فاسلك القصد فيه وعدِ العداء
انا ذو صفحتين ملساءَ حسنا ... ءَ واخرى تمسها خشناء
خاشع تارةً ، وجبّارٌ اخرى ... فتراني ارضاً ، وطوراً سماء
لا بحولٍ ولا بقوة ركن ... غير لُبسى تجلُّداً وحياء (٢)

---

(٢) الديوان « ك » ص : ١٢

(٣) « « ك » ص : ١٥٥ والديوان « ش » ص : ٦٢ عدِ العداء : اترك الظلم .
صفحة الشيء : جانبه .

وكان يكره الحقد ويدعو الناس الى عدم التخلق به ، وله في ذلك اقوال كثيرة ، ومنها قوله :

فانسَ الحقود فانها منسية ... الا لدى اللؤماء والاشرارِ
ان الحقود اذا تذكرها الفتى ... تحيا حياة الجمر بالمسعارِ
ولعلها ألا تضر عدوّه ... وهو المسلّف عاجلَ الاضرار
تُصلي جوانح صدره من حقده ... بلهيب جمرٍ ثاقب وأوارِ
وكفى الحقود مهانةً وغضاضةً ... أن لست تلقاه عدو جهار
لكنه يمشي الضراء بحقده ... ليلاً ويلبد تحت كلّ نهار (١)

طيرته:

كان ابن الرومي ذا مزاج مريضٍ ، متطيراً (٢)، كثير التشاؤم . قال المعري : «كان ابن الرومي معروفاً بالتطير ... ولهذه الطوية جعل ابن الرومي «جعفراً» من الجوع والفرار ، ولو هُدي صرَفَه الى النهر الجرّار ، لأن الجعفر الماء الكثير ، ولكن اخوان هذه الخليقة لا يحملون الاشياء الواردة على الحقيقة». ولابن الرومي اخبار تدل على تطيره ، منها : ان ابا الحسن الاخفش غلام المبرّد كان كثيراً ما يقرع بابه للهزء به وبتطيره

---

(١) الديوان «ك» ١٦٨ ــ ١٦٩ . الاوار : الحر والدخان والعطش والجمع أور . الضراء : الخفاء وفعله ضرأ يضرأ .

(٢) التطير والطيرة : مرض عقلي يصيب الانسان فيربط الحوادث بغير اسبابها ويعلل نفسه بأمور يخيلها ولا ظلّ لها من الحقيقة ، وسبب هذا المرض ضعف المزاج واختلال الاعصاب والتأثر بالاوهام وحمل المشاهد والحوادث على غير حقيقتها .

فاذا سأل ابن الرومي : من الطارق ؟ اجاب: مرة بن حنظلة ، فيتطير من ذلك ولا يجسر على الخروج بقية يومه ، وقد هجاه ابن الرومي في ديوانه كثيراً . وكان ابن الرومي يحتج للتطير ويقول : «ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، أفتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطير من ضده . وكان يقول : ان النبي صلوات الله عليه مرَّ برجل وهو يرحل ناقة ويقول : يا ملعونة . فقال : لا يصحبنا ملعون . وان علياً رضى الله عنه كان لا يغزو والقمر في العقرب . ويزعم ان الطيرة موجودة في الطباع قائمة فيها وان بعض الناس هي في طباعهم اظهر منها في بعض (١)» .

ولابن الرومي ابيات كثيرة توضح هذه الخلة فيه فمن ذلك قوله :

لا تهاون بطيرة ايها النظـ ـار واعلم بأنها عنوانُ
قف اذا طيرة تلقتك واستمع ثم ما يقولُ الزمان
قلماً غاب من امورك عنوا نٌ مبينٌ وللزمان لسان
لا تصدّق عن النبيين الاَّ بحديث يلوح فيه البيان
قد اتى عن نبيّنا حبُّه الفأ لَ مضيئاً بذلك البرهان
فدعِ الهزلَ والتضاحكَ بالـ طيرة فالنصح مثمن مجّان
أترى من يرى البشير بشيراً يمتري في النذير يا وسنان
خبرَ الله أن مشأمةَ كا نت لقوم وخبّر القرآن
افزور الحديث تقبل ام ما قاله ذو الجلال والفرقان(٢)

---

(١) زهر الآداب ج ٢ ص : ١٧٧

(٢) الديوان « ك » ١٧٣

عقيدته :

كان ابن الرومي مسلماً قوي الايمان بقلبه وان كان مهملاً للشعائر ، وكان شيعياً ، معتزلياً ، قدرياً .

اما ايمانه فيتجلى في قوله يصف الزاهد :

بات يدعو الواحد الصمدا ... في ظلام الليل منفردا
خادم لم تُبْقِ خدمته ... منه روحاً لا ولا جسدا
قد جفت عيناه غمضهما ... والخليُّ القلب قد رقدا
. . . .
انا عبدٌ غرَّني املي ... وكأن الموت قد وردا
وخطيئاتي التي سلفت ... لست احصي بعضها عددا
فليَ الويلُ الطويلُ غداً ... ليت عمري قبلها نفدا
ويح عيني ساء ما نظرت ... ويح قلبي ساء ما اعتقدا
ليت عيني قبل نظرتها ... كحلت اجفانها رمدا (١)

واما اهماله الشعائر الدينية ، فيجتلى في لهوه وشربه الخمر واستهتاره ، ومن ذلك قوله:

رمضانُ يزعمه الغواةُ مباركٌ ... صدقوا ـ وجدّكَ ـ انه لطويل
شهرٌ لعمرك لا يقلُّ قليله ... وكذا المبارك ليس منه قليل
تتطاول الايام فيه بجهدها ... فكأنَّ عهد الأمس منه مخيل
لو انه للقاطعين مسافةً ... لحسبت ان الشبر منه ميل

---

(١) الديوان « ك » ص : ٧٩

وقال يحلل شرب الخمر :

احلَّ العراقيُّ النبيذَ وشربه ... وقال : الحرامان المدامة والسكرُ

وقال الحجازي : الشرابان واحد ... فحلَّت لنا بين اختلافهما الخمر

سآخذ من قوليهما طرفيهما ... واشربها لا فارق الوازر الوزر (١)

واما شيعيته فتتجلى في قصيدته الجيمية الرائعة ، التي رثى بها الامام يحيى بن عمر بن الحسين ، مصوراً بؤس الاشراف العلويين ، وما يلاقون من ظلم العباسيين واضطهادهم واستئثارهم بملذات الحياة واطايبها ، ومنها قوله :

أفي الحق ان يُمسوا خماصاً ، وانتمُ ... يكاد اخوكم بطْنةً يتبعَّجُ

وتمشون مختالين في حجراتكم ... ثقالَ الخطى اكفالكم تتوجرج

وليدُهمُ بادي الطوى ووليدكم ... من الريف ريّان العظام خدلّج

تذودونهم عن حوضهم بسيوفكم ... ويشرع فيهم ارتبيل وابلج

واني من الاسلام منكم لخائفٌ ... بوائقَ شتَّى بابها الآن مرتج (٢)

اما اعتزال ابن الرومي وقدريته فيتضحان من قوله :

أأرفض الاعتزال رأياً ... كلاَّ لاني به ضنين

---

(١) الديوان « ك » ص : ٧٨ ، ويريد بالعراقي ابا حنيفة النعمان وبالحجازي الامام الشافعي رضي الله عنهما .

(٢) راجع كامل القصيدة في الديوان « ك » ص : ٢٤٤ . الخماص : الجياع . البطنة : البطر والاشر والكظة . الطوى : الجوع وفي رواية الضوى وهو الهزال والضعف . الخدلج : الممتلىء الذراعين . ارتبيل : اسم قائد فارسي ، وابلج أسم قائد تركي .

وقوله يخاطب العباس ابن القاشي ويناشده ما بينهما من صلة اعتقادية وقول «بالعدل والتوحيد»:

إن لا يكن بيننا قربى، فآصرةٌ ... للدين، يقطع فيها الوالدُ الولدا

مقالة العدل والتوحيد تجمعنا ... دون المضاهين من ثنّى ومن جحدا

. . . . . .

ما عذر معتزلي موسر منعت ... كفاه معتزلياً مقتراً صفداً

أيزعم القدر المحتوم ثبّطه؟ ... إن قال ذاك، فقد حلّ الذي عقدا (١)

وكان ابن الرومي يقول بالطبيعتين، وان الخير والشر مقدران لا ينمحيان وان النور والظلام حق، وان النار افضل؛ وهذا بلاشك جاءه من فارسيته، والى ذلك يشير بقوله:

فينا وفيك طبيعة ارضية ... تهوي بنا ابداً لشرّ قرار

هبطت بآدم قبلنا وبزوجه ... من جنة الفردوس افضل دار

فتعوّضا الدنيا الدنيّة كاسمها ... من تلكُمُ الجنات والانهار

بئست لعمر الله تلك طبيعةٌ ... حرمت ابانا قرب اكرم جار

واستأسرت ضعفى بنيه بعده ... فهُمُ لها اسرى بغير إسار

فجسومهم من اجلها تهوي بهم ... ونفوسهم تسمو سموّ النار (٢)

---

(١) الآصرة: ما عطفك على اخيك من معروف او صلة وجمعها اواصر. مقالة العدل والتوحيد: مذهب المعتزلة القدريين لانهم يقولون اننا ننسب العدل الى الله وتوحيده لاننا لا نقول بخلق القرآن وانه محدث فلا تعتد القدماء بذلك. الصفد: الفقر.

(٢) الديوان «ك» ص ١٦٦

ثقافته وعقله :

كان ابن الرومي ذكي الفؤاد، مرهف الحس، سريع التأثر، جمع الى المعرفة العربية العبقرية اليونانية، فتكونت له من ذلك ثقافة فذة امتاز بها على كافة شعراء العربية فحلل الحياة خير تحليل وصور دقائقها خير تصوير. يقول الاستاذ العقاد في الفصل القيم الذي كتبه عن عبقرية ابن الرومي اليونانية: «وانما وصفنا ابن الرومي بهذه الصفة لأنه صاحب عبقرية تعبد الحياة وتحيا مع الطبيعة، وتلتقط الصور والاشكال، وتشخص المعاني، وتقدم الجمال على الخير، او لا تحب الخير الاّ لأنه لون من الوان الجمال. ثم هي تنظر الى الدنيا نظرتها الى المعرض المنصوب للتملي والمتعة، لا نظرتها الى الحصن المغلق، او الصومعة الموحشة، او غير ذلك من نظرات الاجيال والاديان، ولا نعرف صفة اجمع لهذه الخصال، من صفة العبقرية اليونانية التي ارتسمت بها في الجملة فنون الاغريق، فقد كان الاغريق بجملتهم كما كان ابن الرومي بمفرده، لولا ان الاغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار وابن الرومي كان لا يعرف في امر من الامور مقداراً اقل من الافراط والانهماك (١)».

وقد جمع ابن الرومي الى ذلك نصيباً وافراً من علوم عصره القديمة والحديثة، فقرأ العربية وعلومها على ابي العباس ثعلب النحوي، وعلى الامام محمد بن حبيب؛ وكان يرجع اليه في تفسير المفردات اللغوية (٢).

اما معرفته باللغة اليونانية والفارسية، فليس عندنا ما يثبتها او ينفيها، على الرغم من انك تجد عنده كثيراً من الالفاظ الفارسية، مثل: «الكذخداه» ومعناها [رئيس الاسرة]،

---

(١) انظر ابن الرومي للعقاد ص: ٢٦٥

(٢) رسالة الغفران ص: ٢٦٦

و «البنفشا» ومعناه [البنفسج] و «الشير» ومعناه [الاسد]. وهناك الفاظ فارسية اخرى؛ ولكن الاستاذ العقاد يجزم بعدم معرفته الفارسية. وان كان الدليل الذي يورده لا يقوم دليلاً كافياً في رأينا على جهله لغة امه (١).

وقد كان الى جانب ثقافته اللغوية، ملماً بثقافة دينية؛ ودليلنا على ذلك ما رأيت من مناقشته لرأيي ابي حنيفة والشافعي في تحليل الخمر.

واما نصيبه من الفلسفة. فقد كان وافياً، كما يتجلى ذلك في كثير من قصائده لانه اتصل بالفلاسفة الذين عاشوا في عصره حتى ظهر اثر الفلسفة في اسلوبه وتفكيره وشعره، وسترى بيان ذلك في الفصل الذي سنعقده عن فلسفته.

شعره:

يقول السمعاني في كتاب الانساب: «وهو احد الشعراء المكثرين المجوّدين في الغزل والمدائح والهجاء والاوصاف والتشبيهات (٢)». ويقول ابن خلكان: إنه «صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب؛ يغوص على المعاني النادرة، فيستخرجها من مكامنها، ويبرزها في احسن صورة؛ ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخره، ولا يبقي فيه بقية (٣)». ويقول ابن رشيق: «كان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني، حريصاً عليها، يأخذ المعنى الواحد ويولّده، فلا يزال يقلّبه ظهراً لبطن. ويصرفه في كل وجه، والى كل ناحية، حتى يميته ويعلم انه لا مطمع فيه لاحد. ثم نجد من بعده لا ينتهيه في الشعر بل لا يعشره؛ قد اخذ

---

(٣) انظر ابن الرومي للعقاد ص: ١٠١

(٢) الانساب ص: ٢٦٣

(٣) ابن خلكان ج ١ ص: ٣٥١

المعنى بعينه ، فولّد فيه زيادة ، ووجّه له وجهة حسنةً لا يشك البصير بالصناعة ، مع ان ابن الرومي مع شرهه لها انه لم يتركها عن قدرة ، ولكن الانسان مبني على النقصان (١)» .

فانت ترى اجماع هؤلاء النقدة الثلاث على ان ابن الرومي ممتاز بشاعرية ثرّة وانه كان طويل النفس ، محبوك اجزاء القصيدة حبكاً محكماً ، يأخذ المعنى فلا يزال يقلبه حتى يأتي على كل ما يمكن ان يقال فيه . ثم انه ان اراد الانتقال الى معنى جديد لم يطفر اليه طفراً بل يلائم بين اجزاء القصيدة فتبدو بمجموعها كأنها بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً .

وشعر ابن الرومي ممتاز بمزايا فنية جعلت له مكاناً رفيعاً بين ادباء العربية ، وابرز هذه المزايا ما يأتي :

١) : دقة احساسه بالطبيعة .

٢) : استقصاؤه المعنى استقصاءً تاماً .

٣) : حسن تشخيصه للامور المعقولة .

٤) : كثرة اختراعه وتوليده .

٥) : طول قصائده .

٦) : اكثاره من نظم الشعر .

اما دقة احساسه بالطبيعة فتتجلى في الصور الجيدة التي تركها لنا في وصف مظاهر الطبيعة وجمالها: من رياض وغياض وازهار وربيع وسحاب ... ومن اجمل ذلك قوله يصف روضه غنّاء :

ومونقة الروّاد مهتزة الربى ... يحاسنها سارٍ وغادٍ ورائحُ

---

(١) العمدة . ج ١ ص : ١٨٥

توقدُ فيها كلما تلمع الضحى مصابيحُ تذكو حين تخبو المصابحُ
تضاحك نوّاراتها زهراتها لها ارج في نافحِ القطر نافح
اذا مدها المهموم في صعدائه الى قلبه انساحت عليه الجوانح (١)

وقال يصف الربيع :

اصبحت الدنيا تروق من نَظَر
بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر
فالارضُ في روضٍ كافواف الحِبَر
نَيِّرَةُ النوّار زهراء الزهر
تبرّجت بعد حياء وخفر
تبرُّجَ الانثى تصدّتْ للذكر. (٢)

وقال يصف السحاب :

متهلّلٌ زجِلٌ، تحِنُّ رواعدٌ في حُجزتيه، وتستطير بروقُ
سدّت اوائلُهُ سبيلَ اواخرٍ لم يدر سائقُهن كيف يسوق
فسخا واسعد حالبيه بدَرَّةٍ منه سواعد ثَرّة وعروق
وتنفّست فيه الصَبا فتبجّست منه الكُلى فأديمه معقوق
حتى اذا قضيت لقيعان الفلا منه حقوقٌ بعدهن حقوق

---

(١) الديوان «ك» ص : ٦٩ والديوان «ش» ج ٢ ص ٧٣
(١) الديوان «ك» ص : ٨٩

دافقت رواياه تجرُّ مزادها فوف الربى ومزادها مشقوق
وتضاحك الروض الكئيب بصوبه حتى تفتّق نوره المرتوق
وتبسّمتْ نفحاتُه فكأنه مسكٌ تضوّع فأره مفتوق
وتغردّ المكّاء فيه كأنه طَربٌ تعلل بالغناء مشوق (١)

اما استقصاؤه المعنى استقصاءً تاماً ، فيتجلى لك فيما استخرجه من صور ، وما ولده من معانٍ لم يستطع ان يزيد عليه فيها شاعر لاحق ، وخصوصاً في اوصافه واهاجيه ، فانت اذا قرأت له قصيدته الاستعطافية التي كتب بها الى الوزير القاسم بن عبيد الله ، رأيته يستقصي معاني الاستعطاف استقصاء ليس بعده مجال لقائل (٢) . ومن المعاني التي استقصاها فلم يفلت منه شيء وصفه للشيب والشباب . استمع اليه يقول :

قد قلت للعذّال عند تتبعي بالقص شيباً كل يوم يحدثُ
كثر الخبيث من النبات فهُذّبت منه الاطايبُ وهي بعدُ ستخبث
وإخالُ اني للخضاب مخالفٌ وهو المخالفُ لا محالة ينكث
اضحى الزمان بلمّتي متعبّثاً وأمامَ إجدادِ الزمان تعبّثُ
اصبحتُ للدنيا اروح واغتدي وإخالني في غير ارضي احرث
ولقد تطيب مع المشيب معيشة ويكون من بعد الخفوف تلبّث (٣)

---

(١) الديوان « ك » ص : ٣٠٦ . الزجل : السحاب ذوالصوت . الحجزه : معقدالازار . المعقوق : المشقوق . الكلى : اسفل السحاب . الراوية والمزادة : القربة فيها الماء . فأرة المسك : وناافجته هي وعاؤه . والمكاء : كزُنار طائر ، وجمعه مكاكى .

(٢) انظر ذلك في الديوان « ك » ص : ١٤٧

(٣) الديوان «ش» ج ٢ ص : ١٨ والديوان« ك » ص : ١٤١ . وقد استقصى ابن الرومي ما يقال في الشيب فارجع الى ذلك في الديوان « ك » ص : ١٨ - ٢٦ - ٤٦ - ٩٥ - ١٣٢ - ١٧٤ - ١٩٤ - ٢٠١ - ٢٥٧ - ٢٨٠ - ٣١١ - ٣٦٤ - ٣٨١ - ٣٨٨ - ٣٩٠ - ٤٠٤ - ٤٠٦ - ٤٤٠ .

ومن المعاني التي استقصاها ، اقواله في الصداقة والصديق . ومن رائع قوله في ذلك:

متشبّثٌ بعلائقي متخلّص ... طوراً يماذقني وطوراً يخلصُ
متخصّصٌ بالمجد إلا انه ... بفساد ما يسعى له متخصص
حلو الصداقة مرُّها فصديقه ... شرق بخاء إخائه متغصص
يعدو على الاسدِ المسالم ظالماً ... ويهرّ كلب سفاهة فيبصبص
ما إن يزال على هوايَ مخالفاً ... ومعانداً للحق حين يحصحص
ترضيك جملة امره في ودّه ... لكنها تشجيك حين تلخّص
يتطرّفَ اللذاتِ دونيَ خائفاً ... مني هنالك خائفاً يتلصص
لا تخلطنّ حلاوةً بمرارةٍ ... إن المخالّط في الاخاء منغص (١)

واما تشخيصه للامور المعقولة ، فيتجلى في استنطاقه الطير والنسيم ، والطيلسان والشباب والمشيب ، وفي نسبته التفكير والضحك الى الندى والاغصان والشمس والكواكب . استمع اليه يصف الربيع ، ويتحدث الى شقائق النعمان تحدث من يحس ويعقل ، فيقول :

ضحك الربيع الى بكا الدّيم ... وعدا يسوي النَّبْتَ بالقمم
من بين اخضر لابسٍ كمما ... خضراً وازهر غير ذي كمم
إن الربيع لكالشباب وإن ال ... صيفَ يكسعه لكالهرم
أشقائقَ النعمان بين ربى ... نعمانَ ! انت محاسن النعم (٢)

---

(١) الديوان « ك » ص : ٨٠ . وقد استوفى معاني الصداقة والصديق في الديوان « ك » ص : ١٢، ١٠١، ١٠٥، ١٠٧، ١٣٩، ٢٥٧، ٤٦٣، ٤٦٥ .

(٢) يكسعه : يطرده ، وفلان يتكسّع في ضلاله ، اي يمعن فيه .

ويقول في الطيلسان :

كساء بني نوبخت مهلاً ، فانّني ... اراك تناغي طيلسان بني حربِ
اعيذك ان تأبى مسيرة ليلةٍ ... وتصبر للتسيير في الشرق والغرب
كسائي! كسائي! انه الدرب بيننا ... فلا تدعِ الثغر المخوفَ بلا درب
ولا تحسبنّي لا اغرّد بالتي ... تليني بها في الحفل طوراً وفي الشرب (١)

وقال :

يابن حربٍ كسوتني طيلساناً ... يتجنّى على الرياح الذنوبا
طيلسان اذا تنفّست فيه ... صاح يشكو الصبا ويشكو الجنوبا
وتهب الرياح من ارض غيري ... فتهبُّ الفزوز فيه هبوبا
تتغنّى احدى نواحيه صوتاً ... فتشقّ الاخرى عليه الجيوبا
فاذا ما عذلته ، قال : « مهلاً ... لن يكون الكريم الا طروبا » (٢)

واما كثرة اختراعه (٣) وتوليده ، فيتجلى لمن يتصفح ديوانه المملوء بالصور الشعرية الجديدة ، والتشبيهات الغريبة التي ابتدعها والتي تجعله « الشاعر » حقاً ، كما يقول ابن رشيق في العمدة : « واما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن

---

(١) الديوان « ك » ص : ٣١٩ . الطيلسان : كساء اخضر يضعه الخواص من العلماء فوق عماماتهم .

(٢) الديوان « ك » ص : ٣١٩ . الفزوز : الشقوق .

(٣) الاختراع : خلق المعاني التي يسبق الشاعر اليها . والتوليد : اخذ المعاني القديمة والتصرف فيها تصرفاً جميلا .

افتتانه (١)». ويقرن ابنُ رشيق ابنَ الرومي بأبي تمام، لكثرة اختراعهما وتوليدهما المعاني فيقول: «واكثر المولدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذّاق: ابو تمام وابن الرومي (٢)». فمن اختراعات ابن الرومي قوله في وصف احدب:

قصرت اخادعه وغار قذاله ... فكأنه متربّص ان يصفعا
فكأنما صفعت قفاه مرة ... فأحسّ ثانيةً لها فتجمعا

وقوله في وصف اخرق:

وأخرق تضرمه نفخة ... سفاها وتطفئه تفلة
فاخلاقه تارة وعرةٌ ... واخلاقه تارة سهلة

وله في وصفة الرقاقة:

ما انس لا انس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها زهراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة ... في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ولهذه الابيات قصة طريفة لها علاقة بالموضوع ذكرها صاحب العمدة فقال: «يحكى عن ابن الرومي ان لأمّاً لامه فقال له: لمَ لا تشبه تشبيه ابن المعتز وانت اشعر منه، قال: انشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني في مثله، فانشده في صفة الهلال:

فانظر اليه كزورق من فضةٍ ... قد اثقلته حمولة من عنبرِ

فقال زدني! فأنشده:

---

(١) العمدة ج ١ ص: ١٩٤
(٢) العمدة ج ١ ص: ١٧٧

كأن آذريونها والشمس فيه كاليه
مداهنٌ من ذهبٍ فيها بقايا غاليه

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفساً الا وسعها ، ذلك انما يصف ماعون بيته لانه ابن الخلفاء ، وانا اي شيء اصف؟ ولكن انظروا اذا وصفت ما اعرف اين يقع الناس كلهم مني ، هل قال احد قط املح من قولي في قوس الغمام ؟ :

وقد نشرت ايدي السحاب مطارفاً على الجو دكناً وهي خضر على الارض
يطرّزها قوس السحاب باصفر على احمرٍ في اخضر وسط مبيضّ
كأذيال خودٍ اقبلت في غلائلٍ مُصبَّغةً والبعض اقصر من بعض

وقولي من قصيدة في صفة الرقاقة .. ما انسَ ... الخ (١) .

وبعد فقد ذكرنا طرفاً من مخترعات ابن الرومي وتوليداته في المختار من وصفه فارجع اليه.

واما طول قصائده فانا لا نعرف شاعراً في العربية له طول نفس ابن الرومي ، وديوانه مملوء بالقصائد التي تزيد على مائة بيت ، فمن ذلك قصيدته التي يعاتب بها ابا القاسم التوّزي الشطرنجي ، وتبلغ ابياتها مائة وخمسين بيتاً (٢) . وقصيدته في القاسم بن عبيد الله ، وتبلغ ابياتها مائتين وعشرين بيتاً (٣) .

واما اكثاره من نظم الشعر فيتجلى من ضخامة ديوانه ويكفيك برهاناً على ذلك ان

---

(١) العمدة ج ٢ ص : ١٨٤

(٢) الديوان « ش » ج ١ ص : ١٤

(٣) » » » ص : ٤٣ . راجع قصائده الطويلة في الديوان « ك » ص : ٢ - ٢٠ - ٢٤ - ٣٧ - ٧٤ - ٦٦ - ٨٢ - ١١١ - ١١٧ - ١٢٠ - ١٤٧ - ١٨٦ - ٢٥٨ - ٣٤١ .

الجزء الاول من هذا الديوان «وعدد صفحاته ٥٧٧» ليس فيه إلا حرف الالف وحرف الباء.

اغراضه الشعرية :

اكثر ابن الرومي من قول الشعر فعالج الاغراض المعروفة في عصره كلها من : هجاء ووصف وعتاب واستعطاف ورثاء وغزل ومديح وتهنئة.

الهجاء :

قال ابن رشيق : «واما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به فصار يقال : اهجى من ابن الرومي ، ومن اكثر من شيء عرف به ، وليس هجاء ابن الرومي بأجود من مدحه ولا اكثر ، ولكن قليل الشر كثير (١)».

وقال ايضاً بعد ان نقل نصيحة جرير لبنيه باطالة المديح وتقصير الهجاء والاضحاك فيه : «وسلك طريقته في الهجاء علي بن العباس بن الرومي ، الا انه كان يطيل ويفحش . وان التعريض اهجى من التصريح (٢)».

وقال المعري : لو انصف الدهر هجا اهله كانه الرومي او دعبلُ

والحق ان العربية لا تعرف شاعراً اهجى من ابن الرومي ودعبل ، وهجاء ابن الرومي ممتاز بطوله وفحاشه ، وسلب مهجوه الصفات الحميدة . وتصويره باشكال مضحكة مثيرة للهزء والسخرية ، وقد اتخذ هجاءه سلاحاً يهدد به كل من يحاول ايذاءه ، او من يمنع عنه حقه . استمع اليه يقول :

---

(١) العمدة ج ١ ص : ١٩٤

(٢) » ج ٢ ص : ١٤٠

وجهك ياعمرو فيه طولُ ... وفي وجوه الكلاب طولُ
والكلب وافٍ ، وفيك غدر ... ففيك عن قدره سفول
وقد يحامي عن المواشي ... وما تحامي ولا تصول
وانت من اهل بيت سوءٍ ... قصتهم قصة تطول
وجوهُهم للورى عظات ... ولكن اقفاهمُ طبول
مستفعلن فاعلن فعولُ ... مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه ... معنى سوى انه فضولُ (١)

والى هجائه في لحية :

ولحية يحملها مائق ... شبه الشراعين اذا أشرعا
لو قابل الريح بها مرةً ... لم ينبعث من خطوه اصبعا
او غاص في البحر بها غوصة ... صاد بها حيتانه اجمعا (٢)

والى هجائه في ميت

اقول اذ هتف الداعي بمصرعه ... لبيكَ لبيكَ من داعٍ بتبيينِ
نعيتَ من جمدتْ غزرُ الدموع له ... فلم تفض عبرةٌ من عين محزون
يا منكراً ونكيراً اوجعاه فقد ... خلوتما بقليل الخير ملعون
فان تصبك من الايام جائحةٌ ... لا نَبكِ منك على دنيا ولا دين
بعداً وسحقاً له من هالك نطفٍ ... مشوَّه الخلق من نسل الشياطين (٣)

---

(١) الديوان « ك » ص : ١٥
(٢) » » » : ٤٥٦
(٣) » » » : ٤٧٤

وبعد فهل هناك هجاء افظع من هذا الهجاء وامرّ ؟

الوصف :

تتجلى شاعرية ابن الرومي في هذا النوع من الشعر كما تجلت في هجائه، فهو لا يصف مشهداً من المشاهد او شيئاً من الاشياء ، الا بعدان يحس به احساساً عميقاً ويتصوره تصوراً تاماً، فيجيء بالصورة تامة من جميع جوانبها ، والامثلة على ذلك كثيرة في الديوان ان لم نقل ان الديوان كله مملوء بهذه الصور، ولنضرب على ذلك مثلا بتلك الصورة الرائعة التي وصف بها مدينة البصرة (١) لما اقتحمها الزنوج واعملوا في اهلها سيوفهم ، واحرقوا البيوت والمساجد ، فثارت ثائرة ابن الرومي ، فقال قصيدته يحث الناس على نصرة اهل البصرة ويستفز نخوتهم . فقد ابتدأ قصيدته هذه بوصف ما كانت عليه البصرة من عز وثروة وازدهار ، وما آلت اليه حالها بعد ما نالها من اهوال هؤلاء الزنوج الذين استباحوا الحُرمات ، وعاثوا في البلد فساداً . ثم وصف الخراب الذي حلّ بالبصرة خير تصوير ، وفي ذلك يظهر ابداع ابن الرومي في تشخيص الحوادث ، واستحضار الاشكال والالوان والاصوات :

عرّجا صاحبيَّ بالبصرة الزهـ ... ـراءِ تعريج مدنف ذي سَقامِ
فاسألاها ولا جواب لديهـا ... لسؤالٍ ، ومن لها بالكلام
اين ضوضاء ذلك الخلق فيها ؟ ... اين اسواقها ذوات الزحام ؟
اين فُلْك فيها ، وفلك اليها ... منشآتٌ في البحر كالاعلام ؟

---

(١) الديوان « ك » ص : ٤١٩ . في سنة « ٢٥٧ هـ » اكتسح الزنوج عنوة مدينة البصرة ، واتوا فيها من صنوف القسوة والبربرية ما يفوق حد الوصف ،وقد سجل هذه الحادثة في قصيدته المذكورة .

اين تلك القصور والدور فيها ؟ اين ذاك البنيان ذو الاحكام ؟
بدلت تلكم القصور تلالاً من رمادٍ ومن ترابٍ رُكام

فأنت ترى حركات القوم واصواتهم ، وحالة المرفأ ، وصور القصور والدور المهدمة بعد ان كانت عامرة . ثم يصف ما آلت اليه حال ساكنيها الذين اصبحت لا ترى منهم الا اشلاءً واعضاء مبعثرة :

وخلت من حلولها فهي قفر لا ترى العين بين تلك الآكام
غيرَ ايدٍ وارجلٍ بائناتٍ نبذت بينهن افلاقُ هام
ووجوهٍ قد رملتها دماءٌ بأبي تلكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذلّ قسراً بعد طول التبجيل والاعظام
فتراها تسفي الرياح عليها جارياتٍ بهبوةٍ وقتام
خاشعات كأنها باكياتٌ باديات الثغور لا لابتسام

ثم يصور المسجد الجامع وخرابه ، وتفرق عبّاده والمصلين فيه ، فيقول :

بل ألِمَّا بساحة المسجد الجا مع ، إن كنتما ذوي إلمام
فاسألاه ولا جواب لديه اين عباده الطوال القيام
اين عمّاره الألى عمروه دهرَهم في تلاوة وصيام
اين فتيانه الحسان وجوهاً اين اشياخه أولو الاحلام ؟

هذا نمط من الوصف التصويري المشخص الذي ينطق ويتحرك كأنه « شريط سينمائي » . ولابن الرومي وصف روائي تجده في اكثر قصائده ، لا يكتفي فيه بتصوير الظواهر المحسوسة ، بل يحاول دائماً الوصول الى دخائل ما يصوره ، ويتتبع تطوراته وانقلاباته ،

حتى غلب هذا النوع على اكثر قصائده الوصفية . استمع اليه يصف الدجاجة المقلية :

وسميطة صفراءَ دينـارية ... ثمناً ولوناً زفّها لك حزْوَر

عظُمت فكادت ان تكون اوزّةً ... ونوتْ فكاد إهابها يتفطر

ظلنا نقشر لحمها عن جلدها ... وكأن تبراً عن لجين يقشر

والخلاصة ان ابن الرومي ابرع وصّاف بين شعراء العرب . فقد جمع الى وصف الاشياء المادية ، وصفه للخوالج النفسية والنوازع الوجدانية . استمع اليه يقول في قصيدته الرائعة التي اولها :

أبين ضلوعي جمرةٌ تتوقّدُ ... على ما مضى ، أم حسرةٌ تتجددُ ؟

. . . . . .

وفقدُ الشباب الموت يوجد طعمَه ... صراحاً ، وطعم الموت بالموت يفقد

سُلِبْتُ سوادَ العارضين وقبله ... بياضهما المحمود اذ انا امرد

وبُدّلتُ من ذاك البياض وحسنه ... بياضاً ذميماً لا يزال يسوَدّ

لشتّان ما بين البياضين معجب ... انيقٌ ومشنوءٌ الى العين انكد

الى ان يقول :

وما الدهر إلا كابنه فيه بكرةٌ ... وهاجرةٌ مشؤومة الجو صيخدُ

تذيق الفتى طوري رخاء وشدة ... حوادثُه ، والحولُ بالحول يطرد (١)

* * *

(١) الصيخد : عين الشمس .

الرثاء:

من خير مراثي ابن الرومي مرثيته في ابنه الاوسط ، وهي من عيون ما قيل في الرثاء ؛ صدّرها بمخاطبة عينيه ، وإن في البكاء شفاء وان كان لا يجدي . ثم وصف الداء الذي فتك بابنه وصفاً رائعاً ابان فيه عن عواطفه الابوية . ثم وصف لنا المراحل التي مرّ بها طفله وهو يتقلب على فراش المرض يلفظ انفاسه الاخيرة ، وقد ظهرت في هذه القصيدة طريقة ابن الرومي في الوصف التصويري ، كما ظهرت براعته في مرثية اهل البصرة (١) .

ولابن الرومي - غير هاتين المرثيتين - مرات كثيرة في زوجه وابنائه وامه واخيه ، وهي في الحق تعبر عما يحس به كل انسان يصاب بفقد عزيز (٢) .

الغزل :

احب ابن الرومي الحياة وملذاتها ، وشغف بالمرأة فتغزّل بها كثيراً وهو شاب ، فلما ادركته السن بكى الشباب لأنه زهّد الحسان فيه :

وكنتُ جلاء للعيون من القذى ... فقد جعلت تَقذى بشيبي وترمد
هي الاعين النجل التي كنت تشتكي ... مواقعها في القلب والرأس اسود
فما لك تأسى الآن لما رأيتها ... وقد جعلت مرمى سواك تعمد

ولابن الرومي غزل رائع ، ومن اجمله قوله :

اعانقُها والنفس بعد مشوقةٌ ... اليها ، وهل بعد العناق تدانِ ؟

---

(١) راجع القصيدتين في المختار من شعره .

(٢) انظر طرفاً من هذه القصائد في الديوان « ك » ص : ١٣ ، ٢٩ ، ٨٠ ، ٩٧ ، ١٠٤ ، ٢٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٩ ، ٤١٩ .

وألثم فاها كي تموت حرارتي فيشتدُّ ما القى من الهيمان
وما كان مقدار الذي بيَ من جوىً ليشفيه ما ترشف الشفتان
كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى ان يرى الروحين يمتزجان

ومن اجمل قصائده في الغزل ، مطولته التي تُسمى «بجنّة المحبين» والتي اولها :

اجنت لك الوجدَ اغصانٌ و كثبانُ فيهنَّ نوعان : تفاح ورمّان

ولابن الرومي غزل مذكر ، كقوله :

ومهفهفٍ كملت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكؤوس الى مراشفه وتضجُّ في يده من الحبس
ابصرته والكأس بين فمٍ منه ، وبين انامل خمس
فكأنها وكأن شاربها قمرٌ يقبل عارضَ الشمس

المديح :

ما كان ابن الرومي يمدح إلا ليتكسَّب بمدائحه ، ولذلك خلت قصائد مديحه من الروح العاطفية التي وجدناها في مراثيه وغزلياته . وقد مدح ابن الرومي طائفة من الوزراء ورجال الدولة ممن كان يحتمي بهم وينال عطاياهم ، امثال : آل طاهر ، وآل وهب ؛ وآل المنجّم ، وآل ثوابةَ .

اما آل طاهر ، فقد كانوا من كبار رجال بني العباس ؛ تقلدوا زمام امور الدولة من عهد المأمون الى ايام ابن الرومي ، واكثر مدائح ابن الرومي لهذه الاسرة قالها في عبيد الله واخيه محمد ابني عبد الله بن طاهر . فمما قال في مديح عبيد الله :

انت كحل الكحول يوم ترى الرأ يَ ، ويوم الوغى من الفتيان

لك جهل في غير ما خفه الحلـ ـل ، وحلم في غير ما إدهان
واذا زاول الامور فثبت رابط الجأش أيّد الاركان
يتقي ألسن السؤال بعرض وافر مكرم ، ومال مهان
يا بني طاهر ، طهرتم ، وطبتم وذكوتم في السر والاعلان

واما ابناء وهب ، فقد كانوا من كتاب الدولة الاموية ، ثم حظوا عند العباسين بمكانة في عالم الكتابة والادب ، واشتهر منهم ايام ابن الرومي القاسم بن عبيد الله بن وهب وابوه ، وله فيهما مدائح جيدة (١) .

واما آل المنجّم ، فهم من العلماء الفرس ، وقد مدح ابن الرومي منهم علي بن يحيى وابنه يحيى بن علي ، فمن جيّد قوله فيه :

لو ابى الراغبون يوماً نداه لدعاهم اليه بالترهيب
رُبَّ اكرومةٍ له لم تَخِلْها قبله في الطباع والتركيب
غرّبته الخلائق الزهر في النا س وما اوحشته بالتغريب
يهب النائل الجزيل مُعيراً طرفه الارض ناكتاً بالقضيب (٢)

واما آل ثوابة ، فهم من الامراء والكتاب في عصره ، وله فيهم مدائح كثيرة ، واكثر مدائحه في ابي العباس بن ثوابة (٣) .

ومدائح ابن الرومي طويلات كأكثر شعره ، فمديحته في يحيى بن علي بن المنجم

---

(١) راجع المختار من شعره .
(٢) راجع القصيدة في الديوان « ش » ج ١ ص : ١٠١
(٣) راجع في المختار من شعره ، مدحة ابن الرومي في ابي العباس .

تبلغ نحو مئة بيت كلها في المديح السامي . ويظهر ان ابن الرومي ما كان ينشرح صدره للعطايا التي يهبه اياها ممدوحوه لقلتها او لحرمانه منها ، والى ذلك يشير بقوله :

تأمّل العيب عيب ... وليس في الحق ريب
ان يمسك الناس عني ... سَيْباً فلله سَيْب

العتاب والاستعطاف والتهاني :

لابن الرومي قصائد متعددة في العتاب والاستعطاف والتهاني ، وقد برع في هذا النوع براعته في الهجاء ، لانه اخو الهجاء . ومن اجمل قصائده في العتاب قصيدته التي عاتب بها ابا القاسم التوّزي ، وقصيدته التي قالها في معاتبة ممدوحيه آل وهب (١) . وقد اعجب صاحب العمدة بعتاب ابن الرومي لأبي الصقر اسماعيل بن بُلْبُل ، فسرد طرفاً من تلك القصيدة ، ثم علق على ذلك بقوله : «هذا الذي لا يُبلغ جودة ، ولا يجارى سبقاً ؛ على ان البحتري قد تقدم الى بعض المعنى (٢)» .

ومن اجمل عتابه قوله في آل وهب :

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا ... نبال العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنت ارجو منكم خير ناصرٍ ... على حين خذلان اليمين شمالها
فان انتم لم تحفظوا لمودتي ... زماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا موقف المعذور عني بمعزلٍ ... وخلوا نبالي ، والعدا ونبالها
هي النفس إما ان تعيش بغبطةٍ ... وإلا فغنم ان تزول زوالها

---

(١) راجع المقطوعتين في المختار من شعره .
(٢) العمدة ج ٢ ص : ١٣٢ — ١٣٣

ولابن الرومي عتاب جيد لبعض العلماء ، ممن كانوا يفضلون عليه شاعراً آخر ، كعتابه لابي عبد الله الباقطّاني لما قدّم البحتري عليه :

الى الله اشكو ان بحري زاخرٌ ... واني من المعروف في منهل ضَحْل
ثناؤكم للبحتري وودكم ... ومدحي لكم حاشا هواكم من الخبل
فان قلتم للحكم بالحق فضله ... فما لِلَدِيغ النحل من عسل النحل
ألم يتجهمكم بمدحٍ كأنّه ... شبا الحد اسرى في البقاع من النمل
هجاكم بمنذور الهجاء ووغده ... وما حيلة الحسناء بالعاج والذبل
فعارضته فيكم بمدحٍ كأنه ... شباب جديد ، او صقال على نَقْل
فكافأتموني بالذي هو اهله ... من المنع والحرمان والرفض والخذل (١)

اما التهاني فلم يكن ابن الرومي بارعاً فيها ، لانه لم تكن توافق طبيعته ، وليس في ديوانه الا بضع قصائد اشهرها قصيدة يهنيء الخليفة المعتضد بالعيد ، وليس فيها معانٍ جليلة ولا صور بديعة (٢).

فلسفته :

ما كان لابن الرومي فلسفة بالمعنى الذي يفهمه الناس في عصرنا هذا ، وانما كانت له نظرات عميقة في الحياة لا تشبه في شيء نظرات الفيلسوف اليها ، لان الفيلسوف ينظر الى الحياة نظرة تفكير وبحث واستقصاء . اما الشاعر فينظر اليها نظرة فنيّة ، يستهويه منها

---

(١) انظر القصيدة في الديوان « ك » ص : الضحل : الماء القليل على الارض لا عمق له . تجهم له وتجهمه : استقبله بوجه عبوس . الذبل بفتح الذال : عظم ظهر السلحفاة .

(٢) الديوان « ك » ص : ١٧٧

جمالها المحسوس ، ومباهجها المغرية . ويقول الاستاذ العقاد : « . . . ان الفلسفة ابعد المطالب عن ابن الرومي ، وان ابن الرومي ابعد الناس عن الفلسفة . وان قريحة ابن الرومي كانت نقيض القريحة التي يحتاج اليها الفيلسوف . لان الفيلسوف يجرّد كل شيء ليراه بعين الفكر ، حيث تلتقي الكليات ، وتنعدم الفوارق والاجزاء ؛ وابن الرومي كان يجسم كل شيء ليراه بعيني الفنان في عالم الانوار والاشكال والخطوط والحركات (١) » .

والحق ان ابن الرومي كان يحيا باحساسه وشعوره ، اكثر مما يحيا بعقله وتفكيره . وبذلك استحق لقب الشاعر الفنان .

مكانته في الأدب العربي :

يحتل ابن الرومي مكانة فريدة في الادب العربي لانفراده بالخصائص الفنية التي تحدثنا عنها في كلامنا عن شعره . وقد تمتع بهذه المكانة التي ميزته عن كبار شعراء العربية لامعانه في تتبع المعاني واستخراجها من مكامنها وعرضها باسلوب طريف ونفس طويل يبلغ المئة والمئات من الابيات رغم صعوبة القوافي التي انتقاها . كما ان هناك مزايا انفرد بها عن غيره من كبار الشعراء وهي سهولة الفاظه واسترساله في النظم استرسالاً يخيل لقارئه انه يقرأ نثراً لا شعراً . وهناك مزية اخرى امتاز بها شاعرنا وهي كثرة المعاني المخترعة وقلة المعاني المسروقة من شعره .

---

(١) ابن الرومي للعقاد ص : ٣٠٤

هذا ما رفع من مكانة ابن الرومي في الأدب العربي فتأثر الناس بشعره ولا يكاد يخلو كتاب ادبي من ذكره والاستشهاد بشعره ، الا صاحب الاغاني فانه تعمّد اهماله لسببين : اولهما فيما يظن ان ابا الفرج كان شديد التعصب للبحتري والاعجاب به فلم يشأ رعاية لصديقه البحتري ان يذكر ابن الرومي في كتابه العظيم . وثانيهما : ان ابن الرومي كثير الاقذاع في هجائه فلعل هذا ما دعا ابا الفرج الى اهماله .

مختارات من شعره

المديح :

قال من قصيدة طويلة يمدح بها ابا العباس بن ثوابة ، ويهجو الكوكبيّ (١) :

أنّى هجوتَ بني ثوابهْ ... يا صاحبَ العين المُصابَهْ (٢)

اهلَ السماحة والرجا ... حة والاصالة واللّبابه (٣)

القائلين الفاعلي ... ن أولي الرياسة والنقابه

والفارعينَ المجدَ وال ... بانين فوقهم قِبابه

الآخذين بأنفه ... لا كالأولى علقوا ذنابه

نُجُبٌ تلوح اذا بدَوا ... بوجوههم غُرَرُ النّجابه (٤)

لم يبقَ طَوْدٌ للعُلا ... لا يرتقي احدٌ هضابه (٥)

إلا كأنّ اللهَ ذلّ ... لَ عامداً لهُمُ صعابه

واذا استعار المجدَ يو ... ماً معشرٌ ملكوا رقابه

يا ربَّ رأيٍ فيهمُ ... لا تبلغُ الآراءُ قابه (٦)

وندىً اذا فُقدَ الندى ... يَتَتَبَّعُ العافي مَصابه (٧)

---

(١) الديوان « ش » ج ١ ص : ١٤٦ .

(٢) أنّى : كيف . العين المصابة : العين المريضة . (٣) اللبابة : العقل . (٤) نجب : جمع نجيب وهو الكريم الحسيب . (٥) الطود : الجبل العظيم . (٦) قابه : مقداره . (٧) العافي : طالب العرف وهو العطاء ، ومصابه : محل انصبابه .

قومٌ اذا صَدْعٌ تَفا ... قَمَ مَرَّةً كانوا رئابَهْ (١)

واذا شتاءٌ أَخْلَفَتْ ... انواؤه خلفوا سَحابه (٢)

جُعلَتْ بيوتُهم مع الْـ ... ـبَيْتِ العتيق لنا مَثابه (٣)

تنتابُ فيها نائلاً ... جَزْلاً اذا شئنا انتيابه

ويلوذُ لائذنا بها ... إن حبلُنا اضطرب اضطرابه

لم يدعُهم مُستنجدٌ ... إلا ودعوتُه المُجابه

كم عائذٍ من دهره ... بهمُ اذا ما الدهرُ رابه (٤)

خذْ في النوائب منهمُ ... حبلاً ولا تَخَفِ انقضابه (٥)

أَمثالَهمْ فاعمُمْ بمدْ ... حك عمَّهم حُسْنُ الصحابه

واخصُص ابا العباس بحـ ... ـرَ الجُود حمَّالاً سرابه

مَلِكٌ يظَلُّ اذا غدا ... تتعاوَرُ الايدي ركابه (٦)

سائل بسؤدَدِه المعا ... شرَ بل نَداهُ والنسكابه

يُخبرْكَ عنه باليقيـ ... ـن ويجعلُ الجدوى جوابه

غَيْثٌ اذا استمطرتَهُ ... أَلفيتَ من ذَهَبٍ ذهابه (٧)

قَعَدَ العُفاةُ وسيبُهُ ... يَختَبُّ نحوَهمُ اختبابه (٨)

---

(١) الصدع : الشق في صلب ، والمراد هنا الحطب . وتفاقم : اشتد والتوى . والرئاب : جمع رؤبة وهي ما يشعب به الصدع . (٢) الانواء : الامطار . (٣) المثابة : المجتمع . (٤) رابه : تنكر له . (٥) الانقضاب : الانقطاع . (٦) تتعاور : تتناوب . (٧) الذهاب : جمع ذهبة وهي المطر الغزير . والمعنى انك اذا طلبت نداه أمطر عليك ذهباً . (٨) العفاة جمع العافي . سيبه : عطاؤه . يختب : يسير سيراً سريعاً .

أغنتهمُ نفحاتُه حتى لقد هجروا جنابَهْ
لكنْ وفودُ الشكر لا تنفكُّ قد شحنتْ رحابه
ولَمَا ابتغى من شاكرٍ شكرَ النوال ولا استثابه (١)
أعطى الذي لو سيمَ حا تِمُ أخذَهُ يوماً لهابه
فأباحَهُ حمدَ الورى مالٌ اباحهم انتهابه

وقال يمدح الوزير القاسم بن عبيد الله (٢) :

مطايبُ عيشٍ زايلته مخائبُه ومُقبلٌ حظ أطلقته روائبُهْ (٣)
ودولةُ اقبالٍ ويُمْنٍ وغبطةٍ كأنَّ حزونَ الدهر فيها دمائثه (٤)
وغيثٌ أظلَّ الارض شرقاً ومغرباً فقيعانُه خضرُ النَّباتِ أثايثه (٥)
فظبيٌ له سحرانِ طَرْفٌ ونَغمةٌ يُجِدُّ بك الاغرامَ حين تعابثه (٦)
يُناغمُ اوتاراً فصاحاً يروقُنا تأنّيه في تصريفها وحثاثه (٧)
ويلحظُ ألحاظاً مراضاً كأنها تُغانجُ من يرنو لها وتُخاتله
فيَسبيك بالسحر الذي في جفونه ويُصبيك بالسحر الذي هو نافثه
يَحنُّ اليه القلبُ وهو سَقامُهُ ويألَف ذكراه الحشا وهو فارثه (٨)
يُجيعُ وشاح الدُّرّ منه مَحالُه ويُشبِعُ مُرط الخَزّ منه ملاوثه

---

(١) استثابه : طلب مثوبته .

(٢) الديوان « ش » ج ٢ ص : ٢٢ .

(٣) المربث عن الحاجة : الحبس عنها . (٤) الدمث : السهل اللين . (٥) نبات أثيث : كثير عظيم
(٦) تعابثه : تلاعبه . (٧) حثاثه : سرعته (٨) فرث الكبد يفرثها « بالكسر » يضربها .

وقد طلعت باليمن والسعد كلّه ... لنا والثرى ريان تندى مباحثه

ثلاثة اعياد ، فللفطر واحد ... وللعرف ثانيه وللهو ثالثه

يعيّدها فرع من المجد طيّب ... جناه اذا ما الفرع جمّت خبائثه (١)

ألا فاسقني في الفطر كأساً رويّة ... لعل لهاث الصوم ينقع لاهثه (٢)

مشعشعة يصحي لها العود ناطقاً ... تناغى مثانيه لنا ومثالثه

مع ابن وزير لم يزل ومحلّه ... من الفضل يرضاه النبيّ ووارثه

وما كنت مكذوباً وما كنت كاذباً ... لدى الله لو قلت : النبيء وباعثه

من الصالحين المصلحين بيمنه ... غدا العيش محموداً ولمّت مشاعثه (٣)

اذا لم يعث في ماله لعفاته ... فما يعرف العيث الذي هو عائثه (٤)

تضمّن تذليل الزمان فأصبحت ... أواعره ذلّت لنا وأواعثه (٥)

وأيّد بابن مثله في غنائه ... اذا كثرت من ريب دهر كوارثه

أغرّ يكنى بالحسين تضمّنت ... محاسنه ألاّ تغبّ مغاوثه (٦)

اذا ما عبيد الله ضاهاه قاسم ... فثمّ قديم المجد ضاهاه حادثه

ألا بورك الزرع الذي انت زارع ... من البرء والحرث الذي هو حارثه (٧)

ويا حالفاً أن ما رأى مثل قاسم ... على ظهري الحنث الذي انت حانثه

---

(١) جمت : كثرت . (٢) اللهاث « بالفتح » : حر العطش و « بالضم » اخراج اللسان من العطش .
(٣) لمت مشاعثه : جمعت متفرقاته . (٤) العيث : الفساد . (٥) اواعره : الطرق الوعرة . الوعث : المكان السهل الدهس تغيب فيه الاقدام ، وهو الطريق العسر . (٦) تغب : تشرب . المغاوث : المياه .
(٧) الحرث : قلب الارض . ويريد به ان اباه عبد الله حرث الارض للاحسان وهيأها لابنه القاسم فزرعها فبورك بالحرث وبورك بالزرع .

بَرِرْتَ ، وعهدِ الله ، بِرّاً مبيَّناً ... وإن كثُرت من ذي شقاقٍ هَنابِثُه (١)

أَبى ان يُرى الحقُّ الذي هو باخسٌ ... أَخاه او العهدُ الذي هو ناكثه

حليمٌ عليمٌ إن تجاهل دهرُهُ ... جوادٌ كريمٌ ان ألحَّتْ مفارثه

يظلُّ وتدبيرُ الممالك جدُّهُ ... وبذلُ العطايا المُنْفِسات معابثه (٢)

فتى يَقتُلُ الاموالَ في سُبُلِ العُلا ... لِنورِثَهُ المجدَ السَنيَّ موارثه

ضرورٌ نفوعٌ عاجلُ النفع ثَرُّه ... على مُعتَفيه ، آجلُ الضرِّ رائثه (٣)

سخى جودُه عن كل سَمحٍ وباخلٍ ... شذى القولِ حتى أَحسن القول ناقثه (٤)

ترى حاجبَيْه ذا سؤالٍ يَميحُه ... فواضلَه ، او ذا سؤالٍ يُباحثه (٥)

وما يجتني الميسورَ من لا يزورُه ... ولا اللؤلؤَ المنثورَ من لا يحادثه

وإما أغذَّ السيرَ في إثرِ خطَّةٍ ... فلا العجزُ ثانيه ولا الشكُّ رابثه (٦)

وإما أغار الحزمَ للخطب مرَّةً ... فلا الحزمُ مُعييه ، ولا الخطبُ كارثه

أظلُّ اذا لاقيتُ غرَّةَ وجهه ... وليلي نهارٌ ساكنُ الظلِّ ماكثه

ليَقْصُرْ عليه اليومُ في ظلِّ غِبطَةٍ ... ولا يقصرُ العمرُ الذي هو لابثه

ولا زال قصرُ القفصِ أَعمرَ منزلٍ ... به ، وبدهرٍ صالحٍ لا يُماغثه (٧)

---

(١) الهنابث : جمع هنبثة : وهي الامر الشديد والاختلاط في القول . (٢) المنفسات : الواسعات .

(٣) ثره : بدده . معتفيه : طالبو عطائه . رائثه : مبطئه . (٤) شذا القول : آذاه ، وناقثه اسم فاعل من نقث فلان فلاناً بالكلام آذاه به . يقول : عمّ جوده جميع الناس فانتهى من يرتزن بالقول المؤذي عن ان يؤذي احداً بكلامه جواداً كان او بخيلاً ولم يصدر منه الى القول الحسن. وقال الشيخ محمد شريف وفي الاصل « انافثه » ولا يوافق معناها هنا فضلا عن ان ابن الرومي لا يكرر الكلمة بصيغة واحدة .

(٥) يميحه : يخالطه . (٦) اغذ : اسرع . (٧) القفص : قرية كانت مشهورة قريبة من بغداد وكانت فيها مواطن اللهو ومعاهد التنزه ومجالس الفرح . المغث : هتك العرض ومضغه والشر .

فما فضلُهُ والمدحُ دعوى ومُدَّعٍ ولكنْ هما مسكٌ ذكيٌّ ومائشُهْ (١)

***

الرثاء:

قال من قصيدة يرثي بها اهل البصرة ، ويذكرنا ما نالهم من صاحب الزنج ، ومطلعها (٢) :

ذادَ عن مقلتي لذيذَ المنامِ شغلُها عنه بالدموع السجامِ
أيُّ نومٍ من بعدما حلَّ بالبص رةِ ، ما حلَّ من هَناتٍ عظامِ
ايّ نومٍ بعدما انتهك الزَّنْ جُ جهاراً محارمَ الاسلام (٣)
إن هذا من الامور لأمرٌ كادَ أن لا يقومَ في الاوهام
. . . . . .
لو رأينا ـ مُستيقظين ـ اموراً حسبُنا ان تكون رؤيا منام
اقدمَ الخائنُ اللعينُ عليها وعلى الله ، أيما إقدام
وتسمى بغير حقٍ إماماً لا هدى الله سعيَه من إمام
لهفَ نفسي عليكِ ايتها البص رةُ ، لهفاً كمثل لَهْبِ الضرام
لهفَ نفسي عليك يامعدنَ ال خيرات ، لهفاً يُعضُّني ابهامي

---

(١) مائه : خالطه .

(٢) الديوان « ك » ص : ٤١٩ .

(٣) في سنة سبع وخمسين ومائتين اكتسح الزنج مدينة البصرة عنوة واتوا فيها من صنوف القسوة والبربرية ما يفوق الوصف شناعة ووحشية .

لهفَ نفسي يا قُبةَ الاسـ ... ـلامِ ، لهفاً يطولُ منه غرامي

لهف نفسي عليك يا فُرْضةَ البُـ ... ـدان ، لهفاً يبقى على الاعوام (١)

لهف نفسي لجمعك المتفـاني ... لهف نفسي لعزّك المستضام

***

بينما اهلها بأحسن حالٍ ... إذ رماهم عبيدُهم باصطلام (٢)

أيّ هولٍ رأوا بهم ، اي هول ... حُقَّ منه يَشيبُ رأسُ الغلام

إذ رموهم بنارهم من يمينٍ ... وشمالٍ وخلفِهم وأمام

كم أغصّوا من شاربٍ بشرابٍ ... كم اغصّوا من طاعم بطعام

كم جنينٍ بنفسه رام منجى ... فتلقوا جبينه بالحُسام

كم أخٍ قد رأى أخاه صريعاً ... تَرِبَ الخدّ بين صرعى كرام (٣)

كم أبٍ قد رأى عزيزَ بنيه ... وهو يُعلى بصارمٍ صمصام

كم مفدىً في اهله أسلموه ... حين لم يَحْمِه هنالك حامي

كم رضيعٍ هناك قد فطموهُ ... بشَبا السيف قبل حين الفِطام

كم فتاةٍ بخاتم الله بِكرٍ ... فضحوها جهراً بغير اكتتام (٤)

كم فتاةٍ مصونةٍ قد سَبَوْها ... بارزاً وجهُها بغير لثام

صبحوهم ، فكابد القومُ منهم ... طولَ يومٍ كأنه ألفُ عام

---

(١) الفرضة : « بالضم » الثلمة من النهر يستقى منها ، ومن البحر محطّ السفن . ويريد بها الثغر .
(٢) الاصطلام : قطع الاذن والانف من اصله . (٣) ترب الخد : ملوثاً خده بالتراب . (٤) اكتتام : استتار .

مَن رآهنّ في المساق سبايا ... داميات الوجوه للأقدام

من رآهن في المقاسم وسط الزنـ ... ـجِ يُقْسَمْنَ بينهم بالسهام

من رآهن يُتَّخَذْنَ إماءً ... بعد ملك الاماءِ والخُدّام

ما تذكرتُ ما أتى الزنج إلا ... أضرمَ القلبُ ايما اضرام

ما تذكرت ما أتى الزنج إلا ... اوجعتني مرارةُ الارغام

وقال يرثي ابنه الاوسط (١) :

بكاؤكما يشفي ، وإن كان لا يُجدي ... بجودا ، فقد أودى نظيرُكما عندي (٢)

ألا قاتلَ اللهُ المنايا ورميَها ... من القوم ، حبّاتِ القلوب على عَمْد

توخى حِمامُ الموت اوسطَ صبيّتي ... فلله ، كيف اختارَ واسطةَ العِقد (٣)

على حينَ شِمْتُ الخيرَ من لمحاته ... وآنستُ من افعاله آيةَ الرُّشد (٤)

طواهُ الردى عني فأضحى مزارُهُ ... بعيداً على قُربٍ ، قريباً على بُعد (٥)

لقد أنْجَزَتْ فيه المنايا وعيدَها ... وأخلفَتِ الآمالُ ما كان من وَعد

لقد قَلَّ بين المهدِ واللحد لَبْثُهُ ... فلم ينسَ عهدَ المهد ، إذ ضُمّ في اللحد

ألحّ عليه النَّزْفُ حتى أحالَهُ ... الى صفرةِ الجاديّ ، عن حُمرَةِ الورد (٦)

وظلّ على الايدي تساقطُ نفسُهُ ... ويذوي كما يذوي القضيب من الرَّند (٧)

---

(١) الديوان « ك » ص : ٢٩

(٢) بكاؤكما . الخطاب لعينيه . أودى : اهلك . (٣) توخى : تحرى . (٤) شمت الخير : توقعته .

(٥) يريد بالقرب قرب المكان . وبالبعد بعد اللقاء . (٦) الجادي : الزعفران وهو اصفر . (٧) الرند : الغار وقد يسمى به الآس ، وهما نوعان من الريحان .

فيالكِ من نفسٍ تساقطُ أنفُساً ... تساقطَ دُرٍّ من نظام بلا عقدِ

عَجبتُ لقلبي! كيف لم ينفطرْ له؟ ... ولو أنهُ اقسى من الحجر الصلد

وما سرَّني، أن بعتُه بثوابه ... ولو انه التخليدُ في جنة الخلد

ولا بعتُهُ طوعاً، ولكن غُصبتُهُ ... وليس على ظُلمِ الحوادث من مُعد (١)

وإني وإن مُتعتُ بابنيَّ بعدَه ... لذاكرُهُ، ما حنَّتِ النيبُ في نجد (٢)

واولادُنا مثلُ الجوارح أيها ... فقدناه، كان الفاجعَ البيّنَ الفقد (٣)

لكلِّ مكانٌ لا يسدُّ اختلالَه ... مكانُ اخيه من جزوعٍ ولا جلد

هل العينُ بعد السمعِ تكفي مكانَه ... أم السمعُ بعدَ العين يهدي كما تهدي

لعمري لقد حالت بيَ الحالُ بعدَهُ ... فياليتَ شعري كيف حالَت به بعدي

ثكلتُ سروري كلَّهُ اذ ثكلتُهُ ... واصبحتُ في لذّات عيشي اخا زُهد

أريحانةَ العينين والانف والحشا ... ألا ليت شعري هل تغيَّرتَ عن عهدي

سأسقيك ماءَ العين ما أسعدَتْ به ... وإن كانت السُّقيا من الدمع لا تُجدي

إعينيَّ جودا لي فقد جدتُ للثرى ... بأنفسَ مما تسألانِ من الوفد

كأني ما استمتعتُ منكَ بضمَّةٍ ... ولا شمَّةٍ في ملعبٍ لكَ او مهد

ألامُ لما ابدي عليك من الأسى ... وإني لأخفي منك اضعاف ما أبدي

محمد ما شيءٌ تُوهِّمَ سلوةً ... لقلبيَ الا زاد قلبي من الوجد

أرى اخويك الباقيَين كليهما ... يكونان للأحزانِ اورى من الزند

---

(١) معد: من اعدى بمعنى نصر واعان. يقول ليس هناك من معين على ظلم الحوادث.

(٢) النيب: جمع ناب وهو الناقة المسنة. (٣) الجوارح: اعضاء الانسان.

اذا لعبا في ملعبٍ لكَ لذَّعا ... فؤادي بمثل النار عن غير ما قَصْدِ
فما فيهما لي سلوةٌ بل حزازةٌ ... يهيجانها دوني واشقى بها وحدي
وأنت وان أفْرِدْتَ في دار وحشةٍ ... فاني بدار الانسِ في وحشة الفَرْد
عليك سلامُ الله مني تحيةً ... ومن كل غيثٍ صادق البرق والرعد

* * *

الهجاء :

قال ابن الرومي يهجو ابن فراس (١) :

وكم عائبٍ قد عابني وهو صادقٌ ... وأدبر عني ، والذي فيه أَعيَبُ
رماني بسوءٍ لستُ اعديهِ صاحبي ... ولا هو مما يُستفاد ويُكسب
وباءَ بسوءٍ فيه يُعيديه غيرَه ... ويجلبُه والسوءُ يُعدي ويُجلب (٢)
وما ذاك إلا ثلبُه الناسَ طائعاً ... وما برح الثلاّبُ للناس يُثلب (٣)
وكم بين ذي سوءٍ تعدّاه سوءُه ... مُريداً لما يأتيه يبغي ويَشغَب (٤)
وآخرَ لا يعدوه ما فيه طالبٍ ... زوالَ التي تُنعى عليه وتُندب
لشتّانُ ما بين المَعيبَين ، ظالمٍ ... يَحِقُّ عليه العتْبُ والمُتَعَتَّب
وآخرَ لم يَظْلِمْ ، فكلُّ مُؤنّبٍ ... تحدّاه بالتأنيب فهو مُؤنّب

---

(١) الديوان « ش » ص : ٣٦١ . وفي الاصل ابن فراس بالسين مهملة ، وفي ترجمة ابن الرومي لابن خلكان ان ابن فراش « بالشين المعجمة » سمّ ابن الرومي وقد دسه عليه الوزير القاسم ابن عبيد الله .

(٢) باء : رجع . (٣) ثلبه : عيبه . الثلاب : العائب . (٤) يشغب : يهيج الشر .

وقال يهجو البحتري (١) :

قد قلتُ اذ نحلوه الشعر: حاش له ... إن البروك به اولى من الخبب (٢)

البحتريّ ذنوبُ الوجه نعرفه ... وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب (٣)

أنّى يقولُ من الاقوال أنقبها ... من راح يحمل وجهاً سابغَ الذَّنب (٤)

اولى بمن عظُمتْ في الناس لحيته ... من نحلة الشعر أن يدعى ابا العجب (٥)

وحسبُه من حِباءِ القوم أن يَهَبوا ... له قفاه ، اذا ما مرّ بالعُصَب

ما كنت احسب مكسوّاً لحليته ... يُعفى من القَفْد او يدعى بلا لقب (٦)

لهفي على ألفِ موسى في طويلته ... اذا ادعى انه من سادة العرب (٧)

او قال : إني قريعُ الناس كلّهم ... في الشعر وهو سقيم الشعر والنسب (٨)

الحظُّ اعمى ، ولولا ذاك لم تَرَهُ ... للبحتريّ بلا عقلٍ ولا حَسب

وغدٌ ، يعاف مديحَ الناس كلهم ... ويطلب الشتمَ منهم جاهدَ الطلب (٩)

داءٌ ، من اللؤم يَستشفي الهجاءَ له ... كذلك الحكُّ يستشفيه ذو الجَرب

---

(١) الديوان « ك » ص : ٣٤ .

(٢) نحلوه الشعر : نسبوه الى البحتري . الخبب : نوع من العدو . (٣) الذنوب : الفرس الوافر الذنب ويريد بقوله « ذنوب الوجه » ان وجهه ذو ذنب وافر اي لحية ضافية . (٤) أنقبها : اشدها وانفذها (٥) نحلة الشعر : ادعاؤه . (٦) القفد : صفع القفا بباطن الكف . يعني : انه ما كان يظن ان من كان له مثل هذا الوجه يترك بدون ان يصفع قفاه او يسمى باسم مجرد من لقب يشعر بالذم . (٧) الموسى : آلة الحلاقة . طويلته : يريد بها لحيته . فهو يتمنى الف موسى تعمل في لحيته حتى تزول فلا يدعى بعدها انه من سادة العرب . (٨) القريع : المقارع وهو الغالب . (٩) الوغد : الاحمق الضعيف الرذل الدنيء .

أراك لم ترضَ ما اهدى له نفرٌ من شتمِ امٍّ لئيمٍ خيمُها ، وأب (١)

فارض ، الذي انا مُهديه اليه ، له من مُرمِضِ القذع ، وارض النار للحطب (٢)

وقال يهجو (٣) :

ملأكَ النفاقُ طباعه فتثعلبا وابى السماحة لؤمه فاستكلبا

فترى غُروراً ظاهراً من تحته نكَدٌ فقبّح شاهداً ومُغيّباً

ولشرُّ من جرّبته في حاجة من لا تزالُ به مُعنّىً متعبا

من لا يبيعُك ما تريدُ ولا يرى لك حُرمةً إن جئته مُستوهِبا

وقال يهجو (٤) :

إن كنتَ من جهل حقي غيرَ معتذرٍ او كنت من ردّ مدحي غير مُتأَّب (٥)

فأعطني ثمن الطرسِ الذي كُتِبَتْ فيه القصيدةُ او كفارةَ الكذب (٦)

***

---

(١) الخيم : الطبع .

(٢) مرمض القذع : موجع القول الفاحش .

(٣) الديوان «ش» ص : ٤٨٢

(٤) « « « ص : ٣٣٩

(٥) متأب : اسم فاعل من اتأب بمعنى خزي واستحيا .

(٦) الطرس «بالكسر» : الورق .

العتاب :

قال من قصيدة يعاتب بها ابا القاسم التَّوَّزيّ الشّطرنجي (١) :

يا اخي ! اين رَيْعُ ذاك اللقاءِ ؟ ... اين ما كان بيننا من صفاءِ ؟ (٢)
اين مصداقُ شاهدٍ كان يحكي ؟ ... أنك المخلصُ الصحيحُ الاخاء
شاهدٌ ما رأيتُ فعلك إلا ... غير ما شاهدٍ له بالزكاء
كشفَتْ منك حاجتي هَنوات ... غُطّيَتْ برهة بحسن اللقاء (٣)
تركتني ولم اكن سيء الظـ ... ـنّ أسيء الظنونَ بالاصدقاء
قلت : لما بَدَتْ لعيني شَنعا ... ءُ شوهاءَ في حشا حسناء
ليتني ما هتكتُ عنكن ستراً ... فَثُويتُنَّ تحت ذاك الغطاء (٤)
قُلنَ : لولا انكشافُنا ما تجلّت ... عنك ظلماءُ شبهةٍ قمراء (٥)
قلت : أَعْجِبْ بكنّ من كاسفاتٍ ... كاشفاتٍ غواشي الظلماء (٦)
قد أفدْتُنّني مع الخُبْرِ بالصا ... حبِ أَنّ الرُبّ كاسفٌ مستضاء
قلن : أعجب بمهتدٍ يتمنى ... أنه لم يزل على عمياء
كنتَ في شُبهةٍ فزالت بنا عنـ ... ـكَ فأوسعتنا من الازراء
. . . . . .
ليس في الحق أن تَوَدّ لِخِلّ ... أنّه الدهرَ كامنُ الأدواء

---

(١) الديوان «ش» ص : ١٤ .

(٢) الريع : الثمرة وما كان ينتظر منه . (٣) هنوات : جمع هنة اصلها هنوة بمعنى الشيء (٤) ثويتن : قبرتن . (٥) قمراء : سوداء . (٦) كاسفات : عابسات ، سيئات الحال . غواشي الظلماء : غطاءات الظلمة .

بل من الحق ان تنقر عنـ ـهن ، وإلا فأنت كالبُعَداء (١)

إن بحثَ الطبيب عن داء ذي الدا ـء لأسٌ الشفاء قبل الشفاء (٢)

دونك الكشفَ والعتابَ فقوّمْ بهما كل خلّةٍ عوجاء

ومن هذه القصيدة وصفه للشطرنج ، وهو قوله :

تهزمُ الجيشَ أو حديّاً وتلوي بالصناديدِ أيما إلواءِ (٣)

وتحطّ الوَخاخَ بعد الفرازيـ ـنِ فتزدادُ شدةَ استعلاء (٤)

ربما هالني وحيّر عقلي أخذُك اللاعبين بالبأساء

ورضاهُمْ هناك بالنّصف والرُّبـ ـع وأدنى رضاك في الارباء (٥)

واحتراسُ الدُّهاة منك وإعصا ءُك بالاقوياء والضعفاء

عن تدابيرك اللّطاف اللواتي هُنّ أخفى من مُستَسرّ الهَباء

بل من السر في ضمير محبّ أدّبَتْهُ عقوبةُ الافشاء

فاخالُ الذي تُدير على القو مِ حروباً دوائر الأرحاء (٦)

واظن افتراسك القِرْنَ فالقِرْ نَ منايا وشيكةَ الارداء (٧)

وأرى ان رُقعةَ الأدم الاحـ ـمرَ ارضٌ جَلّلْتَها بدماء (٨)

غلِطَ الناسُ لستَ تلعبُ بالشطـ ـرَنج ، لكن بأنفس الأحباء

---

(١) تنقر : تبحث . (٢) الاس : اجادة الطبيب والبحث عن الداء والتحقق منه . (٣) اوحديا : واحداً . تلوي بالصناديد : تهزم الشجعان . (٤) الرخاخ والفرازين : من ادوات الشطرنج . (٥) الارباء : الزيادة . (٦) الارحاء : جمع رحى وهي حجر الطاحون . (٧) القرن : من يماثلك في القتال . وشيكة : سريعة . (٨) رقعة الادم : القطعة من الجلد يلعب بها الشطرنج .

لك مكرٌ يدبُّ في القوم أخفى ... من دبيب الفناء في الاعضاءِ
او دبيب الملال في مستها مَيْـ ... ـنِ الى غايةٍ من البغضاءِ
او مسيرِ القضاء في ظُلَمِ الغَيْـ ... ـب الى من يريده بالتواءِ
تقتلُ الشاةَ حيث شئت من الرُّـ ... ـمة طبًّا بالقتلة النكراء (١)
غير ما ناظرٍ بعينك في الدسـ ... ـتِ ولا مقبلٍ على الرُّسلاء
بل تراها وانت مستدبر الظهـ ... ـر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قِرناً يُوَلّي ... وهو يردي فوارسَ الهيجاء
ربَّ قومٍ رأوك ريعوا فقالوا ... هل تكون العيون في الاقفاء
والفؤاد الذكيُّ للمطرقِ المهـ ... ـرض عينٌ يرى بها من وراء
تقرأ الدستَ ظاهراً فتؤديـ ... ـه جميعاً كأحفظ القُرَّاء

قال يعتب على آل وهب (٢) :

تخذتكم درعاً وترساً لتدفعوا ... نبالَ العدى عني، فكنتم نصالَها
وقد كنت ارجو منكمُ خيرَ ناصرٍ ... على حينَ خُذلانَ اليمين شمالها (٣)
فان انتمُ لم تحفظوا لمودتي ... ذماماً فكونوا لا عليها ولا لها
قفوا موقفَ المعذور عني بمعزلٍ ... وخلّوا نِبالي، والعدا ونبالها
هي النفس إما أن تعيش بغبطةٍ ... وإلا، فغُنمٌ أن تزول زوالها

---

(١) الطب : الماهر الحاذق في عمله .

(٢) الديوان « ك » ص : ٨٨

(٣) المعنى أنني كنت ارجو نصرتكم فخذلتموني خذلان اليد اليمنى لشمالها .

الوصف :

قال يصف الربيع :

ضحك الربيعُ الى بكى الديم ... وغدا يسوي النبت بالقمم (١)

من بين اخضرَ لابسٍ كمأً ... خضراً ، وازهرَ غير ذي كمم (٢)

متلاحقُ الأطراف مُتَّسقٌ ... فكأنه قد طُمَّ بالجلم (٣)

مُتَبَلِّجُ الضحوات مشرقُها ... متأرّجُ الاسحار والعتم

تجدُ الوحوشُ به كفايتها ... والطيرُ فيه عتيدةُ الطعم

فظباؤه تضحى بمنتطَح ... وحمائمُه تضحى بمختصم

والروضُ في قطع الزبرجد وال ... ياقوتُ تحت لآلئٍ تؤم

طلٌّ يرقرقه على ورقٍ ... فكأنه دُرٌّ على لمم

حُشد الربيعُ مع الربيع له ... فغدا يهزز ثابت الجمم (٤)

والدولةُ الزهراءُ والزمن المز ... هارُ حسبُك شافيَيْ قرم (٥)

إن الربيع لكالشباب وإن ال ... صيفَ يكسعُه لكالهرم (٦)

أشقائقَ النعمان بين رُبى ... نعمانَ انتِ محاسنَ النعم

غدت الشقائقُ وهي واصفة ... آلاء ذي الجبروت والعظم

تَرَفٌ لابصارٍ كُحِلْنَ بها ... ليُرين كيف عجائبُ الحكم

---

(١) الديم : جمع ديمة ، مطر يدوم بسكون . (٢) كمم : جمع كمّ وهو غطاء الزهر . (٣) طمه بالجلم : علاه بالمقص . (٤) الجمم : جمع جمة وهي هنا رؤوس الشجر . (٥) القرم: شدة الميل الى اكل اللحم ، تطلق على كل رغبة ملحة في اي شيء . (٦) يكسعه : يضرب دبُرُهُ : بيده او بصدر قدمه .

شُعَلٌ تزيدك في النهار سنىً ... وتضيء في محْلولك الظُلَم

أعجِبْ بها شُعلاً على فحم ... لم تشتعل في ذلك الفحم

وكأنما لمعُ السواد الى ... ما احمرَّ منها في ضُحى الرَهَم (١)

حَدَقُ العواشق وسطت مقلاً ... نَهِلَتْ وعلَّت من دموع دم

هاتيك أوخيلانُ غاليةٍ ... اضحت بها الوجنات في ذمم

يا للشقائق إنها قِسَمٌ ... تُزهى بها الابصار في القسم

ما كان يُهدى مثلها تحفاً ... إلا تطولُ باريء النسم

قال يصف القدح (٢) :

وبديع من البدائع يَسبي ... كلَّ عقلٍ ويطبي كل طَرْفِ (٣)

وفىّ الحسن والملاحة حتى ... ما يُوفّيه واصفٌ حق وصف

كفمِ الحبّ في الملاحة بل ... احلى وان كان لا يناغي بحرف

تنفذُ العين فيه حتى تراها ... أخطأته من رقةِ المستشف

كهواء بلا هباء مشوب ... بضياء ارفق بذاك وأصف

وَسَطَ القدر لم يكبّر لجرح ... مُتوالٍ ولم يصغّرْ لوشف

---

(١) الرهم : المطر الخفيف .

(٢) الديوان « ك » ص : ٣٣ .

(٣) يطبي : يدعو .

وقال يصف العنب : (١)

لم يُبقِ منه وَهجُ الحَرورِ
الا ضياءً في ظُروف نور
لو انه يبقى على الدهور
قوَّط آذان الحسانِ الحور

* * *

باكرتُه والطير في الوكور
وعُذرُ اللذّات في البكور
بفتيةٍ من ولد المنصور
أملاءَ للعين من البدور
حتى اتينا خيمة الناطور
قبل ارتفاع الشمس للذرور (٢)
ثم جلسنا مجلسَ المحبور
على حفافَي جدول مسجور (٣)
بين سماطَيْ شجرٍ مسطور (٤)
فنيلت الأوطارُ من سرور
تَعلّةً عن يومنا المنظور
ومُتعةً من مُتعِ الغرور

---

(١) الديوان ص : ١٩٥ (٢) الذرور : الشروق . (٣) المسجور : البحر الذي ماؤه اكثر منه كما في القاموس . (٤) السماط : الوادي ما بين صدره ومنتهاه .

الغزل :

قال يتغزل ويصف وحيدة المغنية (١) :

يا خليليَّ ! تيمتني وحيدُ ... ففؤادي بها معنًّى عميدُ
غادةٌ زانها من الغصن قدٌّ ... ومن الظبي مقلتان وجيد
وزهاها من فرعها ومن الخد ... ين ذاك السوادُ والتوريد
فهي بردٌ بخدها وسلامٌ ... وهي للعاشقين جهدٌ جهيد
لم تُضِرْ قطُّ وجهَها وهو ماءٌ ... وتذيبُ القلوب وهي حديد
ما لما تصطليه من وجنتيها ... غيرُ تَرْشاف ريقها تبريد
مثل ذاك الرُّضاب أطفأ ذاك ... الوجدَ لولا الاباء والتصريد (٢)

* * *

وغرير بحسنها قال : صفها ... قلتُ : امران هيِّنٌ وشديد (٣)
يسهل القول إنها احسن الاشـ ... ـياء طُرًّا ، ويعسر التحديد
تتجلى للناظرين اليها ... فشقيٌّ بحسنها وسعيد
ظبيةٌ تسكن القلوب وترعا ... ها ، وقُمْرِيَةٌ لها تغريد (٤)
تتغنَّى ، كأنها لا تغنِّي ... من سكون الاوصال وهي تجيد
لا تراها هناك تجحظ عينٌ ... لك منها ، ولا يدرُّ وريد
من هدوٍ وليس فيه انقطاعٌ ... وسجوٍ وما به تبليد

---

(١) الديوان « ك » ص : ٩٨ .
(٢) التصريد : الشرب دون ري . (٣) الغرير بحسنها : المفتون بحسنها . (٤) قمرية : ضرب من الحمام .

مدّ في شأوِ صوتها نَفَسٌ كافٍ ... كأنفاس عاشقيها مديدُ
وأرقّ الدلالُ والغنجُ منه ... وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طوراً ويحيا ... مستلّذٌ بسيطُه والنشيد
فيه وشيٌ وفيه حليٌ من النـ ... ـغم مصوغٌ يختال فيه القصيد
طاب فوها وما تُرجّعُ فيه ... كل شيء لها بذاك شهيد
ثَغَبٌ يَنْقَعُ الصدى وغناءٌ ... عنده يوجد السرور الفقيد (١)
فلها الدهرَ لاثمٌ مستزيدٌ ... ولها الدهرَ سامعٌ مستعيد
في هوى مثلها يخفّ حليمٌ ... راجحٌ حلمُه، ويغوى رشيد
ما تُعاطي القلوبَ إلا اصابت ... بهواها منهن حيث تريد
واذا انبضته للشَّرْب يوماً ... ايقن القوم انها ستصيد (٢)
معبدٌ في الغناء وابن سُرَيْجٍ ... وهي في الضرب زلزلٌ وعقيد (٣)
عيبُها انها اذا غنّت الاحرارَ ... ظلّوا وهم لديها عبيد
واستزادت قلوبَهم من هواها ... بِرُقاها وما لديهم مزيد

وقال يتغزل بقصص جميل (٤) :

ابكيتني فبكيتُ ... من غير ذنبٍ جنيتُ
وقلتِ لي : امضِ عني ... مُصاحباً ، فمضيت

---

(١) الثغب : الغدير لا تصيبه شمس فيبرد ماؤه .

(٢) أنبضته : حركت وتر القوس لترف . الشرب : الشاربون . (٣) معبد وابن سريج : مغنيان مشهوران . زلزل وعقيد : ضاربان مشهوران .

(٤) الديوان ، س ، ج ٢ ص : ٥

ولو أَمرتِ أَن اقضي الـ حياةَ ، أَيضاً قضيتُ

أَضعتِني ، فرَعيْتُ وخُنتِني ، فوفَيت

اطعتِ فيَّ الاعادي وكُلُّهم قد عصيت

فكيف اصبحتِ غضبى؟ لمَّا رضاكِ اتيت

فاستضحكتْ ثم قالت: جُنِنْتَ؟ قلت: رَميْت(١)

قالت: لعلَّ وصالي أَبيتَ؟ قلت: أَبيت

قالت: ثكلتُ ابي -- إن فَعلتَ -- إن باليت

فلم تزل بيَ حتى الى هواها ارعويت

وقال يتغزل ويصف ساعة الوداع:

ربَّ كعابٍ في حجابٍ لم تزل مثل الغزال عنقاً ومكتحلْ

لم تكتحل مقلتها سوى الكحل ولا تحلى جيدُها سوى العطل

ما زلت منها في مطالٍ وعلل حتى اذا ما قدر البين نزل

خلست منها نظرة على وجل آخرها اولها من العجل

ثم اجتنتها غيابات الكلل.

***

(١) رميت: بمعنى زدتُ.

مصادر البحث

الديوان « في جزئين الى حرف الخاء »	ابن الرومي	طبعة الشيخ محمد سليم شريف	مصر ١٩١٧
الديوان « مختارات »	〃	〃 كامل كيلاني	مصر ١٩٢٤
وفيات الاعيان	ابن خلكان	〃 الميمنية	مصر ١٣١٠
كتاب الانساب	السمعاني	〃 مرغليوث	لندن ١٩١٢
العمدة	ابن رشيق	〃 النمساني	مصر ١٩٠٧
الفهرست	ابن النديم	〃 مصطفى محمد	مصر
تاريخ الآداب العربية	جرجي زيدان	〃 الهلال	مصر ١٩٣٠
ابن الرومي ، حياته من شعره	عباس محمود العقاد	مطبعة مصر	
حصاد الهشيم	ابراهيم عبد القادر المازني	المطبعة العصرية	مصر ١٩٢٣
من حديث الشعر والنثر	طه حسين	مطبعة الصاوي	〃 ١٩٣٦
امراء الشعر في العصر العباسي	انيس المقدسي	المطبعة الادبية	بيروت ١٩٣٢

ابو فراس الحمداني

[٣٢٠ هـ ؟ — ٣٥٧ هـ]

حياته — نفسه — ثقافته — شعره — الفخر — الحماسة — الرثاء — الغزل — الوصف
المديح — سرقاته — ديوانه — مكانته في الادب العربي
المختار من شعره — مصادر البحث

حياته :

هو ابو فراس الحارث بن ابي العلاء سعيد بن حمدان التغلبي(١) ، ولد سنة ٣٢٠هـ (٢) في الموصل من اسرة نبيلة ، كان جده حمدان مشهوراً بحزمه و كرم نفسه وطموحه ، وقد احس بضعف الخلافة العباسية ببغداد ، فطمحت نفسه الى الاستيلاء على بعض مقاطعاتها ، ولكنه مات دون ان يبلغ امنيته ، فأوصى بنيه ان يحققوا ما عجز عنه . فاستولى ابنه عبد الله ابو سيف الدولة على الموصل ، ثم اورثها ابنه ناصر الدولة الحسن ، فذهب سعيد والد ابي فراس الى الخليفة الراضي بالله فولاه الموصل وديار ربيعة ، ولما اراد الدخول الى الموصل

---

(١) لم نعثر فيما بين يدينا من المصادر على شيء عن ام ابي فراس ، وقد عثرنا في الديوان « الطبعة السليمية » وسنرمز اليها فيما بعد بحرف « س » ص : ٣٧ على هذا البيت :

اذا خفت من اخوالي الروم خطة تخوفت من اعمامي العرب اربعا

ومن هذا نستنتج ان امه كانت رومية الاصل . ولكنه يقول في موضع آخر « ص : ١٩ » :

لم تتفرق بنا خؤولة في العز اخوالنا تميم

(٢) وقيل سنه ٣٢١ ، ابن خلكان ج ١ ص : ١٢٨ » .

قتله ابن اخيه ناصر الدولة في رجب سنة ٣٢٣ هـ، وهكذا فقد ابو فراس اباه ولما يتجاوز الثالثة من عمره، وظلت صورة هذه الحادثة الفظيعة منطبعة في مخيلته، ولم تزدها السنون الا عمقاً. ولما ان استولى سيف الدولة (١) على مقاليد الدولة الحمدانية، التف حوله رجال هذه الاسرة فرعاهم احسن الرعايه، وعني بابن عمه اليتيم فأدبه احسن تأديب، فشب ابو فراس ببلاط ابن عمه في حلب، وافاد من الحلقة العلمية التى كان يرعاها سيف الدولة ويشرف عليها مشجعاً افرادها. ولما بلغ ابو فراس سن الشباب اظهر فتوة عجب لها ابن عمه، فكان يرسله لغزو الروم ومحاربة الدمستق قائدهم الاعلى. وتأديب من يثور على ابن عمه من القبائل العربية، ككعب وعُمَير، وكلاب وقُشَير، وبذلك نشأ محباً للقتال، بطلاً مغواراً، فلما رأى سيف الدولة ذلك منه أَجلّه اعترافاً بفضله وفروسيته ومروءته وشعره. قال ابن خلكان: «كان يوماً بين يديه في نفر من ندمائه، فقال لهم سيف الدولة: ايكم يجيز قولي، وليس له الا سيدي — يعني ابا فراس —:

لك جسمي تُعِلّهُ فدمي لِمْ تحلّه

فارتجل ابو فراس: انا إن كنت مالكاً فلك الامر كلّه

---

(٣) هو سيف الدولة ابو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان ولد سنة ٣٠٣ ثم خلف اباه على ملكه وفي سنة ٣٣٣ انتزع مملكة حلب من يد اميرها احمد بن سعيد الكلابي عامل الاخشيد صاحب مصر، ثم سيطر على سورية الشمالية وقضى مدة ملكه وهي «٢٣ سنة» في محاربة الروم الشرقيين في اسيا الصغرى، ولما مات «سنة ٣٥٦» كانت الدولة ضعيفة فعجز خلفاؤه عن رد غارات اعدائها الروم في الشمال والقاطنين في الجنوب. وكان سيف الدولة عالماً شاعراً محباً للادب مكثراً عطاياه لاهله. ومن رجال الادب الذين التفوا حوله الفيلسوف الفارابي، وابو الفرج الاصفهاني، والمتنبيء، وابن نباته، والقاضي، والرفاء، والببغاء، وابن خالويه وغيرهم من ائمة الشعر والعلم والادب.

فاستحسنه واعطاه ضيعة باعمال منبج المدينة المعروفة تُغل الفي دينار في كل سنة (١) ، ثم ولاه على منبج واعمالها ، ووكل اليه محاربة الروم من جهة ، وحفظ حدود البادية من جهة اخرى ؛ فاستقر شاعرنا بمنبج ، وكان كثيراً ما يتردد على حلب يزور ابن عمه وينشده شعره (٢) . ويتصل بالعلماء والشعراء ويناقشهم ، وخاصة المتنبي الذي كان له معه مواقف متعددة ، وكان يشهد له بالتقدم والتبريز ، ويتحامى جانبه ، فلا ينبري لمباراته ، ولا يجتريء على مجاراته . قال ابن خلكان : « وانما لم يمدحه ، وانما مدح من دونه من آل حمدان تهيباً له واجلالاً ، لا اغفالاً (٣) » . ويظهر ان ابا فراس كان يحنق على ابي الطيب ، ويحسده على المكانة الرفيعة التي احتلها من قلب سيف الدولة . يقول المستشرق بلاشير : « وكان ابو فراس زعيم الحزب الذي كان يكره ابا الطيب ، ويدبر له المكائد ، لانه كان يكرهه كراهة طبيعية ، وهي كراهة السيد للمغامر ، وكراهة رجل العاطفة للمشعوذ .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص : ٣٦٥

(٢) ذكر ابن خالوية : « كتب ابو فراس الى سيف الدولة وقد شخص من حضرته الى منزله بمنبج كتاباً صدره : « كتابي اطال الله بقاء مولانا ، من المنزل ، وقد وردته ورود السالم الغانم ، مثقل البطن والظهر وفراً وشكراً . فاستحسن سيف الدولة بلاغته ووصف براعته ، وبلغ ابي فراس ذلك فكتب اليه :

هل للفصاحة والسما ... حة والعلا عني محيد
اذ انت سيدي اللذي ... ربيتني وابي سعيد
في كل يومٍ استفيـ ... د من العلاء واستزيد
ويزيد فيَّ اذا رأيـ ... تك في الندى خلق جديد

اهـ . اليتيمة ج ١ ص : ٢٣

(٣) ابن خلكان ج ١ ص : ١٢٧

وكراهة صاحب الاحساس للمفكر الحذر (١)».

...

في سنة ٣٤٨ هـ، خرج ابو فراس في جيش عظيم لغزو البيزنطيين، عند مغارة الكحل من بلاد الروم، فأسر ونقل الى خرشنة (٢)، وكان فيها للروم حصن يطل على الفرات، فركب ابو فراس جواده وركضه برجله فأهوى به من اعلى الحصن الى الفرات (٣).

وفي سنة ٣٥١ هـ هاجم الروم منبج، فوقع ابو فراس اسيراً في ايديهم فنقلوه الى القسطنطينية، حيث مكث في الاسر اربع سنوات؛ وله في الاسر اشعار مؤثرة كثيرة عرفت «بالروميات»، وهي التي وجهها الى امه وافراد اسرته، والى مليكه سيف الدولة الذي تناساه، ثم افتداه في سنة ٣٥٥ هـ (٤).

وفي سنة ٣٥٦ هـ مات سيف الدولة بحلب (٥)، فاضطرب حبل الملك، وطمع ابو فراس في الاستيلاء على ملك ابن عمه، فرحل الى حمص يريد لمتلاكها، فارسل اليه

---

(١) R. Blachère . : Abou-t-Tayyib . Al Motanabbi p. 142

(٢) وهي قلعة ببلاد الروم قرب ملطية والفرات يجري من تحتها.

(٣) هكذا يقول ابن خلكان ج ١ ص : ١٢٧ ولكن بعض المؤرخين المحدثين يشكون في حقيقة هذا الحادث ويعتبرونه اسطورة اختلقها ابن خلكان ولكن هذا المؤرخ معروف بصدق الرواية وحسن التدقيق فيما يرويه من اخبار.

(٤) ابن خلكان ج ١ ص : ٣٢٧. ويرى بعض المؤرخين ومنهم علي بن الزرّاد الديلمي ان ابافراس أسر مرة واحدة بعد ان جرح في فخذه، فنقله الروم الى خرشنة ومنها الى القسطنطينية سنة ٣٤٨ وفداه سيف الدولة سنة ٣٥٥ هـ وعلى هذا تكون مدة اقامته في الاسر سبع سنوات لا اربع. «ابن خلكان ج ١ ص : ٣٢٧».

(٥) ثم نقل الى ميافارقين ودفن في تربة امه.

ابو المعالي سعد الدولة بن سيف الدولة قائده قرغويه ، فقاتله حتى قتل ابو فراس يوم الاربعاء لثمان خلون من ربيع الآخر سنة ٣٥٧ هـ ، بقرية تعرف بصدد (١) ، وروى ابن خالويه له شعراً قاله عند موته يخاطب ابنته ، وهو قوله :

أبُنَيَّتي لا تجزعي ... كل الانام الى ذهاب
نوحي عليَّ بحسرةٍ ... من خلف سترك والحجاب
قولي اذا كلّمْتِني ... وعَييتُ عن رد الجواب
زين الشباب ابو فرا ... س ، لم يمتّع بالشباب

وهذا يدل على ان ابا فراس لم يمت في البادية ، وانما مات على فراشه متأثراً بكلومه. وقد رثاه ابو اسحق الصابيء بقصيدة كما روى ذلك الثعالبي ، ولم يذكر شيئاً من القصيدة.

نفسه :

ابو فراس يمثل الفتوة العربية اصدق تمثيل : فقد كان كريماً ، فارساً ، مقداماً ، جمع الظرف وعزة الملك ؛ ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا عند ابن المعتز . يقول ابن خلكان نقلاً عن الثعالبي : « كان فرد دهره ، وشمس عصره : ادباً ، وفضلاً ، وكرماً ، ونبلاً ،

---

(١) وهناك روايات اخرى عن قتل ابي فراس : فمن قائل انه قتل في محاربة قرغويه ، ومن قائل انه مات على فراشه متأثراً بجراحه . نقل ابن خلكان عن تاريخ ثابت الصابيء « ج ١ ص ١٢٨ » في يوم السبت لليلتين خلتا من جمادي الاولى سنة ٣٥٧ جرت حرب بين ابي فراس وكان مقيما بحمص ، وبين ابي المعالي ابن سيف الدولة وقتله بالحرب ، واخذ رأسه ، وبقيت جثته مطروحة في البرية الى ان جاء بعض الاعراب فكفنه ودفنه . قال غيره : « وكان ابو فراس خال ابي المعالي وقلعت امه سُخَينة عينها لما بلغتها وفاته وقيل انها لطمت وجهها فقلعت عينها وقيل : لما قتله قرغويه لم يعلم به ابو المعالي فلما بلغه الخبر شق عليه » .

ومجداً ، وبلاغةً ، وبراعةً ، وفروسيةً ، وشجاعةً (١) » . وكان بحكم شبابه وفتوته يميل الى اللهو والعبث في اوقات السلم ؛ فمن ذلك قوله :

و كنت اذا الهموم تناوبتني فزعت من الهموم الى العُقار

وكان صاحب وداد ، متسامحاً مع اصدقائه ، يغض عن عيوبهم ، ويحلم عند هفواتهم :

فجميل العدو غير جميل وقبيح الصديق غير قبيح

ويقول :

ويغتابني من لو كفاني غيبة لكنت له العين البصيرة والاذُنا
وعندي من الاخبار ما لو ذكرته اذا قرع المغتاب من ندمٍ سنَّا

ويقول :

يقولون لا تخرق بحلمك هيبةً واحسن شيءٍ زيَّنَ الهيبةَ الحلمُ
فلا تتركنَّ العفو من كل ذلةٍ فما العفو مذموماً وان عظم الجرم

وكان يجمع الى هذه المزايا الخلقية العالية ، فضيلة الصبر التي تتناسب وهذه النفس الحرة الابية ؛ فمن ذلك قوله يخاطب امه وهو في الاسر :

فيا امتا لا تخيطي الاجر انه على قدر الصبر الجميل جزيل
أمالكِ في ذات النطاقين أسوة بمكة ، والحرب العوان تجول
اراد ابنها اخذ الامان فلم يجب فتعلمَ علماً إنه لقتيل (٢)

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص : ١٢٧ . انظر ها في يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٢
(٢) الديوان «ش» ص : ٣٠ . ذات النطاقين : ام عبد الله بن الزبير .

وكان ايضاً عظيم الشجاعة ، يستخف بالهول ، ويزدري الموت ؛ وكان شديد الجلد على المصائب ، لانه يرى «ان حرص الحريص ، وحيلة المحتال ، لا تدفع المنية اذا اقبلت»:

واذا المنية اقبلت لم يثنها حرص الحريص وحيلة المحتال

وقوله : وكنت اذا جعلت الله لي ستراً من النوَب

رمتني كل حادثةٍ وطارقة فلم تصب

وقوله : ألامُ على التعرض للمنايا ولي سمع اصمُّ على الملام

بنو الدنيا اذا ماتوا سواء وإن عمر المعمّر الف عام

وكان ابو فراس متشيعاً كبقية آل حمدان ، وله قصيدة مطولة ردَّ فيها على محمد بن سكرة الهاشمي البغدادي الذي افتخر على الطالبيين ، واولها :

الدين محترم ، والحق مهتضم اضحى بآل رسول الله مُقتَسمُ

وفيها يقول :

بنو عليٍّ رعايا في ديارهم والامر تملكه النسوان والخدم

لا يطغينَّ بني العباس ملكهم بنو عليٍّ مواليهم وان رغموا

اتفخرون عليهم لا ابالكمُ حتى كأنَّ رسول الله جدكم

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا مأمونكم كالرضى ان انصف الحكم (١)

ثقافته :

شعرُ ابي فراس يدل على ثقافة عربية خالصة اكتسبها من البيئة العربية الفصيحة التي

---

(١) انظر بقية القصيدة في الديوان « ش » ص : ١٣٥

نشأ فيها . ولا ريب في انه قد افاد كثيراً من معاشرة العلماء والشعراء والادباء والفلاسفة الذين كان يضمهم مجلس ابن عمه سيف الدولة ، امثال : ابن خالويه النحوي ، وابن نباتة الخطيب ، والفارابي الفيلسوف ، وابن جنيّ العالم النحوي ، والمتنبيء ، وغيرهم من أئمة الادب والعلم ؛ ولا ينبغي ان يغرب عن البال ان مكوث شاعرنا في الاسر مدة طويلة ، قد زاد في معارفه ، واطلاعه على شؤون الحياة ؛ مما يوسع الفكر ، وينمي ملكة الخيال وسعة المدارك .

وليس من شك في انه كان يناقش رجال الروم في كثير من شؤون الحياة والدين ، كما اشار الى قصيدة قالها يذكر أسره ، ومناظرة جرت بينه وبين الدمستق في الدين :

اما من اعجب الاشياء عِلجٌ يعرفني الحلالَ من الحرام

وتكنفه بطارقة . . . . (١)

شعره :

لم يصل الينا فيما وصل ، من شعر ابي فراس الحمداني ، سوى شعر غزير نظمه في اغراض كثيرة متنوعة ، وانما ضاع اكثر شعره (٢) ، فخسرت دولة النظم بذلك شعراً قوياً رائعاً يملك النفوس ويأخذ بمجامع الالباب . وابو فراس لم يقل الشعر رغبة في نيل عطايا الملوك والامراء ، لانه ابنُ عم ملك ، ولانه اميرٌ فارس ، وجواد كريم ؛ وانما كان يتعرض

---

(١) الديوان « ش » ص : ٩٤

(٢) علمنا ان الاستاذ سامي الدهان بحلب قد عثر على قصائد جديدة من شعر ابي فراس وهو آخذ بطبعها في ديوان جديد .

للشعر تلهية للنفس ، وترجية للوقت ؛ ولعلّه اتخذه وسيلة الى نشر فضائله ، والتمدح بشجاعته ، والتفاخر بآبائه :

الشعر ديوان العرب ايضاً وعنوان الادب
لم اعدُ فيه مفاخري ومديحَ آبائي النجُب
ومقطعاتٍ ربما حلّيتُ منهنّ الكتب
لافي المديح ولا في الهجا ء ولا المجون ولا اللعب (١)

وقال : نطقتُ بفضلي وامتدحتُ عشيرتي فما انا مدّاحٌ وما انا شاعرُ

وقال : وصناعتي ضرب السيوف وانني متعرّضٌ في الشعر للشعراء

على ان لهذا القليل قيمة شعرية عالية ، فهو فيه قد حلّق في سماء الشعر حتى بلغ اوج العلى ، واتى بالمعجز الرائع ؛ وحتى قال الصاحب بن عباد — وحق ما قال — « بُديء الشعر بملك ، وخُتم بملك » يعني امرأ القيس وابا فراس . ونحن نحسب انه لو مُدّ لابي فراس في الاجل ، فعاش ما عاش غيره من الشعراء ، لخلف ديواناً جمّ الشعر وافر المعاني متنوع الاغراض ، وهو بهذا اشبه بطرفة بن العبد الشاعر الجاهلي الشاب ، الذي اخترمته المنون وهو في مقتبل العمر ونضارة الشباب .

على انك اذا قرأت ديوان شاعرنا على صغره ، ظفرت بمجموعة قيمة انتظمت اكثر ما كان يقول معاصروه الشعر فيه ، إلا الهجاء فانه قد ترفع عنه ، لانه لم يكن لاحد من الشعراء أن يزاحمه فيما بلغه من رفيع المنزلة وعظيم المرتبة ، كما انه ليس

---

(١) الديوان ص : ٣

هنالك من يستطيع ان يساميه ، او يتطاول عليه ليعمل على هجائه والحط منه . واكثر شعره في الفخر والحماسة ، وهما الغرضان اللائقان بأمير عربي شريف مثله .

الفخر :

امتاز شعر ابي فراس بالفخر حتى طبع به ، ولا غرو في ذلك فقد كان له من ماضيه وحاضره ما يدعوه الى ان يكثر من هذا النوع من الشعر . وكيف لا يفتخر ، وهو الذي جمع الى شرف اصله ، وكريم محتده ، شجاعةً فائقة . وبطولةً نادرة ، حملت بعض المؤلفين المحدثين على عدها من الاساطير والخرافات ، كقصة قفزه من السور وتخلصه من الاسر الرومي ؛ لانهم يرون عظيماً على العربي أن يأتي بالخارق من البطولة ، والعجيب من الشجاعة .

فخر ابي فراس على نوعين : فخر بنفسه وفروسيته وشجاعته ، وفخر بآبائه وايامهم البيض في الجاهلية والاسلام .

فمن فخره بآبائه قوله يصف شجاعة قومه ونبلهم وكرمهم وهو من اروع الفخر واجمله:

انّا اذا اشتد الزما ... نُ وناب خطبٌ وادلهم
ألفيتَ حول بيوتنا ... عُدد الشجاعة والكرم
للقا العدا بيض السيو ... فِ وللندى حمر النعم
هذا وهـذا دأبنـا ... يودى دمٌ ويراق دم (١)

وقال من قصيدة يذكر فيها ايقاعه ببني كعب ، وهو على مقدمة جيش سيف الدولة، وكان قد حسن بلاؤه في تلك الموقعة :

---

(١) الديوان ص : ١٦

ألم ترنا اعزّ الناس جاراً ... وامنعهم وامرعهم جنابا
لنا الجبل المطلّ على نزارٍ ... حللنا النجدَ منه والهضابا
يفضّلنا الانامُ ولا نحاشى ... ونوصف بالجميل ولا نحابى
وقد علمت ربيعةُ بل نزارٌ ... بأنّا الرأس والناس الذّنابا (١)

ومن قوله مفتخراً بنفسه وهمته وشجاعته، وهو من خير ما قال في الفخر:

ابت لي همّتي وغرارُ سيفي ... وعزمي والمطيّة والقفارُ
ونفسٌ لا تجاورها الدنايا ... وعرضٌ لا يرف عليه عار
وقوم مثل من صحبوا كرامٌ ... وخيل مثل من حملت خيار (٢)

وقال من قصيدة يفتخر بنفسه ويستعطف ابن عمه سيف الدولة ليفتديه:

متى تخلق الايام مثلي لكم فتىً ... طويل نجاد السيف رحب المقلدِ
فان تفتدوني تفتدوا لعلاكمُ ... فتىً غير مردود اللسان ولا اليد
يطاعن عن احسابكم بلسانه ... ويضرب عنكم بالحسام المهنّد
اقلني اقلني عثرة الدهر انه ... رماني بنصلٍ صائب النحر مُقصد (٣)

وبعد فلا تكاد تخلو قصيدة لأبي فراس من فخره بنفسه او بقومه. وله قصيدة رائيه تزيد على مائتي بيت ضمنها مفاخره بآبائه واجداده، وذكر فيها مناقبهم وغزواتهم وما بلغوه من مجدٍ وعزٍ تليد.

---

(١) الديوان ص: ٢٦. امرعهم: اخصبهم. الجناب. فناء الدار. النجد: المكان المرتفع. ومعنى البيت: اننا اشرف قبائل نزار واكثرها عدداً.
(٢) الديوان ص: ٢١. غرار السيف: حده.
(٣) الديوان ص: ٢٨

الحماسة :

شعر ابي فراس مملوء حماسة وفتوة، وخاصة روميّاته التي قالها وهو يعاني آلام الاسر والمرض، والحنين الى الاهل والوطن؛ وقد اثارت هذه الروميات اعجاب الناس في القديم والحديث. حتى قال الثعالبي: «وكانت تصدر اشعاره، في الاسر والمرض... وفرط الحنين الى اهله واخوانه واحبابه، والتبرم بحاله ومكانه؛ عن صدرٍ حرج، وقلب شجي، فتزداد رقة ولطافة، وتبكي سامعها، وتعلق بالحفظ لسلاستها. فمنها قوله:

ما للعبيد من الذي ... يقضي به الله امتناع
زُدتُ الاسود عن الفرائس ... ثم تفرسني الضباع

ولما شقت فخذه عن نصل السهم الذي اصابه قال:

فلا تصفنّ الحرب عندي فانها ... طعامي مذ بعت الصبا وشرابي
وقد عرفت وقع المسامير مهجتي ... وشُقّق عن زرق النصول إهابي

وقال بخرشنة:

ان زرت خرشنة اسيرا ... فلقد حللتُ بها مغيرا
ولقد رأيتُ النار تنتهـ ... ـب المنازل والقصورا
ولقد رأيت السبي يجلـ ... ـبُ نحونا حوّاً وحورا
من كان مثلي لم يبت ... الاّ اسيرا او اميرا
ليست تحلّ سراتنا ... الا الصدور او القبورا (١)»

---

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص: ٤١ - ٤٢

وروميات ابي فراس تشتمل على خير ما يتحلى به شاعرنا من حنان وعزة نفس وشجاعة وإباء وصبر. فقد ابان فيها عن حبه لأمه ومليكه واولاده ووطنه، كما ابان فيها عن قوة نفسه وصبره على الشدائد وايمانه بالله. وتسيطر على الروميات فكرة الضجر من الاسر، والعتاب لسيف الدولة الذي تقاعس عن فداء ابن عمه. ولعلّ السر في ذلك تخوف سيف الدولة من مطامع ابي فراس، او ان ذلك كان ناشئاً عن وشايات خصوم ابي فراس لدى سيف لدولة.

واول قصيدة قالها يسأل سيف الدولة المفاداة قوله:

دعوتُك للجفن القريح المسهّد ... لديّ، وللنوم القليل المشرّدِ
وما ذاك بخلاً بالحياة وانها ... لأوّل مبذول لأول مجتدِ
ولكنني اختارُ موتَ بني ابي ... على صهوات الخيل غير موسّد
نضوتُ على الايام ثوبَ جلادتي ... ولكنني لم أنضُ ثوبَ التجلد
وما انا الا بين امرٍ وضدهِ ... يجدد لي في كل يوم مجدّد
ومثلكَ من يدعى لكل عظيمةٍ ... ومثلي من يفدى بكل مسوّد
أناديكَ لا اني اخاف من الردى ... ولا ارتجي تأخيرَ يومٍ الى غد
فلا كان كلبُ الروم أرأف منكم ... وارغبُ في كسب الثناء المخلّدِ (١)

ولما طال أسر ابي فراس، وبلغه ان والدته قصدت سيف الدولة من منبج تكلمه في المفاداة وتتضرع اليه، فلم يكن عنده ما رجت من حسن الايجاب؛ ووافق ذلك

---

(١) الديوان ص: ٢٧ - ٢٨

عنف الدمستق بأبي فراس ومن معه من الاسرى وازدياده في ارهاقهم ، كتب الى سيف الدولة قصيدته التي اولها :

يا حسرةً ما اكادُ احملها ... آخرها مزعجٌ واولها
عليلةٌ بالشآم مفردةٌ ... بات بايدي العدا معللها
اذا اطمأنت. واين ؟ او هدأت ... عنَّت له ذكرة يقلقلها
يا سيداً ما تعدُّ مكرمة ... الا وفي راحتيك اكملها
بأي عذرٍ رددت والهةً ... عليك دون الورى معولها
جاءتك تمتاح ردَّ واحدها ... ينتظر الناس كيف تفعلها ؟
ان كنت لم تبذل الفداء لها ... فلم ازل في رضاك ابذلها

ثم يشتدُّ به ألمه فيصرخ معاتباً :

اين المعالي التي عرفت بها ؟ ... تقولها دائماً وتفعلها
ياواسع الدار، كيف توسعها؟ ... ونحن في صخرةٍ نزلزلها
يا ناعم الثوب ، كيف تبدله ؟ ... ثيابنا الصوف لا نبدّلها
يا راكب الخيل لو بصرت بنا ... نحمل اقيادنا وننقلها
رأيت في الصُّر اوجهاً كرمت ... فارق فيك الجمال اجملها
قد أثرَّ الدهر في محاسنها ... تعرفها تارة وتجهلها (١)

فانت ترى شدة تأثره ، والحالة النفسية التي دفعت به الى ان يجابه ولي نعمته بهذا القول المؤثر . فلولا قسوة أعلاج الروم عليه وعلى اخوانه الاسرى في بلاد الروم ، لما انفجر لسانه بهذه الشكوى المريرة ، وهذا العتاب الشديد .

---

(١) الديوان ص : ٧٩ - ٨٠ وانظر بقية القصيدة في المختار من شعره .

وبعد فروميات ابي فراس سبب في خلوده ، لما تضمنته من معانٍ رائعة ، وتصوير صادق ، لكثير من العواطف ؛ حتى قال المستشرق بلاشير : « وقصائده الروميات ممتازة ببساطتها وجزالتها ، وبالعاطفة الانسانية التي تسودها . وهي التي جعلت ابا فراس سيد شعراء العاطفة الانسانية ليس في عصره فحسب ، بل في كافة عصور الادب العربي (١) » .

الرثاء :

لا شك في ان ابا فراس هو اصدق شاعر عربي عاطفي ، وهو من الشعراء الذين يعكس لنا شعرهم الصادق ، ما جال في نفوسهم من عواطف واحاسيس ؛ فالصلة جد قوية بين اشعاره وحياته ، ولست تجد له في الرثاء ، الا ما قاله في جماعة تربطه بهم رابطة القرابة او المحبة ؛ وهو في رثائه لا يستبكي الشمس والقمر ، ولا يستمطر الغيث والمطر ، ولا يستصرخ الصخور والحجر ؛ كما كان يفعل زميله ابو الطيب في كثير من مراثيه ؛ وانما يصدر في رثائه عن عاطفة قلبية ، وحرقة نفسية . استمع اليه يرثي اخته :

أتزعم انك خدن الوفاء ... وقد حجب الموتُ من قد حجب
فان كنت تصدق فيما تقول ... فمت قبل موتك مع من تحب
وإلاّ فقد صدق القائلو ... ن ما بين حي وميت نسب

وقال يرثي صديقه جابر بن ناصر الدين :

الفكر فيك مقصّر الآمال ... والحرص بعدك غاية الجهال
لو كان يخلد بالفضائل فاضلٌ ... وصلت لك الآجال بالآجال

(١) Blachère — Al - Motanabbi p. 136

لو كنت تُفدى لافتدتك سراتنا بنفائس الارواح والاموال
ولئن هلكت فما الوفاء بهالك ولئن بليت فما الوداد ببال

الغزل :

لابي فراس غزل رقيق قاله في ايام شبابه قبل اسره ، وهو ينمّ عن عاطفة صادقة ، واحساس رقيق ، كقوله وهو من اول ما نظم في الشعر :

وقّظتني على الأسى والنحيب مقلتا ذلك الغزال الربيب
كلما عادني السلو رماني غُنج الحاظه بسهم مصيب
فاترات قواتلٌ فاتناتٌ فاتكاتٌ سهامها في الخطوب
راميات بأسهمٍ ريشها الهد بُ تشق الجلود بعد القلوب
ايها المذنب المعاتب حتى خلت ان الذنوب كانت ذنوبي (١)

ثم يستمر في تصوير عواطفه نحو حبيبه ، في حالتي وصله وهجره ، باسلوب كله حنان ورقة .

وليس لابي فراس غزل كثير ، وانما هي مقطعات كان يصدر بها قصائده في الفخر او المدح ، جرياً على تقاليد شعراء عصره ، ولا غرو في ذلك ، فانه ما خلق للتغزل بالقدود والملاح ، وانما خلق للطعن بالسيوف والرماح :

ووالله ما شببتُ إلا علالة ومن نار غير الحب قلبي يُضرم

على انه له مقطعات لطيفة في الغزل ، منثورة في ديوانه ، كقوله :

---

(١) الديوان ص : ١٠٥

الورد في وجنتيه والسحر من مقلتيه

وان عصاه لساني فالقلب طوع يديه

ياظالماً لست ادري ادعو له ام عليه

انا الى الله مما دُفعت منك اليه (١)

الوصف :

برع ابوفراس في التصوير ، فاجاد وصف الطبيعة والحيوان ، ومجالس اللهو ، ومواقع القتال وما يتبعها من اسر وجرح ومرض . . . . فكان ذلك مرآة صادقة لحياته من انغماس في اللهو ايام السلم ، ومسارعة الى النضال ايام الحرب .

اما الطبيعة فقد تجلى وصفه إياها في ارجوزته التي اولها :

وبقعةٍ من احسن البقاع يبشر الرائدُ فيها الراعي

فهو في هذه المقطوعة يصور الوان الارض ، وعجيب صنع الخالق . وانحدار الماء من التلال ، وتغريد الحمائم وسجعهن ، ورقص الماء على ايقاع موسيقى فتان ؛ كما يصور انتشار الازهار على البقاع هنا وهناك بألوانها الزاهية ، ورائحتها الطيبة ، وهذه الصورة الرائعة تكاد تعد من اجمل ما صوّر الشعراء ، لما فيها من دقة في الوصف وسهولة في اللفظ . وكذلك وصفه السحاب ، وانطباقه على الارض ، وانعقاده امطاراً تبعث في النبت الحياة .

اما مجالس اللهو فهي على قلتها وندرتها في شعره ، فانها تمثل لنا لهو امير نبيل يلهو ويشرب

---

(١) الديوان ص : ٦١

مع نداماه . فاستمع اليه يصف جلسة من مجالس لهوه في آذار داخل حانة ، وقد اوقدت فيها النار لطارقيها :

تواعدنا لآذار بمسعى خير مختار
وقمنا نسحب الزيطَ الى حانة خمّار
فلم ندرِ وقد فاحت لنا من جانب الدار
بخمّار من القوم نزلنا ام بعطار
وقلنا اوقد النار لطُرّاقٍ ودُوّار
وما في طلب اللهوِ على الفتيان من عار

واما مواقع القتال فقد برع في تصويرها ، لانه ما خلق الا لخوض غمار الحرب ، ومنازلة الشجعان ، وتوطيد الامن ، والضرب على ايدي الذين يخرجون عن الطاعة . ومن اجمل قصائده في ذلك ، قصيدته التي قالها في ثورة بني كعب على سيف الدولة وفيها يقول :

ولما سار سيف الدين سرنا كما هيّجت آساداً غضاباً
أسنته اذا لاقى طعانا صوارمه اذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنةُ مشرعاتٌ فكنا عند دعوتهِ الجوابا
وكنا كالسهام اذا اصابت مراميها ، فراميها اصابا

ثم انتقل الى وصف الاسرى الذين اسفرت عنهم المعركة ، والافتخار بما ابلاه . فقال :

فما كانوا لنا إلا أسارى وما كانوا لنا الا نهابا
فلما اشتدّت الهيجاء كنا اشدّ مخالباً واحدّ نابا
وامنعَ جانباً واعز جاراً واوفى ذمةً واقلّ عابا

ومما يتصل بوصف معارك القتال ، وصفه في الطرديات ؛ فقد اتى فيه بكل جديد ، وله في الطرد ارجوزة مطولة مطلعها :

ما العمر ما طالت به الدهورُ العمر ما تمَّ به السرور

صدَّرها بذكر ايامه اللذيذة في الشام ، ثم سرد ما يلزم الصياد من : كلاب ، وفهاد ، وبزاة ، وخيل ؛ وطباخين ، وشراب ، وصحب مع تجنب الثقلاء منهم . ثم يصف ارسال الباز للصيد والقنص ، فيقول :

ثم دعوت القوم هذا بازي فأيكم ينشط للبراز
فقال منهم أغيدُ انا انا ولو درى ما يبتدي لاذُعنا
فقلت قابلني وراء النهر انت لشطر وانا لشطر
طارت له درَّاجةٌ فأرسلا احسنَ فيها بازُه وأجملا
علقها فمطعطوا وصاحوا والصيد من آلته الصياح
فقلت ما هذا الصياحُ والقلق أكل هذا فرحاً بذا الطلق
فقال إن الكلب يشوي الباز قد أحرز الكلب فجز فجاز
فلم يزل يزعق بي مولائي وهو كمثل النار في الحلفاء
طارتْ فارسلت فكانت سلوى حلت بها قبل العلو البلوى

فهو في هذه المقطوعة من ارجوزته ، يعطيك صورة حية للصيد بالباز ، وما يتخلل ذلك من صياح ونشاط وحركة .

المديح :

ليس لابي فراس ممدوحون كثر غير سيف الدولة ابن عمه رب ونعمته ووليّ امره ،

فهو الذي هيأ له ما حصل عليه من مجدٍ ، ومكّن له اسباب الرفعة والسمو . وقد ردد فضله عليه في مدائحه ، وانك لترى في قصائد مديحه الفخامةَ في اللفظ ، والقوة في المعاني ، والروعة في الأداء ؛ كالذي تراه في مدائح المتنبي لسيف الدولة ، فاستمع اليه يقول :

قد ضج سيفك من طول القتال به ... وقد شكتك الينا الخيلُ والابلُ
وقد درى الروم مذ جاورتَ ارضهم ... أن ليس بعدهم سهلٌ ولا جبل
في كل يومٍ تزور الثغرَ ، لا ضجرٌ ... يثنيك عنه ولا شغلٌ ولا ملل
فالنفسُ جاهدةٌ والعينُ ساهرةٌ ... والجيشُ منهتكٌ والمالُ مُبتذل

ولابي فراس مدائح لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، تنم عن عاطفة دينية قوية ، وان لم تكن تضاهي في اسلوبها ومعانيها وعاطفتها ما نجده عند ابي فراس في غير قصائده . فمن ذلك قوله :

لست ارجو النجاة من كل ما اخ ... شاه إلا بأحمدٍ وعلي (١)
وبنت الرسول فاطمة الطه ... ر وسبطيه والامام علي (٢)
والتقي النقي باقر علم الـ ... ـله فينا محمد بن علي (٣)
وابي جعفرٍ سمي رسول الـ ... ـله ثم ابنه الذكي علي (٤)

---

(١) الديوان ص : ٣٩ يريد باحمد وعلي : النبي الكريم وابن عمه علي بن ابي طالب .
(٢) يريد بالسبطين الحسن والحسين وبعلي علي بن الحسين .
(٣) يريد بعلي : علي بن الحسين زين العابدين . والباقر هو محمد بن علي بن الحسين
(٤) هو علي بن جعفر الصادق

وابنه العسكري والقائم المظ ... ـهر حقّي محمدٍ وعلي (١)

فانت لا ترى في هذه المقطوعة ، طريف معنى ، او عميق فكر ؛ وانما هي من طراز التوسلات والادعية النبوية ، على ان لابي فراس قصيدة اخرى مدح بها آل البيت ، وذمّ بها العباسيين الذين اغتصبوا الملك منهم ؛ وهي مملوءة بالعاطفة الدينية والعصبية لآل علي ، وليس ذلك غريب عن فتىً من بني حمدان المعروفين بتشيعهم ، وفي هذه القصيدة يقول :

ابلغ لديك بني العباس مألُكةً ... لا يدّعوا ملكَها ، املاكُها العجمُ

اي المفاخر اضحى في منابركم ... وغيركم آمرٌ فيهنّ محتكم

خلّوا الفخار لعلامين ان سئلوا ... عند السؤال وعمالين ان عاموا

لا يغضبون لغير الله ان غضبوا ... ولا يضيعون حكم الله ان حكموا

تبدو التلاوة من ابياتهم ابداً ... ومن بيوتكم الاوتار والنغم

اذا تلوا آية غنى امامكم ... (قف بالديار التي لم يعفها القدم)

منهم عُلَيّة ام منكم ؟ وهل لكمُ ... شيخ المغنين ابراهيم ام لهم؟

ما في بيوتهم للخمر معتصرٌ ... ولا بيوتهم للشر معتصم

ولا تبيت لهم حسنا تنادمهم ... ولا يرى لهم فرد له حشم

فالركن والبيت والاستار منزلهم ... وزمزم والصفا والحجر والحرم

وليس من قسمٍ في الذكر تعرفه ... الا وهم غير شك ذلك القسم (٢)

فانت ترى شدة عاطفته الدينية ، وقوة حماسته لآل البيت ، الذين سُلبوا حقهم في الخلافة.

---

(١) هو علي بن ابي طالب .

(٢) الديوان ص : ١٣٧ ــ ١٣٨ .

مكانته في الأدب العربي :

يقول الثعالبي - بعد ان اختار طائفة من شعر ابي فراس ورومياته - : « لعمري انها - كما قرأته لبعض البلغاء - لو سمعته الوحش انست ، او خوطبت به الخرس نطقت ، او استدعي به الطير نزلت » وقال ايضاً : « وشعره مشهور ، سائر ، بيّن الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة والمتانة ، ومعه رواء الطبع ، وسمة الظرف وعزة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا في شعر عبد الله بن المعتز . وابو فراس يعد اشعر منه عند اهل الصنعة ونقدة الكلام . وكان الصاحب يقول : بديء الشعر بملك وختم بملك ، يعني امرأ القيس وابا فراس [1] » والثعالبي احق من يستطيع الحكم على شعر الامير ابي فراس ، فانه كان قريب عهد به لانه سمع ما كان يجول في حلقات الادب وما تناقلته الادباء من شعر ابي فراس فقال ما سمعته مما يدل على الاعجاب والتقدير ، ولا غرو في ذلك فالثعالبي امام نقاد مشهود له بذوقه الادبي وحسن الانتقاء والبصر بالشعر ، فقد انتقى لمن ترجم لهم في يتيمته خير شعرهم .

ولكننا لا نرى في العصور التي جاءت بعد الثعالبي ذكراً لائقاً بمقام ابي فراس ولعل السبب في ذلك انه كان منصرفاً الى الحرب اكثر من انصرافه الى الشعر ، ولا بد من الاشارة هنا الى انه قد يكون لشخصية المتنبيء - ماليء الدنيا وشاغل الناس - اثر في جعل ابي فراس شاعراً مغموراً .

ومهما يكن من شيء فان المحدثين من الادباء عرباً وافرنجة قد اكتشفوا كنوز

---

(١) اليتيمة ج ١ ص : ٢٢ - ٦١

شعره واعجبوا بها ، فمن العرب : الاساتذة اصحاب المفصّل (١) وجرجي زيدان (٢) وبطرس (٣) وفؤاد البستاني (٤) ومن المستشرقين : بروكلمان (٥) ودفوراك (٦)

---

(١) يقول اصحاب المفصل ج ١ ص : ٤٧ « له كثير من القصائد الحماسية الرائعة ، وروميانه التي قالها في الاسر تثير الحزن وتبعث الشجون » .

(٢) نقل بالحرف ما قاله صاحب اليتيمة دون ان يزيد عليه شيئاً او ينسبه الى صاحبه . انظر تاريخ الاداب العربية ج ٢ ص : ٢٤٩ .

(٣) يقول الاستاذ بطرس البستاني في كتابه ادباء العرب ج ٢ ص : ٤٠٥ «وقد حق لابي فراس ان يستوي على الدرجة الرفيعة مع الشعراء ، ولكن الادباء المتقدمين لم يلتفتوا اليه كل الالتفات لاسباب منها: ان معاصرته لابي الطيب اخفتت اصوات غيره من اصحاب الشعر ، الا ان ابا فراس كان اظهر منهم لمكانته في دولته ، ومنها ان المتقدمين كانوا يبنون مقاييس الفحولة على المدح والهجو ، فمن لم يشتهر بهما لا يعد من الفحول ولم يكن لابي فراس حاجة الى هذين الفنين » .

(٤) يقول الاستاذ فؤاد افرام البستاني في مجموعة الروائع : « ابو فراس شاب لم يمتع بشبابه ! وابو فراس امير لم يوفق في امارته ! وابو فراس شقي توفرت اسباب شقائه ! وابو فراس شاعر يملاهي الشباب ، ومفاخر الامارة واعباء الشقاء ! صفات لو توفرت في رهط من الناس لكان فيها ما يدفعنا الى درسهم جميعاً فكيف بها وقد اجتمعت في رجل واحد » .

(٥) يقول بروكلمان في دائرة المعارف الاسلامية مادة « ابو فراس » : يمتاز شعره عن بقية الشعراء بطابع خاص لانه اودعه يومياته وتجاربه في الحياة ، ولكن اسلوبه لا يختلف كثيراً عن اسلوب معاصريه وان لم يكن في فخامة اسلوب المتنبي »

(٦) اما المستشرق الالماني « Dr. Dvorak » فقد طبع الفصل الذي كتبه الثعالبي في يتيمة الدهر واضاف عليه قصيدته في رثاء امه ، وترجم الجميع الى اللغة الالمانية بعنوان : ابو فراس الشاعر والبطل العربي » وقد اعجب في كتابه هذا بشخصية ابي فراس وادبه وخاصة بروميانه .

وكراتشوفسكي (١) وهوار (٢) وبلاشير (٣) .

والحق ان ابا فراس شاعر فحل غني بالعواطف ، بارع في تصوير الاحساسات النفسية المريرة ، ومبرز في الشعر الفخري وان لم يكن له يد طولى في المدائح والاهاجي وغيرها من الفنون التي كان يتكسب بها معاصروه من الشعراء .

ولئن كان ابو فراس مغموراً في العصور المتأخرة للاسباب التي رأيت ، فما ينبغي ان يظل مغموراً في عصر النهضة الادبية الجديدة ، التي تحرص كل الحرص على احياء التراث الادبي القديم ، واستخراج جواهره الدفينة ، وتفهم شعره ؛ ولنا وطيد الامل فيمن يعنون بالادب الحديث ان يبعثوه بعثاً جديداً لائقاً به وبأدبه وبنفسه .

---

(١) يعترف المستشرق الروسي كراتشوفسكي في المقدمة التي كتبها بالروسية في صدر نشرته لديوان الوأواء الدمشقي ص : ٢٨ بأن شعر المتنبيء قيم من الناحية الفنية ولكنه ضعيف من الناحية العاطفية ، ويجد عنده صفات المفكر ويفضل عليه ابا فراس لسهولة شعره ولغناه بالعواطف » .

(٢) ويقول المستشرق الفرنسي هوار في كتابه تاريخ الادب العربي ص : ٩٤ : « كان بطلاً شجاعاً وشاعراً بعيداً عن التصنع ، وشعره يصدر عن عواطف صادقة صحيحة بلغة شريفة عالية »

(٣) ويقول المستشرق الفرنسي بلاشير في كتابه عن المتنبيء ص : ١٣٦ « قصائده الروميات ببساطتها وجزالتها ، وبالعاطفة الانسانية التى تسودها جعلت من ابي فراس اوحد شعراء عصره في هذا النوع ، بل اوحد شعراء العربية » .

مختارات من شعره

الفخر :

قال من قصيدة طويلة يفتخر بها ، ويذكر اسلافه ومناقبهم ؛ ومطلعها :

لعلَّ خيال العامريةِ زائرُ ... فيسعدُ مهجورٌ ويسعدُ هاجر (١)

***

تبوأتُ من قَرْمي معدٍّ كليهما ... مكاناً أُراني كيف تُبنى المفاخرُ (٢)

لئن كان اصلي من سعيدٍ نجارُه ... ففرعٌ لسيف الدولة القَرمِ ناصر (٣)

وما كان ، لولاهُ ، لينفعَ اولٌ ... اذا لم يُزيّن اولَ المجدِ آخر

لعمرِك ما الابصارُ تنفع اهلَها ... اذا لم يكن للمبصرين بصائر

وهل ينفع الخطيُّ غيرَ مُثقَّفٍ ... وتظهر إلا بالصقال الجواهر

اناضلُ عن احساب قومي بفضله ... وأفخرُ حتى لا أرى من يُفاخر

واسعى لأمرٍ عدني لناله ... أواخيُّ من آرائه وأواصر

ويشغلكم وصفُ القديم ودونه ... مفاخرُ فيها شاغلٌ ومآثر

لنا اولٌ في المكرمات وآخرٌ ... وباطن مجدٍ تغلبيٍ وظاهر

---

(١) الديوان «س» ص : ٣

(٢) القرم : السيد ويريد بقرمي معدٍّ سيف الدولة وابن عمه سعيد .

(٣) النجار : الاصل .

الرومبات :

وقال من قصيدة يصف فيها اسره ، ويسأل سيف الدولة المفاداة (١) :

متى تخلفُ الايام مثلي لكم فتىً ... طويلَ نِجاد السيف رَحْبَ المقلّدِ (٢)

فان تفتقدوني تفتقدوا لعلاكمُ ... فتىً غيرَ مردود اللسان ولا اليد

يطاعنُ عن احسابكم بلسانه ... ويضربُ عنكم بالحسامِ المهنّد

اقلني اقلني عثرة الدهر انه ... رماني بنصلٍ صائب النحر مُقصِد

ولو لم تنل نفسي ولاءك لم اكن ... لأوردها في نصره كل مورد

ولا كنتُ ألقى الألف زُرقاً عيونها ... بسبعين فيها كلُّ أشأمَ أنكد (٣)

فلا وابي ما ساعدان كساعدٍ ... ولا وابي ما سيدانِ كسيد

ولا وابي ما يَفتقُ الدهر جانباً ... فترقعه الايامُ رقعاً بمسرد (٤)

وإنك لَلمَوْلى الذي بك اقتدي ... وإنك للنجمُ الذي بك اهتدي

وانت الذي عرّفتني طرقَ العلا ... وانت الذي اهديتني كل مَقصد

فيا مُلبس النعما التي جلّ قدرها ... لقد أخلقت تلك الثيابُ فجدّد

ألم تر أني فيكَ صافحتُ حدّها ... وفيك شربتُ الموتَ غيرَ مُصرَّد (٥)

يقولون جَنّبْ عادة ما عرفتها ... شديدٌ على الانسان ما لم يُعوَّد

---

(١) الديوان « ق » ص : ٣١ .

(٢) طويل النجاد : طويل حمائل السيف وذلك كناية عن طول القامة ، ورحب المقلد كناية عن سعة ما بين المنكبين وهو دليل القوة . (٣) زرقاً عيونها : يعني بها الروم . ويريد بكل اشأم انكد اصحابه السبعين الذين هم كثيرو الشؤم والنكد على الاعداء . (٤) المسرد : المخرز . (٥) صرده : سقاه دون الري .

فقلتُ أما واللهِ ما قال قائلٌ ... شهدتُ له في الخيل ألأمَ مشهدِ
ولكن سألقاها ، فاما منيّةٌ ... هي الطعنُ او بُنيان غيرُ مشيَّد
ولم ادرِ أن الدهرَ من عُددِ العِدا ... وأن المنايا السود يرمين عن يد
بقيتَ على الايام تحمى بنا الردى ... ويفديك منا سيدٌ بعد سيّد
فلا يحرِمَنّي اللهُ قربَك إنه ... مرادي من الدنيا وحظي ومقصدي

وقال من قصيدة بعث بها من الاسر الى سيف الدولة ، يعاتبه على تباطئه في فكاكه ومطلعها (١) :

أما لجميلٍ عندكنّ ثوابُ ... ولا لمسيءٍ عندكنّ متابُ

***

... وأبطأ عني والمنايا سريعةٌ ... وللموتِ ظُفرٌ قد أطلّ ونابُ
فان لم يكن ودٌّ قريبٌ نعدُّه ... ولا نسبٌ دون الرجال قُراب (٢)
فأحوطُ للاسلام ألا يضيعني ... ولي عنك فيه حوطةٌ ومناب
ولكنني راضٍ على كل حالةٍ ... لنعلمَ ايُّ الخلتين سراب
وما زلتُ ارضى بالقليل محبةً ... لديكَ وما دونَ الكثير حجاب
واطلبُ ابقاءً على الود أرضَه ... وذكرى مُنىً في غيرها وطلاب
كذاك الوداد المحض لا يرتجى له ... ثوابٌ ولا يُخشى عليه عقاب

---

(١) الديوان « ق » ص : ٣٨

(٢) ابطأ عني : يريد به سيف الدولة . القراب : المقارب .

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامعٌ ... وفي كل يومٍ لقيةٌ وخطابُ

فكيف وفيما بيننا ملكُ قيصرٍ ... وللبحر حولي زخرةٌ وحُبابُ

أمِنْ بعد بذلِ النفس فيما تريدُهُ ... أثابُ بمُرِّ العتبِ حين أثابُ

فليتك تحلو، والحياةُ مريرةٌ ... وليتك ترضى، والانامُ غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خرابُ

اذا صحَّ منك الود فالكلُّ هيّنٌ ... وكلُّ الذي فوق التراب تُرابُ

وقال من قصيدة بعث بها وهو في أسره الى ابن عمه سيف الدولة يعتب ويشكو، ومطلعها (١) :

ابى غَرْبُ هذا الدهر الا تشرُّعاً ... ومكنون هذا الحب الا تضوّعا

***

اقمت بارض الروم عامين لا أرى ... من الناس محزوناً ولا متصنعا

اذا خفت من اخوالي الروم خطةً ... تخوفت من اعمامي العرب اربعا

وإن اوجعتني من اعادي شيمةٌ ... لقيتُ من الاحباب ادمى واوجعا

ولوقد رجوتُ الله -لارباً غيرَهُ- ... رجعتُ الى أعلى وامَّلتُ اوسعا

لقد قنعوا بعدي من القطر بالندى ... ومن لم يَجد الا القُنوعَ تقنعا

وما مرَّ انسانٌ فأخلفَ مثلَه ... ولكن يُرَجي الناس امراً موقعا

تذكر سيفُ الدين لما عتبتُه ... وعرَّض بي تحت الكلام وقرّعا

---

(١) الديوان «ق» ص ٤٢

فقولا له : يا صادق الوُد انني جعلتُك مما رابني منك مفزعا
ولو انني اكننته في جوانحي لأورق ما بين الضلوع وفرّعا
فلا تغترِرْ بالناس ما كلُّ من ترى أخوك اذا أوضعتَ في الامر اوضعا
ولا تقبلنَّ القولَ من كل قائلٍ سارضيك مرأى لست ارضيك مسمعا
فلله إحسانٌ عليَّ ونعمةٌ ولله صنعٌ قد كفاني التصنعا
أراني طُرقَ المكرُمات كما رأى عليٌّ ، وأسعاني عليٌّ كما سعى
فان يكُ بطءٌ مرةً فلطالما تسرّع نحوي بالجميل وأسرعا
وإن يجفُ في بعض الامور فانني لأشكُرُهُ النُّعمى التي كان اودعا
وإن يستجدَّ الناسَ بعدي فلم يزل بذاك البديلِ المستجدّ ممتعا

قال وقد بلغته علة والدته ، وهو اسيرٌ بخرشنة (١) :

يا حسرةً ما اكادُ احملها آخرها مزعجٌ واولها
عليلةٌ بالشآم مفردةٌ بات بايدي العدا معللُها (٢)
تمسك احشاءها على حُرَقٍ تطفئها ، والهموم تشعلها
اذا اطمأنت. واين ؟ او هدأت عنّت له ذكرة يقلقلها (٣)
تسأل عني بكل جاهدةٍ بأدمعٍ ما تكاد تهملها
يامن رأى لي بحسن خرشنة اسد وعى في القيود ارجلها

---

(١) الديوان « ق » ص : ٨٥
(٢) يقول لامه انها عليلة بالشام وان معللها ، اي هو ، بات في قبضة الاعداء بعيداً عنها .
(٣) يقول اذا سكن وجعها ، ومن اين له السكون ، عرضت له ذكرى تزعجها وتقلقلها .

يامن رأى لي الدروبَ شامخةً ... دون لقاءِ الحبيب أطولها

يامن رأى لي القيود موثقةً ... على حبيب الفؤاد اثقلها (١)

يايها الراكبان هل لكما ... في حمل نجوى يخف محملها (٢)

قولا لها إن وعت كلامكما ... وإن ذكري لها ليذهلها

يا أمتا هذه منازلنا ... تنزلنا تارة وننزلها

يا أمتا هذه مواردنا ... نعلها تارة وننهلها (٣)

اسلمنا قومنا الى نوبٍ ... ايسرها في القلوب اقتلها

واستبدلوا بعدنا رجال وغى ... ودون ادنى علايَ امثلها (٤)

ليست تنال القيودُ من قدمي ... وفي اتباعي رضاكَ احملها

يا سيداً ما تعدُّ مكرمة ... الا وفي راحتيك اكملها (٥)

لاتتيمم والماء تدركه ... غيرك يرضى الصغرى ويقبلها (٦)

انت سماءٌ ونحن انجمها ... انت بلاد ونحن اجبلها

انت سحابٌ ونحن وابله ... انت يمين ونحن اشملها

بأي عذرٍ رددت والهةً ... عليك دون الورى معولها (٧)

---

(١) اي ان تلك العليلة تسأل قائلة من رأى بحصن خرشنة اسداً مقيداً بالحديد ، او من رأى الطرقات حائلة بيني وبين الحبيب وهي مرتفعة وطويلة ، او من رأى القيود موثقة بارجل ابني . (٢) يقول للراكبين السائرين الى امه هل بكما مرحمة في حمل سر خفيف محمله . (٣) يقول لامه ان هذه الموارد تارة نشرب منها وتارةً نسقي غيرنا . (٤) اي ان الرجال الذين اتخذهم قومنا بعدنا للحرب اشرفهم لا يصل الى ادنى علاي . (٥) يخاطب سيف الدولة . (٦) يقول : لايجوز التيمم لمدرك الماء ، ولذلك لا يجوز تيممك . (٧) اي كيف امكن ان ترجع امي الموجعة لاسري مع ان اعتمادها عليك وحدك .

جاءتك تمتاح ردّ واحدها ... ينتظر الناس كيف تقفلها ؟ (١)

سمحت مني بمهجةٍ كرمت ... انت على يأسها مؤملها

ان كنت لم تبذل الفداء لها ... فلم ازل في رضاك ابذلها

تلك المودات كيف تهملها ! ... تلك المواعيد كيف تغفلها !

تلك العقود التي عقدب لنا ... كيف وقد احكمت تحللها !

ارحامنا منك لم تقطّعها ... ولم تزل دائماً توصلا

اين المعالي التي عرفت بها ؟ ... تقولها دائماً وتفعلها

ياواسع الدار، كيف توسعها ؟ ... ونحن في صخرةٍ نزلزلها (٢)

يا ناعم الثوب، كيف تبدله ؟ ... ثيابنا الصوف لا نبدّلها

يا راكب الخيل لو بصرت بنا ... نحمل اقيادنا وننقلها

رأيت في الضُّر اوجهاً كرمت ... فارق فيك الجمال اجملها (٣)

قد أثرّ الدهر في محاسنها ... تعرفها تارة وتجهلها

فلا تكلنا فيها الى احدٍ ... معلّها محسناً يعللها

لا يفتح الله باب مكرمةٍ ... صاحبها المستغاث يقفلها

أينبري دونك الانام لها ... وانت قمقامها ومعقلها (٤)

وانت وإن عزّ حادثٌ جللٌ ... قُلّبها المرتجي وحوّلها (٥)

---

(١) جاءت تسأل منك خلاصي والناس ينتظرون على اي حالة ترجع من عندك أبقضاء مرامها ام بحرمانها . (٢) يعني كيف توسع دارك ونحن في الاسر نقلع الحجارة . (٣) هذا جواب لو في البيت الذي قبله . (٤) انبرى : اعترض . القمقام : السيد . المعقل : الملجأ . (٥) اي المحتال البصير في الامور .

منك تردى بالفضل افضلها ... منك افاد النوال أنولها

فان سألنا سواك عارفة ... فبعد قطع الرجاء نسألها(١)

اذا رأينا اولي الكرام بها ... يضيعها جاهداً ويهملها

لم يبق في الارض امةٌ عرفت ... إلا وفضل الامير يشملها

نحن احق الورى برأفته ... فاين عنا واين معدلها

يا منفق المال لا يريد به ... إلا المعالى التي يؤثلها

اصبحت تجري مكارماً فضلاً ... فداءنا قد علمت افضلها(٢)

لا يقبل الله منك فرضك ذا ... نافلةً عنده تنفلها(٣)

* * *

الغزل :

اراكَ عصيَّ الدمع شيمتك الصبرُ ... اما للهوى نهيٌ عليك ولا امرُ (٤)

نعم انا مشتاق وعندي لوعةٌ ... ولكن مثلي لا يُذاع له سرُّ

اذا الليل اضواني بسطت يد الهوى ... واذللت دمعاً من خلائقه الكبر(٥)

تكاد تضيء النار بين جوانحي ... اذا هي اذكتها الصبابة والفكر

معللتي بالوعد والموت دونه ... اذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

---

(١) العارفة : الاحسان .

(٢) قوله قد علمت : جملة معترضة ، والفُضُل « بضمتين » المتفضل .

(٣) المشار اليه بذا فداء ابي فراس .

(٤) الديوان « ق » ص : ٩٠ .

(٥) الضاوي : الطارق .

بدوتُ واهلي حاضرون لأنني ... ارى أنَّ داراً لستِ من اهلها قفرُ

وحاربتُ قومي في هواك وانهم ... واياي لولا حبك الماء والخمر (١)

وان كان ما قال الوشاة ، ولم يكن ... فقد يهدم الايمان ماشيّد الكفر

وفيت وفي بعض الوفاء مذلّةٌ ... لآنسةٍ في الحيّ شيمتها الغدر

تسائلني من انت ؟ وهي عليمةٌ ... وهل بفتى مثلي على حاله نكر ؟

فقلتُ كما شاءت وشاء لها الهوى ... قتيلك . قالت : ايهم ؟ فهمُ كثر

فقلتُ لها لو شئتِ لم تتعنّتي ... ولم تسألي عني وعندك بي خُبر

ولا كان للأحزان عندي مسلكٌ ... الى القلب لكنَّ الهوى للبلا جسر

فأيقنت أن لا عزَّ بعدي لعاشقٍ ... وان يدي مما علقتُ به صفر

قال وقد سمع ورقاء تنوح على شجرة عالية (٢) :

اقول وقد ناحت بقربي حمامةٌ ... أيا جارتى هل بات حالُك حالي

معاذ الهوى ماذقتِ طارقةَ النوى ... ولا خطرتْ منكِ الهمومُ ببال

أيحملُ محزونَ الفؤاد قوادمٌ ... على غُصُنٍ نأيِ المسافة عالي (٣)

تعالَيْ تريْ روحاً لديَّ ضعيفةً ... تردّدُ في جسمٍ يُعذّبُ بال

أيضحكُ مأسورٌ وتبكي طليقةٌ ؟ ... ويسكتُ محزونٌ وينطق سال ؟

---

(١) يعني انهم ممتزجون امتزاج الماء بالخمر .

(٢) الديوان « ق » ص : ٤٤

(٣) يخاطب الحمامة بقوله لها كيف تكونين محزونة القلب وانت على غصن طويل عال .

مصادر البحث

بالعربية :

الديوان	ابو فراس	المطبعة السليمية	بيروت ١٨٧٣
〃	〃	المطبعة الادبية	〃 ١٩١٠
الثعالبي	يتيمة الدهر	المطبعة الحفنية	دمشق
ابن خلكان	وفيات الاعيان		مصر ١٣١٠
جرجي زيدان	تاريخ الآداب العربية	مطبعة الهلال	مصر ١٩٣٠
احمد الاسكندري	المفصّل في تاريخ الادب العربي		مصر ١٩٣٤
بطرس البستاني	ادباء العرب	مطبعة صادر	بيروت ١٩٣٤
فؤاد افرام البستاني	الروائع		بيروت ١٩٢٨

بالفرنجية :

Dr. R. Dvorak	Abû Firâs - Ein Arabischer Dichter und Held Leyden 1895
Brockelmann :	Encyclopédie de l'Islam, art. : Abu Firas al Hamadani.
Kratchkowsky :	Diwan al Wâwâ Ad Dimachki. St.-Petersbourg.
R. Blachère :	Abou-t- Tayyib Al Motanabbi. Paris - 1935

الشريف الرضي

[٣٥٩ هـ — ٤٠٦ هـ]

حياته — نفسه — ثقافته — ادبه — شعره — اغراضه الشعرية — المديح — الفخر — الرثاء
الغزل — الحجازيات — الوصف — الحكمة — مكانته في الادب العربي
ديوانه — المختار من شعره — مصادر البحث

حياته :

هو ابو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب ابي احمد الحسين بن موسى بن محمد ... وينتهي نسبه الى جعفر الصادق (رضه). واما امه فهي فاطمة بنت الحسين بن الحسن الناصر ابن علي ، وينتهي نسبها الى الحسين بن علي بن ابي طالب (رضه). ويلقب بالشريف الرضي الموسوي . ولد في بغداد سنة ٣٥٩ هـ من ابوين شريفين ، وكان ابوه في ايام بني بويه (*)

(*) الدولة البويهية منسوبة الى بني بويه الذين حكموا العراق وفارس وخراسان « من سنة ٣٢٠ هـ الى سنة ٤٤٧ هـ » واولية هذه الدولة ان بويه الفارسي كان له ثلاثة اولاد وهم : علي « الذي لقب فيما بعد بعماد الدولة » وحسن « ركن الدولة» واحمد « معز الدولة» فدخل هؤلاء الثلاثة في الجندية واتصل عماد الدولة بخدمة الامير مرداويج مؤسس الدولة الزيارية (دولة فارسية قامت بجرجان من سنة ٣١٦ الى ٤٣٤) فارتقى عنده حتى ولاه مقاطعة جورجيا « الكرج » ثم كتب الى الخليفة العباسي الراضي بالله « المتوفى سنة ٣٢٩ هـ » ليقطعه اعمال فارس على مال معين يحمله الى دار الخلافة فاجيب الى ذلك ثم توسل لاخيه ركن الدولة بمقاطعة خوارزم ولاخيه معز الدولة بمقاطعة شيراز ثم اتفق الاخوة الثلاثة فزحفوا على بغداد واستبدوا بالخلافة . واشهر ملوك هذه الدولة : عضد الدولة « المتوفى سنة ٣٧٢ هـ » وكان اوسع هذه الاسرة سلطاناً واحبهم للعلم فالتف حوله العلماء والشعراء وألفوا له الكتب ومنهم ابو اسحاق الصابيء وابو علي الفارسي والمتنبيء والسلامي . ومن وزراء هذه الدولة ابن العميد ، والصاحب ابن عباد وسابور اردشير المهلبي صاحب خزانة كتب بغداد التي قال عنها ياقوت في معجم الادباء : « لم يكن في الدنيا احسن كتب منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة واصولهم المحررة » .

نقيب الاشراف الطالبيين فيها . وكانت اسرته على جانب عظيم من العلم والأدب وخاصة اخاه الشريف المرتضى ، الذي كان من أئمة بغداد في العلوم العربية والفلسفية .

ولد الرضي في زمان كثير الاضطرابات ، ففتح عينيه والدنيا ثائرة بفتن الاتراك والديلم ، وابوه سجين في شيراز بسبب هذه الفتن ، وامواله واملاكه مصادرة . وهكذا نشأ الرضي في اول عمره نشأة بؤس ولكنه لم ينصرف عن الدرس والتعليم وتثقيف نفسه وقول الشعر ، وسنه كما يقول الثعالبي : « بعد ان تجاوز العشر سنين بقليل (١) » وظل دائباً على التعلم الى ان افرج عن ابيه ، فاندفع يقول الشعر بكثرة فرحاً بخلوص ابيه من قلعة شيراز المظلمة وكان عمره ايامئذ اربع عشرة سنة (٢) .

وفي سنة «٣٨٠» اعيدت نقابة الطالبيين وما يلحق بها من النظر في المظالم والاحداث بالناس الى ابيه فهنأه الشريف بذلك (٣) . وفي سنة «٣٨٨» تنازل ابوه له عن النقابة وما يلحق بها (٤) . وفي سنة «٣٩٨» انعم عليه بهاء الدولة البويهي بلقب [بالرضي ذي الحسبين] فشكره بقصيدة رائعة على ذلك (٥) . وفي سنة «٤٠١» انعم عليه بهاء الدولة بلقب [الشريف] فشكره ايضاً بقصيدة جيدة . وفي سنة «٤٠٣» اضاف بهاء الدولة الى اعمال الشريف النظر في امور الطالبيين بجميع البلاد ولم يبلغ ذلك احد من اهل هذا البيت . واجتمع الناس في دار فخر

---

(١) يتيمة الدهر الثعالبي ج ٢ ص : ٢٩٧

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ج ١ ص : ١٠

(٣) انظر القصيدة في الديوان ص : ٢٤٠

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص : ٢ . ويجب ان نشير هنا الى ان الثعالبي في اليتيمة ج ٢ ص : ٢٩٨ يذكر ان استلام الرضي للنقابة كان سنة «٣٨٠» ولعل هذا من خطأ النساخ .

(٥) انظرها في الديوان ص : ٣٩ .

الملك وقرئت الكتب الواردة بذلك وكان يوماً مشهوداً مذكوراً فمدح الشريف بهاء الدولة بقصيدة عصماء (١). وفي شهر رجب من العام نفسه اصيب بمرض شديد كاد ان يؤدي بحياته ولكنه شفي بعد شهرين. وظل يقول الشعر في مديح الملوك من البويهية ورثاء اصدقائه الى ان مات يوم الاحد صباحاً في السادس من المحرم (٢) في سنة ٤٠٦ ودفن في داره بخط مسجد الانباريين بالكرخ من بغداد وقد حزن اخوه المرتضى عليه حزناً شديداً لم يستطع معه ان ينظر الى تابوته فذهب الى مشهد جده موسى الكاظم وانزوى فيه، وصلى عليه الوزير فخر الملك ثم مضى بنفسه آخر النهار الى اخيه المرتضى بالمشهد الكاظمي فالزمه بالعودة الى داره (٣).

نفسه:

كان الشريف على جانب عظيم من الاخلاق الرضية، عفيفاً شريف النفس، عالي الهمة، متبعاً للدين وقوانينه، ولم يقبل من احد صلة ولا جائزة، حتى انه ردّ صلات ابيه وناهيك بذلك عفة نفس. فاما بنو بويه فانهم اجتهدوا على قبوله صلاتهم فلم يقبل، وكان يرضى منهم بالاكرام وصيانة الجانب، واعزاز الاتباع والاصحاب (٤). وكان سرياً نبيلاً، ورث عن آبائه الامجاد نبل النفس والسخاء. يؤيد هذا ما رواه ابن ابي الحديد عن ابي حامد الاسفرايني قال: «كنت يوماً عند فخر الملك وزير بهاء الدولة البويهي

---

(١) انظرها في الديوان ص ٢١٠.

(٢) وقيل في صفر كما في ابن خلكان ج ٢ ص ٤

(٣) ابن ابي حديد ج ١ ص ١٣

(٤) ابن ابي حديد ج ١ ص: ١١

فدخل عليه الرضي فأجلّه ، ورفع منزلته ، وخلّى ما كان بين يديه من القصص والرقاع ، واقبل عليه يحادثه الى ان انصرف . ثم دخل المرتضى فلم يعظمه ذلك التعظيم ، وتشاغل عنه برقاع يقرأها ، وتوقيعات يوقع بها ؛ فجلس قليلاً وسأله امراً . فقضاه ؛ ثم انصرف . فتقدمت اليه وقلت : اصلح الله الوزير ، هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون ، وهو الامثل والافضل منهما ، وانما الرضي شاعر . فقال لي : اذا انصرف الناس وخلا المجلس اجبتك عن هذه المسألة ؛ فلما تقوّض الناس واحداً فواحداً ، ولم يبق الا غلمانه ، قال لخادم له : هات الكتابين اللذين دفعتهما اليك منذ ايام ، وامرتك ان تجعلهما في السَفَط الفلاني ، فأحضرهما ، فقال : هذا كتاب الرضي ، اتصل بي انه ولد له ولد فأنفذت اليه الف دينار وقلت : هذه للقابلة ، فردها وكتب اليّ هذا الكتاب ، فاقرأه ، فقرأت فيه : « اننا اهل بيت لا يطلّع على احوالنا قابلة غريبة ، وانما عجائزنا يتولين هذا الامر من نسائنا ، ولسن ممن يأخذن أجرةً ، ولا يقبلن صلةً » . واما المرتضى فاننا كنا قد قسّطنا على الاملاك ، فأصاب الشريف المرتضى من التقسيط عشرون درهماً ، ثمنها دينار ؛ فكتب اليّ هذا الكتاب ، فقرأته وهو اكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والسؤال في اسقاط هذه الدراهم عن املاكه ما يطول شرحه . فأيهما ترى اولى بالتبجيل ؟ (١) » . هذه القصة تبين لك ما كان عليه الرضي من نبل نفس وعزة . وكان الى هذا يكره الشر ويدعو الى الخير والاصلاح بين الناس . وله في الاصلاح بين الشيعة والسنة في بغداد مآثر جلّى ، ولولاه للقيت بغداد يوماً عبوساً قمطريراً . وكان الشريف وفياً ، شديد الاخلاص لاصدقائه ، كما انه كان شديد الوطأة على اعدائه . قال :

---

(١) ابن ابي الحديد ج ١ ص ١٣

على انني تحفةٌ للصديق ... يروح بنجوايَ او يغتدي
وإني لَيأنسُ بي الزائرو ... نَ، أنس النواظر بالأثمد
تغمض لي اعينُ الحاسدي ... نَ كالشمس في ناظر الارمد

وكان الشريف كثير الصفح عن ذنوب الاصدقاء ، ولكنه كان يصاب دائماً باصدقاء يؤذونه ، ولذلك تراه يقول في بعض قصائده :

امسى عليَّ مع الزمان اخٌ ... قد كنت آملُ يومه لغدِ
لم يُثمرِ الظنُّ الجميل به ... فقدي من الظنّ الجميل قدي (١)
فلأجعلنَّ عقوبتي ابداً ... ان لا امدَّ يدي الى احد
فتكون اول زَلّةٍ سبقتْ ... منّي وآخرها الى الابد

اما وفاؤه لاصدقائه ، فالامثلة عليه كثيرة ، منها انه لما مات ابو بكر بن شاهويه وكان من اشراف بغداد واعيانها؛ لم يخرج في جنازته احد على كثرة اصدقائه ، إلا ثلاثة احدهم الشريف ، وذلك لانه كان مغضوباً عليه من السلطان . والى هذه الحادثة يشير الشريف في مرثيته بقوله :

سُقيتَ ابا بكرٍ على البعد والنوى ... ولا بلَّ هامَ الشامتين بك القطرُ
اخي ! ما اقلَّ التابعك الى الثرى ... واخوانك الأدْنَوْنَ من قبلها كُثر
تَتَبَّعهُ ابصارُنا وهو ذاهبٌ ... كمالِ قرنُ الشمس اوو جَبَ البدر (٢)

واما عفته ، فديوانه مملوء بالشواهد الدالة عليها ، واليك طرفاً منها :

---

(١) قدي : حسبي ومثلها قدْني .
(٢) وَجَبَ : غاب .

يشكو الحبيب الي شدة شوقه وانا المشوق وما يبين جناني
واذا هممت بمن احب امالني حصر يعوق وعفة تنهاني
لله ما اغضت عليه جوانحي والشوق تحت حجاب قلبي عان (١)

وقوله :

ابرزتها فتخاصرنا مباعدة عن الخيام نعفي الخطو بالأزر
ثم انثنيت ولم أدنس سوى عبق على جنوبي لريا بردها العطر

وكيف لا يكون عفيفاً كريم النفس ، وكل قصيدة من قصائده تفيض بذكر معالي الامور والترفع عن الدنايا . قال وهو في السادسة عشرة من عمره :

سأطلع من ثنايا الدهر عزماً يسيل بهمة الحرب العوان
ولا انسى المسير الى المعالي ولو نسيته اخفاف الجواني
ونأنف أن تشبهنا الليالي بشمس او سنا قمر هجان (٢)

وقوله :

ولي امل كصدر الرمح ماض سوى ان الليالي من خصومي
وما أوفت على العشرين سني وقد اوفى على الدنيا عزيمي

وكيف لايكون كذلك ، وقد كانت نفسه طامحة الى الخلافة ، لما كان يرى لنفسه من نفوذ ادبي ، ومكانة اجتماعية ، وثقافة واسعة ، وحسب شريف . قال ابن ابي الحديد : « وكان الرضي لعلو همته ، تنازعه نفسه الى امور عظيمة يجيش بها خاطره وينظمها

---

(١) الجنان : القلب . الحصر : «بالتحريك» العجز عن الكلام . العاني : الاسير .
(٢) الحوان : الابل وهي دائمة الحركة . الهجان الخالص النقي .

في شعره ، ولا يجد من الدهر عليها مساعدةً ؛ فيذوب كمداً ، ويفنى وجداً ، حتى توفي ولم يبلغ غرضاً ؛ فمن ذلك قوله :

ما انا للعليـاء إن لم يكن ... من ولدي ما كان من والدي
ولا مشت بي الخيل إن لم أطأ ... سرير هـذا الأصيد الماجد

ومنها قوله :

لا همَّ قلبي بركوب العلى ... يوماً ولا بلّتْ يدي بالسماحْ
إن لم أَنَلْها باشتراط كما ... شئت على بيض الظُبا واقتراح
افوز منهـا باللُباب الذي ... يُغْني الاماني نيله والصراح
فما الذي يقعـدني عن مدى ... لا هو بالنسل ولا باللقـاح
يطمح من لا مجد يسمو به ... اني اذاً أعذَرُ عنـد الطماح
إما فتىً نال العُلى فاشتفى ... او بطلٌ ذاق الردى فاستراح (١)

ثقافته :

نشأ الشريف في أسرة عرفت بالعلم ، وعصر من ازهر عصور الاسلام بكثرة العلماء ، ووفرة الانتاج . وعمق البحث ؛ ففي هذا العصر نبغ من الادباء والعلماء : ابو علي القالي « المتوفى سنة ٣٥٦ » صاحب الامالي ، وابو الفرج الاصفهاني « المتوفى سنة ٣٥٦ » صاحب كتاب الاغاني ، وابو حسن الجرجاني « المتوفى سنة ٣٦٦ » صاحب كتاب الوساطة بين المتنبيء وخصومه ، وابو القاسم الآمدي « المتوفى سنة ٣٧١ » صاحب الموازنة

(١) ابن ابي الحديد ج ١ ص : ١٢ وانظر كامل المقطوعة الاخيرة في الديوان ص : ١٩٧

بين الطائيين ، وابو الفتح بن جني «المتوفى سنة ٤٠٢هـ» صاحب سر الصناعة ، وابو هلال العسكري «المتوفى سنة ٣٩٥ هـ» صاحب الصناعتين ، وابو بكر الباقلاني «المتوفى سنة ٤٠٢ هـ» صاحب اعجاز القرآن ؛ وغيرهم من العلماء والادباء . وكانت بغداد يومئذٍ عاصمة الدنيا حضارةً وعلماً وفلسفة ، وليس من شك في ان الشريف قد افاد من تلك البيئة الراقية معرفة وثقافة واطلاعاً على اللغة والادب . ولا نعلم شيئاً عن شيوخ الرضي إلا ما حدثنا به ابن خلكان وابن ابي الحديد من انه تلقى الفقه عن الفقيه ابي عبد الله العلوي ، والنحو عن ابي سعيد السيرافي (١) ، وانه حفظ القرآن في مدة يسيرة بعد ان طعن في السن . ويذكر ابن جني عنه طرفة تدل على سرعة خاطره ، فقد روى في بعض مجامعه «ان الشريف احضر الى ابن السيرافي النحوي ، وهو طفل جداً لم يبلغ عمره عشرة سنين ، فلقّنه النحو ، وقعد معه يوماً في حلقته فذاكره بشيءٍ من الاعراب ، فقال له : اذا قلنا : رأيت عمرَ ، فما علامة النصب في عمر ؟ فقال له الرضي : بُغضُ علي . فعجب السيرافي والحاضرون من حدة خاطره» ومهما يكن من شيء ، فلا بد ان الشريف الرضي قد افاد من أئمة بغداد في العلوم الشائعة في عصره امثال : ابي القاسم الداركي الاصفهاني الشافعي «المتوفى سنة ٣٧٥» (٢) ، وابي علي الفارسي النحوي «المتوفى سنة ٣٧٧ هـ» (٣) ، وابي عبيد الله

---

(١) لا نعرف شيئاً عن ابي عبد الله العلوي غير القصة التي ذكرها عنه ابن ابي الحديد في مقدمة شرحه لنهج البلاغة ، واما السيرافي فهو سعيد بن الحسن بن عبد الله السيرافي النحوي المشهور ، كان واسع العلم عريض الجاه ، تولى قضاء بغداد وله شرح كتاب سيبويه وشرح مقصورة ابن دريد . قال ابن خلكان «ج ١ ص : ١٣٠» كان الناس يشتغلون عليه بعدة فنون : القرآن الكريم ، والقراءات ، وعلوم القرآن ، والنحو ، واللغة ، والفقه ، والفرائض ، والحساب ، والكلام ، والشعر ، والعروض ، والقوافي ؛ وكان معتزلياً ، وتوفي سنة ٣٦٨هـ ببغداد .

(٢) انظر ترجمته في شذرات الذهب لابن العماد ج ٣ ص : ٨٥

(٣) انظر ترجمته في ابن خلكان ج ١ ص ١٣١ ، وشذرات الذهب ج ٣ ص : ٨٩ .

المرزباني «المتوفى سنة ٣٧٤ هـ» (١)، والقاضي ابي علي المحسن التنوخي (٢) «المتوفى سنة ٣٨٤ هـ»، وغيرهم من الاعلام الذين كانت حلقاتهم تعج بطالبي العلم والمعرفة. وقد بلغ من حب الرضي بالعلم واصحابه انه أسس داراً للعلم في بغداد واقام فيها مكتبة يتزود منها طلاب اللغة والدين (٣). وانت اذا قرأت ديوانه لم تجد اثراً واضحاً لغير الثقافة العربية الاسلامية من دين وشعر ولغة. ولا تجد عنده شيئاً من تلك الثقافة العميقة التي تجدها عند ابي العلاء المعري او ابن جني اللذين تقرأهما فتحس بأثر الثقافة والفلسفة اليونانية واضحاً.

ادبه :

يمتاز ادباء القرن الرابع ببراعة كثير منهم في صناعتي الشعر والنثر، نذكر من هؤلاء : ابا العلاء المعري، وابا عامر بن شهيد كاتب الاندلس وشاعرها البارع، وابا بكر الخوارزمي، وابن العميد، وابا الفرج الببغاء، وغيرهم. وليس من شك في ان كل واحد من هؤلاء ما كان يجيد احدى هاتين الصناعتين اجادته في الصناعة الاخرى. والشريف احد هؤلاء الذين برعوا في صناعتي الشعر والنثر.

ولكن لم يبق لنا من نثره الا فقرات قليلة منثورة في كتب الأدب، والا المقدمة التي قدم بها نهج البلاغة وهي بلا شك من قلمه. واسلوبه فيها اسلوب جمهرة الكتاب في عصره، فيه سجع وفيه ازدواج وفيه صنعة لفظية وايثار للبديع من تورية وموازنة، وطباق وجناس، واليك نموذجاً من ذلك : «اما بعد حمد الله الذي جعل الحمد ثمناً لنعمائه ومعاذاً من

---

(١) انظر ترجمته في الشذرات ج ٣ ص : ١١١.

(٢) انظر ترجمته في الشذرات ج ٣ ص : ١١٢.

(٣) عبقرية الشريف الرضي لزكي مبارك ج ٢ ص : ١٠٧.

بلائه ، وسبيلا الى جنانه ، وسبباً لزيادة احسانه . . . فاني كنت في عنفوان السن ، وغضاضة الغصن ، ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السلام : يشتمل على محاسن اخبارهم ، وجواهر كلامهم ؛ حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب وجعلته أمام الكلام . . . وعاقت عن اتمام بقية الكتاب محاجزات الزمان ومماطلات الايام . وكنت قد بوّبت من ذلك ابواباً ، وفصّلته فصولاً ، فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في الحكم والامثال والادآب دون الخطب الطويلة . فاستحسن جماعة من الاصدقاء والاخوان ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره ، معجبين ببدائعه ، ومتعجبين من نواصعه وسألوني عند ذلك ان ابدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا . . . علماً ان ذلك يتضمن من عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ، ولا بمجموع الاطراف في كتاب ، اذ كان امير المؤمنين (عم) مشرع الفصاحة ومورودها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه عليه السلام ظهر مكنونها ، وعنه اخذت قوانينها ، وعلى امثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ، ومع ذلك فقد سبق وقصّروا ، وتقدم وتأخروا ، لانه كلامه (عم) عليه مسحة من العلم الالآهي ، وفيه عبقة من الكلام النبوي . . . فهو البحر الزاخر الذي لا يساجل ، والجم الذي لا يحافل ؛ واردت ان يسوغ لي التمثل في الافتخار به (عم) بقول الفرزدق :

اولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع (١) .

فانت ترى ان اسلوب الشريف في هذه الفقرات يحوي على خصائص اسلوب كتاب

---

(١) مقدمة نهج البلاغة ص : ١ ــ ٣

القرن الرابع للهجرة ، من ولع بالصنعة ، وشغف بالبديع والسجع وبقية المحسنات ، وتضمين النثر ابياتاً شعرية . هـذا ما نستطيع ان نصف اسلوب الشريف النثري ، على الوغم من ضياع آثاره.

شعره :

لا يشبه شعر الشريف الرضي شعرَ الجاهليين ، الذين كانوا يصدرون في شعرهم عن عاطفة اولية ساذجة لحياتهم البدوية البسيطة ، ولا شعرَ الاسلاميين الذين قلدوا الجاهليين في اسلوبهم واغراضهم ، إلا ما كان للاسلام وتعاليمه من تأثير عليهم ، ولا شعرَ مخضرمي الدولتين الذين لم تظهر في شعرهم آثار الثقافة العباسية الجديدة ، ولا شعر الطبقة الاولى التي نشأت في العصر العباسي فتأثرت به من حيث الصور والمظاهر فقط ، كما نجد ذلك في شعر ابي نواس ، ومسلم بن الوليد ، وديك الجن ، والبحتري ، وابن الرومي ، وابن المعتز ؛ وانما يمتاز شعر الشريف بجمعه لكافة المزايا الشعرية للعصور المختلفة التي رأيت ، فهو جاهلي في اسلوبه ، قوي في الفاظه ، اسلامي في روحه وكثير من معانيه وصوره ، عباسي في ثقافته وتصويره لمظاهر الحياة والبيئة التي كان يعيش فيها . فقد كان شاعراً مثقفاً تمثل علوم عصره وادركها . كما خبر الحياة واصطراع الناس فيها ، ونضال ارباب المذاهب والنحل في فهم حقيقتها ؛ فضمّن كل ذلك شعره الذي اضحى مرآة واضحة لعصره . ولا نعرف شاعراً غيره صوّر عصره وتصارع العقول والاهواء فيه ، غير أبي العلاء الذي غلبته الفلسفة فصبغت شعره بمذاهبها . اما الشريف فقد بقي بعيداً عن الفلسفة . ولذلك كان شعره اقرب الى تصوير الحياة الواقعية من شعر صاحبه ، ولعلّ السرّ في ذلك ان ابا العلاء كانت له نزعة اصلاحية فلسفية ، وهذا ما لم ينزع اليه الشريف الرضي في شعره .

وبعد فشعر الشريف الرضي ممتاز بالفاظه المختارة، ومعانيه الغنية ، ومطابقة اللفظ للمعنى ، على حد قوله :

لا يفضل المعنى على لفظه شيئاً ولا اللفظ على المعنى

وكان الشريف كثير الاعتداد بشاعريته ، مؤمناً بقوة شخصيته التي تظهر في شعره ، ولذلك كان كثير الهزء بمن يعدون على شعره ويسرقون معانيه والفاظه ، ظناً منهم ان روحه لا تظهر في ذلك ، انصت اليه يسخر من هؤلاء اللصوص المنتحلين فيقول:

الا من عذيري في رجال تواعدوا لحربي ، من رامي عقوقٍ ورامحِ
وغرَّهم مني اصطبارٌ على الاذى وقد يكظم المرء الاذى غيرَ صافح
اغاروا على ذودٍ من الشعر آمن تقادم عندي من نتاج القرائح
فياليتهم أدوْه في الحيّ خالصاً ولم يخلطوه بالرذايا الطلائح
اذا طردوها خالفت برقابها رجوعاً الى اوطانها والمسارح
وان اوردوها غير مائي حايدت حيادَ عيوفٍ ينكر الماءَ قامح
هبوها اليكم من يديَّ منيحةً فقد آن — يا للقوم — ردُّ المنائح (١)

فأنت ترى ايمانه بأن سرقة شعره امر مستحيل ، لانه حين يضاف الى غيره من الشعر يظهر ، كالصحيح من الابل بين المراض ، ويهزأ بسارقي شعره ، فيقول لهم : لو تركتم شعري للوى رقابه راجعاً اليَّ ، ولو اوردتموه ماءً غير مائي لعاف هذا الورد .

---

(١) الديوان ص : ٢٠٤ — ٢٠٥ . الذود : من الثلاثة الى العشرة في الابل . الرذايا : جمع رذية وهي الضعيفة ـ المريضة . الطلائح : جمع طليح وهو الهزيل . القامح : الذي يرفع رأسه فلا يرد الماء لخوفه . المنائح : العطايا .

اغراضه الشعرية :

عاش الشريف الرضي في عصر ازدهر فيه الشعر ، و كثر الشعراء المجيدون ، وتنافسوا في التقرب من الامراء والخلفاء لنيل عطاياهم ، فكان حقاً على شاعرنا ، ان يتأثر بمن حوله فيجري على غرارهم ، ويندفع مع تيارهم ، فينظم في اغراضهم ، ويكثر منها ليعظم رواته وحفاظ قصائده .

لم يكن للشريف اغراض شعرية متنوعة ، إذ اقتصر في نظمه على المديح ، والفخر ، والرثاء ، والوصف ، والغزل الذي جعله سبيلاً الى مديحه وفخره ، وقد جوّد في ذلك واطال حتى ملأ ديواناً كثير القصائد ، قوي الشعر ؛ وحتى قال فيه صاحب عمدة الطالب «وإنما كان — يريد الشريف الرضي — أشعر قريش ، لان المجيد منهم ليس بمكثر ، والمكثر ليس بمجيد ، والرضي جمع بين الاكثار والاجادة (١) » .

المديح :

اتصل الشريف الرضي بخلفاء عصره وملوكه فمدحهم اعظم المدح ، وصوّر طرفاً من اعمالهم واعيادهم ومهرجاناتهم ، واتصل بالوزراء والامراء فمدحهم ، كما مدح اباه واخاه وعشيرته وآل البيت .

اما مدائحه للخلفاء فمنحصرة في الخليفتين : الطائع لله «من سنة ٣٦٣ هـ الى سنة ٣٨١ هـ» ، والقادر بالله «من سنة ٣٨١ هـ الى سنة ٤٢٢ هـ» . ولعلّك تستغرب ان يمدح الشريف العلوي الطامع بالخلافة ، خليفةً عباسياً لم يُبق الموالي من — ترك وديلم — له نفوذاً ولا

---

(١) انظرها في الديوان ح ١ ص : ٢ .

سلطة ، ولكن لا موضع لهذا الاستغراب لان الشريف الرضي لم يمدح الخليفة الطائع الا لأمرين :

اولهما : اتخاذه ذلك وسيلة عند الخليفة للعفو عن ابيه السجين .

وثانيهما : رؤيته في هذا الخليفة رجلاً يمثل العروبة الخالصة في ديار تحكم فيها الاعلاج من الموالي ، ومديحه للطائع يصور لنا عزّ الخلافة الاسلامية وتذكرنا قصائده بقصائد البحتري في الخليفة المتوكل ، كما نجد آمال الشريف مبسوطة فيها :

... رأي الرشيد وهمة المنصور في ... حسن الامين ونعمة المتوكلِ

آباؤك الغرُّ الذين اذا انتموا ... ذهبوا بكل تطاول وتطول

نسب اليك تجاذبت اشياخه ... طولاً من العباس غير موصّل

هذي الخلافة في يديك زمامها ... وسواك يخبط قعر ليلٍ أليل

ارجوك للامر الخطير وانما ... يُرجى المعظمُ للعظيم المعضل

وأروم من غلواء عزّك غايةً ... قعساءَ تستلب النواظر من عل

ويمدحه بقصيدة اخرى يتطلب منه فيها منصباً ، كما يتطلب منه ان يصم اذنه عن اقوال الحاسدين فيقول :

ازل طمع الاعداء عني بفتكة ... فلا سلم إلا ان يطول قتالُ

اردني مراداً يقعد الناس دونه ... ويغبطني عمٌّ عليه وخال

ولا تسمعن من حاسدٍ ما يقوله ... فأكثر اقوال العداة محال

وربما منّ على الخليفة بمدائحه فعاتبه في شعر فيه قوة وفيه جزالة ، لأنه يصور نفساً

تركت في سبيل الخليفة خيراً كثيراً ، ولكنه لم ينل منه ما يتمناه ، بل رأى الخليفة يصغي وده لجماعة من اعداء الشريف :

ونمي اليَّ من العجائب أنه ... لعبت بعقلك حيلة الخُوَّان
وتملّكتك خديعة من قولة ... غرَّارة الاقسام والأيمان
فاذهب كما ذهب الغمام رجوته ... فطوى البروق وضنَّ بالتهتان

ولما خلع الخليفة الطائع ، وولي القادر لم يتأخر الشريف عن مديحه والاطناب فيه ، والاشادة بأنه قد جدد مجد الخلافة بعد اندثاره . يقول كل هذا على الرغم من ان الخليفة الطائع ما يزال حياً يسمع ما يقال في الخليفة الجديد .

... مجدُ امير المؤمنين اعدتَه ... غضاً كنور المورق الميّاسِ
وبعثت في قلب الخلافة فرحةً ... دخلت على الخلفاء في الارماس
ومكيدة اشفى عليك نيوبها ... غضبان للقربى القريبة ناس
فغرت اليك فغرتها وتراجعت ... ففرته بالانياب والاضراس

ثم اخذ يمدحه في كل مناسبة ، الى ان قال فيه سنة ٣٨٢ هـ قصيدته التي مطلعها :

لمن الحدوج تهزّهن الاينق ... والركب يطفو في السراب ويغرق

وفيها يقول :

عطفاً امير المؤمنين فاننا ... في دوحة العلياء لا نتفرَّق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... ابداً كلانا في المعالي معرق
الا الخلافة ميّزتك فانني ... انا عاطلٌ منها وانت مطوّق

فظهر الغضب على وجه الخليفة فقال : على رغم انف الشريف ! فكانت هذه الجملة

سبباً في القطيعة بين الخليفة والشريف ، فحبس عنه عطاياه ؛ وكان من ذلك ان انصرف الشريف بعدها الى مدح الوزراء والامراء .

اما مدائحه للامراء والوزراء والملوك ، فلم تكن للاكتساب كما كان يفعل غيره من شعراء عصره ، وانما كانت صورة لما يجري في بغداد من احوال السياسة ، وشؤون الملك الذي كان الرضي يطمح اليه ، وهو وان لم يتوصل الى الخلافة ، فقد استطاع ان يكون امير الحج الذي بيده زمام العلاقات بين عاصمة الخلافة والبلاد المقدسة ، والذي توكل اليه سياسة القبائل العربية الضاربة على طريق الحاج بين بغداد والحجاز .

لم تكن امارة الحج المنصب السامي الوحيد الذي تقلده الشريف ، وانما تقلد منصباً اسمى ، له اهمية كبرى في العلاقات السياسية ، وهو السفارة بين فارس وملوكها المسيطرين على الخلفاء ، وبين العراق مقر الخلافة ؛ وقد كان لسفارته هذه آثارها المحمودة في تحسين العلاقات بين فارس والعراق ، وقد ضمّن الشريف مدائحه للامراء والوزراء والملوك طرفاً كبيراً من الاحوال السياسية في عصره . ولذلك وجب ان تدرس مدائحه في هؤلاء الناس دراسة خاصة لانها تبين لنا ناحية من نواحي السياسة في ذلك العصر . واكثر من مدحهم الشريف من الامراء ، بهاء الدولة البويهي الذي جمع الى قوة السلطان ادباً رفيعاً ، واخلاقاً سامية ، وتذوقاً للادب والشعر ؛ فأحبه الشريف واكثر من مديحه ومداعبته . وقد دامت العلاقات الودية بينه وبين بهاء الدولة نحواً من ربع قرن .

ومن اشهر مدائحه لبهاء الدولة قصيدته القافية التي اولها :

خلّ دمعي وطريقه أحرام ان أريقه ؟ (١)

---

(١) الديوان ص : ٥٤٦

وفيها يمدحه فيقول :

يا قوامَ الدين والفا ... رجَ للدين مَضيقه
انت راعيه وهاديه ... اذا ضلَّ طريقه
من رجال ركبوا المجـ ... ـد فما ذموا عنيقه
معشرٌ كانوا قَبيـ ... ـل العزّ قدماً وفريقه
وملوك في ثراهم ... ضرب المجدُ عروقه (١)

ثم يستمر في هذا المديح والتمجيد للملوك فارس ، وأنَّ فيهم موطن العز والمجد ، الى ان يقول :

عشتَ تستدرك فينا ... خطرَ الدهر وموقه
واثقاً بالدهر تعطي ... من رزاياه وثيقه
مطلع الشارق إن غا ... ب رجا الناس شروقه (٢)

وفي هذه القصيدة يثني الشريف على الفرس وماضيهم فيقول :

حسبٌ يحسب من فيـ ... ـه وأعراق عريقه
لهم الايدي الطوال الطـ ... ـول والبيض الذليقه
ومواريثُ مقاري اللـ ... ـيل والنار العتيقه
بوجوهٍ واضحاتٍ ... في دجى الأزل طليقه
وبأخلاقٍ رقاقٍ ... دون اعراضٍ صفيقه

---

(١) العنيق : السير السريع .
(٢) الموق : الغباء .

ان فيهم مولد الملـ ـك ومن قبل عَلوقه
ناشئاً تسلمه الأم الى الظئر الشفيقه (١)

وشعره في بهاء الدولة هو خير ما قاله في المدائح ، لما فيه من معانٍ رشيقة ، والفاظ عذبة ، وموسيق حلوة ، وغزل رقيق ؛ كالذي يقوله في مطلع قصيدته :

زار والركب حرامُ اوداع ام سلامُ ؟
طارقاً والبدر لا يحفزه الا الظلام
يا خليليَّ اسقياني زمن الوجد سقام
وصفا لي قُلعةَ الركـ ـب وللليل مقام
يا غزال الجزع لو كا ن على الجزع لمام
احسد الطوقَ على جيـ ـدك والطوقُ لزام
وأعضُّ الكف إن نا ل ثناياك البشام
وأغار اليوم إن مرَّ على فيك اللثام

ثم ينتقل بعد هذا الغزل الجميل الى المديح ، فيطنب في الاشادة بايام بهاء الدولة ورعايته للدنيا والدين ، وقهره للاعداء ، وفتكه بالخارجين على الملك ؛ كل ذلك باسلوب جميل ، وبحر حلو ؛ الى ان يقول طالباً انجاز مواعيده ، مؤملاً :

يا دليل المجد ان ضلَّ عن المجد الكرامُ

---

(١) البيض الذليقة : السيوف البتَّارة . المقاري : جمع مقرى ، وهو الذي يقري الضيفان في الليل . ويريد بالنار العتيقة : نار فارس القديمة المعظمة . الازل : الشدة والضيق . العَلوق : المرضع ، ومثلها الظئر .

لي مواعيدٌ ووعد الـ غيب عَقد وزمامُ
حُبس القطر بأرضي وارى الجوَّ يغام (١)

وممن مدحهم من الامراء والملوك : الصاحب بن عباد (٢) ، والوزير ابو نصر سابور بن اردشير (٣) ، والوزير ابو منصور بن صالح (٤) ، وفخر الملك وزير بهاء الدولة (٥) ، وغيرهم .

واما مدائحه في ابيه واخيه وآل البيت ، فكثيرة جداً ؛ وفيها تصوير رائع للفخامة العلوية ، واجملها مدائحه في ابيه التي تربو على الاربعين قصيدة ، وهو فيها يصور اباه صورة الامير الذي يدخل عليه الشعراء فيمدحونه في المناسبات والاعياد والمهرجانات ، كما يصور فيها حنينة اليه وحرقته عليه حين سجن ولقي في ذلك صنوف العذاب والألم . وهو في كلا النوعين يظهر عواطفه الصادقة التي تفيض بالشعور ودقة الاحساس . ومن اجمل قصائده فيه ، قصيدته التي قالها بعد رجوع ابيه من السجن ، ورد منصبه اليه ، ومطلعها :

انظر الى العلياء كيف تعود والى المعالي الغر كيف تزيد

وفيها يشيد بمناقب ابيه وشرف نفسه ، ويعاتب اقاربه الذين اساؤوا اليه في غيبته ، ولم تنشرح صدورهم لأوبته ، وفيها يتوسل باعادة اموال ابيه اليه .

---

(١) انظر بقية القصيدة في الديوان ص : ٧٢٩ . القلعة « بالضم » : الارتحال . البشام : شجر المسواك . يغام : من الغيم .

(٢) الديوان ص : ٢١٦ — ٢٢٠

(٣) » » : ٤٥ — ٢٢٥

(٤) » » : ٤٨

(٥) » » : ٣٢٢

واما مدائحه في اخيه وفي آل البيت ، فقد ضمّنها كثيراً من عواطفه واشادته بمناقب هؤلاء السادة ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في المختار من شعره فارجع اليه .

الفخر :

ديوان الشريف ممتلىء بقصائد فخرية اشاد فيها بمناقبه ومحتده وشرف البيت الطاهر الذي ينتسب اليه ، وكيف لا يفتخر بذلك ، وقد رأيت من عزة نفسه وطموحه ما رأيت ؛ وانت اذا قرأت فخرياته احسست بالروح القوية التي تسود هذه القصائد .

كان الشريف كثير الفخر بنفسه وجرأته ، ومن اجمل قصائده قصيدته التي اولها :

نبّهتهم مثل عوالي الرماح الى الوغى قبل نموم الصباح (١)

وفيها يصور الفروسية والفتوة وسمو النفس — التي لا ترضى بغير العز او القبر — والشرف اعظم تصوير فيقول :

يا نفس من همّ الى همة فليس من عبء الاذى مستراح
قد آن للقلب الذي كدّه طولُ مناجاة المنى ان يُراح
لا بد ان اركبها صعبةً وقاحةً تحت غلام وقاح
يجهدها او ينثني بالردى دون الذي قدّر او بالنجاح
الرّاح والراحة ذل الفتى والعزّ في شرب ضريب اللقاح

ثم ينتقل الى الفخر والهزء بمن يريد نحتَ أثلته ، ويلمح الى طموحه بالخلافة فيقول ؛

---

(١) الديوان ص : ١٩٧

اني والشائم عرضي كمن ... روّع اساد الشرى بالنباح
يطلب شأوي وهو مستيقن ... ان عناني في يمين الجماح
فأرم بعينيك مليا ترى ... وقع غباري في عيون الطلاح
لا همّ قلبي بركوب العلى ... يوماً ولا بلّ يدي بالسماح
إن لم انلها باشتراط كما ... شئت على بيض الظبا واقتراح

فانت ترى قوة هذه النفس وحزمها وسعة مطامحها ، وان نفساً كهذه لجديرة بان تفتخر بما صنعته ، افتخارَها بالحسب الذي ورثته .

والشريف كثيراً ما يجمع بين الفخر والغزل ؛ وما نعرف شاعراً صنع ذلك غير وغير ابي فراس ، وهذا يدل — فيما نرى — على ان الدافع للغزل لم يكن المرأة ، وانما المعالي والمطامع النبيلة :

ألا خبرٌ عن جانب الغور وارد ... ترمي به ايدي المطيّ الرواسم
واني لأرجو خطوةً لوذعية ... تجيب بنا داعي العلا والمكارم
نداوي بها من زفرة الشوق انفساً ... تطلع من بين اللها والحيازم
واني على ما يوجب الدهر للفتى ... ولو سامه حمل الامور العظائم
مقيم بأطراف الثنايا صبابةً ... أسائل عن أظعانكم كلّ قادم
وأرقب خفّاق النسيم اذا حدا ... من الغرب اعناق الرياح الهواجم (١)

فانت ترى مزجه بين الفخر والنسيب مزجاً موفقاً ، فقد جمع بين الشدة التي يقتضيها الفخر ، وبين الرقة التي يقتضيها النسيب ؛ وهذا يدل على صفاء نفس ولطافة حس .

---

(١) الديوان ص : ٨١١

الرثاء :

اجاد الشريف في هذا النوع من الشعر اجادة حسنة لصدق عاطفته ، وشدة وفائه لاصدقائه وحبه لذويه ؛ حتى قال الثعالبي: «ولست ادري في الشعراء احسن تصرفاً في المراثي منه[1]». ورثاؤه ينقسم الى ثلاثة اقسام : رثاء قاله في اهله ، ورثاء قاله في آل البيت ، ورثاء قاله في الاصدقاء والامراء .

اما رثاؤه لاهله ، فهو مملوء بالعاطفة والحرقة ؛ يدلك على ذلك ما قاله في رثاء امه وابيه ، وهو من خير ما قال في الرثاء . وقد ابان في مرثيته لامه عاطفته نحو المرأة واحترامه اياها لما تبذله في خير ابنائها ، وما تضحيه في سبيلهم من تعب وعناء . وهو في هذه القصيدة يمثل لك الهلع الذي يصيب المرء حين يفجع بامه ، فيفقد تماسكه وصبره ، وينسى تعززه وإباؤه ، ويضيّع وقاره وسكينته :

فارقتُ فيكِ تماسكي وتجملي ... ونسيت فيكِ تعززي وإبائي

وصنعت ما ثلم الوقار صنيعه ... مما عراني من جوى البرحاء

كم زفرةٍ ضعفت فصارت أَنَّةً ... تمتها بتنفس الصعداء

قد كنت آمل ان اكون لك الفدا ... مما المَّ فكنتِ انت فدائي

وتفرُّق البعداء بعد مودةٍ ... صعبٌ ، فكيف تفرق القرباء

على هذا النمط من الرثاء ، وبمثل هذه القوة ، يستمر الشريف في بكاء امه التي كانت تنفق عليه وتواسيه في حياته حين كان ابوه مسجوناً وتقاسمه آلامه واحزانه :

---

(١) اليتيمة ج ٢ ص ٣٠٨

فبأي كف استجن واتقي صرف النوائب ام بأي دعاء
ومن المؤمل لي اذا ضاقت يدي؟ ومن المعلل لي من الأدواء ؟
ومن الذي ان ساورتني نكبة كان الموقي لي من الأسواء ؟
رزءان يزدادان طول تجدد ابدَ الزمان : فناؤها وبقائي
قد كنت آمل ان يكون امامها يومي وتشفق ان تكون ورائي

ثم يصف مناقبها الغر ودينها ، ويطنب بشرف اصلها العلوي . و يستمطر الرحمة على جدثها . ثم يختم قصيدته بمقطوعة هي من اروع ما يقال في هذا الصدد فيقول :

معروفك السامي انيسك كلما ورد الظلام بوحشة الغبراء
وضياء ما قدمته من صالح يك في الدجى بدلاً من الاضواء
ان الذي ارضاه فعلك لا يزل ترضيك رحمته صباح مساء
لو كان يبلغك الصفيح رسائلي او كان يسمعك التراب ندائي
لسمعت طول تأوهي وتفجعي وعلمت حسن رعايتي ووفائي

وما نعرف شاعراً ابان عن عاطفته لأمه بعد موتها وحرقته «وركض الغليل فى احشائه» حين يراها تتوسد الثرى مثل الشريف حين يقول :

كان ارتكاضي في حشاك مسبباً ركض الغليل عليك في احشائي (١)

فهو يرى ان حياته في بطن امه ، وارتكاضه فيها وهو جنين ، دين عليه واجب اداؤه :

---

(١) انظر القصيدة في الديوان ص : ١٨

واما رثاؤه لابيه فلا يقل عاطفة عن رثائه لأمه ، وقصيدته هذه «وابياتها تقرب من المائة» تصور لنا قلق الشريف واضطرابه بعد موت ابيه» . كما تصور لنا اباه وما كان عليه من خلال نبيلة وفضل جم (١) .

واما مراثيه في آل البيت فكثيرة جداً ، وانت واجد في اكثرها روحاً فلسفية صوفية ، كما تجد فيها عصبية وعنجهية . اما نزعته الصوفية فتتجلى في قصيدته اللامية التي قالها في رثاء الحسين ، واولها :

راحلٌ انت والليالي نزولُ ... ومضرٌ بك البقاء الطويل
لا شجاع يبقى فيعتنق البيـ ... ـضَ ولا آمل ولا مأمول
غاية الناس في الزمان فناءٌ ... وكذا غاية الغصون الذبول
إنما المرء للمنية مخبو ... ءٌ ، وللطعن تُستجمُّ الخيول
... ربما وافق الفتى من زمان ... فرح ، غيره به متبول
هي الدنيا ان واصلت ذا جفت ... ه ذا ملالاً كأنها عطبول
كل باكٍ يُبكى عليه وان طا ... ل بقاءٌ ، والثاكل المثكول
والاماني حسرة وعناء ... للذي ظن انها تعليل (٢)

واما نزعته العصبية ، فتتجلى في هجاء بني امية الذين سلبوا العلويين حقهم واستبدوا بالخلافة استمع اليه :

ان الخلافة اصبحت مزوّيةً ... عن شعبها ببياضها وسوادها

---

(١) انظر القصيدة في الديوان ص : ٧٣٦
(٢) » » » ص : ٦٥٨

ولمست منابرَها علوجُ امية تنزو ذئابهمُ على اعوادها(١)

وللرضي في الحسين خمس قصائد طوال كان يقولها في حفلات عاشوراء، وقصائده هذه مملوءة بالتفجع لمصرع الحسين، والحزن ليوم عاشوراء والدعوة الى اخذ ثأر الحسين والانتقام لبنيه.

واما مراثيه في الأصدقاء والرؤساء، فتصور لنا رأي الشريف في الدنيا وتقلباتها واحوالها، وتطلعنا على شيء من فلسفته في الحياة. وخير ما قاله في الاصدقاء قصائده التي قالها في رثاء صديقه ابي اسحق الصابيء - الذي مات في شوال سنة ٣٨٤ هـ - وكان بينهما من المودة الاكيدة والمكاتبات ما هو مشهور في كتب الادب، فحزن الشريف على الصابي ورثاه بقصيدة دالية(٢) تحدث الناس عنها، وعجبوا لشاعر من عترة الرسول يرثي احد الصابئة، حتى ان اخاه المرتضى عاتبه على ذلك فلم يحفل به، وقال فيه قصيدة ثانية عند ما اجتاز بقبر الصابيء بعد وفاته باعوام:

أيعلم قبرٌ بالجنينة اننا اقمنا به ننعي الندى والمعاليا
مررنا به فاستشرفتنا رسومُه كما استشرف الروضُ الظباءَ الجواريا
وما لاح ذاك الترب حتى تحلّبت من الدمع اوشالٌ ملأن المآقيا
نزلنا اليه عن ظهور جيادنا نكفكف بالأيدي الدموع الجواريا

الى ان يقول:

هل ابن هلال منذ اودى كعهدنا هلالاً على ضوء المطامع باقيا؟

---

(١) انظر القصيدة في الديوان ص: ٢٧٨

(٢) انظرها في المختار من شعره.

وتلك البنان المورقات من الندى نواضب ماءٍ ام بواقٍ كما هي؟
خلا بعدك الوادي الذي كنت أنسه واصبح تعروه النوائب واديا
ولولاك كان الصبر منا سجيةً تُراثاً ورثناه الجدود الأواليا
ملأتَ بمحياك البلاد فضائلاً ويملأ مثواك البلاد مناعيا
رثيتك كي اسلوك فازددتُ لوعةً لأن المراثي لا تسدُّ المرازيا(١)

ثم يمر مرة ثالثة على قبر الصابيء في سنة ٣٩٣ فيرثيه بقصيدة كلها تفجع ومطلعها:

لولا يذمُّ الركبُ عندكَ موقفي حييتُ قبرَك يا ابا اسحاقِ (٢)

الغزل :

ليس للشريف غزل لاهٍ بالمعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة . لأن اخلاقه وعزة نفسه وطموحه تأبى عليه ذلك ، فقد كان مغرماً بمعالي الامور ، هائماً بالمجد ، بعيداً عن اللهو والعبث ، يرى ان الحياة جهاد مستمر وسعي متواصل وراء المعالي ، ولكنه مع ذلك كان شاعراً ، والشاعر مضطر بطبيعته الشعرية ان يتغزل وان يصف المراة ، فلذلك تغزل الشريف بها ، ولكنه تغزل صناعي لا يشبه غزل شعراء بغداد في عصره . هو غزل بدوي تعشق صاحبه البادية وصورها وظبائها ، وهذا ما تجده في قصائده المشهورة « بالحجازيات » والتي ضرب بها المثل في الرقة والعذوبة ، لتصويرها بيئة الحجاز ومواسم الحج ؛ وله في ذلك نحو اربعين قصيدة ، واليك قصيدة منها :

احبكِ ما اقام منى وجمع وما أرسى بمكة اخشباها

---

(١) انظر القصيدة في الديوان ص : ٩٧٥
(٢) » » » » : ٥٧١

نظرتُك نظرةً بالخيف كانت جلاءَ العين مني بل قذاها
ولم يكُ غير موقفنا فطارت بكل قبيلة منا نواها
فواهاً كيف تجمعنا الليالي وآهاً من تفرقنا وآها
وأركانِ العتيق وبانييها وزمزم والمقامِ ومن سقاها
لأنت النفس خالصةً فان لم تكونيها فانت اذاً مناها (١)

فانت ترى رقةً بدوية وجمالاً في اللفظ وعفة في القول ولا تجد ذلك عند شاعر آخر.

وللشريف في الحجازيات قصائد غرام شرقت وغربت ومن اشهرها قصيدتاه: الكافية التي اولها:

يا ظبيةَ البان ترعى في خمائلهِ ليهنك اليوم ان القلب مرعاكِ (٢)

والقافيةَ التي يقول فيها:

ايها الرائح المغذّ تحمل حاجةً للمعذّب المشتاقِ
اقرِ عني السلامَ اهلَ المصلّى فبلاغ السلام بعض التلاقي
واذا ما مررت بالخيف فاشهد ان قلبي اليه بالأشواق
واذا ما سُئلت عني فقل نضـ و هوىً ما اظنّه اليوم باقي
ضاع قلبي فانشده لي بين جمع ومنى عند بعض تلك الحداق
وابكِ عني فطالما كنت من قبـ ـل أعير الدموع للمشتاق (٣)

---

(١) الديوان ص: ٩٦٢
(٢) انظرها في المختار من شعره.
(٣) انظر الديوان ص: ٥٧٤

فانت ترى تصويره للعذاب الذي يحس به المشتاق النائي عن احبابه من اروع التصوير وهو يرجو ممن يراهم ان يبلغهم سلامه لأن « في السلام بعض التلاقي» وليحدثهم بأنه قد ترك هذا العاشق نضو هواه ولن يلبث طويلاً ، فقد ضاع قلبه فهو هالك ، فليبكه بعد موته لانه حين كان حياً كان يعطف على العشاق ويحن اليهم ويعيرهم دموعه .

وبين حجازيات الشريف قصائد ، مختارة البحور ، خفيفة الاوزان ، كقصيدته التي اولها : من معيدٌ لي ايا مي بجزع السمرات (١)

وقصيدته التي اولها :

عاد الهوى بظباء مكـ ـة للقلوب كما بداها (٢)

وبعد فحجازيات الشريف مثل خمريات ابي نواس ، وزهديات ابي العتاهيه ، وتشبيهات ابن المعتز ، ومدائح البحتري ؛ وهي درة من درر الادب العربي ، ولا غنى لمن يريد صقل ذوقه واحتواء ملكة عربية صحيحة من قراءتهـا والتمعن فيها واجتلاء دررها .

الوصف :

ليس للشريف قصائد قالها في الوصف خاصة ، كالذي نجـده عند ابي نواس من وصف الخمر ، وعند البحتري من وصف القصور ، وعند ابن الرومي من وصف الطبيعة ، ولذلك لم يعرف الشريف في عالم الوصف ، ولا تعرّض لبيان هذه الناحية عنده من عُنوا بأدبه ؛ على ان للشريف وصفاً يستطرد اليه في قصائده ، فهو حين يتحدث عن الركب

---

(١) انظر الديوان ص : ١٧٠

(٢) الديوان ص : ٩٦٥

يستطرد فيصف النياق (١)، وحين يريد الافتخار بنفسه يشبهها بالأسد او الحية ثم يستطرد فيصف الاسد والحية (٢)، وحين يرثي صديقاً له لدغته الحية يستطرد فيصفها (٣)، ويرثي آل المنذر ملوك الحيرة ثم يستطرد فيصف الحيرة وأطلالها (٤)، ويفتخر بالاسلام وبقوته على الفرس، فيصف ايوان كسرى (٥)، على ان للشريف بعض المقطعات قالها في الوصف خاصة كمقطوعته في وصف الذئب (٦) ومقطوعته في وصف الليل (٧) وغيرهما. واوصاف الشريف لاتدل على قوة في الوصف دلالتها على حسن انتقاء الالفاظ، فانت مأخوذ بالفاظه في اوصافه اكثر من معانيه، واذا ماقارنت بين وصفه لايوان كسرى وبين وصف البحتري، رأيت الفرق عظيماً والبون شاسعاً؛ فالبحتري مصور بارع، والشريف متحدث مستعبر اكثر منه مصوراً وصافاً. استمع اليه يصف الايوان:

قد نزلنا دار كسرى بعده ... اربعاً ما كنَّ للذل ظُؤارا
اسفرتْ اعطافُها عن معشر ... شغلوا المجدَ بهم عن ان يُعارا
تصفُ الدارُ لنا قطّانها ... المعالي والمساعي والنجارا
واذا لم تدرِ ما قومٌ مضوا ... فَسلِ الاثار واستْنبِ الديارا
آل ساسان حدا الخطبُ بهم ... واسترد الدهرُ منهم ما اعارا

---

(١) انظر الديوان ص ٥٥
(٢) الديوان ص: ٧٩٧ - ٥٨٤
(٣) الديوان ص ٥٦٨
(٤) انظر الديوان ص: ٣٩٣ و ٨٨٥
(٥) الديوان ص: ٣٧٢
(٦) انظر في المختار من شعره.
(٧) الديوان ص: ٤٣٠

بعد ما شادوا البُنى ترفعها ... عَمد المجد قِباباً ومناراً

كلّ ملوم القرى صعب الذرى ... يُزلق العقبانَ عنه والنسارا

جعجعوا الايوانَ في مبركه ... مِبرك البازل قد قضى السفارا

حمل الدهرَ الى ان ردّه ... ضاغطَ العبء ضُلوعاً وفِقارا

مطرق إطراقَ مأمونِ الشذا ... غمر النادي حلماً ووقارا (١)

فانت لا ترى في هذه المقطوعة تلك الصور الرائعة المتحركة التي رأيتها في سينية البحتري ، وانما تجد الفاظاً جزلة وتراكيب فخمة وعبراً وعظات . وبقية القصيدة من هذا النوع الذي رأيت ، فارجع اليها في الديوان اذا شئت .

وكثيراً ما يمزج الشريف بين الرثاء والوصف ، كما ترى ذلك في وصفه للحيرة ورثائه لملوكها آل المنذر :

اين بانوكِ ايها الحيرة البيـ ... ـضاء والموطئون منك الديارا؟

والألى شققوا ثراك من العشـ ... ـب واجروا خلالك الانهارا

...لم يدع منك حادثُ الدهر إلا ... عبراً للعيون واستعبارا

وبقايا من دارساتِ طلولٍ ... خبرتنا عن اهلها الاخبارا

عبقات الثرى كأن عليها ... لطميين ينفضون العطارا

وقبابٍ كأنما رفعوا منـ ... ـها لمسترشد الظلام منارا

---

(١) الديوان ص . الظؤار : جمع ظئر وظئرة وهي الدعامة الى جنب حائط يدعم به والمراد بها هنا الموضع . الجعجعة : تحريك الابل للاناخة او النهوض من مباركها . الشذا : الاذى .

عقدوا بينها وبين نجوم الافق ... من سالف الليالي جوارا
أين عقبانُك الخواطفُ حلقن ... وأبقين عندك الاوكارا
ورجالٌ مثل الاسود مشوا فيـ ... ـك تداعوا قوائماً وشفاراً
حبذا اهلك المحلّون اهلاً ... يوم بانوا وحبذا الدار دارا
لم يكونوا إلا كراكبٍ قد تأنّى ... برهةً في مُناخه ثم سارا (١)

فانت ترى مزجه بين الوثاء والوصف واضحاً ، وليس لذلك من تعليل في رأينا إلاّ ان الشريف ما كانت له تلك العين المصوّرة التي كانت للبحتري او ابن الرومي ، على ان للشريف بعض مقطوعات بارعة في الوصف تنم عن صفاء خاطره وخفة روحه ، كمقطوعته الثانية التي يصف فيها اطلال الخيرة ، فقد استهلها بمطلع جميل ، ثم اخذ يصف رافعي قبابها ، وما ابقوه من خالد الاثر ؛ ثم خاطب الديار التي غيرها البلى فاصبحت «مرابض الغزلان والمها ، بعد ان كانت مقاصر الغانيات الفاتنات» وبعدئذٍ شرع يصف الملاعب والدور والقرات وصفاً جميلاً فيقول :

أمقاصرَ الغزلانِ غيّرك البلى ... حتى غدوتِ مرابضَ الغزلانِ
وملاعبَ الأُنس الجميع طوى الردى ... منهم فصرتِ ملاعبَ الجنّانِ
من كل دارٍ تستظلُّ رواقَها ... ادماءُ غانيةٌ عن الجيران
ولقد تكونُ محلةً وقرارةً ... لأغرَّ من ولَدِ الملوك هجان
يطأ الفراتُ فناءَها بعبابه ... ولها السلافة منه والوركان
ووقفتُ اسألُ بعضَها عن بعضها ... وتجيبني عبرٌ بغير لسان

---

(١) الديوان ص : ٣٩٣

قَدَحت زفيري فاعتصرت مُدامعي لو لم يَؤُل جَزَعي الى السلوان

تَرْقا الدموعُ ويرعوي جزعُ الفتى وينامُ بعد تفرق الأقران

مِسكيةُ النفحاتِ تحسبُ تربها برد الخليع معطر الأردان

نعقَ الزمانُ بجمعهم عن لَعلعٍ وأَقضَّ مَنزِلَهم على نجران (١)

ولا بد ان نقف وقفة قصيرة امام الصور الجيدة التي قالها الشريف في وصف الشيب وبكاء الشباب الذي ترك الشريف فشاب وهو في العشرين من عمره (٢) :

عشرونُ اعجلنَ الصبا وجُزن بي غاياتِه وما قَضين وطري

فكيفَ بالعيش الرَّطيب بعدَ ما حطَّ المشيبُ رحلَه في شَعَري

سوادُ رأسٍ أم سوادُ ناظرٍ؟ فانه مذ زال اقذى بَصري (٣)

ويظهر ان الشريف قد ضاق ذرعاً بالشيب ، فهو لا يفتأ يتفجع منه لانه يرى فيه مؤذناً بانقراض الشباب ، ونذيراً بالموت :

---

(١) الديوان : ص ٨٨٥ . الجنان : ضد الانس. الرواق : سقف مقدم البيت. ادماء : الظبية لونها مشرب بياضاً الى سمرة . الهجان : الرجل الكريم الحسب . العباب. معظم السيل و كثرته ،اوموجه، والسلافة : من كل شيء عصارة اوله . الروق : الصافي الرائق من الماء او الخمر . لعلع : اسم جبل ، وموضع وماء بالبادية . اقض الوتد : قلعه ، ونجران : بلد باليمن ، وآخر بحوران.

(٢) هذه المقطوعة تؤيد ان الشريف شاب في العشرين من عمره على انه في مقطوعة اخرى يشير الى ان الشيب حل في رأسه وله ثلاث وعشرون سنة « انظر الديوان ص : ٦٨٨ » وهذا الذي اعتمده الدكتور زكي مبارك . « عبقرية الشريف الرضي ج ٢ ص : ٢٠٥ » ويقول المستشرق كرنكو في دائرة المعارف الاسلامية ان الشيب حلَّ برأس الشريف وله من العمر احدى وعشرون سنة لضعف بنيته .

(٣) الديوان ص : ٣٦٧ .

واهاً على عهد الشباب وطيبه والغصنِ من ورق الشباب الناضرِ
سبعٌ وعشرون اهتصرن شبيبتي وألنَّ عودي للزمان الكاسر
لو يفتدى ذاك السواد فديته بسواد عيني بل سواد ضمائري

ويقول بعد ان جاوز الثلاثين وكان في الحج فحلق شعره فرأى فيه الخصل البيض فانزعج بذلك :

لا يبعدنَّ الله بُردَ شبيبةٍ أَلقيتُه بمنى ورُحتُ سليبا
بعد الثلاثين انقراض شبيبةٍ عجباً أميمَ لقد رأيت عجيباً
فاليوم اطلبُ الهوى متكلفاً حصراً وألقى الغانيات مريبا

وللشريف قصائد كثيرة رثى بها رأسه وهي في مجموعها غنية المعاني ، جميلة التصوير .

الحكمة :

للشريف حكمة منثورة في ديوانه ، ولا تكاد تخلو قصيدة له من مثل او حكمة . وحكمته من نوع حكمة المتنبيء المنتزعة من الحياة وتجاربها ومختلف شؤونها ، كقوله في الصديق والصداقة :

يُعرِّفُك الاخوانُ كلٌّ بنفسه وخيرٌ أخٍ من عرَّفتك الشدائدُ
كلُّ جوادٍ كاذبٌ في الوعدِ وكلُّ خلٍّ خائنٌ في الود
اما كان فيكم مُجملٌ او مُجامِلٌ إذا لم يكن فيكم اغرُّ جوادُ

وقوله في المال :

ان بذَّني مالي عطاءً تركته حميداً وطالبتُ القواضبَ بالودِّ

والمالُ اهونُ مَطلباً من أن أَرى ... ضَرعاً أُرامي دونَه وأُداري
وجَدوا وما جادوا وحُمتقبٌ ... للؤم مَن أثرى ولم يَجد
وكيف وُفورُ العرض والمالُ وافرٌ ... ومن يَخزن الاموالَ يُنفقْ من العرض
وما جمعيَ الاموالَ الا غنيمةٌ ... لمن جاء بعدي واتّهامٌ لرازقي

وقوله في الدنيا وصروفها :

ينالُ الفتى من دهره قدرَ نفسه ... وتأتي على قَدْر الرجال المكايدُ
وعتابُ الزمان مثلُ عتاب العيـ ... ـنِ تُنهى ودمعُها بازدياد
وما هذه الدنيا لنا بمطيعةٍ ... وليس لخلقٍ من مُداراتها بُدّ
كلَّ يومٍ نَذُم للدهر عهداً ... خانَ فيه ، ونشتكي منه غَدرا
سالمْ تصاريفَ الزمان فمن يَرمْ ... حربَ الزمان يعدْ قليلَ الناصرِ

هذا نمط من حكمته التجريبية التي افادها من الحياة ، وهو كما ترى شديد الشبه بالمتنبيء ، وليس من شك ـ بحسب رأينا ـ في انه افاد كثيراً من حكمة المتنبيء ؛ على ان الدكتور زكي مبارك يرى خلاف هذا الراي فيقول : « . . . استطيع ان اجزم بأنه في هذه الناحية اشعر من المتنبيء ، لأن المتنبيء كان يقصد الى الحكمة قصداً ، ويتعمدها وهو متكلف . اما الرضي فكانت الحكمة تسبق الى خاطره من فيض السجية والطبع فيرسلها عفواً بلا تصنع ولا اعتساف(١) » .

وفي حكمة الشريف خطرات فلسفية فيها اثر للصوفية ، يتحدث فيها عن النفس وما تلاقيه من حبسها في الجسم الضيق ويتمنى لها الافلات منه ، كقوله :

---

(١) عبقرية الشريف الرضي ج ١ ص : ٢٢

كل حبسٍ يهون عند الليالي بعد حبس الارواح في الاجساد
واهاً لنفسٍ حُبست في جلدي ان الاسير غرض بالقصد
وان حديث النفس بالشيء دونه رمال النقا من عالجٍ لشديد
لو كان حفظ النفس ينفعنا كان الطبيبُ احقَّ بالعمر

مكانته في الأدب العربي :

يقول الثعالبي في الفصل القيم الذي كتبه عن الشريف : «وهو اليوم ابدع ابناء الزمان، وانجب سادة العراق ، يتحلى مع محتده الشريف ، ومفخره المنيف ؛ بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وخط من جميع المحاسن وافر ، ثم هو اشعر الطالبيين : من مضى منهم ومن غبر ، على كثرة شعرائهم المفلقين ... ولو قلت انه اشعر قريش لم ابعد عن الصدق، وسيشهد بما اجريه من ذكره شاهدٌ عدل من شعره العالي القدح ، الممتنع عن القدح ، الذي يجمع الى السلاسة متانة ، والى السهولة رصانة ، ويشتمل على معانٍ يقرب جناها ، ويبعد مداها(١)» .

هذا قول اديب نقاد معاصر للشريف، لقوله قيمة في الادب ؛ وهو كما ترى كثير الاعجاب به لشعره ولقرشيته . ولكن يظهر ان شعر الشريف لم يلق رواجاً بعد وفاته الا في المحيط الشيعي . ويرى الدكتور زكي مبارك ان السبب في ذلك ، ان الشريف «قد حرم اسباب الشهرة من هذه الناحية ، فقد حمله التجمل والتعفف على هجر ابواب الملوك والوزراء ، فلم يكن يمدح حين يمدح الا عن حب او مداراة ، ولم يره احد يزاحم احد الشعراء على ابواب السلاطين . فكان من اثر ذلك ان قلَّ حاسدوه والحاقدون عليه ، فلم يشق في ثلبه قلم ولا لسان ، ولم يكن الادب في تلك العصور يعرف الحياة الا بفضل المماراة

---

(١) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٩٧

والضجيج (١)». ونرى ان في كلام الدكتور شيئاً من المواربة والمداراة ، فان الشريف كان كثير الاتصال بالامراء والملوك والخلفاء ، حتى ان بعض المستشرقين جعل لشعره اهمية تاريخية ، لما تضمنه من اخبار عظماء عصره ، وهذا لا يدل على ان الشريف كان متعففاً عن ابواب الملوك والوزراء ، فلذلك قلّ حاسدوه وخمل ذكره . وانما السبب في رأينا ان تشيع الشريف هو الذي جعل الادباء من اهل السنة يهملون شعره والاستشهاد به او تقريظه ، ولم يشهر اسم الشريف في العصور المتأخرة ، الا حين عُني بأدبه الدكتور زكي مبارك فنشر عنه كتابه القيم «عبقرية الشريف الرضي» ايام كان استاذاً للأدب العربي في دار المعلمين العالية ببغداد سنة ١٩٣٨ . وهو في هذا الكتاب قد اماط الحجب التي اسدلتها الايام على شخصية الشريف الادبية وشعره ، على الرغم من انه - كما يقول الدكتور - «اخل شاعر عرفته اللغة العربية ، واعظم شاعر تنسم هواء العراق ، ومع ذلك سكت عنه النقد الأدبي ، فلم يُؤلف عنه كتاب ولا فصل جيد من كتاب (٢)».

ويظهر الدكتور مبارك في كتابه بمظهر المغالي ، فقد رأيت في الجملة السابقة طرفاً من هذه المغالاة التي تسيطر على كتابه ؛ والذي نراه هو ان الشريف شاعر مخل من اكبر شعراء العربية ، امتاز بنوع من الشعر لا تجده عند اي شاعر في العربية غيره ، نعني بذلك شعره في «الحجازيات» .

على انه ينبغي الاشارة الى ان الشريف كثيراً ما كان يتوكأ في شعره على بعض ابيات المتنبيء وغيره من الشعراء السابقين امثال : ابن الرومي ، وابن نباته . والبحتري . وقد اشار الى ذلك الثعالبي في اليتيمة فارجع اليه (٣) .

---

(١) عبقرية الشريف الرضي ج ١ ص ٤٤

(٢) عبقرية الشريف الرضي ج ١ ص : ١١

(٣) يتيمة الدهر ج ٢ ص : ٢٩٧-٣١٥

ديوانه وآثاره :

للشريف الرضي آثار ادبية غير نهج البلاغة نذكر منها ما يأتي :

١ ـ : ديوان شعره وقد وصفه ابن خلكان بقوله : « وديوان شعره كبير في اربع مجلدات ، وهو كثير الوجود فلا حاجة الى الاكثار من شعره ، وقد عني بجمع ديوان الشريف جماعة ، واجوده ما جمعه ابو حكيم الخبري(١) ». وقد طبع هذا الديوان طبعتين : الاولى في بومباي سنة ١٨٨٩ في مجلد واحد ، والثانية في بيروت سنة ١٣٠٧ في مجلدين ، وكلتا الطبعتين رديئة . والديوان محتاج الى اعادة طبعه طبعاً يليق بمنزلة الشريف الادبية. ويذكر المستشرق « كرنكو » ان للديوان مخطوطتين في المتحف البريطاني ، وان في احدى هاتين المخطوطتين فصلاً للمراثي عن بقية الاغراض .

٢ ـ : كتاب معاني القرآن ، وقد وصفه ابن خلكان بقوله : « يتعذر وجود مثله ، دلَّ على توسعه في علم النحو واللغة (٢) ». ولعلَّ هذا الكتاب هو الذي يذكر للشريف تحت اسم « حقائق التأويل ، في متشابه التنزيل » .

٣ ـ : كتاب « مجازات الاثار النبوية » وهو كتاب صغير جمع فيه المجازات التي وردت في حديث الرسول الكريم ، وقد طبع هذا الكتاب في بغداد ، واعيد طبعه مؤخراً في مصر .

٤ ـ : كتاب « مجازات القرآن » ، وقد وصفه ابن خلكان بقوله : « فجاء نادراً في بابه (٣) » .

٥ ـ : كتاب « اخبار قضاة بغداد » .

---

(١) (٢) (٣) ابن خلكان ج ٢ ص : ٣

مختارات من شعره

الفخر والمديح :

قال الشريف الرضي يفتخر ويمدح اهل البيت رضي الله عنهم (١) :

لغير العُلى مني القِلى والتجنُّبُ ... ولولا العلى ما كنتُ في الحبِّ ارغبُ (٢)

اذا الله لم يَعذِرْكَ فيما ترومه ... فما الناسُ إلاّ عاذلٌ او مُؤَنِّب (٣)

ملكتُ بحلمي فرصةً ما استرقّها ... من الدهر مفتولُ الذراعين أغلب (٤)

فان تكُ سنّي ما تطاولَ باعُها ... فلي من وراءِ المجدِ قلبٌ مُدرَّب (٥)

فحسبي أني في الاعادي مُبغَّضٌ ... وأني الى غُرِّ المعالي مُحبَّب

وللحلم اوقاتٌ وللجهل مثلُها ... ولكنَّ اوقاتي الى الحلم اقرب

يصولُ عليَّ الجاهلون واعتلي ... ويُعجمُ فيَّ القائلون وأعرِب (٦)

يرون احتمالي غُصَّةً ويزيدُهم ... لواعجَ صَغْنٍ أنني لست اغضب (٧)

وأعرِضُ عن كأسِ النديمِ كأنها ... وميض غمامٍ غارُ المُزْنِ خلّب (٨)

---

(١) الديوان ص : ٨٥

(٢) القلى : البغض والكراهة والهجر . و «المعنى» : لولا حب المعالي ما كانت لي رغبة في اي حب.

(٣) لم يعذرك : لم ينصرك . (٤) استرقها : ملكها . مفتول الذراعين : قوي . الاغلب : من اوصاف الاسد . (٥) وفي رواية مذرب : اي محدد ماضٍ . (٦) يعجم : يبهم القول. اعرب : ابين. (٧) لواعج صغن : اي حقد شديد يحرق الصدر . (٨) الوميض : لمعان البرق . المزن : السحاب . الخلب : يريد بها برق خلب اي ليس وراءه مطر .

وقورٌ فلا الالحانُ تأسرُ عزمتي ولا تمكرُ الصهباءُ بي حين أشربُ (١)

ولا أعرفُ الفحشاءَ إلا بوصفها ولا أنطقُ العوراءَ والقلبُ مُغضَبُ (٢)

تحلّمُ عن كرّ القوارضِ شيمتي كأنّ معيدَ المدحِ بالذمِ مطنبُ (٣)

لساني حصاةٌ يقرعُ الجهلَ بالحجا اذا نالَ مني العاضهُ المتوثّبُ (٤)

ولستُ براضٍ أنْ تمسّ عزائمي فُضالاتُ ما يُعطي الزمانُ ويَسلبُ

غرائبُ آدابٍ حباني بحفظها زماني، وصرفُ الدهرِ نعمَ المؤدبُ

وقال يجيب اخاه عن ابيات كتبها عقب زوال وحشة كانت بينهما، ويفتخر بنفسه (٥):

عجبتُ من الايام انجازَها وعدي وتقريبَها ما كان مني على بُعدِ

وإنّ الليالي مُذ لَبِستُ رداءَها تحاذرُ من حدّي فتُزري على جدي

ولي إن يَطلْ عمري مع الدهرِ وقفةٌ تُذلّلُ أحداثَ الزمانِ لمن بعدي

وإني لَمُرُّ البأسِ مسترعفُ الظُّبى وإني لَحلوُ الجودِ مستمطرُ الرفدِ (٦)

إذا بزّني مالي عطاءٌ تركتُه حميداً وطالبتُ القواضبَ بالردِ (٧)

وقد عجمتْ مني الليالي مُذرّباً تخلّلُ انيابَ الاساودِ والأُسدِ (٨)

---

(١) ولا تمكر الصهباء بي : اي ولا تخدعني الخمرة اي تفقدني صوابي. (٢) العوراء : الكلمة القبيحة.
(٣) تحلم : اي تتحلم . والقوارض : المادحون . (٤) الحجا : العقل . العاضه : الكاذب والساحر والنمام وفي رواية العاضه وهي جمع عضوض وهو الملك الظالم .
(٥) الديوان ص : ٢٤٦
(٦) مر البأس : قويّ شجاع . مسترعف الظبى : الظبى : جمع ظُبةٌ وهي حد السيف ، اي ان سيوفه تقطر دماً . الرفد «بالكسر» العطاء والصلة . (٧) بزني : سلبني وغلبني . القواضب : السيوف القاطعة . (٨) المذرب : يريد به السيف المسموم . الاساود : جمع اسود وهو الثعبان .

اذا خبَّ فيه ملءُ حيزومِه الجوى ... توقَّرَ يُخفي منه غيرَ الذي يبدي (١)

وكنتُ اذا الايامُ جُلنَ بساحتي ... رجعنَ ولم يبلُغنَ آخرَ ما عندي

ولكنها نفسٌ ، كما شئت ، حرةٌ ... تصولُ ولو في ماضغ الاسد الوَرد (٢)

وأعظمُ ما أَلفيتُ شجواً ولوعةً ... عتابُ أَخٍ فلَّ الزمانُ به حدّي

أَقيكَ الردى ما كان، ما كان، عن قِلىً ... ولكن هَناتٌ كدنَ يلعبْن بالجَلْد (٣)

ولا تحسبنَّ القلبَ جازت كلومُهُ ... الى القلبِ إلا بعدَ ما حزَّ في الجلد (٤)

منحتُكَ ما عندي من الصدّ معلناً ... وعَقدُ ضميري أن أَدومَ على الودّ (٥)

ولم أَغْدُ محلول اللحاظ طلاقةً ... وقلبيَ معقودُ الجَنان على الحقد

سجايا رَعَيْنَ المجدَ في تلعاتِه ... ونَاقَلْنَ في العلياءِ غوراً الى نجد (٦)

وقد كنت ابغي رُتبةً بعد رتبةٍ ... فآنفُ لي من أن افوز بها وحدي

حفاظاً على القربى الرؤوم وغَيْرةً ... على الحسب الداني وبُقْياً على المجد (٧)

ولِمْ لا ؟ ونحن الراجحان من العُلى ... الى المغرسِ الريَّانِ والسؤدُدِ الرغد

من القوم أَشباهُ المكارمِ فيهمُ ... وعرقُ المعالى الغُرّ والحسبِ العدّ (٨)

حسدتُ عليك الاجنبينَ محبةً ... ونافستُ فيك الابعدين على الوِدّ

---

(١) خبَّ : اسرع . الحيزوم : الصدر . توقر : التزم الوقار . (٢) ماضغ الاسد : بين انياب الاسد . الورد : من اسماء الاسد . (٣) القلى : البغض والكراهة والهجر . الهنات : الذلات . الجلد : الصبر والتحمل . (٤) الكلوم : الجراح . (٥) العقد : الضمان والعزم . (٦) التلعة : القطعة المرتفعة من الارض . (٧) حفاظاً : محافظة . الرؤوم : العطوف والكثير الحنان . الداني : القريب . بقياً : ابقاءً . (٨) اشباه المكارم « كذا في الديوان » ونحسب انها محرفة عن كلمة اسياد . الحسب العدّ : الحسب الوافر .

وقد كان لذعٌ فاتقيتُ شباتَه بقلبٍ على الضرّاء كالحجر الصلْدِ (١)

نجلّدتُ حتى لم يجد فيَ مغمزاً وعدتُ كما عاد الجُراز الى الغمد (٢)

وها انا عُريانُ الجَنان من التي تسوء ومنفوضُ النضلوع من الوجد

وكم سُخطٍ أمسى دليلاً الى رضىً ؟ وكم خطأٍ اضحى طريقاً الى عَمد ؟

أقلّبُ عيناً في الاخاءِ صحيحةً اذا ارتمت الاعداءُ بالاعين الرُمد

وإنيَ مُذ عاد التودُدُ بيننا تجلّى الدجى عن ناظري وورى زندي

وعاد زماني بعد ما غاضَ حسنُهُ أنيقاً كبُرْدِ العُصبِ او زمن الورد (٣)

وكنتُ سليبَ الكف من كل ثروةٍ فأصبحتُ من نيل الاماني على وعد

وفارقتُ ضيقَ الصدر عنك الى الرضى كما نَشِطَ المأسورُ من حلَقِ القِدّ (٤)

وقد ضمّني محضُ الصفاءِ وصدقُه اليكَ كما ضُمّتْ ذراعٌ الى عَضد

وكنتُ على ما بيننا من عيابةٍ اعدُّكَ حدّي حين اسطو على ضدي (٥)

وقال يمدح اخاه ويهنئه بمولودة جاءته ، وقد استهل قصيدته بغزل رقيق تخلص منه الى شكوى الزمان وانتقل الى مدح اخيه ونسبه العلوي وتهنئته بمولودته (٦) :

جرّي النسيمَ على ماءِ العناقيدِ وعللي بالاماني كلَّ معمودِ (٧)

---

(١) الشباة : حد كل شيء . (٢) الجراز : السيف القاطع . (٣) العصب : برود يمانية . (٤) القد : السير الذي يربط به الاسير . و « المعنى » انه فرح بلقاء اخيه والرجوع الى وده فرح السجين الذي يتخلص من إساره وترفع عنه الاصفاد . (٥) العيابة : العيب .

(٦) الديوان ص : ٢٤٣

(٧) المعمود : من هدّه العشق .

يا نفحةً هزّتِ الاحشاءَ شائقةً ... وذكّرت نفحاتِ الخُرّدِ الغيدِ (١)

يضمها الليلُ في اثناء غَيْهَبِه ... والقَطرُ يلمسُ اطراف الجلاميد (٢)

كأنها عن طريق المُزن طائشةٌ ... لحظٌ تُرَدّدُه أجفانُ مَزْؤود (٣)

ليت الأحبةَ أغرينَ الرياحَ بنا ... وإن نأينَ على شُحْطٍ وتبعيد (٤)

وليتهنّ على يأس اللقاء لنا ... عَلّمن بالوعدِ سترَ الضُمّرِ القود (٥)

أبيتُ والليلُ مبثوثٌ حبائلُه ... والوجدُ يَقنِصُ مني كل مجلود

شوقاً اليك، وإشفاقاً عليك، ولي ... دمعانِ ما بين محلولٍ ومعقود

ليس الغريبُ الذي تنأى الديارُ به ... إن الغريبَ قريبٌ غيرُ مودود

يا طائرَ البان ماغرّبتَ عن سَكَنٍ ... يوماً ولا كنتَ عن مأوىً بمطرود

وانتَ في ظلّ أفنانٍ مُهدّلةٍ ... تحنو عليكَ بقُنوان العناقيد (٦)

ملأتَ عُشّيْكَ طعماً غيرَ مختلسٍ ... بلا رقيبٍ ووِرْدٍ غيرِ تصريد (٧)

تبكي ومالك من إلفٍ فُجعت به ... ولا لُويتَ على بُعدٍ بموعود

ثم يتخلص الى شكوى الزمان فيقول :

مني الى الدهر شكوى غيرُ غافلةٍ ... عن موثقٍ بحبال العجز مصفودِ

. . . . . .

---

(١) الخرّد: الابكار والحفرات والطويلات السكوت والخافضات الصوت . الغيد : النساء الناعمات اللينات . (٢) الغيهب : الظلمة . القطر : المطر . (٣) المزؤود : المذعور . (٤) الشحط : البعد . (٥) الضمر القود : الخيول المضمرة التي تقاد بمقاودها ولا تركب . (٦) القنوان : جمع قنو وهو العنقود. (٧) التصريد : السقي دون الري .

ثم يمدح اخاه فيقول :

يابنَ الحسينِ وما دعواي كاذبةٌ ... اذا نسبتكَ في الشُّمِّ المناجيدِ

الطاعنينَ من الاعداء ما لَحِقوا ... والخيلُ تلطمُ هاماتِ الصياخيد (١)

معوّدون من الايام مرتبةٍ ... لا يستطيل اليها كلُّ صنديد

يأبون أن يلبسَ الاظلامُ ربعَهُم ... ليلاً وما عذبوا طرفاً بتسهيد

. . . . . .

ثم يهنئه بمولودته فيقول :

الآن جاءت خيولُ السَّعدِ راكضةً ... تجري بيوم مضيءِ الوجه مجدودِ

بمولدٍ صَقلَ الآباءَ حليتَه ... فطوَّقَ المجدُ اعناقَ المواليد

كانت شهاباً كسى ظلماءه وضحاً ... والليل يدخل في اثوابه السود

جاءت بها ليلةٌ تثني سوالفها ... في صدر يومٍ رشيقِ القدِّ أملود (٢)

للهِ شمسٌ عُلىً جاءت بجوهرةٍ ... غراءَ عن قمرٍ بالمجدِ مسعود

ما عُدّدت منكَ إلا نُطفةً سلكت ... الى الاماني طريقَ الماءِ في العود

نشرتَ منها خماراً في الفخار طوى ... مع النوائب تيجانَ الصناديد

شريفةٌ رشحت منها مناسبُها ... لحليةِ العزِّ مجرى الليتِ والجيد (٣)

ما كنت تقبلُ بذلَ الدهرِ تكرمةً ... حتى حباكَ ببذلٍ غير مردود

***

(١) الهامة : الرأس . الصياخيد : المحروقة رؤوسهم بالشمس . (٢) الاملود : الناعم اللين من الغصن والرجال والنساء . (٣) الليت : صفحة العنق وقد ذكرت في الديوان «الليت» وهي خطأ .

وقال يمدح الطائع لله ، وهو في هذه القصيدة يصف الشيب ويذكر انه ضياء للمرء وجمال ، ثم يصف حالة اصدقائه ، ويتخلص من ذلك الى مدح الخليفة فيقول (١) :

مسيري الى ليل الشباب ضلالُ ... وشيبي ضياءٌ في الورى وجمالُ
سوادٌ ولكنَّ البياضَ سيادةٌ ... وليلٌ ولكنَّ النهارَ جلال
وما المرءُ قبلَ الشيب إلا مهنَّدٌ ... صديٌّ وشيبُ العارضَين صقال
وليس خضابُ المرءِ إلا تعلَّةً ... لمن شابَ منه عارضٌ وقذال (٢)
وللنفس في عجز الفتى وزماعه ... زمامٌ الى ما يشتهي وعقال (٣)
بلوتُ وجرّبتُ الأخلاءَ مُدَّةً ... فأكثرُ شيءٍ في الصديق ملال
وما راقني مما أودّ تملُّقٌ ... ولا غرَّني ممن أحبُّ وصال
وما صحبُك الأدنونَ إلا اباعدٌ ... اذا قلَّ مالٌ او نَبَتْ بك حال
ومَن لي بخلٍّ أرتضيه وليت لي ... يميناً يعاطيها الوفاءَ شمال

الى ان يقول في مدح الطائع لله :

أيادي أمير المؤمنين كثيرةٌ ... ومالُ امير المؤمنين مُذالُ (٤)
واوقاتُه اللاتي تسوءُ قصيرةٌ ... وايامُه اللاتي تَسُرُّ طوال
من الضاربين الهامَ والخيلُ تدعى ... وإن غابَ أنصارٌ وقلَّ رجال
همُ القومُ إن ولّى المعاريكُ اقبلوا ... وإن سُئلوا بذلَ النوال أنالوا

---

(١) الديوان ص : ٦٠٧

(٢) القذال : جماع مؤخر الرأس . (٣) الزماع : ازممت الامر وعليه : أجمعت او ثبتُّ عليه .
(٤) مذال : مهان .

وإنّ طرق القوم العبوس تهللوا ... وإن مالت السمر الذوابل مالوا

أجيل لحاظي لا ارى غير ناقص ... كأنّ الورى نقص وانت كمال

لنا كلّ يوم في معاليك شعبة ... وفائدة لا تنقضي ونوال

وانت الذي بلغتنا كلّ غاية ... لها فوق أعناق النجوم مجال

ثم يستمر في هذا المديح القوي الى ان يختم القصيدة بقوله :

فلا زال شعري فيك وحدك كلّه ... ولا اضطرّني إلا اليك سؤال

وقال يمدح فخر الملك ابا غالب بن خلف وزير بهاء الدولة ، وكتب بها اليه وهو بفارس سنة ٣٩٦(١) :

لن تشقّوا لذا الجواد غبارا ... فارجعوا خلفه الوحى والعثارا (٢)

وقفوا في مصارع العجز عنه ... فات فوت الوميض من لا يجارى

سابق عضّت الاكف عليه ... أنجد اليوم في العلاء وغارا

قام يجني العلى وانتم قعود ... وصحا للندى وانتم سكارى

طلبوا شأوك المبرز هيهات ... طريقاً على الجياد خبارا (٣)

ليس منهم من ساق تلك المصاعيـ ... ـب غلاباً وقاد ذاك القطارا (٤)

شمّري ايها الركاب وخلّي ... عطن اللوم والعماد القصارا (٥)

---

(١) الديوان ص : ٣٢٢

(٢) الوحى : العجلة والاسراع (٣) الشأو : الغاية والامد . والخبار : ما لان من الارض واسترخى و «المعنى» انهم طلبوا غايتك البعيدة التي بلغتها ولكن هيهات ان يصلوا اليها على الرغم من ان الارض لينة سهلة للجياد . (٤) القطار : هي الابل المقطورة اي المقرب بعضها الى بعض على نسق واحد . (٥) العطن : الفاسد .

وانزلي بي مجاوراً في أناسٍ ... لا يذمُّ النزيلُ فيهم جوارا
خلطوا الضيفَ بالنفوس على العسـ ... ـر وباتوا من السماح غيارا
عند أقنى من البُزاة عتيقٍ ... تركَ الطيرَ واقعاتٍ وطارا (١)
من اذا عرَّضوا تعرَّض جوداً ... واذا جارتِ الليالي اجارا
ما مقامي على الجداول ارجو ... ها لنيلٍ ، وقد رأيت البحارا
كالذي شاور الدجى في سراه ... واستغاث النجومَ والاقمارا

* * *

الرثاء :

قال يرثي الامير ابا طاهر بن ناصر الدولة سنة ٣٨٣ : (٢)

ألقى السلاحَ ربيعةَ بن نزارٍ ... أودى الردى بقريعكِ المغوارِ (٣)
وترجّلي عن كل أجردَ سابحٍ ... ميلِ الرقاب نواكسِ الابصار (٤)
ودعي الاعفةَ من اكفّك إنها ... فقدت مصرّفَها ليوم مغار
وتجنّبي جر القنا فلقد مضى ... عنهن كبشُ الفيلقِ الجرّار (٥)
وليفد كلُّ مغرّضٍ من بعده ... مغرى بحل معاقد الاكوار (٦)

---

(١) اقنى :هو من كان له انف مرتفع اعلاه ومحدودب وسطه ومسبوغ الطرف او هو نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين ، وهذا عيب في الفرس ومدح في الصقر والبازي .

(٢) الديوان ص : ٣٧٨

(٣) القريع : الغالب في المقارعة . المغوار : الكثير الغارات . (٤) الاجرد من الخيل هو السبّاق . ميل الرقاب : مائلات الاعناق . نواكس الابصار : مرخيات ابصارهن الى الارض . (٥) القناة : الرمح . الكبش : سيد القوم . الفيلق الجرار : الجيش العظيم . (٦) الاكوار : جمع كور وهي الجماعة الكثيرة من الابل .

قطع الزمانُ لسانكَ العضبَ الشبا ... وهدى تخمطَ فعالكَ الهدّارِ (١)

واجتاحَ ذاكَ البحرَ يطفحُ موجُه ... وطوى غواربَ ذلكَ التيّارِ

اليومَ صرّحتِ النوائبُ كيدَها ... فينا، وبانَ تحاملُ الاقدارِ

مستنزلُ الاسدِ الهزَبْرِ برمحه ... ولّى وفالقَ هامةَ الجبار (٢)

وتعطّلت وقفاتُ كلّ كريهةٍ ... ابداً وحطّ رُواقَ كلّ غُبارِ

هيهات لا علقُ النجيعِ بعاملٍ ... يوماً، ولا علقُ السُرى بعذارِ

يا تغلبَ ابنةَ وائلٍ مالي ارى ... نجميكِ قد افلا عن النظّارِ

غرباً فذاكَ غروبه لمنيةٍ ... عجلى وذاكَ غروبه لأسارِ

مالي رأيتُ فناءَ دارك عاطلاً ... من كل ابلجَ كالشهاب الواري

متخليَ الاقطار إلا من جوى ... ونشيجِ كلّ خريدةٍ معطارِ

فجِئتَ سماؤك بالشموس وحولّت ... عنها وعنك مطالع الاقمارِ

ثم يسترسل في ذكر مقتله والثأر له، وينهي قصيدته بقوله:

إني ذكرتُكَ خالياً فكأنها ... اخذت عليَّ الارضُ بالأطرار (٣)

وكأنما مالت عليَّ بحدّها ... نزواتُ قانيةِ الأديم عُقار (٤)

لا زال زائرُ قبره في عبرةٍ ... تنعي البقاءَ اليه واستعبار

والروضُ من حالٍ عليه وعاطلٍ ... والمُزنُ من غادٍ عليه وسار

---

(١) العضب: القاطع والشبا: حد كل شيء. التخمط: شدة الغضب. (٢) الهزبر: من اسماء الاسد. (٣) الاطرار: جمع طُرّ اي الطرف ويقال «هو يحمي اطرار البلاد» اي اطرافها. (٤) العقار «بالضم»: الخمر.

قال يرثي ابا اسحاق ابراهيم بن هلال الصابي الكاتب (١) :

أعلمتَ من حملوا على الاعواد ؟ أرأيتَ كيف خباضياء النادي؟
جبلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى من وقعه متتابعَ الأزباد
ما كنت أعلم قبل حطّك في الثرى أن الثرى يعلو على الاطواد (٢)
بُعداً ليومك في الزمان فانّه أقذى العيون وفتّ في الأعضاد
لا ينفدُ الدمعُ الذي يُبكى به إن القلوبَ له من الأمداد
كيف انمحى ذاك الجنابَ وعُطّلت تلك الفجاج وضلّ ذاك الهادي
طاحت بتلك المكرمات طوائحٌ وعدت على ذاك الجواد عوادي

* * *

ثكلتك ارضٌ لم تلد لك ثانياً إني ومثلك معوذُ الميلاد
مَن للبلاغة والفصاحة إن همى ذاك الغمامُ وعبَّ ذاك الوادي
مَن للملوك يجنّ في اعدائها بظُبىً من القول البليغ حداد
مَن للممالك لا يزال يلمُّها بسَداد أمرٍ ضائعٍ وسداد
مَن للحجافل يستزل رماحها ويردّ عِلّتها بغير جلاد (٣)
مَن للموارق يسترد قلوبها بزلازل الابراق والارعاد

* * *

إن الدموعَ عليكَ غير بخيلة والقلب بالسلوان غير جواد
سودتَ ما بين الفضاء وناظري وغسلت من عينيَّ كلَّ سواد
ريُّ الخدود من المدامع شاهد أن القلوب من الغليل صواد (٤)

---

١) الديوان ص : ٢٩٤

(٢) الطود : الجبل المرتفع . (٣) رعلتها : كثرتها . (٤) صواد : عطشى .

الغزل والحجازيات:

قال يتغزل وهي من لواحق قصائده الحجازيات (١) :

يا ظبيةَ البان ترعى في خمائله ... ليهنكِ اليومَ أن القلب مرعاك

الماء عندكِ مبذولٌ لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمعي الباكي

هبّتْ لنا من رياح الغور رائحةٌ ... بعد الرقاد عرفناها بريّاك (٢)

ثم انثنينا اذا ما هزّنا طربٌ ... على الرّحال تعلّلْنا بذكراك

سهمٌ اصاب، ورامیه بذي سَلَمٍ ... من بالعراق، لقد ابعدتِ مرماك (٣)

وعدٌ لعينيك عندي ما وفيتُ به ... ياقربَ ما كذّبتْ عينيَّ عيناك

حكَتْ لحاظُك ما في الريم من مُلَحٍ ... يوم اللقاء فكان الفضلُ للحاكي (٤)

كأنّ طرفكِ يومَ الجزع يخبرُنا ... بما طوى عنك من اسماء قتلاك (٥)

انتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ له ... فما امرُكِ في قلبي واحلاك

عندي رسائلُ شوقٍ لستُ اذكرُها ... لولا الرقيبُ لقد بلّغتُها فاك

الوصف:

قال يصف الذئب (٦) :

وعاري الشوى والمنكبين من الطوى ... أتيح له بالليل عادي الاشاجعِ (٧)

---

(١) الديوان ص : ٥٩٣ . (٢) رائحة اي ريح ممسية . الريا : الرائحة الطيبة . (٣) ذو سلم : موضع بالحجاز قرب مكة . (٤) حكت : اشبهت . (٥) الجزع : موضع بالحجاز .

(٦) الديوان ص : ٥٠٢ . (٧) الشوى : جمع شواة وهي جلدة الرأس او الاطراف . الطوى : الجوع . عادي : طويل نسبة الى قوم عاد المشهورين بالطول . الاشاجع : جمع اشجع وهو اصول الاصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف .

أَغَيْبَرُ مقطوعٌ من الليل ثوبُه أَنيسُ باطراف البلاد البلاقعِ (١)

قليلُ نعاس العين إلا غُيابةً تمر بعيني جاثمِ القلب جائع

اذا جنَّ ليلٌ طارد النومَ طرفُه ونص هدى ألحاظه بالمطامع

يراوح بين الناظرين اذا التقت على النوم أطباقُ العيون الهواجع

له خطفةٌ حذّاءُ من كل ثلّةٍ كنشطة اقنى ينفض الطلَّ واقع (٢)

ألمَّ وقد كاد الظلامُ تقضّياً يشرّدُ فرّاطَ النجوم الطوالع (٣)

طوى نفسه وانساب في شملة الدجى وكل امرىءٍ ينقادُ طوعَ المطامع

اذا فات شيءٌ سمعَه دلَّ انفُه وأن فات عينيه رأى بالمسامع

تظالعَ حتى حكَّ بالارض زورَه وراغ وقد روّعته غيرَ ظالع (٤)

اذا غالبت إحدى الفرائس خطمه تدارکها مستنجداً بالاكارع (٥)

جريٌ يسومُ النفسَ كلَّ عظيمةٍ ويمضي اذا لم يمضِ من لم يدافع

اذا حافظ الراعي على الضأن غرَّه خفيَّ السُّرى لا يتقي بالطلايع

يخادعه مستهزئاً بلحاظه خداعَ ابن ظلماءَ كثيرِ الوقائع

ولما عوى والرملُ بيني وبينه تيقَّن صحبي أنه غير راجع

تأوبَ والظلماءُ تضربُ وجهه إلينا بأذيال الرياح الزعازع (٦)

له الويلُ من مستطعم عاد طعمة لقومٍ عجالٍ بالقسي النوازع

---

(١) البلاقع : جمع بلقع وهو الارض القفر . (٢) حذاء : مسرعة . الثلة الجماعة من الغنم . الاقنى : المائل الانف ويريد به النسر . (٣) الفراط : السوابق ويقال طلع الفارطان وهما كوكبان . (٤) ظلع : عمز في مشيه اي تمايل . الزور : وسط الصدر او ما ارتفع منه الى الكتفين . (٥) الخطم : منقار الطائر ، ومن الدابة مقدم انفها وفمها . (٦) تأوب : رجع . الرياح الزعازع الرياح الشديدة .

وقال يصف الاسد (١) :

دَعي جنباتِ الواديين فدونها ... أَشمُّ طويلُ الساعدين ضُبارمُ (٢)

اذا همَّ لم تقعد به عزماتُه ... وإن ثار لا تعيا عليه المطاعم

كأنَّ على شدقيه ثغراً ، وراءَه ... ذوابلُ من أَنيابه وصوارم

فما جذبَ الأُقرانُ منه فريسةً ... ولا عاد يوماً أَنفُه وهو راغم

يرى راكبَ الظلماء في مستقره ... وتستنُّ منه في العرين الغماغم (٣)

نمرُّ وراءَ الليل نكتمُه السرى ... وقد فضحتنا بالبغامِ الرواسم (٤)

له ، كلَّ يوم ، غارةٌ في عدوّه ... تشاركه فيها النسورُ القشاعم (٥)

كأنَّ المنايا إن توسد باعه ... تَيَقَّظُ في انيابه وهو نائم

وما الليثُ إلا من يدل بنفسه ... ويمضي إذا ما بادهته العظائم (٦)

وما كلُّ ليثٍ يغنمُ القومُ زاده ... اذا خفقت تحت الظلام الضراغم (٧)

ومن مشهور قصائده في الغزل :

شيمي لحاظك عنا ظبيةَ الخُمُرِ ... ليس الصبا اليومَ من شأني ولا وطري

مات الغرامُ فما أصغي الى طربٍ ... ولا أُربي دموعَ العين للسهر

مَن يعشق العزَّ لا يعنو لغانيةٍ ... في رونق الصفو ما يغني عن الكدر (٨)

---

(١) الديوان ص : ٧٩٨ . وله ايضاً قصيدة اخرى في وصف الاسد ، ارجع اليها اذا شئت في ص : ٨٦٨ من الديوان .

(٢) ضُبارم : الاسد . (٣) العرين : بيت الاسد . الغماغم : من الغمغمة وهي اختلاط الاصوات .

(٤) البغام : من بغمت الناقة بغاماً ، اذا قطعت الحنين ولم تمده . والرواسم : الابل ذات عدد خاص .

(٥) القشاعم : جمع قشعم وهو المسن . (٦) بادهته : فاجأته . (٧) الضراغم : جمع ضرغام وهو الاسد .

(٨) لا يعنو : لا يصير اسيراً .

شُغلتُ بالمجد عما يُستلذ به ... وقائم الليل لا يُلوي على السُمُرِ (١)

لا يبعد الله من غادرت ركائبهم ... وانجد الشوق بين القلب والبصر

يا وقفةً بوراءِ الليلِ أعهدُها ... كانت نتيجةَ صبرٍ عاقرِ الوطر (٢)

والوجدُ يغصبني قلباً أضن به ... والدمعُ يمنع عيني لذةَ النظر

طرقتهم والمطايا يُستراب بها ... والليلُ يرمقني بالأنجم الزهر

مصادر البحث

بالعربية :

الشريف الرضي	الديوان	طبعة عباس الازهري بالمطبعة الادبية	بيروت ١٣٠٧
» »	المجازات النبوية		بغداد
ابن ابي الحديد	شرح نهج البلاغة	طبعة البابي الحلبي	مصر
الثعالبي	يتيمة الدهر	» الحفني	دمشق
ابن مسكويه	تجارب الامم	طبعة مرغليوث	ليدن ١٩١٣
ابن الاثير	تاريخه	الجزء التاسع	مصر
الخطيب البغدادي	تاريخ بغداد	طبعة الخانجي	مصر
ابن العماد	شذرات الذهب	طبعة القدسي	مصر ١٣٥٠
زكي مبارك	عبقرية الشريف الرضي		بغداد ١٩٣٨
» »	المدائح النبوية في الادب العربي		مصر ١٩٣٥
» »	النثر الفني		مصر ١٩٣٤

بالفرنجية :

F. Krenkow : Encyclopédie de l'Islam. Art. : Al Sharif al-Radi

---

(١) السُمُر : الرماح . (٢) عاقر الوطر : غير محقق الغرض .

شوقي

التوطئة

الشعر قبل شوقي :

كان الشعر في اواخر الجيل الماضي واوائل الجيل الحاضر منحطاً الى الدرك الاسفل في البلاد العربية عامة وبمصر خاصة . وليس السبب في ذلك قلة قائليه او جهلهم باللغة والادب وفنون الكلام ، بل لان صناعة البديع والزخرفة اللفظية قد سيطرت عليهم ، وجُعلت مقياساً لاجادة الشاعر . فكان عنوان البراعة عندهم ، ان يلزم الشاعر ما لايلزم ، وان يبني القصائد على عدة قوافٍ ، او ينظمها على شكلٍ يستخرج منه العشرات والمئات من التواريخ بحساب الجمّل ، وهكذا اصبح الشعر لغواً لا يمت الى اللغة والادب بصلة ، ولا يمد الذوق والفن الا بالافساد . وانتهت رياسة الصناعة في ذلك الى السيد الدرويش [1] ورجال حلبته امثال : السيد الخشّاب الذي عُرف بقصائده في الفرنسيين ، والشيخ

---

(١) هو السيد علي الدرويش ، ولد في القاهرة ، واتصل بعباس باشا الاول فجعله شاعره الخاص ، ومات سنة ١٢٧٠ هـ « ١٨٥٣ م » وله ديوان شعر اسمه « الاشعار بحميد الاشعار » ، ومن شعره قوله يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد جمع في هذين البيتين ثمانية وعشرين تاريخاً لسنة ١٢٤٤ هـ :

خيرُ البرايا احمدٌ سما له ... بيتٌ رقى في المعالي موردُ
اتقى نبيٍ ، نورُ طهر عاصمٌ ... هو خيرُ ايّ الرسلِ بل هو احمدُ

شهاب الدين الذي عُرف بقصائده الصوفية ، وصالح مجدي بك المعروف بشعره الوطني .

ولما جاء الخديوي اسماعيل ظهرت آثار الحضارة الاوربية ، وأثمرت الشجرة التي غرسها محمد علي باشا الكبير ، ونضجت العقول والاذهان ، وارتقت الفنون والآداب ، والتف حول اسماعيل كثير من الادباء والشعراء لانفاقه عليهم بكل سعة . ولكن لم يطرأ على الشعر وفنونه في هذا العصر كبير تغيير — وخاصة في معانيه — بل ظل للصناعة اللفظية والبديع مقامهما السابق .

وحين جاء الخديوي توفيق سار على خطة سلفه من تشجيع دولة الادب ، واعانة الشعراء والادباء بالجوائز والمكافئات ، وقد بلغ من حبه للشعر ان طلب من عبد الله باشا فكري ان يجمع له ديواناً من الحكم والامثال وجوامع الكلم ليكون له زينة في مسامراته ، وعوناً على مطارحاته . وفي عهد هذا الامير نضجت الحالة العامية ، واتت المدارس والصحف ثمارها . وارتقت دولة الشعر ارتقاءً جديراً بالذكر على يد جندي عجيب ظفر بالشعر العربي طفرة اعادته الى العصر العباسي الزاهر . الا وهو الشاعر الفحل محمود سامي باشا البارودي (١) ؛ الذي سلك في جزالة الشعر طريقة ابي تمام . وان لم يحاكه في تكلف الجناس والطباق ، كما سلك في الغزل والوصف وعذوبة القول وانتقاء المعاني

---

(١) هو محمود سامي باشا ابن حسن حسني بك احد زعماء الثورة العرابية ، ولد سنة ١٢٥٥ هـ وتولى ابوه تربيته ، ثم ادخل المدرسة الحربية فخرج منها ضابطاً ، وما زال يترقى حتى كان احد ضباط الحملة العثمانية في البلقان و كريت ، وكان له في مواقعها شهرة ذائعة ، ولما رجع ولاه الخديوي توفيق نظارتي الحربية والاوقاف ، ثم ولي رياسة النظار « الوزراء » الى ان اضطرمت نيران الثورة العرابية فاشترك فيها ، فحكم عليه بالنفي الى جزيرة سرنديب « سيلان » حتى عمي ، فرجع الى مصر وبقي في بيته الى ان مات سنة ١٣٢٢ هـ .

مسلك البحتري . وسار في شعره الحماسي وفي فخره على غرار ابي فراس والشريف الرضي، وربما عمد في الغزل الى اسلوب عمر بن ابي ربيعة في طريقته القصصية . ولكنه لم يتعرض كثيراً لوصف الحضارة الغربية والمعيشة الاوربية ، وما ذكره من ذلك لا يكاد يذكر .

الفاظه واساليبه :

كان الشعر في اواخر الجيل الماضي ضعيف الالفاظ والتراكيب ضعفاً واضحاً ، لبعد اصحابه عن الفاظ الشعر القديم ، وعدم تحرجهم من ادخال الكلمات العامية في شعرهم . اما اساليبه فكانت مهلهلة ركيكة ، مملوءة بالصناعات اللفظية من تورية واستخدام واقتباس وتضمين . فلما جاء عصر النهضة في عهد اسماعيل ، اخذت الالفاظ تسمو لعناية الشعراء بتراث العصر العباسي الشعري ، وحفظهم كثيراً من مختاراته ، وانتقائهم من درره ؛ كما نجد اثر ذلك واضحاً في المجموعة الكبرى التي اختارها البارودي من عيون الشعر العربي في ازهى عصوره والتي عرفت «بالمختارات» ، فعني الناس بالالفاظ الفصيحة ، واستعمال الاساليب الجزله التي كان يستعملها شعراء العصر العباسي ، حتى بالغ بعضهم فتعدى هذا العصر الى العصر الجاهلي وقلد اسلوب شعرائه ، وهو الشيخ محمد عبد المطلب (١) الذي ما كان الشعر عنده ، كما يقول الاستاذ العقاد ، إلا مسألة لغة وفصاحة (٢) لغوية ، بل

---

(١) هو الاستاذ محمد بن عبد المطلب ، ولد حوالي سنة ١٨٧٠ ، وتعلم بالازهر ودار العلوم ، وبرع بعلوم الدين واللغة ، ثم صار استاذاً بدار العلوم ؛ وكان شديد الحفاظ على شعائر الاسلام وآثاره ولغته ، ومات سنة ١٩٣١ ، وله نظم سلك فيه طريق البادية ، ولذلك كان يلقب بشاعر البدو ؛ ورثاه شوقي بقصيدة في ديوانه ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص : ٤٧

مسألة لغة بدوية عربية لا تتم على اكملها وارقاها الا في اسلوب كاسلوب الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، واغراض كالاغراض التي نظم فيها اولئك الشعراء .

معانيه واغراضه :

كانت معاني الشعر في العصر الماضي معاني جوفاء لا طائل تحتها ، كما كانت صوره صوراً تقليدية لا تظهر فيها شخصية الشاعر ولا احساساته وعواطفه ، وبذلك فقد الحياة التي كانت له في العصر العباسي . كان الشاعر في هذا العصر مقلداً تمام التقليد للشعراء السابقين ، حتى انك ربما رأيت التقي الورع الذي لم يرَ الخمر ولم يحضر مجالسها ، يقول في وصفها اقوالاً سرقها عن غيره من الشعراء ، بعد ان مسخ اسلوبها الجميل واستبدله باسلوب ركيك والفاظ منحطة . اما اغراضهم فهي اغراض الشعراء القدامى لا تحوير فيها ولا تطوير ، لانهم ما كانوا الا ببغاوات يحكون ما يسمعون ويقلدون ما يرون ؛ ومن هؤلاء الشعراء : الشيخ حسن العطار (١) ، ونقولا الترك (٢) ، وبطرس كرامة (٣) . فلما جاء العصر الحديث اخذت معاني الشعر تتطور وتلائم الحضارة الجديدة ، فبدأت بواكير هذا التطور في عهد البارودي ، ثم اخذت تنمو في عهد الشعراء الذين جاءوا من بعده .

ويمكن تلخيص التطور الذي طرأ على اغراض الشعر فيما يأتي :

---

(١) هو ناظم ناثر ، ولد بالقاهرة ، وتعلم بالازهر ، واتصل بالفرنسيين عند دخولهم مصر ، ورحل الى سورية ، ثم تولى تدريس الازهر ورقي الى ان صار شيخه ، ومات سنة ١٨٣٤ .

(٢) ولد في دير القمر بلبنان ، واتصل بالامير بشير الشهابي فمدحه ، وله ديوان شعر غير مطبوع. مات سنة ١٨٢٨

(٣) ولد بحمص ، وجاء الى لبنان فاتصل بالامير بشير الشهابي فمدحه ، وله ديوان طبع بعضه ، ومات سنة ١٨٥١

١ً ـ : انقراض بعض الاغراض القديمة انقراضاً تاماً او شبيهاً به ، كشعر الطرديات والغزل بالمذكر ، والهجاء المقذع .

٢ً ـ : ضعف بعض الاغراض عما كانت عليه في القديم ، كشعر المديح ، والحماسة ، والفخر ، وما الى ذلك .

٣ً ـ : محافظة بعض الاغراض على ما كان لها من مكانة في الشعر القديم ، كشعر الغزل ، والوصف ، والرثاء ، والعتاب ، وما الى ذلك .

٤ً ـ : اختراع اغراض جديدة ؛ كشعر السياسة ، والاجتماع ، ووصف المخترعات ، والقصص ، والتمثيل . واول شاعر طرق هذه الابواب وعالجها من الشعراء المحدثين خير معالجة هو شوقي .

اوزانه وقوافيه :

لم يبتدع الشعراء في الجيل الماضي اوزاناً جديدة ولا قوافي مخترعة لما رأيتَ من تقليدهم ، وانما يلاحظ انهم قد ميّزوا بعض البحور والفنون العروضية على بعض ، كتمييزهم الزجل والموالیا والفنون الشعرية التي يجوز فيها الخطأ النحوي . وقد اكثر شعراء هذا العصر من التشطير والتخميس والتسبيع لبعض القصائد القديمة كبانت سعاد والبردة وغيرهما من القصائد المشهورة .

ولما جاء الجيل الحاضر رجعوا ببحور الشعر الى ما كانت عليه في العصر العباسي ، وربما مال بعضهم الى الاكثار من الاراجيز كالذي نراه عند شوقي في كتابه «دول العرب وعظماء الاسلام» وقد جعله كله من بحر الرجز .

* * *

شوقي

[١٨٦٨ هـ — ١٩٣٢ هـ]

حياته بقلمه — اخلاقه — ثقافته — ادبه — شعره — اغراضه الشعرية — الشعر السياسي
الشعر الاجتماعي — الشعر التعليمي — الوصف — الغزل — المديح — الرثاء
شوقي والمسرح العربي — رواياته — كليوباتره — المجنون
قمبيز — علي بك الكبير — امية الاندلس — عنترة
مكانته في الادب العربي — آثاره
المختار من شعره — مصادر البحث

حياته بقلمه (١):

«سمعت ابي (علي بك) رحمه الله يرد اصلنا الى الاكراد فالعرب، ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من احمد باشا الجزار الى والي مصر محمد علي باشا، وكان جدي، وانا حامل اسمه ولقبه، يحسن كتابة العربية والتركية خطاً وانشاءً فأدخله الوالي في معيته؛ ثم تداولت الايام، وتعاقب الولاة الفخام؛ وهو يتقلد المراتب العالية، ويتقلب في المناصب السامية، الى ان اقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية، فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية، بددها ابي في سكرة الشباب.

أما جدي لوالدتي فأسمه احمد بك حليم، ويعرف بـ (النجده لي) نسبة الى «نجده» احدى قرى الاناضول، وفد على هذه البلاد فتياً كذلك. فاستخدمه والي مصر ابراهيم

---

(١) كتب «احمد شوقي» حياته في مقدمة الطبعة الاولى لديوانه «الشوقيات»، فذكر فيها اصله وولادته ونشأته، وقد آثارنا ان نقتضب منها طرفاً يعرفنا به وبأسرته اوضح تعريف.

باشا من اول يوم ، ثم زوجه بمتوفقته جدتي (نمزار خانم) واصلها من «موره» [وهي جزيرة يونانية] جُلبت منها اسيرة حرب لا شراء ، وكانت رفيعة المنزلة عند مولاها ، وكان زوجها محبوباً عنده كذلك ؛ فما زالا كلاهما مغمورين بنعمة هذا البيت الكريم ، حتى توفي جدي وهو وكيل لخاصة الخديوي اسماعيل باشا ، فأمر بنقل مرتبه برمته الى ارملته ، وأن يحسب ذلك معاشاً لا إحساناً . أنا إذن : عربي ، تركي ، يوناني ، جركسي بجدتي لأبي ؛ اصول اربعة في فرع مجتمعة .

اما ولادتي فكانت بمصر القاهرة ، وانا اليوم أحبو الى الثلاثين (وكان هذا اليوم سنة ١٨٩٨) وقد اخذتني جدتي لأمي من المهد ، وكانت منعمة موسرة ، فكفلتني لوالدي وكانت تحنو علي فوق حنوهما .

دخلت في مكتب الشيخ صالح ، وانا في الرابعة ، وهي من اهلي جناية على وجداني اغفرها لهم ، ثم انتقلت الى [مدرسة] المبتديان فالتجهيزية ، فكنت التلميذ الثاني لهذه المدرسة وانا في الخامسة عشرة ، وكان ناظرها قد حصل لي من النظارة على «المجانية» بوجه الاستثناء ، لا عن حاجة اليها ولكن على سبيل المكافأة . ثم رأى لي ابي ان ادرس القوانين والشرائع ، فدخلت مدرسة الحقوق ، وكنت اتناول من النظارة مائتي قرش في الشهر ، فدرست الحقوق سنتين ، ثم ارتأت الحكومة ان ينشأ بمدرسة الحقوق قسم للترجمة يتخرج فيه المترجمون الاكفاء ، فنصح لي الوكيل [المدير] ان ادخل هذا القسم ففعلت واقمت به سنتين ، ثم منحتني نظارة المعارف الشهادة النهائية في فن الترجمة .

[ثم اتصلت بالخديوي عباس فأقمت في خدمته] . حتى رأى لي الخديوي ان ابلغ التأديب في اوروبا ، فخيرني في ذلك وفيما اريده من العلوم ، فاخترت الحقوق ، لعلمي أنها تكاد

تكون من الادب ، وأن لا قدم فيها لمن لا لسان له ، فأشار الامير عليّ عندئذٍ ان اجمع في الدراسة بينها وبين الآداب الفرنسوية بقدر الامكان ، ثم سافرت على نفقته ، فكنت أنقد ستة عشر جنيهاً في الشهر . فركبت البحر لاول مرة أؤم مرسيليا ، فلما قدمتها وجدت رئيس الارسالية في انتظاري بها ، فأخبرني أن الامير يأمر بأن اقضي عامين في مدينة «مونبيليه» وآخرين في [باريز].

ثم ما كدت انتهي من السنة الثانية حتى كتب الي مدير الرسالة المصرية يستقدمني ويخبرني انه ذاهب بتلامذته الى انكلترا لقضاء اكثر ايام العطلة فيها ، وأن الامير رحمه الله أدى نفقة هذه السياحة عني اذا رغبت فيها . فبرحت مونبيليه على عجل أيمم باريز للمرة الاولى ، ثم سافرنا — بعد يومين — الى عاصمة انكلترا فلبثنا فيها نحو شهر . ولما كانت السنة الثالثة وهي الاولى لي في باريز ، أصبت بمرض شديد كنت فيه بين الحياة والموت ، وعندئذ اشار عليّ الاطباء ان اقضي اياماً تحت سماء افريقيا على زعم أن الذي بي من الضجر والسآمة ليس إلا حنيناً الى الوطن ، فوقع اختياري على الجزائر فرحلت اليها واقمت فيها اربعين يوماً او تزيد ، ثم حثثت الرحال عنها قافلاً الى باريز ، وهناك تمت لي السنة الثالثة في الحقوق وحصلت على الشهادة النهائية فيها ، فرأى لي الجناب العالي ، ايده الله ، ان اقضي ستة شهور أتمكن فيها من معرفة اشياء باريز واهلها ، ثم انقضت تلك المدة على ما رسم لي الرأي العالي فعدت الى الوطن وانا نضو فراق تهزني اليه الاشواق .

وفي سنة ١٨٩٦ للميلاد ندبني جنابه الفخيم لأنوب عن حكومته السنية في مؤتمر المستشرقين الذي كان انعقاده في مدينة جنيف عاصمة سويسرا ، فرحلت اليها واقمت بها شهراً (وقد انشد في هذا المؤتمر قصيدته الهمزية الرائعة ، التي صوّر بها تاريخ بلاده مصر

منذ الفراعنة الى عهد ابناء علي) . ثم انفض المؤتمر فبرحتها الى بلجيكا لمشاهدة عاصمتها وزيارة المعرض الذي اقيم بمدينة «انفرس» في ذاك العام.

ولما كانت السنة الماضية (ويريد بها سنة ١٨٩٧) وكنت قد سئمت الحضر على اثر رمد طال امده، خرجت الى الاستانة طلباً للعافية على ضفاف البوسفور، فأذن الله وكان ما رجوت، وعدت من عاصمة الاسلام معافى من رمدي.

هذه هي ايام صباي وخطوات شبابي واوائل نشأتي، اجبت عنها السائل ليعلم كيف تقضت، وفيم أنفقت، واين ذهبت».

بقي احمد شوقي بعد ذلك عظيم الصلة بالخديوي شديد اللصوق به، فكان شاعره الخاص ينطق بلسانه وينفح عنه بقصائده:

شاعر العزيز وما بالقليل ذا اللقب

ولما نشبت نيران الحرب العامة، خلع الانكليز الخديوي (عباساً) بسبب اتصاله بالعثمانيين، وابعدوا (شوقياً) عن مصر، فقصد بلاد الاندلس، واقام في برشلونة يذكر ايام الامويين فيها وآثارهم الخالدة، حتى وضعت الحرب اوزارها وانتشر السلم في بلاد الغرب والشرق.

رجع شوقي الى مصر سنة ١٩١٩ فأقام بها بعيداً عن قصر عابدين (بلاط الملك)، وانصرف الى النظم والتأليف فأتى بالرائع من الشعر والفخم من النثر. فذاع صيته في البلاد العربية، وتردد اسمه على كل الشفاه؛ فأقيم له سنة (١٩٢٧) مهرجان عظيم في دار الاوبرة الملكية بالقاهرة، اشترك فيه ممثلون لكل الاقطار العربية، وبويع بأمارة الشعر، ولُقب بـ«أمير الشعراء»... فلم يعد بعدئذ شاعر مصر وحدها ولكن شاعر

العربية وبلبلها الصدّاح ، وعاش كذلك حتى مات سنة ١٩٣٢ . فبكاه الشعر ورثاه الشعراء ونظمت له وزارة المعارف المصرية حفلة تأبينية كبرى في الاربعين من وفاته ، كما أقام (المجمع العلمي العربي) بدمشق حفلة تأبينية اخرى .

اخلاقه :

نشأ شاعرنا احمد شوقي في قصر الامارة فتخلق بأخلاق رجال البلاط من سهولة في الطبع ودماثة في الخلق ، فما عُرف عنه فحشٌ ولا إقذاعٌ ولا لؤمٌ ، وانما كان عفيف اللسان ، كثير العفو عن اساءات خصومه — وما كان اكثر خصومه ومنافسيه — بسبب ما كان يتمتع به من رفيع منزلة لدى الخديوي عباس وإيثار وتقريب ، ولسبب ما بلغه من مكانة سامية بين شعراء مصر والاقطار العربية . ولطالما مرّ باللغو كريماً وبالحسد عظيماً ، فاستمع الى قوله :

فلا حكمتي دعوى . ولا منطقي هوى ... ولا مبدئي لؤمٌ ، ولا قلمي وغدُ
جعلتُ مديحي آية الودّ في الورى ... فجاب به الدنيا ، وما انتقل الودُّ
قوافٍ لوبِّ الشعر ، لا النظمُ طائلٌ ... إذا هي سارت في البلاد ، ولا النقد
يهذبها العلم الذي العلم بعضه ... وهذا البيان الوحيُ والفطنة الوقد
أوانسُ احياناً ، شواردُ تارةً ... لها لَعِبٌ آناً ، وآناً لها جِدُّ

وكان الى جانب ذلك يؤثر البعد عن المشاحنات والمساجلات التي من شأنها أن تجر بصاحبها الى مواقف تخرج به عن حدود الادب وصيانة اللسان من الشوائب ، وكل هذا كما ذكرنا إنما هو أثر من آثار تربيته الاولى التي تلقاها عن رجال [المعية].

على أن لشوقي مباذل ولهواً افرط فيهما واكثر ، وساعده على ذلك ما ثمّر من مال

وجمع من ثروة ،، فقد شيّد قصراً ، بالمطرية من ضواحي القاهرة ، خصص منه جناحاً ذا حديقة جميلة جعله مسرحاً للهوه ، ومنزلاً لصبابته ، ومجمعاً لخلانه ونداماه ، وسمّاه (كرمة ابن هانيء) . وقد تمتع في كرمته هذه بأطايب العيش ولذائذ الحياة ؛ فكان فيها شرابُه ، وفيها طربُه ، وفيها عبثُه ؛ حتى ذاع خبرها وانتشر ، فحج اليها الادباء ونزلوا على صاحبها ضيفاناً يصيبون من خمرته ، ويستمعون الى غناء صديقه محمد عبد الوهاب ، وينعمون باحاديث شاعرنا وانشاده ، فيترنحون من سكر ، ويميلون من طرب ، ويهتزون من سحر .

وكان ذا عقيدة دينية حسنة وايمان قوي ظهرا في مدائحه لخليفة المسلمين سلطان الترك ؛ ووطنية عربية فياضة حياشه ، تمثلت في قصائده العديدة التي نظمها في مصر ودمشق وفيصل وسعد زغلول وغيرهم ، وكان يدعو في شعره دائماً الى قويم الاخلاق ورفيع الآداب كقوله :

وإنما الامم الاخلاق ما بقيت فان هموذهبت اخلاقُهم ذهبوا

وقد ذكر الدكتور حسين هيكل في مقدمته للشوقيات : «انه مؤمن عامر النفس بالايمان ، مسلم يقدّس أخُوةَ المسلمين ؛ ويجعل من دولة الخلافة قدساً تفيض عليه شؤونه وحوادثه وحي الشعر وإلهامه ، حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها(١)» .

ثقافته :

حدثنا شوقي عند كلامه في تاريخ حياته ، أنه دخل في مكتب الشيخ الصالح بالقاهرة في الرابعة ، ثم انتقل الى مدرسة المبتديان الابتدائية فالتجهيزية حيث اتم دراسته الثانوية بها في الخامسة عشرة من عمره ، ثم التحق بمعهد الحقوق فدرس الحقوق سنتين وانتسب الى قسم الترجمة سنتين

(١) الشوقيات : ج ١ ص هـ .

أخريين حصل فيهما على اجازة في الترجمة ، وارتحل بعدئذ الى فرانسا فأقام في مونبيليه سنتين يدرس الحقوق وسنتين في باريز يدرس الآداب ؛ فهو بذلك تدرّج في دراسته تدرجاً مرتباً بدأه بالدراسة الابتدائية فالثانوية والعالية ؛ وقد تثقف ثلاث ثقافات مختلفة عربيه وتركية وافرنسية فأفاد من هذه الثقافات فائدة ظهرت بوضوح في شعره وادبه .

اما ثقافته العربية فتتمثل بنوعين من الثقافة : ثقافة لغوية ، وثقافة تاريخية ، وتبدو ثقافته اللغوية ، التي تلقاها عن شيخه حسين المرصفي (١) والشيخ محمد البسيوني البيباني من علماء عصره المعدودين ، فيما خلفه لنا من شعر ونثر ؛ فهو فيهما قوي اللغه ، متين التراكيب ، سلس قياد القوافي ، تنساق اليه الالفاظ والمفردات الرائعة من دون تكلف او تصنع ، وهذا دليل على ان شوقياً كان واسع الاطلاع على قواعد اللغة وأشعارها وآدابها ، حافظاً لكثير من آياتها وشواردها . وسنتوسع في ذلك حين تحليل آثاره .

وتبدو ثقافته التأريخية في قصائده المتعددة التي اشار فيها الى حوادث كثيرة من التأريخ ، فهو في قصيدته التي انشدها في مؤتمر المستشرقين بجنيف سنة ١٨٩٦ (٢ أتى على تاريخ مصر ومن تقلب على عروشها من فراعنة وملوك ، وما مر بها من أحداث ، وما أقيم بها من آثار ؛ فكانت هذه القصيدة ملحمة لم يسبقه اليها احد في العربية . ونجد في رواياته التمثيلية : مصرع كليوباترة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، واميرة الاندلس ، وعنترة ، ثقافة تاريخية واسعة ، ومعرفة ناضجة .

واما ثقافته التركية فكانت ثقافة لازمة له ، لانه نشأ في بطانة الخديوي الذي كانت

---

(١) عن الاستاذ محمد كرد علي في ذكرى الشاعرين ص ٤٢٦

(٢) وذكر الامير شكيب ارسلان انه نظمها في سنة ١٨٩٤

له حاشية تركية آنئذ ، وانه كان يقضي صيفه في سنيه الاولى في الاستانة مركز الخلافة ، وكان يزور السلطان ويمدحه ، ويسامره ويحادثه ، ومن اجل ذلك ثقف اللغة التركية وآدابها وتاريخها ثقافة جيدة تقربه من السلطان وترفع منزلته لديه .

وأما ثقافته الفرنسية فهي ثقافة نهلها من منابعها في مونبيليه وباريز ، حيث اجاد اللغة الفرنسية ودرس آدابها دراسة مستفيضة ، وتأثر بأدبائها اعظم التأثر ، فقلد لافونتين في منظوماته التي نظمها للاطفال ، وحاكاه محاكاة وفق بها اعظم التوفيق . واستمع الى شاعرنا نفسه يحدثنا في مقدمته عن ذلك فيقول : « جربت خاطري في نظم الحكايات على اسلوب (لافونتين) الشهير ، وفي هذه المجموعة شيء من ذلك ، فكنت اذا فرغت من وضع اسطورتين او ثلاث ، اجتمع بأحداث المصريين واقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة ويأنسون اليه ويضحكون من اكثره ، وانا استبشر لذلك واتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للاطفال في البلاد المتمدنة ، منظومات قريبة المتناول ، يأخذون الحكمة والادب من خلالها على قدر عقولهم » .

كما انه تأثر باسلوب الشعراء الفرنسيين وأدبائهم امثال : لامارتين وهيغو وموسيه وغيرهم من اعلام الادب والشعر . فقد ترجم قصيدة (البحيرة) أجود شعر لامارتين نظماً وارسلها الى الخديوي عباس ، ولكنها فقدت وضاعت . كما انه حاكى قصائد هيغو التي جمعت في ديوانه « اساطير القرون Legendes des siècles » . وانت اذا قلبت النظر في ديوانه وجدت أثراً عظيماً لثقافته الفرنسية امثال قصيدته التي يذكر فيها حياته الحلوة في باريس .

يا غاب بولون ولي ذمم عليك ولي عهود

وقصيدته في (انس الوجود) التي قدمها الى رئيس الولايات المتحدة [روزفلت]

واولها : ايها المنتحي بأسوان داراً كالثريا تريد ان تنقضا

وقصيدته (توت عنخ آمون وحضارة عصره) ، وغيرهـا من القصائد التي يظهر فيها اثر الثقافة الغربية .

ادبه :

لم يكن شوقي شاعراً رائع النظم ، ساحر اللفظ ، بديع التصاوير ، حلو المعاني فحسب ؛ وانما كان كاتباً مجيد التعبير عن افكاره وخواطره باسلوب فخم وتراكيب متينة . على اننا لا ننكر ان شوقياً حلّق في الشعر تحليقاً ابعد غاية من تحليقه في النثر ، لانه صرف جهده اليه ، وبذل عنايته فيه .

خلّف شوقي من آثاره النثرية مقدمتـه للجزء الاول من طبعته القديمة لديوانه (الشوقيات) ، تكلم فيها عن الشعر والشعراء ، وعن منزلة الشاعر في قومه وقيمتـه في المجتمع ، وانه لا ينبغي ان ينزل الشعر منزلة حرفة تقوم بالمدح ولا تقوم بغـيره . ثم شرح هذه الفكرة ، واوضح اسباب مدائحه الكثيرة التي تكاد تملأ الجزء الاول من ديوانه ، ثم انتقل الى النظم والنثر وما بين الناظم والناثر من فروق فقال : « بقي استدراك لا بد من ايراده ، وذلك ان بعضهم يستنتج من كون الناثر لا ينظم ، أن الشاعر لا ينثر كذلك ولا ينبغي له ، وهذا وهمٌ يداني اليقين عندهم ، وقد جاوز الشعراء في الانخداع به حـداً أضرّ بهم ، مع انه يكفي للخروج منه . ان نعلم ان اكثر ما أعجز به ادباء الافرنج اليوم في القصص والانشاء ؛ وما يمثل على اكبر ملاعبهم ، وتتداوله ألسنتهم ، من مرسل الكلم ، ومنثور الحكم ؛ وما كتب في هـذا القرن والذي قبله من الفلسفة العليـا ، والسياسة

الكبرى ؛ انما هو من قلم مشاهير الشعراء ، حتى لتسمع عن احدهم انه مات عن عشرات من المؤلفات ، ثم ترى المنظوم منها أقلّ ، بل إن بعضهم يقدم (الاشقياء) [ويريد بها رواية البائسين Les misérables] كتاب لفيكتور هوجو على سائر مؤلفاته ، وفيها الشعر . كما يرون (اعتراف ابن العصر) لألفريد دي موسيه ، أجلّ أثر له بين كثير من الآثار ، وفيها الروايات المنظومة والاشعار ، وكلا الشاعرين مطبوع لم يختلف في سليقته اثنان » .

وكأنّا بشوقي قد أحس من اول امره أن الناس سينكرون عليه اجادته في النثر فراح يدافع عن نفسه وينافح عن هذه الفكرة بما قرأته من قوله .

كتب شوقي فصولاً عديدة في الوطن والاخلاق والحياة والبيان والشعائر الدينية والعبادات والاوصاف والخواطر وغيرها جمعها في كتاب سمّاه (اسواق الذهب) مقتبساً هذا الاسم من (اطواق الذهب) للزمخشري ، و(أطباق الذهب) للأصفهاني ، واستمع اليه كيف يقدم كتابه هذا :

«وبعد ، فهذه فصول من النثر ، ما زعمت انها غرر زياد ، او فقر الفصيح من إياد ، او سجع المطوقة على فرع عصنها المياد ، ولا توهمت حين انشأتها أني صنعت (اطواق الذهب) للزمخشري ، او طبعت (اطباق الذهب) للاصفهاني ، وإني سميت هذا الكتاب بما يشبه اسميها ، ووسمته بما يقرب في الحسن من وسميها ، وانما هي كلمات اشتملت على معانٍ (كذا) شتى الصور ، واغراض مختلفة الخبر ، جليلة الخطر ، منها ما طال عليها القدم ، وشاب على تناوله القلم ، وألمّ به الغفل من الكتاب والعلم ، ومنها ما كثر على

الألسنة في هذه الايام ، واصبح يعرض في طرق الاقلام ، وتجري به الالفاظ في اعنة الكلام (١) » .

وهو في هذه الفصول قد جرى على غرار المترسلين الاقدمين الذين كانوا يعنون في كتابتهم بالسجع والازدواج والصنعة البديعية اكثر من عنايتهم بالمعاني والخواطر ، فنحن نراه فيها مقلداً كتابات الاقدمين ، ومحاكياً اسلوب القاضي الفاضل ومدرسته ، يتأثر خطاها ويسلك سبيلها . فانظر اليه في هذه القطعة التي يصف فيها الخير : يأتيك بجمل لا تجد فيها معنى رائعاً ولا صورة مبتكرة ، وانما هي جرس حلو وصنعة بديعة :

« الخير شجرة مرآها جميل ، وظلها مقيل ، وأعاليها هديل ، وهي مذللة السبيل . فأما الطير فتنزل بمحلات ، وترحل غير محمّلات . تسقط مشفقات ، وتلقط مترفقات . وتشدو بشكر الصنيع منطلقات . واما الناس فلا يتئدون في الثمرة ، ولا يرفهون عن الشجرة . يهزون اصولها بعنف ، وينفضون فروعها بغير لطف . يساقطون الجنى ، بطرف العصا . ويستنزلون الثمر ، برمي الحجر . يلمون ويلومون ، ويطعمون ويطعنون ، ولا يلعقون ويلعنون . يجنون الثمر ، ويلحون الشجر (١) » .

على اننا لا ننكر ان شوقياً في [اسواق الذهب] أتى بما لا يستطيعه غيره من الكتاب ، لان هذا النوع من النثر يتطلب معرفة واطلاعاً وقريحة ايضاً ، لانه بالشعر اشبه ، والى النظم اقرب .

---

(١) اسواق الذهب ص ٣

(٢) » » » ٥١

ولم ينس شوقي ايضاً النثر حين نظم رواياته التمثيلية أمثال : كليوباترا ومجنون ليلى وغيرهما ، فقد شاء ان يكون للنثر من رواياته نصيب فوضع (اميرة الاندلس) نثراً ، وكان اسلوبه فيها اسلوباً جامعاً للصنعة والسجع احياناً ، منطلقاً من كل قيد احياناً اخرى . وهو يمتاز في روايته هذه بأنه يخيط الثياب على قدود المعاني ويصبها في قوالب تناسبها قوةً او رقة . فانظر اليه في هذا الحوار كيف يجيد القول ويرتفع باسلوبه الى اعلى المراتب :

« بُثينة (باكية) : . . . هوّن عليك يا أبتِ ، وتجمّل ايها الملك ؛ فقبلك لم تبك الآساد ، ولا اشتكت الاطواد ، ولا ضاق البحر عن الاعاصير الشديدة . تحدَّث الينا يا أبت ولا تيأس من روح الله ، وعليك بهذه الجدة الشفيقة ، والأم البارَّة ، فأتمنها على سرّك .

الملك : الملك الفونس منذ سقطت طليطلة ، وقضاها الله له ، اصبح لا يعرف لي منزلة ، ولا يألوني تحقيراً وإهانة ، ويطلب المال باستكلاب وشره ، والبلاد باستطالة ولؤم . ومن عجيب امره . انه يغضب من جهة فيصخب ويتهدد ، ويلين من اخرى فيلومني على الاستغاثة بيوسف بن تاشفين واستنجاد جنوده ويدعي الطاغية أنه اوفى لي منه عهداً وذمة ، واصفى لي صداقةً ومودة . وانني إن حالفت سلطان المغرب ، كانت محالفة الذئب للحمل ، وأن بربر المغرب اذا دخلوا الاندلس طغوا في البلاد وهدموا بنيان الحضارة فيها . ومن نكد الدنيا أن تصدق فينا نبوءة هذا الناصح الغاش ، فقد طمع ضيفنا ابن تاشفين في ملكنا وسلطاننا ، وتطلعت نفسه الى خيراتنا وارزاقنا ، واستنصرناه على ألفونس ، فاذا نحن الآن نخشى منه بطش النصير ، وإذا اشبيلية قد تضمنت مني ومنه العجب . النمر في قصر هناك وراء الضفة يجتمع به اعدائي واعداء الاندلس من ابنائه الاندلسيين ، وصغار

العقول من الفقهاء ، ومن يلتف عليهم ، وهؤلاء يحسنون البقاء له في الاندلس واغتنام الفرصة لضمه الى سلطنته ، ويقيمون عنده الحجج على فساد ملوك الطوائف ، ويجعلونني الهدف الاول . وهنا في هذا القصر اسد مقلم الاظفار ، مغلوب على العرين ، وخيد من الانصار والاعوان (١) » .

وشوقي في نثره ضرب لنا مثلاً على قدرته في الكتابة فيما خلّف من فصول ومقالات ورسائل وروايات ، وهو في كلها مجيد إجادة لو قيضت لغيره لكان له شأن بين الكتاب ومنزلة بين الناثرين ، ولكن شعره طغى عليه فأساء — إن صح هذا التعبير — الى نثره ، فعرفه الناس شاعراً واميراً للشعراء ، ولم يعرفوه كاتباً ناثراً . ولعلّ هذا من حظ العربية لانها كانت — في عصره — شديدة الحاجة الى شاعر يعبر عن عواطفها وخوالجها ، ويصور آلامها وأحزانها ، اكثر من حاجتها الى كاتب ، لانهم كانوا بحمد الله وافرين عديدين.

شعره :

حمل شوقي قيثارة الشعر وهو فتى يافع ، ولم يلقها من يديه الا وهو شيخ هرم ، فغنى بين هذين العهدين واطرب آلهة الفن بشعر رفعه الى مصاف شعراء العالم امثال : شكسبير وغوته وهوجو .

فشوقي هو سيد شعراء العربية باسلوبه الرفيع — الذي حاكى به فحول القدماء — ومعانيه واغراضه الجديدة التي ادخلها على الشعر العربي ؛ ولكن ما كان شوقي بدعاً من الشعراء ، ولا ثار بشعره على القدماء ، وانما سار على غرارهم في الفاظهم واساليبهم . وما

---

(١) اميرة الاندلس ص : ١٠٥

زال شعره كشعرهم ، تتألف القصيدة عنده من ابيات مستقلة في الالفاظ والمعاني على وزن واحد وروي واحد ، كما تتألف من خيال جزئي لا من خيال كلي كالذي نراه عند شعراء الغرب ؛ وقد اتبع شوقي هذا الاسلوب حتى في مسرحياته . وكيف لا يكون كذلك وقد قرأ دواوين اكثر شعراء العرب الفحول امثال : ابي تمام ، والبحتري ، وابي فراس ، والوضي ، ومهيار ، وابن هانيء ، وابن خفاجة ، وابن زيدون ؛ فكثيراً ما كان يعارضهم ويسابقهم ، وهم ان سبقوه في الزمن ، فانه سبقهم بما اودع شعره من معاني رفيعة تصف الحضارة الباهرة التي كان يعيش شوقي في عصرها .

اما الاغراض التي نجدها في ديوانه فهي اغراض القدماء من غزل ووصف ومديح ورثاء . وقد ترك ماعدا ذلك من شعر الهجاء والمجون والزهد والطرديات ، لان روح عصره كانت تأبى ذلك كما اشرنا الى هذا في التوطئة . وقد اضاف شوقي الى الاغراض السابقة اغراضاً اقتضتها الحضارة الحديثة من شعر سياسي واجتماعي وتعليمي ، ومن وصف سفن البخار والغواصات ، والكهرباء والطيارات ، والهلال الاحمر والصليب الاحمر ، والمراقص والبرلمان ، وتمجيد قدماء المصريين ، وما الى ذلك من المعاني التي اقتضتها احوال عصره .

الشعر السياسي :

ما كان شوقي يتعرض للسياسة في شعره اول امره ، فلما اتصل بالخديوي عباس حلمي وقربه منه وافضى اليه بكثير من شؤون السياسة ، ظهر هذا النوع من الشعر في كلامه ، فمدح السلطان عبد الحميد بصفته شاعر امير مصر ، وحمل على رئيس الوزارة رياض باشا حين افتتحت مدرسة محمد علي الصناعية ، فالقى الوزير خطاباً في حضرة اللورد

كرومر قال فيه انه يعتمد على اللورد في انجاح المشروع والمدرسة. وقبل ان يطلع الصباح طلع شوقي بقصيدته التي فيها :

كبيرَ السابقين الى كرام ... برغمي ان انالك بالملام
مقامك فوق ما زعموا ولكن ... رأيت الحق فوقك في المقام
خطبتَ فكنت خطباً لا خطيبا ... أضيف الى مصائبنا العظام

ومن شعره السياسي قصيدته التي قالها يخاطب هذا اللورد يوم وداعه في الاوپرا حين ذمّ المصريين واولها :

ايامكم ام عهد اسماعيلا ... ام انت فرعون يسوس النيلا

فقابلها الرأي العام المصري بالاعجاب لاستيائهم من اللورد الانكليزي الذي حمل على المصريين وتهجم عليهم في عقر دارهم .

على ان حب شوقي للخديوي والسراي لم يمنعه من الاتصال بالزعماء الاستقلاليين امثال المرحوم مصطفى كامل باشا الذي كانت صلته به سبب غضب السراي عليه فهجرها ، وآسى صديقه الزعيم الشاب في محنته ، وظل مخلصاً اليه حتى ساعاته الاخيرة . وقصيدته في رثائه هي خير ما قال شوقي في الرثاء ، وقد قالها ليلة مات مصطفى كامل . ونشرت في جرائد الصباح ، وفيها بيته المشهور الذي ذهب مثلاً :

دقات قلب المرءِ قائلةٌ له ... إن الحياة دقائقٌ وثوانِ

* * *

وما كانت الحوادث السياسية تقع في وادي النيل او في سورية او العراق او غيرها من اجزاء العالم العربي او الاسلامي حتى يقول فيها شوقي قصيدة ، لانه كان شديد التأثر

بالحوادث السياسية التي كانت تهز اعصابه وتثير كوامن نفسه .

ومن اروع قصائده السياسية قصيدته في الانتصار التركي ، التي اولها :

الله اكبر ، كم في الفتح من عجب ؟ يا خالد الترك جدّد خالد العرب

وقصيدته في الانقلاب العثماني التي مطلعها :

سل يلدزاً ذات القصور هل جاءها نبأ البدور ؟

وقصيدته الخالدة التي قالها في حادثة دنشواي واولها :

يا دنشواي على ربالك سلام ذهبت بأنس ربوعك الايام

وقصيدته في نكبة دمشق ، واولها :

سلامٌ من صبا بردى ارقُّ ودمع لا يكفكف يا دمشق

وقصيدته في نكبة بيروت ومطلعها :

يارب امرك في الممالك نافذ والحكم حكمك في الدم المسفوك

وهذه القصائد السياسية وغيرها تمثل لنا وطنية شوقي اروع تمثيل ، كما تصور لنا عطفه على البلاد العربية وحبه اياها .

الشعر الاجتماعي :

لشوقي نوعان من الشعر الاجتماعي :

اولهما : شعر قاله في معالجة بعض الشؤون الاجتماعية خاصة كقصيدته الى العمال ، وقصيدته في مضار الانتحار ، وقصيدته في الحجاب والسفور ، وقصيدته في الرقص وغيرها .

وثانيهما : شعر ممزوج بشعره السياسي ، فانه كان يستخلص من السياسة وحوادثها عبراً اجتماعية .

ومن قصائده في كلا النوعين نستخلص اراءه في كثير من شؤون الاجتماع كرأيه في الدين والمرأة والاخوة .

فأما رأيه في الدين الاسلامي ونبيه فيتجلى في كثير من قصائده التي ابدى فيها تحمسه للاسلام والخلافة والخليفة وتآخي المسلمين ؛ كقصيدته « نهج البردة » وهمزيته في مديح الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم ، وغير ذلك مما هو منشور في ديوانه . وشوقي وإن لم يكن متديناً لايقوم بفرائض دينه فأنه كان قوي العقيدة ، مؤملاً في الله على الرغم من كثرة خطاياه :

إن جلَّ ذنبي عن الغفران ، لي املٌ في الله يعصمني في خير معتصم

واما رأيه في المرأة فمختلف باختلاف سني حياته ، فهو حين كان شاعر السراي لم يكن يرى سفور المرأة ، لان ذلك ينافي تقاليد السراى ؛ ولهذا نظم قصيدته (صدَّاح يا ملكَ الكنار) ورمز بها الى المرأة التي ينبغي ان تحبس ولا تفلت كما يحبس البلبل ولا يفلت ضناً به . ولكنه حين يبتعد عن القصر ويفلت من تقاليده ، يأخذ برأي صديقه المصلح الاجتماعي قاسم امين فيدعو الى السفور .

واما رأيه في الاخوة فيتجلى في قصائده التي قالها في الاخوة العربية ودعوته المصريين الى مشاطرة اخوانهم الناطقين بالضاد مصائبهم ، وخير قصائده في ذلك قصيدته [تحية دمشق] التي بدأها بقوله :

قم ناجِ جلَّقَ وانشد رسم من بانوا مشت على الرسم احداثٌ وازمانُ

وختمها ببيته الخالد :

ونحن في الشرق والفصحى بنو رحم ونحن في الجرح والآلام إخوان

الشعر التعليمي:

رأيت في القسم الذي نقلناه من ترجمة شوقي ، انه لما كان في بلاد الغرب وشاهد اهمية الشعر التعليمي عند لافونتين وغيره من أئمة الشعر الفرنسي اراد ان يقلده ، وهكذا كان . فقد نظم كثيراً من القصائد التي اراد بها وجه الاطفال من اناشيد وطنية ، ومقطوعات اصلاحية ، يدعو فيها الناشئة الى حب العلم والوطن والوالدين والمعلمين .

ولشوقي شعر تعليمي آخر اخذه من الاساطير القديمة كاسطورة اليمامة والصياد ، واسطورة ملك الغربان وندور الخادم ، وغيرها من الاساطير . وقد قلد شوقي في هذا شاعراً مصرياً سابقاً اسمه عثمان جلال صاحب [العيون اليواقظ في الامثال والمواعظ] ، ولكن شعر شوقي ارقى لغة ، واجمل اساليب ، واروع معاني .

الوصف:

برع شوقي في الوصف براعة عظيمة ، فاجاد وصف الطبيعة ومباهجها ، كما اجاد وصف الحياة وما فيها من معاني طريفة وصور جديدة . وهو في اوصافه للطبيعة متأثر بالقدماء من الشعراء الذين عنوا بوصف الطبيعة مثل ابن الرومي والبحتري ، وربما غالى بعض الناس فزعموا ان اوصاف شوقي للطبيعة لاتساوي شيئاً ، وان بيتاً واحداً كبيت البحتري الذي قاله في الربيع :

اتاك الربيعُ الطلقُ يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد ان يتكلما

ليساوي كل مانظم شوقي في ربيعياته وريحانياته ومناظر النيل او مناظر البحور ، لان الطلاقة والاختيال والبشاشة والحسن الذي يهمسه بالكلام هي علامات الربيع المبثوث في النفوس ، وكل كلمة من هذه الكليمات تدل على النفس الحية التي تشاهد الربيع اكثر

من دلالتها على الربيع الظاهر فيما يبدو للعيان (١) وفي هذا القول كثير من المغالاة والاساءة الى الحقيقة والادب فان قصائد شوقي في الطبيعة ومفاتنها وفصولها وجمالها من اروع مااستطاعت النفس الانسانية قوله. استمع اليه يقول :

آذار اقبلَ قم بنا يا صاحِ حيِّ الربيعَ حديقةَ الارواحِ
واجمع ندامي الظرف تحت لوائه وانشر بساحته بساط الراح
صفوٌ أتيحَ فخذ لنفسك قسطها فالصفوُ ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقاً لتجاوب الاوتار والاقداح

ومن اروع قصائده في الوصف قصيدته التي يصف فيها الشروق والغروب وهو في سفينة وفيها يقول :

فما للغروب يهيج الاسى وكان الشروق لنا اي عيد
كذا المرء ساعةَ ميلاده وساعةَ يدعو الحِمام العنيد
وليس بجارٍ ولا واقعٍ سوى الحق مما قضاه المريد

فانت ترى هنا براعة تصوير ، وقوة احساس بالطبيعة ، كما تحس روح المعري الذي يمزج الشعر بالفلسفة .

ومن اروع معاني الوصف عند شوقي قوله في طلوع البدر وهو في السفينة :

وزهت لناظرها السماء وقرَّ ما في البحر من عبب ومن تيّارِ
واهلَّ لله السراةُ وازلفوا لك في الكمال تحيةَ الاكبار

---

(١) انظر ص ١٦٩ من كتاب شعراء مصر لعباس محمود العقاد .

وتأملوكِ فكل جارحةٍ لهم عين تسامرُ نورَها وتسامي

والبدر منك على العوالم يجتلي بشر الوجوه وزحمة الابصار

فانظر الى البلاغة والقوة في قوله [زحمة الابصار]، فانا لا نخال ان شاعراً وصف تطلع الناس الى البدر في الليلة الظلماء مثل شوقي رحمه الله.

الغزل :

لشوقي غزل جيد لا يقل جمالاً وعلوقاً بالنفس عن بقية شعره؛ فهو يصور خلجات النفوس، وما يحس به العاشقون، وما يتهامسون به، فاقرأ قصيدته التي بها يصف مغامراته بغاب بولونيا ترفيها غزلاً رقيقاً لا يصدر إلا عن نفس رشفت من رحيق العشق. وقد زعم بعض ادباء هذا العصر ان شوقياً [لم يبرع في هذا الفن براعته في غيره من الاغراض، لان الغزل من الوجدانيات التي ينبغي للشاعر ان يحس تأثيرها في نفسه، فان لم يكن لألم الحب من سلطان على قلبه، فهيهات ان يأتي بغزل عاطفي صادق اللهجة متواصل الحنين؛ وشوقي لم يكن من المتيمين المتألمين، ولا من العشاق الروحانيين (١)] والحق أن شوقياً قد عشق وتألم، وذاق العشق وألم الهوى، فقال :

يقول اناس لو وصفتَ لنا الهوى لعلَّ الذي لا يعرف الحبَّ يعرفُ

فقلتُ لقد ذقتُ الهوى ثم ذقتُهُ فوالله لا ادري الهوى كيف يوصف ؟

ولا نريد الاطالة باستشهاد غزل شوقي الرائع، فقد انتشر شعره وغنى الناس به، ولم تبق حنجرة لم تتغن بغزل شوقي في قصيدته :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهنَّ الثناء

---

(١) انظر ادباء العرب للبستاني ج ٣ ص : ١٩٧

المديح :

سلك شوقي في مديحه مسلك القدماء فقلد البحتري في كثير من مدائحه في الخليفة المتوكل ، فمن ذلك قصيدته في الخديوي عباس حلمي التي اولها :

اشكو هواكَ لمن يلوم فيعذر واجادلُ العذال فيك واكثرُ

فقد قلد فيها قصيدة البحتري التي اولها :

اخفي هوىً لك في الضلوع واظهر وألامُ في كمدٍ عليك وأعذر

ولكن شوقياً لم يوفق في قصيدته هذه ، كما لم يوفق في كثير من مدائحه التي قلد فيها البحتري او غيره من أئمة المديح القدامى .

على ان مدائح شوقي الجديدة في محمد علي الكبير والملك فؤاد وسعد زغلول مملوءةٌ بالمعاني الجيدة والصور الطريفة التي ادخلها شوقي في المدائح العربية ، لصدق عاطفته وحسن تصويره مناقب الممدوح تصويراً رائعاً ، وتضمينه اياها كثيراً من النصائح الاجتماعية ، والمطالب الاصلاحية ، والاغراض السياسية القيمة . استمع اليه يقول في مديح الملك فؤاد من قصيدته الخالدة في (توت عنخ آمون) :

... فؤادُ اجل بالدستور دنيا واشرفَ منك بالاسلام دينا
واهدى في بناء الملك جداً واجود والداً في المحسنينا
... فعجل يابن اسماعيل عجل وهات النور واهد الحائرينا

الرثاء :

اجاد شوقي هذا النوع من الشعر اجادة قيمة لانه ابان فيه عن عاطفة صادقة وتصوير لحزن النفوس ، كما ضمنه كثيراً من ضروب الحكمة وشؤون السياسة ولم ينج شوقي في هذا

الغرض من تقليد الشعراء القدماء ، فهو في مراثيه لامه وجدته مقلد للمتنبي في اسلوبه ومعانيه .

وقد اكثر شوقي من الرثاء ، وله فيه جزء خاص من ديوانه (وهو الجزء الثالث) رثى فيه طائفة من زعماء المصريين والمسلمين والعرب ومفكريهم . ولم يقصر شعره على رجال السياسة والعلم ، وانما قال مراثيه في بعض رجال الفن من مغنين ونحاتين وغيرهم .

ومن خير مراثيه قصيدته في الخديوي توفيق ، وقصيدته في سعد زغلول ، وقصيدتاه في فوزي الغزي ، وبطرس غالي .

شوقي والمسرح العربي :

كان من اثر تطور الثقافة الاجتماعية في البلاد العربية ، وانتشار التعليم ، واقتباس الحضارة الاوربية ؛ ان اتجهت الانظار الى التأليف المسرحي الذي يعد من دعائم الادب والاجتماع . وقد كان الغربيون يعيبون على العرب نقص التمثيل والمؤلفات المسرحية في ادبهم ، ويعدون ذلك دليلاً على تأخر العرب وانحطاطهم ، الى ان قدم شوقي الى المسرح العربي رواياته التي تعد الدعامة الاولى للتأليف المسرحي الحديث واليك ملخصاً عن رواياته المسرحية .

مصرع كليوباترة :

ظهرت هذه الرواية سنة ١٩٢٩ ومثلت في مصر فنالت شهرة واسعة . وقد استمد شوقي موضوع هذه الرواية من تاريخ البطالسة في مصر ؛ وحدثت وقائعها في الاسكندرية ؛ والايام الاخيرة في حياة كليوباترة عند استيلاء الرومان على مملكتها .

وتتلخص حوادث هذه الرواية بان كليوباترة تولت الملك بعد ابيها فحاول احد

اخوتها انتزاع الملك منها ، فما كان من يوليوس قيصر إلا ان ناصرها ووطد لها ملكها ، وصحبته الى رومة ولبثت بصحبته حتى قتل سنة ٤٤ ق. م ، فعادت الى الاسكندرية ، ثم اغوت انطونيوس فهجر رومة مفضلاً صحبتها على منصب الحكم في رومة ، فغضب الشيوخ الرومانيون وبعثوا اليه اوكتافيوس على رأس اسطول عظيم ، فالتقى الاسطولان وانتهت واقعة اكشيوم البحرية بفشل اسطول كليوباترة . وعند ما رأت كليوباترة فشلها حاولت ايقاع اكتافيوس في شراك جمالها ولكنها لم توفق الى ذلك. والرواية تصور دهاء المرأة وبراعتها في الدهاء تصويراً صحيحاً .

مجنون ليلى :

ظهرت هذه المأساة سنه ١٩٣١ ، وقد وقعت حوادثها في صدر الدولة الاموية في بلاد نجد . وتتلخص الرواية بان قيس بن الملوح احب ابنة عمه ليلى فأكثر من التغزل بها ، ثم خطبها الى ابيها فردّه خائباً ، فازداد قيس اخلاصاً وهياماً بليلاه . فما كان من ابيها الا زوجها رجلاً من بني ثقيف اسمه ورد ، فجن قيس وهام على وجهه حتى مات . والرواية تمثل لنا الاخلاص في الحب ، وشرف النفس العربية تمثيلاً صادقاً .

قمبيز :

ظهرت هذه الرواية سنة ١٩٣١ . وقد استمد شوقي الموضوع من تاريخ مصر في القرن السادس قبل المسيح . وخلاصتها ان ملك الفرس (قمبيز) ارسل يخطب (نفريت) ابنه (امازيس) فرعون مصر . فرفضت الاميرة ان تترك بلادها الى بلاد اجنبية ، فأثار هذا الرفض غضب (قمبيز) وعوّل على غزو مصر . ولكن الاميرة المصرية (نتيتاس) رضيت به فتزوجها على انها ابنة الملك نفريت ، ولما عرف حقيقة زوجه غضب فغزا مصر

وفعل فيها الاعاجيب . والرواية تمثل مصر القديمة وابهتها وما كانت عليه من جلال وعظمة .

علي بك الكبير :

ظهرت هذه الرواية سنة ١٩٣٢ . وقد استمد شوقي موضوع روايته من تاريخ مصر ايام الدولة العثمانية وسلطان المماليك على اشده . وكان يتولى مصر يومئذٍ علي بك الكبير ، فطمع في الاستقلال بمصر فثار على الدولة العثمانية وهي مشتغلة بمحاربة روسيا ، وكاد يتوصل الى امنيته لولا خيانة صهره محمد ابي الذهب ، فأسر وقتل . وتصور هذه الرواية دولة المماليك واستبدادهم وغدرهم ، كما انها تظهر شمائل علي بك وبطولته .

امية الاندلس :

ظهرت هذه الرواية سنة ١٩٣٢ . وقد استمد شوقي موضوعها من تاريخ الاندلس في عصر ملوك الطوائف . وخلاصتها ان الاميرة بثينة بنت ملك اشبيلية زارت قرطبة بثياب غلام ، فصادفت فتىً عربياً في السوق فتحادثا وافترقا وقلبها مشغول به . وخطبها وزير ابن تاشفين امير المرابطين فردته ، وما زالت تبحث عن فتاها حتى اهتدت اليه ، فاذا هو حسون التاجر بأشبيلية ، فزارته في داره . ثم غزا ابن تاشفين الاندلس فاعتقل ملك اشبيلية . اما بثينة فقد سباها مغربي باعها الى التاجر الاشبيلي فتزوجها . والقصة تمثل حالة الاندلس واضطرابها في ايام ملوك الطوائف كما تمثل البذخ والترف اللذين كانا في الاندلس اذذاك

عنترة :

ظهرت هذه الرواية سنة ١٩٣٢ . وموضوعها مستقى من سيرة البطل عنترة بن شداد . وتتلخص بان عنترة الذي احب ابنة عمه عبلة واحبته ، لم يمنعه سواده من طلب يدها ، فرفض

عمه تزويجها منه ، واخذ يدبر له المكايد رجاء التخلص منه ، ولكن عنترة كان يفسد هذه المكايد الى ان تغلب عليها ، وفاز بعبلة جزاء ثباته وشجاعته واخلاصه . والرواية تمثل النخوة العربية والحياة الجاهلية خير تمثيل .

مكانته في الأدب العربي الحديث :

لم يظهر بعد المتنبيء وأبي فراس والشريف الرضي ، شاعر عربي تمكن من ناصية الشعر ، وضرب على قيثارته ألحاناً عذبة النغم حلوة الايقاع ، مثل البارودي وصبري ؛ وقد أتى بعدهما شاعر شاب جرى في قريضه أول امره على غرارهما ثم حلق في سماء الشعر عالياً وتنقل بين الرياض فأخذ عن الطير شدوه ، وعن الماء خريره ، وعن الزهر جماله ، وصبغ شعره بما في الطبيعة من روعة وحسن ، وقد تهيأ له ذلك بما وهبه الله من قريحة فياضة وإلهام عبقري .

على ان شاعرنا شوقياً لم يسلم من ألسنة خصومه ومنافسيه ، فقد نهض له كاتبان كبيران يتمتعان اليوم بمنزلة رفيعة بين كتّاب عصرهما ، وهما الاستاذان عباس العقاد وابراهيم المازني ، وأخذا على نفسهما تهديمه بتحليل شعره وبيان فساده وفسولته ، ولكنهما لم يتمكنا من ذلك لأن شاعرية شوقي كانت أعظم من أن تنال وأمنع من أن تهدم .

لم يقف اعجاب الأدباء في هذا العصر بشوقي عند حد اقامة مهرجان تكريمي له ، بل ذهب كثيرون منهم الى وضعه في صف فحول الشعراء الذين نبغوا في العصر العباسي كالبحتري والمتنبيء وغيرهما ، ونحن وإن كنا نذهب في هذا القول مذهبهم ، الا اننا نجد شوقياً امتاز منهم بهذا الطابع الطريف الذي طبع شعره به من وصف المخترعات ومظاهر المدنية الحديثة وتذليل الشعر في نظم الروايات التمثيلية التي لم تعرف قبله في اللغة العربية . وتظهر لنا منزلة شوقي فيما رأيناه من الحفلات العظيمة التي اقيمت تأبيناً له ، حيث ذرف الأدباء

على المنابر دموعاً حارة سخينة بقصائدهم وبما دبجوا من فصول طوال وكتب عديدة حللوا بها شاعريته وقصائده وبينوا مكانته ومنزلته في الأدب.

ولا بد لنا من أن ننهي كلامنا في مكانة شوقي الأدبية بكلمة للاستاذ الكبير المرحوم الشيخ الجليل (احمد الاسكندري):

«وكفى شوقياً شرفاً وعظمة أن تكون فجيعتنا فيه هي فجيعة للعرب والمسلمين والشرق كافة، وأن كل قلب فيهم يستشعر اليأس من ان يستدير الزمان فيجود لنا بنادرة الفلك وبكر عطارد. فهل تخرج لنا الأرض التي انبتته والبيئة التي انجبته مثل شوقي؟ ليس ذلك بعزيز على مفيض العقول وواهب الحياة سبحانه وتعالى (١)».

آثاره:

جمع شوقي شعره في ديوان سماه «الشوقيات» وقد طبع الجزء الاول منه سنة ١٨٩٨ «بمطبعة الآداب والمؤيد» ضمنه قصائده التي نظمها من سنة «١٨٨٨ ــ ١٨٩٨» وصدره بمقدمة من قلمه في الشعر والشعراء وترجمة حياته، وهي من رائع نثره. ثم أصدر جزءً غيره طبعه سنة ١٩٢٥ «بمطبعة مصر» مصدراً بمقدمته للدكتور محمد حسين هيكل باشا جمع فيه قصائده في السياسة والتاريخ والاجتماع. وهذا الجزء مخالف في قصائده للجزء السابق إذ أنه خلو من المدائح والمراثي والقصائد التعليمية. ثم طبع الجزء الثاني منه سنة ١٩٣٠ «بمطبعة مصر» جمع فيه قصائد الوصف والغزل ومتفرقات في التاريخ والسياسة والاجتماع. ثم طبع الجزء الثالث سنة ١٩٣٦ «بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر» جمع فيه المراثي جميعها،

---

(١) ذكرى الشاعرين ص: ٣٢٢

واصدر مجموعة اخرى في سنة ١٩٣٣ سميت (دول العرب وعظماء الاسلام) وطبع «بمطبعة مصر» جمع فيها قصائده التي قالها في تاريخ الاسلام وعظمائهم.

وله كذلك روايات تمثيلية، طبع منها كليوباترة سنة ١٩٢٩، وظهرت لها طبعة ثانية بمطبعة الاستقامة سنة ١٩٣٧. ومجنون ليلى وقمبيز سنة ١٩٣١. وعلي بك الكبير وعنترة واميرة الاندلس سنة ١٩٣٢ «بمطبعة دار الكتب المصرية».

وجمع فصوله النثرية التي دبجها في كتاب [اسواق الذهب] وطبع سنة ١٩٣٢ «بمطبعة الهلال».

مختارات من شعره

الشعر السياسي :

نكبة دمشق

قيلت هذه القصيدة في حفلة اقيمت لاعانة منكوبي سورية بتياترو حديقة الازبكية بمصر في كانون الثاني سنة ١٩٢٦ .

سلامٌ من صبا بردى ، ارقُّ ... ودمعٌ لا يُكفكف يا دمشقُ
ومعذرةُ اليراعةِ والقوافي ... جلالُ الرزءِ عن وصف يَدِقُّ (١)
وذكرى عن خواطرِها لقلبي ... اليكِ تلفُّتٌ ابداً وخفق (٢)
وبي مما رَمَتكِ به الليالي ... جراحاتٌ لها في القلب عُمق
دخلتُكِ والاصيلُ له ائتلاقٌ ... ووجهُكِ ضاحكُ القسماتِ طلق (٣)

. . . . . .

لحاها الله انباءٌ توالتْ ... على سمْعِ الوليِّ بما يَشُقُّ (٤)
يُفصِّلُها الى الدنيا بريدٌ ... ويُجملها الى الآفاق برق (٥)
تكاد لروعة الأحداث فيها ... تُخالُ من الخرافة وهي صِدق
وقيل معالمُ التاريخ دُكّت ... وقيل أُصابها تَلَفٌ وحرق
أَلستِ دمشقُ للاسلام ظئراً ... ومرضعةُ الأبوّة لا تُعَقُّ (٦)

---

(١) الرزء . المصيبة . (٢) خفق : خفوق . (٣) ائتلاق : من ائتلق ، لمع واضاء . (٤) الولي : المحب والصديق . (٥) فصل : بين . يجمل : من اجمل الكلام : فصلّه وبينه . (٦) الظئر : المرضعة .

صلاح الدين تاجك لم يجمّل ... ولم يوسم بأزين منه فرق

وكل حضارة في الارض طالت ... لها من سرحك العلوي عرق (١)

سماؤك من حلى الماضي كتاب ... وارضك من حلى التاريخ رق (٢)

بنيت الدولة الكبرى وملكاً ... غبار حضارتيه لا يشق

له بالشام اعلام وعرس ... بشائره بأندلس تدق

. . . . . .

بلاد مات فتيتها لتحيا ... وزالوا دون قومهم ليبقوا

وحرّرت الشعوب على قناها ... فكيف على قناها تسترق (٣)

بني سورية اطرحوا الأماني ... وألقوا عنكم الاحلام ألقوا

فمن خدع السياسة ان تغرّوا ... بألقاب الامارة وهي رق (٤)

وكم صيد بدا لك من ذليل ... كما مالت من المصلوب عنق (٥)

نصحت ونحن مختلفون داراً ... ولكن كلنا في الهم شرق

ويجمعنا، اذا اختلفت بلاد ... بيان غير مختلف ونطق

وقفتم بين موت او حياة ... فان رمتم نعيم الدهر فاشقوا

ففي القتلى لأجيال حياة ... وفي الاسرى فدى لهمو وعتق (٦)

وللحرية الحمراء باب ... بكل يد مضرجة يدق

جزاكم ذو الجلال بني دمشق ... وعز الشرق اوله دمشق

* * *

(١) السرح : الشجر العظام . (٢) الرق : جلد رقيق يكتب فيه . (٣) تسترق : تستعبد .
(٤) الرق : العبودية . (٥) الصيد : ميل العنق ، وهو يضرب للكبر . (٦) العتق : الحرية .

الشعر التعليمي:

خارطة افريقية:

افريقيا قسم من الوجود ... في شكله اشبه بالعنقود
وذلك العنقود في الماء انغمر ... ما املح الماء وما احلى الثمر
مدت اليه يدها اوروبا ... من فوقه كمن يريد الحبا
وآسيا بالجنب كالمحتال ... تنقصه من شرقه الشمالي
وبين هذين ترى القنال ... يتصل الماء به اتصالا
انشاه اسماعيل عنوان الظفر ... فوقع الحافر فيما قد حفر
ومصر فيه حبة الامام ... وملتقى الثلاثة الاقسام
هنالك (الابيض) يبدو فوقها ... ويملك (الاحمر) منها شرقها
وحدها من جهة الجنوب ... سودان مصر وبلاد النوب
وحدها الغربي يا قراء ... طرابلس المغرب والصحراء

* * *

الوصف:

قصر الحمراء في الاندلس

اختلاف النهار والليل ينسي ... اذكرا لي الصبا وايامَ انسي
وصفا لي ملاوةً من شباب ... صوّرت من تصورات ومَسّ (١)

---

(١) الملاوة: البرهة من الدهر.

عصفت كالصبا اللعوب ومرّت ... سنة «حُلوة» ولذةَ خَلْسِ (١)

. . . . .

من (لحمراء) جُلّلت بغُبار الـ ... ـدهر كالجُرح بين بُرءٍ ونُكس

كسَنا البرق لو محا الضوءَ لحظاً ... لمحتها العيونُ من طول قَبس

حِصن (غرناطة) ودارُ بني (الاحـ ... ـمر) من غافلٍ ويقظان نَدس (٢)

جلّل الثلجُ دونها رأس (شيري) ... فبدا منه في عصائب برس (٣)

سَرمدٌ شيْبُه ولم أرَ شيباً ... قبله يُرجيء البقاءَ وينسي

مشت الحادثاتُ في غُرَف (الحمـ ... ـراء) مشيَ النعي في دار عُرس

هتكتْ عزّةَ الحجابِ وفضّت ... سُدّةَ الباب من سمير وأُنس

ومغانٍ على الليالي وضاءٍ ... لم تَجِدْ للعشي تكرار مَسّ

لا ترى غيرَ وافدين على التا ... ريخ ساعينَ في خشوع ونكس

نقّلوا الطرف في نضارة آسٍ ... من نقوشٍ وفي عُصارة وَرْس

وقبابٍ من لازوردٍ وتبرٍ ... كالرُبى الشمّ بين ظلٍ وشمس

وخطوطٍ تكفّلت للمعاني ... ولألفاظها بأزين لبس

وترى مجلس السباع خلاءً ... مقفر القاع من ظباءٍ وخُنس

لا (الثريا) ولا جواري الثريا ... يزلنَ فيه اقمار إنس

مرمرٌ قامت الاسودُ عليه ... كأَةَ الظُفْر ليّنات المَجَس

---

(١) الصبا : ريح مهبها من مطلع الثريا الى بنات نعش . (٢) الندس : الفهم . (٣) عصائب برس : ي بيض كالقطن .

تنثر الماء في الحياض جُمانا يتنزّى على ترائبَ مُلس
آخرَ العهد بالجزيرة كانت بعد عَرْكٍ من الزمان وضَرْس

الغزل :

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرّهنّ الثناء
أُتراها تناست اسميَ لما كثُرت في غرامها الاسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم تكُ بيني وبينها اشياء !
نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاء
يومَ كنا ولا تسَل كيف كنا نتهادى من الهواء مانشاء
وعلينا من العَفاف رقيبٌ تعِبت في مراسها الاهواء
جاذبتني ثوبي العصي وقالت اتم الناسُ ايها الشعراء
فاتقوا الله في قلوب العذارى فالعذارى قلوبهنّ هواء

اخذ البيت الرابع [نظرة . . .] فزاد عليه قوله :

ففراقٌ يكون فيه دواء او فراقٌ يكون منه الداء

الرثاء :

رثاء سعد باشا زغلول [١٩٢٧]

شيّعوا الشمسَ ومالوا بضُحاها وانحنى الشرقُ عليها فبكاها
ليتني في الرَّكْب لما أَفَلَتْ (يُوشعُ) همّتْ فنادى فثناها (١)

(١) يوشع : احد انبياء بني اسرائيل دعا الله ان يؤجل له الغروب فأجابه وثنى الشمس عن غروبها.

جلّل الصبحَ سواداً يومُها ... فكأنّ الارضَ لم تخلع دُجاها (١)

انظروا تلقوا عليها شَفقاً ... من جراحات الضحايا ودماها

وترَوْا بينَ يديها عَبرةً ... من شهيدٍ يقطُرُ الورد شذاها

آذنَ الحقُّ ضحاياها بها ... ويحه !! حتى الى الموت نعاها

. . . . . .

كفنّوها حُرّةً علْويّةً ... كست الموتَ جلالاً وكساها

مِصرُ في اكفانها الاّ الهُدى ... لحمةُ الاكفان حقٌّ وسُداها (٢)

خطَر النعشُ على الارض بها ... يَحْسِرُ الابصارَ في النعش سَناها (٣)

جاءها الحقُّ ومن عاداتها ... تُؤثِرُ الحقَّ سبيلاً واتجاعا

ما دَرَتْ مِصرُ بدفنٍ صُبّحَتْ ... ام على البعث افاقت من كَراها

صرَختْ تحسَبُها بنتَ الثرى ... طَلبتْ من مِخْلَب الموت أَباها

. . . . . .

يا عدوَّ القيد لم يَلْمَحْ له ... شَبَحاً في خِطّةٍ إلاّ أَباها

لا يَضِقْ ذرعُك بالقيد الذي ... حزَّ في سوق الأُوالي وبراها

. . . . . .

تسكُبُ الدمعَ على سعدٍ دماً ... امةٌ من صخرة الحق بناها

من كيانٍ هو في يُنبوعها ... وإباءٍ هو في صُمّ صفاها

---

(١) جلل الصبح : كساه وعطي ضوءه . (٢) اللحمة : ما سدي به الثوب ، والسدى ضد اللحمة .
(٣) يحسر الابصار : اي يردها كليلة ضعيفة .

لُقّنَ الحقَّ عليه كَهْلُها ... واستقى الايمانَ بالحق فتاها
حمَلَتْه ذمّةً اوفى بها ... وابتلَتْه بحقوقٍ فقضاها
ابن سبعينَ تلقّى دونَها ... غُربَةَ الاسر ووعثاءَ نواها

. . . . .

في نَعيم الله نفسٌ اوتيتْ ... أنعُمَ الدنيا فلم تنس تُقاها
لا الحِجى لما تناهى غرّها ... بالمقادير ولا العلمُ زَهاها
ذهبتْ أوّابَةً مُؤمنةً ... خالصاً من حيرة الشك هُداها
آنَسَتْ خَلْقاً ضعيفاً ورأتْ ... من وراءِ العالَمِ الفاني إلهَا
ما دعاها الحقُّ إلاّ سارعتْ ... ليتَهُ يوم «وصيفٍ» ما دعاها

***

المديح :

السلطان حسين كامل

الملك فيكم آلَ اسماعيلَ ... لا زال بيتُكُمُ يُظلُّ النيلا
لَطفَ القضاءِ فلم يُمِلْ لوليكم ... ركناً . ولم يشفِ الحسودَ غليلا (١)
هذي اصولُكُم وتلك فُروعُكم ... جاء الصميمُ من الصميمِ بديلا (٢)
الملكُ بين قصوركم في داره ... من ذا يريد عن الديار رحيلا ؟

---

(١) فلم يمل « بضم الياء وكسر الميم » : من امال الشيء جعله مائلاً . الغليل : الحقد والحسد .
(٢) الصميم : الخالص الاصيل ، يقال هو من صميم القوم اي من اصلهم وخالصهم .

(عابدين) شرّفَ بابنِ رافعِ رُكنِه ... عزّاً على النجم الرقيع وطولا (١)

ما دام مغناكم فليس بسائلٍ ... أحوى فروعاً ام اقلّ اصولا (٢)

انتم بنو المجدِ المؤثّلِ والندى ... لكمُ السيادةُ صيبةً وكهولا (٣)

النيل إن احصى لكم حسناتكم ... ملأ الزمانَ محاسناً والجيلا

احيا ابوكم شاطئيه وابتنى ... مجداً لمصرَ على الزمان أثيلا (٤)

نشر الحضارةَ فوق مصرَ وسوريا ... وامتدّ ظلاً للحجاز ظليلاً

وأعادَ للعرب الكرام بيانَهم ... وحمى الى البيت الحرام سبيلا (٥)

حفظَ الالهُ على الكنانة عرشها ... وادام منكم للهلال كفيلا (٦)

بنيانُ «عمرو» أمّنتْه عنايةٌ ... من أن يُزعزعَ ركنُه ويميلا (٧)

وتدارك الباري لواءَ «محمد» ... فرعى له غُرراً وصان حجولا (٨)

اللهُ ادركه بكم وبأمةٍ ... كالمسلمين الاولين عقولا

* * *

---

(١) عابدين : اسم القصر الذي يتوج فيه امراء مصر وملوكها ويتخذونه مقراً لهم حين رعاية شؤون الدولة . والمراد بان رافع ركنه الامير حسين كامل ورافع ركنه هو الخديوي اسماعيل .

(٢) المغنى : المنزل .

(٣) المؤثل : الاصيل .

(٤) الاثيل : الاصيل ايضاً .

(٥) يشير في هذين البيتين الى ما فعله محمد علي الكبير من فتح الشام ومحاربة الوهابيين في الحجاز .

(٦) الكنانة : مصر .

(٧) عمرو : هو القائد الاسلامي عمرو بن العاص فاتح مصر بعهد الخليفة عمر بن الخطاب .

(٨) محمد : هو محمد علي الكبير . الغرر : جمع غرة وهي بياض في جبهة الفرس قدر الدرهم . والحجول : جمع حجل وهو بياض في قوائم الفرس .

قبر شوقي :

شهادة الدراسة - وشهادة الحياة

مابال الناشيء وصل اجتهاده ، حتى حصل على الشهادة . فلما كحل بأحرفها عينيه ، وظفرت بزخرفها كلتا يديه ؛ هجر العلم ورُبوعه ، وبعث الى معاهده بأقطوعة (١) ؛ طوى الدفاتر ، وترك المحابر . وذهب يخايل (٢) ويفاخر ، ويدّعي علم الأوّل والآخر ؟

فمن يُنبيه (٣) بارك الله فيه ، لأبيه ، وجزى سعيَ معلمه ومربيه : ان الشهادة طرفُ السبب (٤) ، وفاتحةُ الطلب ؛ والجواز (٥) الى اقطار العلم والأدب . وأن العلم لا يملك بالصُّكوك والرّقاع (٦) وان المعرفة عند الثقات غير وثائق الاقطاع (٧) . ومن يقول له ارشده الله : إن شهادة المدرسة غيرُ شهادة الحياة ؟

فياناشيءَ القومِ بلغت الشباب ، ودفعت على الحياة الباب ، فهل تأهّبتَ للمعمعة (٨) وجهّزت النفس للموقعة ، ووطّنتها (٩) على الضيق بعد السّعة ، وعلى شظف العيش بعد الدّعة ؟ دعت الحياة نزال (١٠) ، فهلم اقتحم المجال ، وتوردّ القتال (١١) ، اعانك الله على الحياة ، إنها حربٌ فجاءات وغدرٌ وبيات (١٢) ، وخداع من الناس ومن الحادثات . فطوبى (١٣) لمن شهدها كامل الادوات ، موفور المُعدّات . سلاحه صلاحه ؛ وترسُه

---

(١) الاقطوعة : شيء تبعث به الجارية الى الاخرى علامة المقاطعة والخصام . (٢) خايل زميله : باراه وفاخره . (٣) اي يخبره . (٤) السبب هو الحبل وطرف السبب يراد به مبدأ الحياة . (٥) الجواز : علامة المرور وصك المسافر . (٦) الصك : الكتاب والجمع صكوك . والرقاع : جمع رقعة وهي القطعة المكتوبة من الورق . (٧) الاقطاع : ان يجعل الامير غلة البلد للجند . (٨) المعمعة : صوت الابطال في الحرب . (٩) وطن نفسه على الامر وله مهدها لفعله وحملها عليه . (١٠) اسم فعل امر بمعنى انزل . (١١) تورد الماء : ورده . (١٢) البيات : الايقاع بالعدو ليلاً . (١٣) شجرة من الشجر ، كما يقال ، وهي الجنة عند الهنود .

درسه ، ويَلَبُه (١) ادبُه ، وصَمْصامتُه (٢) استقامته ، وكنانتُه (٣) امانتُه ، وحَرْبته دُرْبته (٤) .

(اسواق الذهب ص : ٥٩)

* * *

مصادر البحث

احمد شوقي	الشوقيات ـــ ثلاثة اجزاء	مطبعة مصر	
الامير شكيب ارسلان	شوقي او صداقة اربعين سنة	مطبعة الحلبي	مصر ١٩٣٦
عباس محمود العقاد	ساعات بين الكتب	« المقتطف	١٩٢٩
« « «	شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي	« حجازي	١٩٣٧
طه حسين	حافظ وشوقي	المطبعة التجارية	
اسماعيل مظهر	تاريخ الفكر العربي	مطبعة العصور	١٩٢٨
احمد عبيد	ذكرى الشاعرين	« الترقي	١٣٥٢

---

(١) اليلب : الدروع اليمانية .

(٢) الصمصام والصمصامة : السيف الذي لا ينثني .

(٣) الكنانة : جعبة السهام .

(٤) الدربة : الاختبار والتجربة .

الفهرست

صفحة

مقدمة الكتاب

٥ الشعر في العصر الجاهلي « التوطئة »

٨ **زهير بن ابى سلمى :** نسبه ، نشأته ، اخلاقه من شعره ، وفاته ، شعره ، الفن في شعره ، اغراضه الشعرية : نسيبه ، مديحه ، حكمه ، هجاؤه ، تحذيره ، ملاحظات عامة ، المعلقة ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

٤٩ عصر البلاغة النبوية « التوطئة »

٥٤ **على بن ابى طالب :** حياته ، صفاته ، ادبه وبلاغته ، قدرته على الخطابة والبيان ، كتابته ، حكمه في خطبه وكتاباته ، آراؤه ، رأيه في الخالق ، رأيه في المؤمن ، ارشاداته ونصائحه ، رأيه في السياسة والحكومة والقضاء ، رأيه في المرأة ، اثر الامام في الادب العربي ، آثاره الشعرية والنثرية ، خطب منتخبة ، مصادر البحث .

٧٨ كتاب نهج البلاغة: التعريف بالنهج ، نسبته ، آراء القدماء ، آراء المحدثين ، رأي المؤلفين .

٩٦ الشعر في عصر النبوة « التوطئة »

٩٩ **حسان بن ثابت :** حياته ، اخلاقه ، شعره ، اغراضه الشعرية : الخمر ، الوصف ، الفخر ، المديح ، الهجاء ، الرثاء ، شعره بعد الاسلام ، هجاؤه ، فخره ، رثاؤه ، مكانته في الادب العربي ، ديوانه ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

صفحة

١٤٠ الشعر في العصر الاموي « التوطئة »

١٤٤ الاخطل : اسمه ولقبه ، حياته ، الاخطل وبنو امية ، الاخطل وجرير ، الاخطل والفرزدق ، شعره : المديح ، الهجاء ، الفخر ، الوصف ، الخمر ، مكانته في الادب العربي ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

١٨٢ نشأة النثر الفني وتطوره « التوطئة »

١٨٨ ابن المقفع : حياته ونشأته ، مصرعه ، اخلاقه ، آراؤه الاجتماعية : رأيه في السلطان وحاشيته ، رأيه في العمال والقضاة والجند ورجال المال ، رأيه في عامة الشعب ، مذهبه الاخلاقي ، رأيه في العقل والاخلاق والتعلم والصداقة والمرأة والزهد وآداب المجالسة ، مصادر ثقافته ، ادبه ، طريقته ، مكانته في الادب العربي ، آثارها وتحليلها ، مختارات من ادبه ، مصادر البحث .

٢٤٤ الشعر في العصر العباسي « التوطئة »

٢٥٦ البحتري : حياته ، اخلاقه ودينه ، ثقافته ، شعره ، صنعته ، اغراضه الشعرية : المديح ، الهجاء ، الرثاء ، الغزل ، الوصف ، العتاب ، الحكمة ، الفخر ، سرقاته ، مكانته في الادب العربي ، ديوانه وآثاره ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

٣١٣ ابن الرومي : حياته ، مصرعه ، مزاجه واخلاقه ، طبرته ، عقيدته ، ثقافته العقلية ، شعره : اغراضه الشعرية ، الهجاء ، الوصف ، الرثاء ، الغزل ، المديح ، العتاب ، الاستعطاف ، التهاني ، فلسفته ، مكانته في الادب العربي ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

٣٦٩ ابو فراس الحمدانى : حياته ، نفسه ، ثقافتـه ، شعره : الفخر ، الحماسة ، الرثاء ، الغزل ، الوصف ، المديح ، سرقاته ، ديوانه ، مكانته في الادب العربي ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

٤٠٣ الشريف الرضى : حياته ، نفسه ، ثقافته ، ادبه ، شعره ، اغراضه الشعرية : المديح ، الفخر ، الرثاء ، الغزل والحجازيات ، الوصف ، الحكمة ، مكانته في الادب العربي ، ديوانه ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

٤٥٥ الشعر قبل شوقي « التوطئة »

٤٦٠ شوقى : حياته بقلمه ، اخلاقه ، ثقافته ، ادبه ، شعره ، اغراضه الشعرية : الشعر السياسي ، الشعر الاجتماعي ، الشعر التعليمى ، الوصف ، الغزل ، المديح ، الرثاء ، شوقي والمسرح الغربي ، رواياته ، كليوباترة ، المجنون ، قمبيز ، علي بك الكبير ، اميرة الاندلس ، عنترة ، مكانته في الادب العربي ، آثاره ، مختارات من شعره ، مصادر البحث .

شكر واعتذار

الحمد لله ، ثم الحمد لله . وبعد فقد نجز كتابنا (الادباء العشر) ، ولا بد لنا من شكر الذين اسدوا الينا معونتهم ، وخاصة الزميل السيد عزة الحافظ الذي لم يألُ جهداً في مساعدتنا ، كما نخص بالشكر السيد عطا مكي صاحب المكتبة العمومية ، الذي اقدم على نشر هذا الكتاب في مثل هذه الاوقات العصيبة . كما اننا نشكر السيد عبد العزيز الموصلي صاحب مطبعة الثبات ، وعماله الذين بذلوا الجهود العظيمة في اخراج الكتاب بمثل هذه السرعة . ونعتذر اخيراً عن الاخطاء المطبعية التي لا تخفى على لبيب والتي لا يخلو منها كتاب .

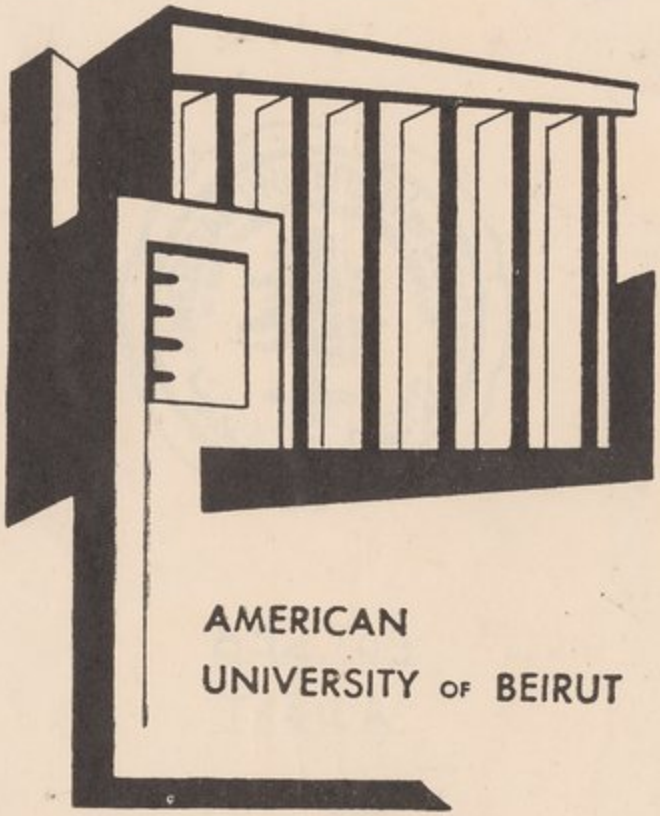
ولا بد لنا في الختام من ارشاد الذين انتقدوا عنوان كتابنا الى مراجعة بحث العدد في حاشية ابن عقيل على شرح ألفية ابن مالك ، و كتاب اوضح المسالك للشيخ المراغي ، فان فيهما نصاً عزيز النقل ، فليحفظوه .

والله سبحانه المسئول ان يسدد خطواتنا

الجمعة ٢١ ـ ٢ ـ ٤١

المؤلفان

الادباء العشر ...
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01034903



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT